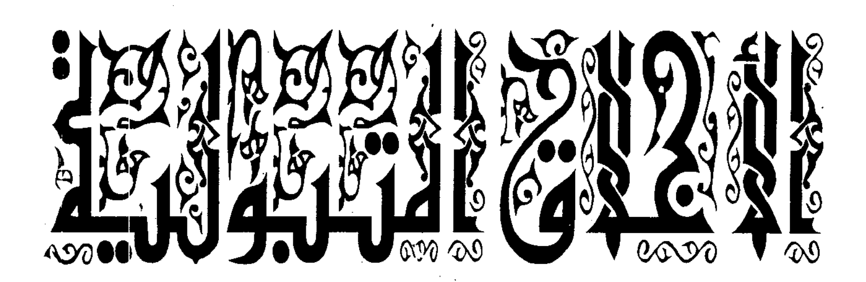


للعارف بالله

الإمام عبد الوهاب الشعرانى

رضى الله عنــــه

تقديم وتحقيق وتعليق

للأستاذ الدكتور

منيع عبد الحليم محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

وعميد كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر بالقاهرة

الجزء الثاني

مكتبة الإيمان

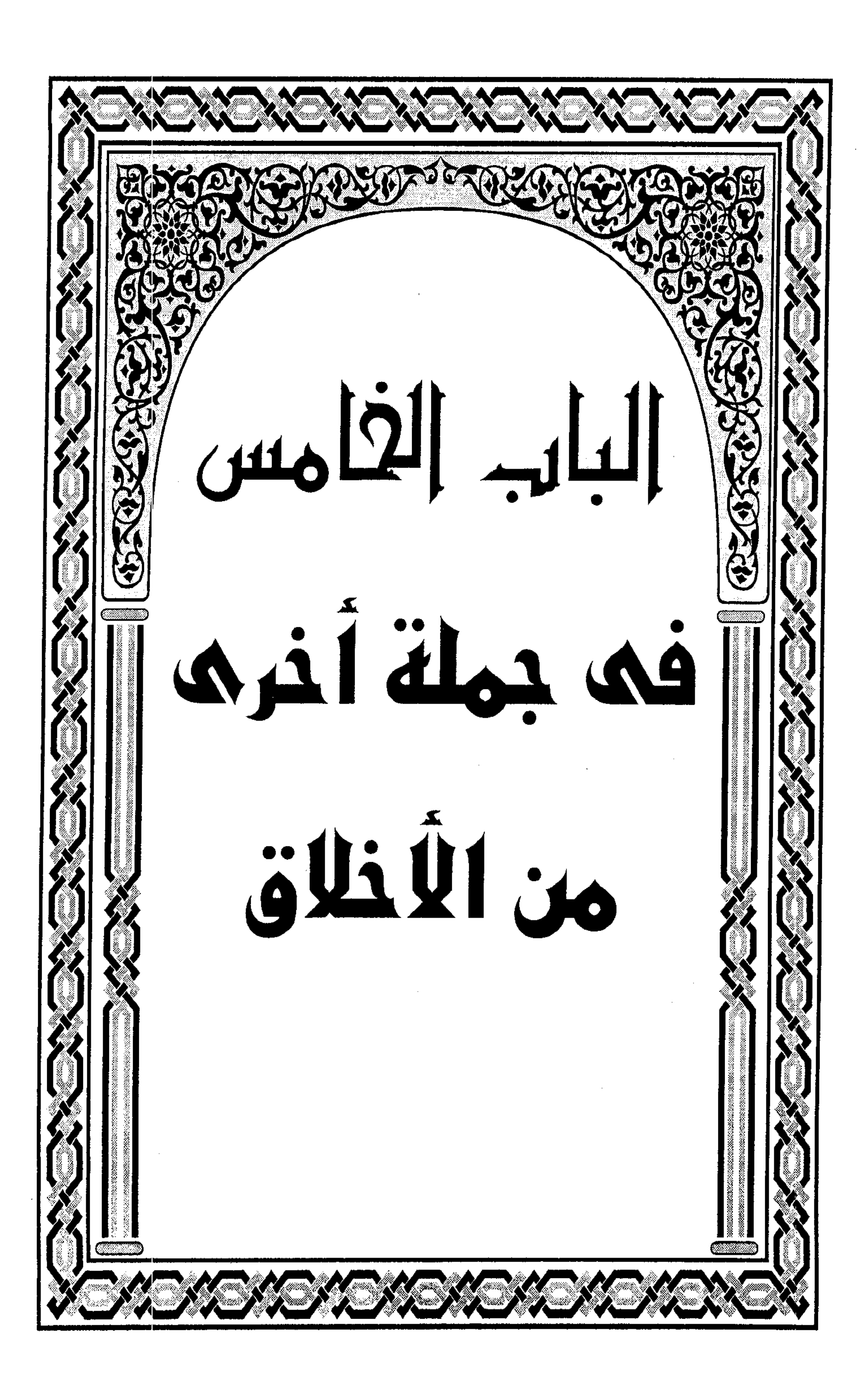
للطباعة والنشر والتوزيع

٤ ش أحمد سوكارنو – العجوزة

ت : ٣٤٥٢٣٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ﴾



الباب الخامس

فى جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : مبادرتهم ببادي الرأي إلي النظر في حكمة المعاصي إذا وقعت ولا يعترضون إلا بعد النظر في حكمة الأفعال

عكس ما عليه غيرهم فيبادر أحدهم إلى الإنكار ولا يكاد يعذر العاصى مثلا إلا بعد تفكر وتأمل طويل .

وقد قال أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه :

خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط ، ولا لشئ صنعته لم صنعته ، ولا لشئ تركته لم تركته .

أى لأنه وقع وانقضى وما بقى على الداعى إلا إقامة الحدود الشرعية ان كان فيها حدودا والتأديب مثلا .

فاعرض يا أخى حكمة وقوع ذلك الفعل أدبا مع الله تعالى ليقل إعتراضك على المقادير الالهية ثم اعترض باعتراض الشرع والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم معاتبة أحد من اخوانهم

إذا دعوه إلى وليمة ولم يحضر أو مرض فلم يعودوه أو عمل مهما ، فلم يساعدوه لا بأنفسهم ولا بمالهم إلا لغرض صحيح كتنبيههم على نقص فيهم فى ترك مساعدتهم إخوانهم ، وتفويتهم الخير على أنفسهم لأجله ، فإن من شرط الفقير أن يرفع كلفته عن الناس بحسب الطاقة .

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين رضى الله تعالى عنه إذا عمل مولدا أومرض يقول: اللهم انس أصحابى ذلك ، حتى أفرغ من عمل المولد أو أشفى من المرض خوفا من كلفتهم لأجله .

ومن أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان يكتم الجوع عن أصحابه ، وكانوا لا يعرفون ذلك منه إلا بصفرة وجهه ﷺ ، وتعصيبه بطنه بعصابة فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : شهودهم في نفوسهم انهم دون مريديهم

لأن المريد شيخ شيخه بالحال[١] وغاية الشيخ انه شيخه بالقال ومعلوم أن الحال أبلغ من القال .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من شرط الشيخ أن لا يرى لنفسه مدخلا فى هداية الناس إلا على وجه الدلالة فقط

قال : ومحل ذلك أن لا يفرق بين كون ذلك المريد مريدا له أو مريدا لغيره ، ومتى فرق بينهما ، فهو يدعوا الناس بحظ نفسه لا محبة فى ظهور شرع الله عز وجل ، فان الهداية حيث ما حصلت أو الشعار حيث ما حصل ، وقام ، فهو المقصود لكل داع بقطع النظر عن كون ذلك على يده أو يد غيره ، وهذا الخلق يخل به كثير من الفقرا وربما ترافعوا إلى الحكام ، وطلب كل واحد منهم أن يختص بذلك المريد .

وقد قالوا : المريد لمن يريد .

فاعلم ذلك وامش على قواعد الأشياخ والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم محبة إقامة الفقرا عندهم في الزاوية ليذكروهم بالله تعالى بقراءتهم وذكرهم وعباداتهم لا لغرض من الأغراض النفسانية

وفى ذلك اتباع السنة المحمدية ، فإن أهل الصفة كانوا عنده ﷺ فى المسجد لايلوون على أهل ، ولا مال إنما هم جالسون للعبادة فقط .

وكان إذا جاءه ﷺ صدقة بعثها إليهم ، ولم يتناول منها شيئا ، وإذا جاءه هدية أرسلها إليهم وأصاب منها وسيأتى ذلك فى الباب الحادى عشر إن شاء الله تعالى .

(١) يقول الإمام القشيرى فى تعريف الحال :
والحال عند القوم : معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم ، من طرب ، أوحزن، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو انزعاج أو هيبة ، أو إحتياج .
فالأحوال : مواهب ، والمقامات : مكاسب .
والأحوال تأتى من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود .
وصاحب المقام ممكن فى مقامه ، وصاحب الحال منزق عن حاله .
وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ، ودوامها ، وقالوا : إنها إذا لم تدم ، ولم تتوال فهى لوائح وبواده ، ولم يصل صاحبها بعد إلى الأجوال ، فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمى «حالا» .

ولا يخفى أن الفقراء فى إقامة المجاورين عندهم على أقسام :

فمنهم من له حرفة أو رزقه فينفق على الفقراء منها .

ومنهم من كان على ما يفتح الله تعالى ، كسيدى يوسف العجمى ، وسيدى أبى الحسن الشاذلى ، فإنهما كان يقولان :

لا تربى أصحابنا على الاعتماد على الأساليب ، وإنما تربيهم على التوكل[(١)] ، وقد عرض الملوك عليهما الرزق والمرتبات ، فلم يجيبا إلى ذلك ، فكان سيدى أبو الحسن يشتغل هو وأصحابه بالعبادة ولا يسلون الناس شيئا .

وكان سيدى يوسف العجمى يسأل هو وأصحابه الناس ، فكان كل يوم على فقير ، وكان سيدى عثمان الحطاب يسأل الناس والأمراء ، ويطلع للسلطان قايتباى يسأل للفقرا القمح والأرز والثياب ، فقال له السلطان يوما :

أطلق هؤلاء الذين عندك تسترح منهم .

فقال له : فأطلق أنت الآخر هؤلاء المماليك تسترح منهم .

فقال : هؤلاء عسكر الإسلام .

فقال : وهؤلاء عسكر القرآن .

فتبسم السلطان ، وأعطاه ما طلب .

فحرر يا أخى النية الصالحة فى جمع الناس عندك ، ولا نطعمهم لا حلالا بحسب رتبتهم فى كل عصر ، وما أرى التعفف عن السؤال لك ولهم إلا أفضل ولو كان مشهدك أن المعطى هو الله تعالى لا عباده ، فإنها هى الطريق التى درج عليها الشيخ الجنيد وأصحابه اللهم إلا أن يكون للفقير السائل حال يحميه عن ازدراء الناس له بالسؤال فهذا لا بأس به وعليه حمل حال سيدى يوسف العجمى وغيره والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول سهل بن عبد الله : علامة التوكل ثلاث :
لا يسأل ، ولا يرد ، ولا يحبس .
وقال رجل لحاتم الأصم :
من أين تأكل ؟
فقال : « ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون » .
وقال حمدون : التوكل هو الإعتصام بالله تعالى .
وقال سهل بن عبد الله : أول مقام فى التوكل : أن يكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت، بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولاتدبير .
يقول الإمام القشيرى : واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شئ فبتقديره ، وإن اتفق فبتيسيره .

ومن أخلاقهم شهودهم إطلاق إسم الفسق اللغوي عليهم في جميع أحوالهم

فلا يخرجون أنفسهم عن الفسق المذكور فى ساعة من ليل أو نهار لأن أحدهم لا يخلوا من أمرين :

إما أن يكون فى فعل مكروه ، فالأمر ظاهر .

وإما إن يكون فى فعل محمود ، فهو يشهد نقصه فيه عما أمر به .

وقد قالوا :

الفسق فى اللغة : هو الخروج يقال : فسقت النواة إذا خرجت من قشرتها ، ومن خرج عن السنة المحمدية قيد شبر مثلا فى ملبسه أو مأكله أو نومه أو عباداته أو غير ذلك عن جميع أحواله الشرعية ، فقد انسحب عليه إسم الفسق اللغوى ، فأى عبد يدعى سلامته من هذا الفسق ، فإنه أعز من الكبريت الأحمر ، ولكن إذا كمل حال الفقير صار يشهد الكمال النسبى والنقص فى آن واحد بعين واحدة أو أعين كما يعرف ذلك من ملك الطريق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم رضاهم عن الله تعالي إذا ناموا عن وردهم بالليل مثلا وشكرهم له حيث أنامهم في عافية لأبدانهم

وذلك لأن لا تخلو أنفسهم من أدب العبودية فى وقت من الأوقات ، فلما فاتتهم أعمال العبودية من حيث التهجد مثلا تداركوها من حيث نعمة النوم عليهم ، فإنها من أعظم النعمة فكان شكرهم لله تعالى من هذه الحيثية كالجبر للثواب الذى فاتهم من جهة ترك التهجد مثلا ، فلذلك كانوا يستغفرون من النوم ، ويشكرون عليه من جهتين مختلفتين فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم التكدر ممن بلغهم عنه أنه ينفيهم عن طريق الصوفية

ويقول : إن هؤلاء نصابون كذابون بل يرون أن من شهد لهم أنهم من الصوفية كذاب ، ويتكدرون منه غيرة علي القوم من أن يقال بأن أحدهم علي مقام أحد منهم ، وكل صادق يري مقامه بعيدا عن مقام الصوفية أبعد مما بين السماء والأرض .

وكان سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالي إذا بلغه أن أحدا أخرجه عن طريق الفقراء يقول :

والله إن هذا قلبه نير الذي عرف خبث باطني فأين خوفي من خوف القوم ، وأين الورع من الورع ، وأين الزهد من الزهد ، وأين العلم من العلم ، وأين العمل من العمل .

وقد تقدم في هذا الكتاب عن سيدي عبد الله المنوفي صاحب الكرامات والتلامذة الأجلاء منهم الشيخ خليل صاحب المختصر ان ناظر خانقاه سعيد السعدا دعاه إلي الإقامة بها فأبي ، وقال :

إن واقفها شرط خلاويها وخبزها للصوفية ، وأنا لست بصوفي فانظر يأخي إلي نظر العارفين وظنهم فى نفسهم واتبع طريقهم .

وقد رأيت من جمع له رسالة ملفقة من كلام الشيخ محي الدين ومن الإحياء للغزالى ، وكتب اسمه عليها وظن انه صار من الصوفية فقلت له :

إتخذ لك شيخا يعرفك الطريق فعادانى سنين إلى وقتى هذا ، وقد سألته عن بعض مسائل فى مختصر أبى شجاع ؟.

فقال : أنا ما قرأت فى الفقه .

فقلت له : الفقه أساس الطريق ، ولا يصح بناء على غير أساس انتهى .

وقد كان سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى يقول :

كل من ادعى انه من أهل الطريق ، وهو يعجز عن استنباط شئ من الشريعة ، وأداب القوم من الكتاب والسنة ، فهو مدع كذاب .

وقد قال شخص من العلماء لأبى القاسم الجنيد رحمة الله تعالى : أى فايدة لقراءة حكاية أحوال القوم ؟.

فقال : تثبت المريدين على محبة الطريق .

فقال له : العالم ماالدليل على ذلك من القرآن ؟.

فقال قررا الدليل : على ذلك قوله تعالى : «وكلانقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك[1]» .

فقال له العالم : قد صلح تلقيبك بالاستاذ ، فاشتهر بتلقيبه بالاستاذ من ذلك اليوم فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة هود آية : ١٢٠ .

ومن أخلاقهم : تسليمهم لكل من ادعى انه أعطي مقام الكشف[١]

ولكنه تنزه عنه وسأل الله فى إزالته ، حتى أزال ، ثم إن كان كاذبا ، فكذبه يرجع عليه ، وإن كان صادقا فقد صدقناه .

وكذلك نسلم لكل من ادعى مقام المراقبة ونحوه من مقامات الباطن .

---

(١) يقول الإمام القشيرى فى مقام الكشف :

المحاضرة : إبتداءاً ثم المكاشفة ، ثم المشاهدة :

فالمحاضرة : حضور القلب . وقد يكون بتواتر برهان ، وهو بعد وراء الستر وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر.

ثم بعده : المكاشفة : وهو حضوره بنعت البيان . غير مفتقر فى هذه الحالة إلى تأمل الدليل ، وتطلب السبيل ، ولا مستجير من دواعى الريب ، ولا محجوب من نعت الغيب .

ثم : المشاهدة : وهى حضور الحق من غير بقاء تهمة .

فإذا أصحت سماء السر عن غيوم الستر ، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف .

وحق المشاهدة ما قاله الجنيد ، رحمه الله : وجود الحق مع فقدانك .

ومن ذلك : اللوائح ، والطوالع ، واللوامع .

قال الأستاذ رضى الله عنه :

هذه الألفاظ متقاربة المعنى ، لا يكاد يحصل بينها كبير فرق . وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى الترقى بالقلب ، فلم يدم لهم بعد ضياء شموس المعارف . لكن الحق سبحانه وتعالى ، يؤتى رزق قلوبهم فى كل حين كما قال : «ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا» ، فكلما أظلم عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنح لهم فيها لوائح الكشف ، وتلألأ دامع القرب . وهم فى زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح .

فهم كما قال القائل :

يا أيها البرق الذى يلمع *** من أى أكناف السما تسطع

فتكون أولا : لوائح ، ثم لوامع ثم طوالع .

فاللوائح كالبروق ، ما ظهرت حتى استترت ، كما قال القائل :

افترقنا حولا فلما التقينا *** كان تسليمه على وداعا

وأنشدوا :

ياذا الذى زار ومـا زارا *** كـأنه مـقـتـبس ناراً
مر بباب الدار مستعجلا *** ما ضره لو دخل الدارا

واللوامع : أظهر من الوائح . وليس زوالها بتلك السرعة ، فقد تبقى اللوامع وقتين وثلاثة .

ولكن كما قالوا :

والعين باكية لم تشبع النظرا

وكما قالوا :

لم ترد ماء وجهه العين إلا *** شرقت قبل ريها برقيب

فإذا لمع قطعك عنك ، وجمعك به ، لكن لم يسفر نور نهاره حتى كر عليه عساكر الليل ، فهؤلاء بين روح ونوح ؛ لأنهم بين كشف وستر .

كما قالوا :

فالليل يشملنا بفاضل برده *** والصبح يلحقنا رداء مذهبا

والطوالع : أبقى وقتا ، وأقوى سلطان ، وأدوم مكثا ، وأذهب للظلمة ، وأنفى لتهمة ، لكنها موقوفة على خطر الأفول ، =

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

لا ينبغى لفقير أن يدعى مقام الكشف ، وأنه تنزه عنه ، وسأل الله تعالى الحجاب فيه إلا إن كان صادقا ، فإن النفس ، ربما تلبس على صاحبها فى ادعائها المقامات الباطنة .

= لبست برفيعة الأوج ، ولابدائمة المكث . ثم أوقات حصولها وشيكة الإرتحال ، وأحوال أفولها طويلة الأذيال .
وهذه المعانى ، التى هى : اللوائح واللوامع والطوالع ، تختلف فى القضايا ، فمنها ما إذا فات لم يبق عنها أثر كالشوارق إذا أفلت فكأن الليل كان دائما .
ومنها ما يبقى عنه أثر ، فإن زال رقمه بقى ألمه ، وإن غربت أنواره بقيت آثاره . فصاحبه بعد سكون غلباته يعيش فى ضياء بركاته ، فإلى أن يلوح ثانيا يرجى وقته على انتظار عوده ، ويعيش بما وجد فى حين كونه .
ومن ذلك : البواده والهجوم .
البواده :
ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، إما موجب فرح ، وإما موجب ترح .
والهجوم :
ما يرد على القلب بقوة الوقت ، من غير تصنع منك .
ويختلف فى الأنواع على حسب قوة الوارد وضعفه .
فمنهم من تغيره البواده ، وتصرفه الهواجم .
ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة . أولئك سادات الوقت . كما قيل :

لا تهتدى نوب الزمان إليهم *** ولهم على الخطب الجليل لجام

ويشرح لنا الإمام الغزالى حالة الكشف فيقول :
شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى إكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد .
إعلم : أن من انشكف له شئ ، ولو الشئ اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب ، من حيث لايدرى ، فقد صار عارفا بصحة الطريق ، ومن لم يدرك بنفسه قط ، فينبغى أن يؤمن به ، فان درجة المعرفة فيه عزيزة جداً.
ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات أما الشواهد فقوله تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهى بطريق الكشف والإلهام .
وقال ﷺ :
« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار » .
وقال الله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » من الإشكالات والشبه « ويرزقه من حيث لا يحتسب » قيل : يعلمه من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة .
وقال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات .
ولذلك كان ﷺ يكثر فى دعائه من سؤال النور . فقال عليه الصلاة والسلام :
« اللهم أعطنى نوراً ، وزدنى نوراً ، واجعل لى فى قلبى نوراً ، وفى قبرى نوراً ، وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا » حتى قال « فى شعرى وفى بشرى ، وفى لحمى ، ودمى ، وعظامى » .
وسئل ﷺ عن قول الله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه » : ما هذا الشرح ؟ فقال: « هو التوسعة ، إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح » .
وقال ﷺ لابن عباس : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .
وقال على رضى الله عنه : ما عندنا شئ ، أسره النبى ﷺ ، إلينا أن يؤتى الله تعالى ، عبدا فهما فى كتابه ، وليس هذا بالتعلم . =

ويقول : إنا الناس لا ينازعونك فى مثل ذلك لعدم اطلاعهم عليه ، وربما صار أحدهم يقول لأصحابه إذا قالوا له فلان كاشف الباشاه بكذا ، وصح أن هذا أمر حصل

= وقيل فى تفسير قوله تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء) إنه الفهم فى كتاب الله تعالى .
وقال تعالى : (ففهمناها سليمان) خص ما انكشف باسم الفهم .
وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق ، والله إنه الحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم .
وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة .
وقال ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » .
وإليه يشير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » .
وقوله تعالى : قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .
وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « العلم علمان فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع » .
وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ماهو ؟ فقال : هو : سر من أسرار الله تعالى ، يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشراً .
وقد قال ﷺ : « إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين ، وإن عمر منهم » .
وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى » ولا محدث : يعنى الصديقين .
والمحدث هو الملهم ، والملهم : هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسات الخارجة .
والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم .
وقال الله تعالى : « إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » خصصها بهم .
وقال تعالى : (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) .
وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب ؛ فإذا نسى ماحفظه صار جاهلا ، وإنما العالم يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وعلمناه من لدنا علما) مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضه بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علما لدنيا ، بل اللدنى : الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل .
ولو جمع كل ما ورد من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .
وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر ، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم .
وقال أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته :
إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكائن قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا سارية الجبل . إذ انكشف له : أن العدو ؛ قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .
وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه – وكنت قد لقيت إمرأة فى طريقى ، فنظرت إليها شزرا ، وتأملت محاسنها – فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت عليه : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه !! أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك ، فقلت : أوحى بعد النبى ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة .
وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كل على النار ، فنادانى وقال : والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » ثم غاب عنى ولم أره .
وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قمت قلت فى نفسى : من يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بى ، يا أبا العباس، رد هذه الهمة الدنية . فإن لله تعالى ألطافا خفية . =

لنا من أيام الطفولية ، وسألنا الله تعالى فى الحجاب عنه . فإنه من أحوال الناقصين المبتدئين فى الطريق ، والحال انه لم يعط مقام الكشف قط بل هو باق على ظلمة قلبه

= النص الثالث : دليل الكشف :

والدليل القاطع (على الكشف) الذى لايقدر على جحده أمران :

أحدهما : عجاب الرؤيا الصادقة ، فإنه يتكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة ، فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسات ، فكم من مستيقظ غائص ، لا يسمع ولا يبصر لا شتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن ، وإذا جاز ذلك للنبى ﷺ ، جاز لغيره إذ النبى : عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل باصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبيا ، بل يسمى وليا .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لامحالة ، أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى الخارج ، وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب : وهو باب الإلهام والنفث فى الروع ، والوحى .

فاذا أقر بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه .

فهذا ما ينبه على حقيقة ماذكرناه : من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت .

وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ماذكرناه ، فانه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها فقد قال بعض المكاشفين :

ظهر لى الملك ، فسألنى أن أملى عليه شيئا من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد وقال : ما نكتب لك عملا ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل .

فقلت : ألستما تكتبان الفرائض ؟

قالا : بلى .

قلت : فيفيكما ذلك .

وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين ؛ لا يطلعون على أسرار القلب ، وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة .

النص الرابع : الفرق بين العلم النظرى والعلم الكشفى :

فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الإقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض ، ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ ، كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض ؛ وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فاذن للقلب بابان :

باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة .

وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة .

وعالم الشهادة والملك أيضاً ، يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة .

فاما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس ، فلا يخفى عليك .

وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينا : بالتأمل فى عجائب الرؤيا، واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل ، أو كان فى الماضى ، من غير اقتباس من جهة الحواس .

وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى .

قال ﷺ : « سبق المفردون » .

قيل : ومن هم المفردون يا رسول الله ؟

لأن ملكوت السموات لا يفتح بابه لمن بقى عليه من الدنيا شهوة واحدة حلال ، فكيف يصح الكشف ممن يأكل من أطعمة الظلمة والمكسين ، وطعام من يتورع فى مكسبه هذا أبعد من البعيد والحمد لله رب العالمين .

• • •

= قال : (المتنزهون بذكر الله تعالى ، وضع الذكر عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافا) .
ثم قال فى وصفهم إخباراً عن الله تعالى : « ثم أقبل بوجهى عليهم ، أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شئ أريد أن أعطيه ؟ » .
ثم قال تعالى : « أول ما أعطيهم : أن أقذف النور فى قلوبهم ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم » .
ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن .
فاذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء الحكماء هذا ، وهو أن علومهم ، تأتى من داخلا لقلب ؛ من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك .
النص الخامس : الجود الإلهى :
معلومات الله سبحانه لا نهاية لها ، وأقصى الرتب رتبة النبى ، الذى تنكشف له الحقائق ، من غير اكتساب ولا تكلف ، بل بكشف إلهى فى أسرع وقت .
وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة .
ومراقى هذه الدرجات : هى منازل السائرين إلى الله تعالى ، لا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه ، فيعرفه ويعرف ماخلفه من المنازل فاما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب كما أنا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقية النبوة إلا النبى .
وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز ، حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته :
« ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها » .
وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال ﷺ :
« إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » .
والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، كما سيأتى بيانه .
وإلى هذ الجود الإشارة بقوله ﷺ :
« ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : هل من داع ، فأستجيب له ؟ »
وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل :
« لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقا » .
وبقوله تعالى :
(من تقرب إلى شبراً ، تقربت إليه ذراعا) .
كان ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا . ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب ، فان القلوب كالأوانى، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله ﷺ .
(لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء) .
ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان : العلم والحكمة . وأشرف أنواع العلم ، هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فيه كمال الإنسان ، وفيه كمال سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلالة والكمال .

ومن أخلاقهم : عدم إنكارهم علي من عمل شيخا وصار ينزل بلاد الريف ويأخذ العهد علي الفلاحين بالوضوء والصلاة أسوة أمثالهم فقط من غير أن يرقيهم إلي معرفة آداب الطريق كما عليه المطاوعة

لأنه فعل خيرا على كل حال ، وقد برز شخص من الفقرا على هذا القدم ، فلاث الناس بعرضه ، وما كان يجوز لم ذلك بل كان الواجب عليهم مدحه على ذلك ، لأنه قام بفرض كفاية عن الفقراء والفقهاء .

وكذلك لا يجوز حمله على أنه إنما يفعل ذلك ليصير المريدون يفتقدونه بالهدايا من لبن وكعك ، وغير ذلك ، فإن ذلك سوء ظن بالمسلمين ، وهو حرام بالإجماع فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

● ● ●

ومن أخلاقهم : إذا دخل عليهم إنسان وأحدهم يمزح مزحا مباحا أن يتموه ولا يقطعوه لأجل ذلك الداخل إلا بنية صالحة

لأن خرق ناموسهم عند من يستحى منه أولى من ارتكابهم صفة النفاق .

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول :

لو قيل لى إن أمير المؤمنين داخل عليك الساعة ، فسويت بيدى لدخوله لخفت أن أكتب فى جريدة المنافقين .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إذا دخل على أحدكم أمير ، وفى يده سبحه يسبح بها فلا يديمها فى يده إلا بنية صالحة وليحذر من أن يكون جالسا يضحك ، وهو غافل عن الله تعالى فيدخل عليه أمير ، فيأخذ السبحة بيد فيسبح بها إلا بنية صالحة هروبا من الوقوع فى الإثم .

وكان يقول : من إخلاص الفقير أن لايزيد فى الإطراق والخشوع إذا دخل على أحد من الأكابر ومتى زاد عن ذلك فهو مرائى فعلى المريد خالص الحذر من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

● ● ●

ومن أخلاقهم : إذا ركبوا لحاجة أن لا يدعوا أحدا من إخوانهم يمشي حولهم بحيث ينسب إليهم بالخدمة إلا لضرورة شرعية

وقد وقع أن رسول الله ﷺ ركب لحاجـة فتبعه أبو هريرة فقال له اركب أبا هريرة معى فهم فأرمى النبى ﷺ .

فقال له : اركب أبا هريرة فهم فرماه ثانياً .

فقال : اركب ، فقال : ماكنت لأصرعك يارسول الله ثلاث مرات .

فقال له رسول الله ﷺ : إما أن تتقدم ، وإما أن تتأخر ، انتهى .

كل ذلك شفقة منه ﷺ أن يذل أصحابه بين يديه .

وقد درج السلف الصالح كلهم على كراه حب الظهور فى هذه الدار (١) .

وقد رأيت سيدى محمد بن عنان ، وسيدى على المرصفى ، وسيدى على الخواص رحمهم الله تعالى ، إذا خرج أحدهم لحاجة بعيدة تقصد المشى فى المواضع القليلة من الناس ، وليس مع أحد لهم إلا من يمسك لحماره فقط .

فعلم أن من ركب ويمكن جماعته يمشون حوله كزفة الصبى فى الختان ، فهو ساذج أو طالب للظهور فى الغالب ، فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم محبتهم للبس ثياب مخصوصة دون غيرها إلا بعد وصولهم إلي مقام يتساوي عندهم فيه لبس المشاق ولبس المحررات

ومادام الترجيح موجودا فى نفوسهم لغير غرض شرعى فليس ماتهواه نفوسهم مذموم شرعاً .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

من أدب الفقير أن لا يتميز عن أبناء جنسه فى الملبس والهيئة بطريقه الشرعى .

---

(١) قيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟
فقال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ؛ ولا يرى أن فى الخلق من هو شر منه .
وسئل الجنيد عن التواضع ؟
فقال : خفض الجناح للخلق ولين الجانب لهم .

قال : ومن التميز فى هذا الزمان ليس الفرجيات الصوف الرفيعة وإرخاء العذبة ونشر الرداء على ظهره دون أن يلفه على عنقه ، فإن ذلك قد صار علامة المتمشيخين اللهم إلا أن يكون الرداء كبيرا فتقنع به فى الحر والبرد أو بنيه كف البعض عن النظر ونحو ذلك فلا بأس وقد كان إبراهيم التميمى وسفيان الثورى يلبسان لبس الفتيان إذا خافا من الشهرة بالصلاح والعلم ، يدخلان فى غمار الناس فلا يعرفهم أحد إلا قليلا .

وقد رأيت سيدى محمد بن عنان رحمه الله تعالى ، وهو يخرج إلى الجنايز وغيرها بثياب المهنة التى تكون عليه داخل الدار ويقول :

من أدب الفقير أن لا يغير حاله فى اللبس إذا خرج من داره للناس إلا بنيه صالحة ، وأنا لم تحضرنى نية صالحة .

فقيل له : فما مثل النية الصالحة ؟

فقال : أن يدعى إلى صلاة الجمعة أو إلى لقاء الأكابر من مشايخ العرب ، ونحوهم، فقد كان ﷺ إذا علم بدخول الوفود عليه يأمر أصحابه بلبس أحسن ثيابهم ، ويصلح طيات عمامته .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فى الباب الخامس عشر والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : تحبيبهم لمن أراد أن يأخذ عن أحد من أقرانهم في الأخذ عنه

حتى إن تلميذهم إذا أراد أن يتركهم ويتلمذ لغيرهم يرغبونه فيه حسب الطاقة ولا يتكدرون منه فى الباطن .

وأصل ذلك صحة مشهدهم فى نفوسهم أنهم دون جميع أقرانهم .

وتأمل المريد إذا رأى من يتلمذ يريد أن يتلمذ لأستاذه كيف يرغبه كل الترغيب ، وذلك لأنه يرى نفسه دون شيخه .

وكذلك حكم الكامل مع أقرانه يشهد نفسه معهم كالمريد .

وهذا خلق غريب لا يوجد اليوم إلا فى قليل من الفقراء ، فعلم أن كل من لم يرغب الناس فى غيره وعرض لهم أنهم يأخذون عنه فهو ساذج أو مدع[1] إلا أن يكون من أصحاب القدم الراسخة فى الطريق .

(١) فإن أساس الخلق الصوفى هو التواضع وعدم حب الظهور كما جاء فى الخلق السابق .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يرغب شخصاً قد تلمذ له فى شخص من مشايخ عصره .

ويقول له : يا أخى إن فلانا أعلم منى بالطريق ولو أننى أقدر على نشاط المريدين لتلمذت له ، انتهى .

وقد رأيت مريدا شاور شيخا فى أن يأخذ عن أحد من أقرانه فصار يقول له : أنت بحمد الله بخير ، وربما تكون أحسن حالا ممن تريد أن تأخذ عنه لأنك تصلى فرضك ، وتأكل من كسب يدك بخلافه هو ، فإنه يأكل أو ساخ الناس ، فطال بهما المجلس .

فقال : مقصودى أن آخذ عنكم .

فقال : هذا واجب وإيش يضر الفقيه أن يكون صوفيا ، وصار يمدح الطريق ، وأهلها هذا شئ سمعته بأذنى .

فاحذر يا أخى أن تقع فى مثل ذلك فإنه نفاق وزور ، وامش على طريق سلفك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كراهتهم لدخول الأمراء والأكابر عليهم فى حال قراءة أورادهم وأحزابهم ومحافلهم

كما تقدم بسطه فى هذا الكتاب مرارا ، وذلك لأن دخول الأكابر عليهم فى حال اجتماع إخوانهم ، وفقرائهم يورث عند الأكابر تعظيما لهم ، وقيام ناموس ، فهم يخافون من نفوسهم أن تميل إلى دوام ذلك التعظيم ، فيهلك أحدهم ، ولا يشعر ، وربما دخل عليهم أمير كبير وهم فى حضرة الله تعالى يناجونه بكلامه فيصير أحدهم فى حيرة إن قطع مناجاة الحق تعالى لأجلهم ، فقد أساء الأدب ، وإن دام على المناجاة ، فربما استشعر تكدر ذلك الأمير الذى لا يعرف أدب الفقراء مع الله تعالى .

وقد رأيت بعض من يحب الظهور وقيل له : إن الأمير الفلانى عازم على زيارتك ، فجمع له الفقراء وذكروا رجاء أن يجئ وهم فى ذلك المجلس ، وطولوه فلم يج ، فلما تفرقوا جاءهم الأمير ، فوجد الشيخ ليس عنده أحد من الناس سوى العبد ، فصارت نفسه تنازعه فى أن يحكى للأمير ما كان عنده من الخلايق لا يحصون .

قال له : خاطركم علينا ، فإنا زهقنا من الخلائق ، وكان عندنا بكرة النهار خلايق لا يحصون (   )(١) فقلت له فى أذنه سرا أنت مرائى (   )(٢) قد تبت إلى الله تعالى فقلت : الحمد لله رب العالمين .

(١، ٢) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : شدة خوفهم من المواظبة علي ذكر الله تعالي .

والزهد فى الدنيا وكثرة الورع ، وكثرة الأوراد ، وغير ذلك أن يكون ذلك استدراكا إلى وقوعهم فى العجب ، فقل من يواظب على خير ، ويحمده الناس عليه إلا ويشق عليه ترك ذلك الخير محبة فى دوام الصيت لا محبة فى مجالسة الله عز وجل .

فليمتحن الفقير نفسه بما لو تغيرت أحواله وتحولت عنه تلك العبادات والخير فإن وجد فى نفسه وحشة من الناس فليعلم أن ذلك العمل كان كله رياء ونفاقا ؛ فيجب عليه التوبة والندم والاستغفار ؛ وإن رأى نفسه ليس عندها خجل ؛ ولا استيحاش من الناس فليشكر الله عز وجل ولا يأمن بعد ذلك .

وقد صلى بعض السلف أربعين سنة فى الصف الأول لم تفته تكبيرة الإحرام ؛ فانفق له أنه تخلف عن الصف الأول يوما فوجد فى نفسه استيحاشا وحياء من الناس ؛ فأعاد صلاة أربعين سنة ، وقال ؛ أرانى فى هذه المدة كلها كنت مرائيا ولا أشعر .

وكان الإمام الغزالى رحمه الله تعالى يقول :

ربما يجد بعضهم فى نفسه أنسا وتقريبا فى عبادته فيظن أن بها يغفر لجميع من حضره فضلا عنه ولو أن الله تعالى عامله مما يستحقه على سوء أدبه فيها لأهلكه ومن حوله انتهى .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى يقول :

لا ينبغى لفقير أن يجمع له جماعة ويعقدون مجلس ذكر فى زاوية مثلا إلا بعد إذن الأشياخ له فى ذلك بشرط ألا تكون دارا أولئك الذاكرين بعيدة جدا عن مجلس الشيخ وإلا ، فمن الأدب للمريد إن لم يحضر مجلس شيخه أن لا يعقد له مجلسا غير مجلس شيخه انتهى .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين يقول : إن الفقير إذا حضر مجلس شيخه الذكر أن لا يستلذ فى نفسه رهبه المجلس ورائحة الخشوع والرعدة وضم الأكتاف واطراق الرأس ولو فى بعض الأوقات ، فإن ذلك من السموم القاتله ، فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم أخذهم أصحابهم معهم إلي وليمة دعاهم إليها من علموا بالقرائن أنه مكلف فى عمل طعامها ولو من حلال

فضلا عن الحرام والشبهات إلا بطريق شرعي ، وكل فقير أخذ جماعته معه إلى مثل ذلك ، فهو غاش لاخوانه .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله تعالى يقول : لا يدع أحدا من أصحابه يخرج معه إلى وليمة لأحد من الأمراء ، ويقول : إنى عازم على أكل السم فارجعوا ، وذهب مرة إلى وليمة فتسامع الناس ، وكثروا لأجل الشيخ ، فضاق عنهم الطعام ، فأمر الشيخ صاحب الطعام أن لا يغرف منه لأحد إلا أن أحضر ، فغرف الشيخ ، وكفاهم من ذلك الطعام ، وقال : لو كانوا مائة ألف لكفاهم ، فالفقير من فعل مثل ذلك ، وخفف عن صاحب الطعام كما مر تقريره مرارا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن اخلاقهم التورع في جميع أحوالهم

فلا يأكلون طعام من لا يتورع فى مكسب من الأمراء ، والتجار ، والماشرين ، والفقهاء كمن يأخذ البلص أو يبيع على الظلمة أولا يسد فى وظائفه التى يأخذ معلومها ، ومتى لم يجد احدهم شيئا حلالا ، فمن أدبه أن يطوى ، ويجوع ، حتى يفتح الله تعالى عليه بشئ حلالا يأكله بعد حصول أوائل أمارات الاضطرار كما مر تقريره مرارا ، ومتى أكل شيئا من ذلك أو لبسه من غير ضرورة شرعية تلجئه إلى ذلك ، فهو مفتر كذاب مدع نصاب ليس له فى مقام الصالحين نصيب والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم العمل علي معرفتهم برجحانهم في الدين أو نقصانهم كل وقت

فإن من لا يعرف زيادته ونقصه ، فهو جاهل ، والجاهل لا يكون من الصالحين

وصورة معرفته بذلك أن ينظر إلى أحوال نفسه فإن رآها متبعه للكتاب والسنة متخلقة بأخلاق السلف الصالح من الورع ، والزهد ، وقيام الليل ، وكف الجوارح الظاهرة ، والباطنة عن شهوات الدنيا المكروهة فى الشرع فضلا عن المحرمة ، بحيث لا يكون للشرع عليه اعتراض بوجه من الوجوه فليعلم أنه رابح ، وهو على خير سنه وهدى .

وإن راى نفسه راغبة فى الدنيا لا ورع عندها ولا جوع ولا سهر ولا قيام ليل ولا خشية من الله تعالى ، ولا بكاء فى الصلاة ، ولا غير ذلك ، فليعلم أنه خاسر ناقص الدين ليس له فى مقام الصالحين نصيب .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

كل من ادعى الزهد فى الدنيا ، وزاحم على شئ من وظائفها ومناصبها وأنظارها وسائر مايؤول إليها أو احتاج إلى بذل مال فى تحصيل ما يطلب من مناصبها ، فهو محب لدنيا لا يصلح له شئ من اعمال الآخرة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم كثرة نفرتهم ممن يدعوهم إلى شئ من شهوات الدنيا المذمومة

وشدة نفرتهم ممن يطلب علم الكيمياء ، أو يدعى فتح المطالب لأنه نصاب قليل الدين .

ولذا كان من شأن الفقراء أن يزهدوا فى الذهب الخالص ، ويردونه ، ولا يقبلونه ، فكيف نظن بهم أنهم يتعبون أنفسهم فى عمل الكيميا التى غايتها الزغل أو يتعبون أنفسهم فى حضور الكيميائى وشراء البخورات ويضيعوا أموالهم التى بها قوامهم فى حلاوة النصابين الكذابين .

فكل من رأيته يا أخى يدعى علم الكيميا أو فتح المطالب فابعد عنه ولا تجعل بينك وبينه محبه فإنه يتلف دينك ، ويذهب مالك ولو كان له عمامة صوف ، وسبحه وشعرة وعذبه فإنه شيطان فى صورة إنسان وهذا الأمر قد حدث فى بعض المدعين للطريق بغير حق ، فإنهم لما عجزوا عن جذب المتبعين للطريق لصحبتهم زين لهم ابليس أن يدعوا معرفة الكيميا ليتوجه المريد إليهم بذلك فكثرت أتباعهم بذلك ووقعوا فى النصب والتبليص وحولوا نفوسهم للنفى من بلدهم ولعمرى إذا كان الواجب على المريد فى بداية أمره أن يرمى ما عنده من الدنيا ، فكيف يأخذها الشيخ فى حال نهايته بل الشيخ من مقامه أن يكون أبعد الناس عن الدنيا .

وسمعت سيد على المرصفى رحمه الله يقول :

كل شيخ سافر فى طلب الدنيا مع وجوده للرغيف وستر العورة فى بلده فهو دنياوى لم يشم للطريق رائحة لأن كل ما يشغل على الله تعالى فه مذموم اللهم إلا أن يكشف لعبد عن رزقه فى الروم مثلا ، وهو متوقف على حضوره فمثل هذا يسافر لرزقه ، ولا حرج عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تساوي الذهب والتراب يعني في الميل إليه في حال بدايتهم

ومتى رجح أحدهم الذهب على التراب فى المحبة، فهو خارج عن طريق المريدين.

فليمنحن من يدعى أنه من المريدين الصادقين نفسه فإن وجدها ترجح الذهب على التراب ، فهو من أبناء الدنيا :

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول :

كان السيد عيسى عليه الصلاة والسلام لا يسمى العبد صالحا إلا إن تساوى عنده الذهب والتراب .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

من زعم أنه مؤمن بكلام الله تعالى ، فليمتحن نفسه بما لو فاته ألف دينار مثلا ، وفاته قول لا إله إلا الله مرة واحدة ، فإن رأى نفسه تكدرت لفوات الألف دينار أكثر من فوات قول لا إله إلا الله ، فهو غير كامل الإيمان لقول الله عز وجل : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا[1] ﴾ إذ لو كان كامل الإيمان بقول الله تعالى «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ» لتكدر لفوات تسبيحه أو تحميدة أو تكبيرة أو تهليلة أكثر ، وهذا ميزان يعرف بها العبد مرتبة نفسه فى الإيمان الكامل والناقص والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا مروا على تلال الذهب والفضة من غير تزاحم عليها فى الدنيا ولا حساب عليها في ظنهم في الآخرة أن لا يطاطئ أحدهم لأخذ شئ منها إلا بقدر الحاجه في ذلك اليوم من أكل أو شرب أو وفاء دين ونحو ذلك

وإذا دخلت البغلة محملة ذهبا ليلا من مطلب أو غيره ، وليس معها أحد أغلقوها وأخرجوها ، واغلقوا بابهم ، ثم لا يرون لهم مقاما بذلك ، ومتى رجح احدهم اخراج البغلة المحملة ذهبا على اخراجه ريشه من داره ، فهو معظم للدنيا غير زاهد فيها فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الدنيا لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضه[2] » أى ناموسه ،

---

(١) سورة الكهف آية : ٤٦ .

(٢) قال الله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون .
=

وماذا يخص العبد من جناح الناموسة إذا فرق على جميع هل الأرض ، حتى يرى له مقاما يتركه ، فكأن من يزهد فى الدنيا فيما لا يكاد يرى بالبصر لقلته .

= وقال تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذوره الرياح وكان الله على كل شئ مقتدراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

وقال تعالى : اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضون وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

وقال تعالى : زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب .

وقال تعالى : يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

وقال تعالى : ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين .

وقال تعالى : وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون . والآيات فى الباب كثيرة مشهورة وأما الأحاديث فأكثر من أن تحصر فنبه بطرف منها على ما سواه : (عن) عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجريتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيده فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشئ من البحرين فقالوا : أجل يارسول الله فقال : أبشروا وأملوا ما يسركم فو الله مالفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم . متفق عليه .

(وعن) أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم من بعدى مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . متفق عليه .

(وعنه) أن رسول الله ﷺ قال : الدنيا حلوه خضرة وأن الله تعالى مستخلفكم فيها ينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . رواه مسلم .

(وعن) أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة : متفق عليه .

(وعنه) عن رسول الله ﷺ قال : يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله فيرجع إثنان ويبقى واحد يرجع أهله وماله ويبقى عمله . متفق عليه .

(وعنه) قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يارب ويؤتى باشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله ما مربى بؤس قط ولا رأيت شدة . رواه مسلم .

(وعن) المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع . رواه مسلم .

(وعن) جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه فمر بجدى أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم فقالوا : ما نحب أنه لنا بشئ وما نصنع به ثم قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا أنه أسك فكيف وهو ميت فقال : فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم . رواه مسلم .

قوله كنفتيه أى : عن جانبيه والأسك : الغير الأذن .

(وعن) أبى ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر . قلت : لبيك يارسول الله فقال : ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينار إلا شئ أرصده لدين إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا او هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ثم سار =

وهذا الخلق قل من يتخلق به ، ولم أجد له فاعلا من أقرانى سوى الشيخ على الحديدى أحد أصحاب سيدى محمد بن عنان مر عند السحر على بغلة محملة من

= فقال: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وقليل ماهم ثم قال لى : مكانك لا تبرح حتى آتيك ثم انطلق فى سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتاً قد إرتفع فتخوفت أن يكون أحد عرض للنبى فاردت أن آتيه فذكرت قوله لا تبرح حتى آتيك فلم أبرح حتى أتانى . فقلت: لقد سمعت صوتا تخوفت منه فذكرت له فقال : وهل سمعته قلت : نعم قال : ذاك جبريل أتانى فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت : وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق . متفق عليه . وهذا لفظ البخارى .

(وعن) أبى هريرة رضى الله عنه عن رسـول الله ﷺ : انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم . متفق عليه .

وهذا لفظ مسلم . وفى رواية البخارى : إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه .

(وعنه) : عن النبى ﷺ قال : تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرض رواه البخارى .

(وعنه) رضى الله عنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة مامنهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطو فى أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته رواه البخارى .

(وعنه) قال : قال رسول الله ﷺ : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . رواه مسلم .

(وعن) ابن عمر رضى الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك . رواه البخارى .

قالوا فى شرح هذا الحديث معناه : لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالإعتناء بها ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب فى غير وطنه ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله وبالله التوفيق .

(وعن) أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس فقال : ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس. حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره باسانيد حسنة .

(وعن) النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدينا فقال . لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل لليوم يتلوى ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه . رواه مسلم الدقل : بفتح الدال المهملة والقاف : ردئ التمر .

(وعن) عائشة رضى الله عنهما قالت : توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شئ يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى دف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى . متفق عليه .

قولها شطر شعير أى شئ من شعير كذا . فسره الترمذى .

(وعن) عمرو ابن الحارث أخو جويريه بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنهما قال : ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئاً ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة . رواه البخارى .

(وعن) خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : هاجرنا مع رسول الله نلتمس وجه الله تعالى فوقع أجرنا على الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد وترك الثمرة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا بها رجليه بدا رأسه فامرنا رسول الله أن تغطى رأسه ونجعل على رجليه شيئا من الإذخر ، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها . متفق عليه .

=

مطلب وليس معها أحد فتركها ، ولم يمكن رفيقه من أخذ شئ من الذهب الذى عليها ، ثم مر ، وتركها ، فرضى الله تعالى عنه ونفعنا به .

= (الثمرة) : كساء ملون من صوف وقوله أينعت ، أى نضجت وأدركت ، وقوله يهديها هو بفتح الياء وضم الدال وكسرها لغتان أى يقطفها ويجتنيها وهذه استعارة لما فتح الله تعالى عليهم من الدنيا وتمكنوا فيها .

(وعن) سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء ، رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(وعن) أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إلا أن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالماً ومتعلماً ، رواه الترمذى . وقال حديث حسن .

(وعن) عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا ، رواه الترمذى وقال حديث حسن .

(وعن) عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصالنا فقال ماهذا ، فقلنا قد وهى فنحن نصلحه فقال : ماأرى الأمر إلا أعجل من ذلك ، رواه أبو داود والترمذى بإسناد البخارى ومسلم ، قال الترمذى حديث حسن صحيح .

(وعن) كعب بن عياض رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال ، رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح .

(وعن) أبى عمرو ويقال أبو عبد الله ويقال أبو ليلى عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والماء ، رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

قال الترمذى سمعت أبا داود سليمان بن سالم البلخى يقول : سمعت النضر بن شميل يقول : الجلف ، الخبز ليس معه إدام ، وقال غيره هو غليظ الخبز ، وقال الهروى المراد به هنا وعاء الخبز كالجوالق والخرج والله أعلم .

(وعن) عبد الله بن الشخير بكسر الشين والخاء المشددة المعجمتين رضى الله عنه أنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التكاثر قال : يقول ابن آدم مالى ، مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت وتصدقت فامضيت ، رواه مسلم .

(وعن) عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : قال رجل للنبى ﷺ : يارسول الله والله إنى لأحبك فقال : انظر ماذا تقول قال : والله إنى لأحبك ثلاث مرات . فقال : إن كنت تحبنى فأعد للفقر تجفافا فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه . رواه الترمذى .

وقال حديث حسن . التجفاف بكسر التاء المثناه فوق وإسكان الجيم وبالفاء المكررة وهى شئ يلبسه الفرس ليتقى به الأذى وقد يلبسه الإنسان .

(وعن) كعب بن مالك رضى الله عنه قال : رسول الله ﷺ ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه . رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

(وعن) عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه قلنا يارسول الله : لو اتخذنا لك وطاء فقال مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها . رواه الترمذى .

وقال حديث حسن صحيح .

(وعن) أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح .

(وعن) ابن عباس وعمران بن الحصين رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال : اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء . متفق عليه : من رواية ابن عباس رواة البخارى أيضا من رواية عمران بن الحصين .

=

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

كل فقير كتب له السلطان ألف دينار مثلا ، ولم يفرح إذا جاء إنسان وسعى فى منعه منها ولم يصر يحبه لأجل ذلك ، فهو لم يشم من طريق الفقراء رائحة لأن من شأن الفقير الصادق الذى يصح للناس أن يتبركوا به أن ينقبض خاطره إذا دخلت عليه الدنيا ويكره كل من يستطيبها .

كما أن من شأن الفقير الكاذب أن ينشرح خاطره ، ويحب كل من أتاه بها انتهى .

وكان سيدى ابراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول :

من تغير على من سرق له شيئا من الدنيا ، ولو كان أردبا من شعير فهو من أبناء الدنيا فليمتحن من يدعى الفقر نفسه بمثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : تورعهم عن الأكل من شئ من وقف الصوفية

لان الصوفى هو من يكون على قدم الجنيد ، وغيره من المشايخ المذكورين فى رسالة القشيرى ، وحلية الحافظ أبى نعيم ، وأى فقير يدعى وصوله إلى مقام أحد من هؤلاء .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

الصوفى فى لسان السلف الصالح هو العالم العامل بما علم على وجه الإخلاص لا من لبس الصوف ، وتجلس بجلاس الفقراء ، وقبل هدايا العمال ، ومشايخ العرب ، والكشاف وأرسل قاصده إليهم يسأل قمحا أو عسلا أو أرزا وغير ذلك ، فإن هذا مخالف لطريق المشايخ الذين يزعم أنه خليفتهم أو على طريقهم .

قال : وقد جاء فقيه مرة برغيفين من خبز الخانقاه سعيد السعدا إلى سيدى عبد الله المنوفى شيخ الشيخ خليل المالكى صاحب المختصر رضى الله عنهما ، وقال له : ياسيدى كل من هذين الرغيفين ، فإن واقفهما كان أميرا صالحاً .

= (وعن) أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النبى لله قال : قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار . متفق عليه : والجد : الحظ والغنى وقد سبق بيان هذا الحديث فى باب فضل الضعفه .

(وعن) أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد . آلا كل شئ ما خلا الله باطل . متفق عليه .

فقال : صحيح ياولدى ، ولكن ذلك وقف على الصوفية وأنا لست بصوفى عند نفسى ، ولم يأكل منهما .

فرضى الله تعالى عن أهل الورع ، وقد تقدم ذلك فى الكتاب مرارا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إذا وقف أحد ممن لا يتورع على أحدهم شيئاً فيه حق للغير ولو جزء ضعيفاً أن لا يقبل ذلك

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من الواجب على الفقير إذا رأى فى الوقف عليه أو على ذريته أو زاويته شيئا للسلطان ولم يعلم بذلك أهل الديوان أن يرسل يعرفهم بذلك ، ويقول لهم :

بلغنى أن فى وقف زاويتى شيئاً لجهة مولانا السلطان ، والمسؤل أنكم تفتشوا مكاتبى وأصولها ، وتردوا إلى كل ذى حق حقه .

ويقلو لهم : لا تخافوا من دعاء الفقراء عليكم إذا أخرجتموها للسلطان ، فإن الفقراء هم السائلون فى ذلك خوفا أن يأكلوا حراما ، وأيضاً فإن الفقراء قد نبت لحمهم من ذلك ومن أكل حراما ولو فى نفس الأمر يوقف دعاؤه عن الإجابة مثل ما قال بعض العارفين وقالوا : إن الحرام كالسم فكما أن السم يمرض صاحبه ، ولو لم يعلم به ، فكذلك الحرام .

فليحذر الفقير من أن يعلم فى وقفه ريبه ، ويسكت على ذلك ، أو يبرطل أصحاب الديوان على أنهم يبقونه فى يده ، فإنه يفسق بذلك ، ويخرج عن طريق الشرع والعرف .

وقد أرسلت بحمد الله تعالى مكاتيب زاويتى أيام الباشاه خصرف ، لما بلغنى أن فيهم رزقه لا أصل لها فى الديوان ، فتعجب الباشاه ، وجماعته ، وقالوا : إن الإنسان يبرطل الدولة على أن يسكتوا عنه ، فكيف يرسل هذا مكاتيبه من غير سؤال ؛ ولا علم منا أن فى مكاتيبه ريبه ؛ وأعتقدونى بسبب ذلك أشد الاعتقاد ، ولم يفعل ذلك أحد من أقرانى، ولما جاء التفتيش ثانيا فى أيام على باشاه أرسلت المكاتيب كذلك وقلت : أخرج

ماتراه لجهة السلطان ، ولو جميع الجهات ، ولا تخف من دعاء الفقراء ، فإن من يأكل الحرام لا يقبل له دعاء ، فأعتقدونى غاية الأعتقاد ، وأرسل جماعة الديوان وقال لهم : قولوا له : قد حكمك الباشاه فى هذه المسألة . فاحكم بين الفقراء ، وبين السلطان ، فرددت الأمر إليه ، فأفرج عن جميع الجهات من غير غرامة فلوس يأخذها فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أنهم يمرضون لمرض ولاة أمورهم ثم يخلصون من المرض إذا شفي ولاتهم من مرضهم

ووقع لى ذلك مرات مع مولانا السلطان سليمان فمرضت لمرضه وشفيت لشفائه وأفطرت فى رمضان لأجل ذلك المرض عشرة أيام ، ثم جاء الخبر أن أيام فطرى كان السلطان فى أشد المرض ، وكذلك وقع لى مع داود باشا ؛ ومع على باشا ؛ وذلك لشدة ارتباط الفقراء بإمامهم .

وكان على هذا القدم سيدى ابراهيم المتبولى وسيدى على الخواص رحمهما الله تعالى .

ولم أجد أحد من أقرانى من تخلق بذلك الا قليلا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم كثرة الشفقة علي خلق الله عز وجل بطريقة الشرعي

حتى إنهم يحوطون كل يوم وليلة جميع الولاة الذين يظلمون الناس ؛ ويمسكون رؤسهم بين أيديهم ؛ ويضعون يدهم عليها ؛ ويتلون عليها الآيات ؛ والاخيار حتى لا يظلموا أحدا من رعيتهم .

ويحوطون رعيتهم ليصيروا تحت حكم ولاتهم ، ولا يتقلقوا ، فإنهم مسلطون عليهم بحسب أعمالهم .

وكذلك يحوطون زروعهم ، حتى لا تأكلها الدودة إن شاء الله تعالى فى تلك السنة وجسورهم حتى لا تقطعها العصاة قبل أوانها ، فتشرق البلاد .

ويحوطون نهر النيل ؛ حتى تتم زيادته كالعادة .

وكذلك يحوطون بيوت الناس وحوانيتهم ، إذا غابوا عنهم فى مثل يوم المحمل أو فى مولد الشيخ ، ونحو ذلك ، حتى لا تسرق اللصوص من أمتعتهم وهم غافلون .

وكذلك يحوطون الغافلين عن الله تعالى كل يوم فى سائر : أقطار الأرض ، حتى لا ينزل عليهم بلاء حال غفلتهم عن ربهم عز وجل ؛ وكذلك يحوطون زهر الفاكهة إذا حصل حر أو برد شديد يرمى الزهر ؛ فيضيع رأس مال كل من صاحب البستات ؛ ومن استأجره .

وكانت هذه التحويطات من وظائف سيدى ابراهيم المتبولى ؛ وتلميذه سيدى على الخواص ولم أر بعدهما أحد تخلق بهذا المقام غيرى ، فلا أنام كل ليله ، ولا أصبح ، حتى أحوط جميع المسلمين ، وأموالهم ، وما يجلب الأموال إليهم كل ذلك عملا بحديث الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال . من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

فعلم أن كل فقيه قرب من زوجته أيام نزول البلاء بأحد من المسلمين ، أو دخل الحمام أو لبس ثوبا ، مبخراً أو تفرج فى البساتين ، أو غرس شجرا ، أو بنى دارا ، ونحو ذلك فما عنده من مقام الفقراء رائحة ، فإن حكم من يهتم لأمر المسلمين حكم من مات ولده العزيز الذى ليس له غيره مع وسع ماله ، وكثره دوره ، وبساتينه ، وأقباله على الدنيا فهو لا يجد داعية تدعوه للضحك ، ولا للجماع ، ولا غير ذلك مما ذكرناه اللهم الا أن يكون ذلك الفقير من أهل التمكين كسيدى عبد القادر الجيلى . وسيدى أحمد بن الرفاعى ، واضرابهما ممن حزنه فى قلبه ، فيعطى كل ذى حق حقه فلا اعتراض عليه ، ولكن أين ذلك الفقير الذى على قدم هؤلاء فى التمكين والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن لا يحبوا شيئا الا إن بلغهم أن الله تعالى يحب منهم أن يحبوا ذلك الشئ

حتى إنهم لا يحبون العفو عن سيآتهم الا لعلمهم بأن الله تعالى يحب العفو عن عباده ولولا ذلك لما أحبوا العفو عنهم ، بل كانوا يتلذذون بالعقوبة .

وهذا الخلق غريب فى الفقراء ، ولم أجد أحدا تخلق به من أقرانى الا قليلا كل ذلك

من غلبة التفويض إلى الله تعالى والتسليم له ، وعدم التدبير لنفسهم لكون نفسهم ملكا لله تعالى ليس لهم فيها ملك[١] فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول أبو نصر السراج الطوسى فى كتاب اللمع باب مقام التوكل : قال الشيخ رحمه الله : والتوكل مقام شريف ، وقد أمر الله تعالى بالتوكل وجعله مقروناً بالإيمان لقوله تعالى « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .
وقال فى موضع آخر : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فخص توكل المتوكلين من توكل المؤمنين ، ثم ذكر توكل خصوص الخصوص فقال : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » لم يردهم إلى شئ سواه كمال قال لسيد المرسلين وإمام المتوكلين : « وتوكل على الحى الذى لا يموت وكفى به » ، « وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم » الآية .
فهم على ثلاث طبقات :
فأما توكل المؤمنين فشرطه ماثلاث قال أبو تراب التخشبى رحمه الله حين سئل عن التوكل فقال :
التوكل : طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فان اعطى شكر ، وإن منع صبر راضياً موافقاً للقدر .
وكما سئل ذو النون رحمه الله عن التوكل فقال : التوكل ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة .
وكما قال أبو بكر الزقاق رحمه الله : التوكل رد العيش إلى يوم واحد ، وإسقاط هم غد .
وسئل رويم رحمه الله عن التوكل فقال : الثقة بالوعد .
وسئل سهل بن عبد الله رحمه الله ، عن التوكل فقال : الإسترسال مع الله تعالى على ما يريد .
وأما توكل أهل الخصوص فكما قال أبو العباس بن عطاء رحمه الله : من توكل على الله لغير الله لم يتوكل على الله حتى يتوكل على الله بالله ولله ، ويكون متوكلا على الله فى توكله لا لسبب آخر ، أو كما قال أبو يعقوب النهرجورى رحمه الله ، وقد سئل عن التوكل فقال : موت النفس عند ذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة .
وقد قال أيضاً أبو بكر الواسطى : أصل التوكل الفاقة والإفتقار وأن لايفارق التوكل فى أمانيه ، ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة فى عمره .
وسئل سهل بن عبد الله رحمه الله أيضاً عن التوكل ، فقال التوكل وجه كله وليس له قفا ، ولا يصح إلا لأهل المقابر .
فهؤلاء أشاروا إلى حقيقة توكل المتوكلين وهم الخصوص .
وأما توكل خصوص الخصوص فعلى ماقال الشبلى رحمه الله حين سئل عن التوكل فقال : أن تكون لله كما لم تكن ويكون الله تعالى لك كما لم يزل .
وكما قال بعضهم : حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من خلقه على الكمال ، لأن الكمال بالكمال لا يكون إلا لله ، جل جلاله . وسئل أبو عبد الله بن الجلاء عن التوكل فقال : الإيواء إلى الله وحده ، فى جميع الأحوال .
وسئل الجنيد رحمه الله عن التوكل فقال : اعتماد القلب على الله تعالى .
وقد حكى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله أنه قال لأحمد بن أبى الحوارى ، رحمه الله : يا أحمد ، إن طرق الآخرة كثيرة وشيخك عارف بكثير منها إلا هذا التوكل المبارك فإنى ماشمت منه رائحة » وليس لى منه مشام الريح .
وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا ويدفنها فيه ، وينس الدنيا وأهلها ، لأن حقيقه التوكل لايقوم له أحد من الخلق على كما له والتوكل يقتضى الرضا . **باب مقام الرضا وصفة أهله :**
قال الشيخ رحمه الله : الرضا مقام شريف ، وقد ذكر الله عز وجل الرضا فى كتابه فقال : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، وقال : « رضوان من الله أكبر » فذكر أن رضا الله عز وجل ، عن عباده أكرم وأقدم من رضاهم عنه .
والرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل .
وسئل الجنيد رحمه الله عن الرضا ، فقال : سكون القلب بمر القضاء .

ومن أخلاقهم : عدم بداءة أحد من إخوانهم بالزيارة إذا علموا بقرائن الأحوال أنه يكافيهم ويأتي إليهم

وربما اشتاق أحدهم إلى أحد من المحبين له من أمير أو عالم أو صالح ، فلا يزوره خوفاً من تكليفه ، وربما أتاهم أمير زاير ، فزاروه بعد ذلك ألف مرة ، ولا رأو أنهم كافؤه على زيارته لهم تلك المرة الواحدة .

وما رأيت أحدا على هذا القدم بعد سيدى على الخواص الا قليلا .

فعلم أن كل فقير تسبب فى زيارة أحد من الأكابر له حتى زاره لغير غرض شرعى ثم لم يكافئه على ذلك . فهو لم يشم لتواضع الفقر رائحة بل هو نصاب الا أن يكون له عذر شرعى .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى إذا علم من أمير أنه عازم على زيارته يذهب هو إليه ويقول :

أنا الفقير الذى عزمت على زيارتى ويقبل رجل الأمير ويسله الدعاء وينصرف فقيل له كيف تقبل رجل الأمير وأنت فقير ؟

فقال : المنهى عنه إنما هو تقبيل الفقير رجل الغنى لينال من ماله شيئا هو غير محتاج إليه ، وأنا والله لوعرض على جميع ماله ماقبلت منه درهما واحدا ، وأيضاً فإن تقبيلنا رجل الأمير إنما هو أدب مع الله عز وجل الذى رفع قدره علينا فى هذه الدار ، وجعل أمثالنا تحت حكمه ، وربما كان فى الدار الآخرة أكبر منا أيضاً كما قال تعالى «للآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» (١)

= وسئل ذو النون عن الرضا فقال : سرور القلب بمر القضاء . وقال ابن عطاء رحمه الله الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله ، تعالى ، للعبد ، لأن يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط .

وقال أبو بكر الواسطى ، رحمه الله استعمل الرضا جهدك ؛ ولاتدع الرضا يستعملك فتكون محجوبا بلذته ورؤية حقيقته : غير أن أهل الرضا فى الرضا على ثلاثة أحوال :

فمنهم من عمل فى إسقاط الجزع حتى يكون قلبه مستويا لله عز وجل فيما يجرى عليه من حكم الله من المكاره والشدائد والراحات والمنع والعطاء :

ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عن الله عز وجل ، برؤية رضا الله عنه ، لقوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » فلا يثبت لنفسه قدم فى الرضا وإن استوى عند الشدة والرخاء والمنع والعطاء .

ومنهم من جاوز هذا وذهب عن رؤية الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا ، كما قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : ليس أعمال الخلق بالذى يرضيه ولا بالذى يسخطه ، ولكنه رضى عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا ، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط .

(١) سورة الإسراء آية : ٢١ .

فأعمل يا أخى بهذا الخلق تنل بركته ، ولا تتسبب قط فى زيارة أحد من الأمراء لك بل إن كنت محتاجا إليه ، فإذهب له والا فما للأمير والفقير والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم كثرة شكرهم لله تعالى إذا نزل بهم بلاء في بدنهم أو مالهم

وكثرة توبتهم وأستغفارهم إذا نزل عليهم بلاء فى دينهم ولا يحتجون بالقضاء والقدر فيقولون : إن ذلك قدره الله علينا قبل أن نخلق فإن فى ذلك رائحة إقامة الحجة على الله تعالى ، ولا يخفى ما فيه من سوء الأدب إذ من شأن العبد إلقاؤه سلاحه ، وعدم تدبيره بين يدى مولاه ، وما كل شئ يعلم يقال بل فيه ما يقال ، وفيه مالا يقال ومن تأمل بعين البصيره وجد الحق تعالى يتعرف لعبده متعطفاً عليه بكل شئ ورد منه إليه ، فيعرفه مقدار الوصل تارة ومقدار الهجر تارة ويستغفر تارة ، وكذلك من تأمل أفعاله تعالى وجدها عين الحكمة ، وربما كان هو المبادر إليها أى إلى تلك الحكمة الا أن تكون معصيه ، فإنه لا يجوز المبادرة إليها والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أنهم لا يتداوون من مرض الا إن عجزوا عن تحمله

فإن اشتد عليهم الوجع بحيث يشغلهم ذلك عن كمال الإقبال فى الحضور مع الله تعالى وذلك لأخذهم بالعزائم دون الرخص والترفها .

ومادام أحدهم يقدر على الحضور مع الله تعالى فى عبادته من غير التفات فلا يتداوون[١] وسيأتى فى الكتاب أنه لا ينبغى الدعاء للمريض ، حتى يأخذ فى نقص المرض سواء كان كفارة أو عقوبه أو رفع درجه ، وإن ذلك هو الادب الا أن يسأل له الشفاء من باب الفضل والمنه مع شهوده أن الله تعالى أرحم بعبده منه ، وأنه تعالى عليم حكيم .

فمثل هذا لا بأس به والحمد لله رب العالمين .

---

(١) بهامش الصحيفة فى موضع التداوى مانصه ، كما أن سيدنا أيوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام لما كان الصبر على البلاء حجابا له يشغله عن كمال الحضور مع الله قال : رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، فافهم .

ومن أخلاقهم : كراهتهم لخطاب الله تعالي إذا كان علي بدنهم نجاسة

أووقع من بعض أعضائهم معصيه ، ولم يتوبوا منها أو تابو أو لم يظنوا قبولها ، وذلك كله أدب مع الله تعالى ، وكلما استحضر أحدهم أنه بين يدى الله تعالى تعاطى أسباب الغفلة بتحديثه أحدا بأمور الدنيا أو نحو ذلك ، فلا يزال كذلك ، حتى يزول ذلك القذر الخفى ، أو المعنوى من شهود .

وكان سيدى ابراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه يقول :

من أدب العبد أن لايخاطب ربه الا على أكمل حال طهارة الظاهر والباطن ، وكذلك فرش الأكابر السجادات فى مصلاهم تعظيما لحضرة الله تعالى ووضعوا عليها الطيب ، ونحوه ، وغالب الناس عن ذلك بمعزل ، وربما نسبوا فاعل ذلك إلى التكبر ، ونسوا حديث « إن الله تعالى فى قبله أحدكم » فإنه أشار إلى أن العبد لنقصه وعجزه عن الإحاطة يجعل الحق تعالى متخيلا فى موضع السجادة دون غيره من الجهات ، وإن كان الحق تعالى لا تحويه الجهات فافهم .

وقد وقع للشيخ أبى العباس السيارى رحمه الله تعالى أنه كان يذكر الله تعالى كل ليلة على سور بلد من العشاء إلى الصباح ، فترك الذكر ليلة فقالوا له فى ذلك .

فقال . تذكرت كلمة قبيحة قلتها فى صغرى فلم أتجرأ أذكر الله تعالى بلسان تكلمت به تلك الكلمة انتهى فتذكر ذلك الخلق وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : خضوعهم لله تعالي بقلوبهم إذا تناولوا شيئاً من شهوات النفوس من أكل وشرب وجماع ولبس ثوب نظيف ونحو ذلك

عملا بحديث «إنما الأعمال بالنيات » فلذلك كانوا لا يفعلون شيئاً من المباحات الابنية صالحة .

فينوى أحدهم بأكل تلك الشهوة المباحة التقوِّى على العبادة مثلا ، أو مداوات النفس، حتى تطيع صاحبها فى بعض الأوقات ، فإنها تقول لصاحبها : كن معى فى بعض أغراضى والاصرعتك .

---

(١) وتمام الحديث : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فجهرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أوامرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه) متفق عليه .

وهذا خلق غريب فى هذا الزمان فقل من يستحضر أنه بين يدى الله تعالى وقت أكل الحلوى والفاكهة والجماع أو أن ذلك من جملة نعمة الله تعالى عليه ، وأنه ناظر إليه حال الأكل ، أو الجماع إنما الغالب على الناس الغفلة عن الله تعالى فى مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : مراعاتهم اليتيم بالإحسان إليه والإكرام له أكثر مما كانوا يكرمونه أيام حياة والده

وذلك ليميزوا من كان صار فى كفاله الحق جل وعلا .

وكذلك توعد الله تعالى بالنار من يأكل مال اليتيم ، وأنه إنما يأكل فى بطنه نارا زجرا للناس ، وتنفيرا لهم عن أن يأكلوا أموال اليتامى ظلماً لكونهم فى كفالة الله عز وجل ، وليس لهم أب ولا أخ يراعونهم لأجله .

فعلم أن من لم يزد اليتيم إكراماً وإحساناً ، فما قام بواجب حق الله تعالى لكونه ساوى بينه تعالى ، وبين خلقه فى المراعاة ، ولم يزد فى إكرام من هو فى كفالة الحق تعالى .

وكذلك من أخلاقهم :

أن يزيدوا فى غض البصر من النظر إلى المرأة التى غاب عنها زوجها أكثر من غضهم عنها إذا كان زوجها حاضرا .

وذلك لأن الله تعالى خليفة المسافر على أهله كما ورد فى الحديث من قوله ﷺ : «اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل » .

ونظير ذلك النظر إلى الشريفة أو ابنة ولى من الأولياء ، فينبغى زيادة الغض فى النظر إليها لحاجة زيادة عن الغض عن غيرها أدبا مع سيدنا رسول الله ﷺ ، وأدبا مع ذلك الولى .

ومن ساوى فى الغض بين المذكورات وغيرهن ، فقد أساء الأدب مع الله تعالى ، ومع رسول الله ﷺ وأوليائه ، فإذا كان هذا فى عدم زيادة الغض عن جارية الإنسان إذا زوجها مع أنها معه كالمحارم فى النظر ، فكيف بمن ينظر عمداً أو يسارق النظر إلى زوجة جاره الغائب كالمتلصص نسأل الله العافية والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : نفرتهم من كثرة اعتقاد الناس فيهم إلا لغرض شرعي

لاسيما الأمراء والأكابر ، وإن وقع أن أحداً مدحهم عند ذلك الأمير ، ورفعهم فوق أقرانهم تكدروا لذلك ، ثم توجهوا إلى الله تعالى فى أن يحول اعتقاد ذلك الأمير فيهم ، ويرسل لهم عدوا من أعدائهم ينقصهم عنده ، ويسئ اعتقاده فيهم طلبا لراحة نفوسهم فإن كل فقير اعتقد فيه أمير لا بد أن يتبعه الناس فى الشفاعة عنده ، وأنه لا يسع الفقير من الله تعالى إلا أن يشفع ، ولا يمكن الأمير أن يجيب الفقير فى كل ما يشفع فيه كما تقدم بسطه .

ومن تأمل من الشافعين الآن فى نفسه وجد ضرره لذلك الأمير الذى يشفع عنده أكثر من نفعه لأنه يقيم عليه بشفاعته الحجة عند الله تعالى يوم القيامة فى كل شفاعة ردها فيهلكه ، وهو يحسب أنه ينفعه .

وقد قالوا من أدب الشفاعة أن يكون المحمل قائلا لها ، وإلا صبر الشافع حتى يزول الغضب من الأمير مثلا ثم يشفع ، فيقبل إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا جلسوا للوعظ أن يأخذوا جميع معاني مايعظون به الناس

أولا فى حق نفوسهم ليتعظوا ثم بعد ذلك يعظون غيرهم

عملا بحديث : « الأقربون أولى بالمعروف » ولا أقرب للإنسان من نفسه ثم بعد ذلك أهليهم وجيرانهم الأقرب منهم فالأقرب .

لذلك كان الواعظون الصادقون بخجل يحصل لهم غاية الخجل من الله تعالى ثم من الأولياء ، الذين يطلعون على ما فى بطونهم من الحاضرين .

فقل مجلس يكون فيه خير إلا ويحضره أحد من أولياء الله تعالى من الإنس ، أو الجن ليحفظوا الواعظ ، وأهل مجلسه من الآفات ، ويسمون أولياء الرحمة ، وهذا الخلق قل من يتنبه له من مسلكى هذا الزمان ، وربما ينسى أحدهم نفسه حال الوعظ ، ويجعل الكلام لغيره جزما وما هكذا كان السلف الصالح رضى الله عنهم .

وقد كان الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه يعظ الناس ويقول لهم :

لولا حديث بلغنى أنه سيأتى على الناس زمان يكون واعظ القوم فيه أرزلهم ما وعظتكم .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

حكم من يعظ الناس ، وينسى نفسه حكم من وقف على شفا جرف هار أيام زيادة النيل وجعل ظهره للبحر ، ووجهه للناس ، وصار يقول للناس : إياكم أن ينهار بكم الجرف حتى وقع به هو الجرف ، فلينتبه الواعظ والخطيب عن مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن أحدهم لا يقول لمريده إذا قرب منك الشيطان فاصرخ عليه باسمي فإنه يهرب

إلا إذا علم أحدهم من الله تعالى أنه لم يجعل لإبليس على جماعته سبيلا تبعاً لشيخهم ، وأما إذا كان إبليس يلعب بالشيخ نفسه كالكرة فى يد اللاعب ، فكيف يهرب ممن ذكر إسمه ووالله ما ظهرت الأشياخ المحققون حتى هددوا بالسلب إن لم يظهروا له وحتى لو انقلب لأحدهم النهر لبناه هناك يضرب الحق تعالى عليهم وعلى جماعتهم سرادقات الحفظ من سائر الشياطين والآفات .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : آفة مسلكى هذا العصر أن أحدهم يقول لمريدك إذا قرب منك الشيطان فاصرخ عليه باسمى إلا أن (   )(١) بحكم الإرث للامام عمر رضى الله تعالى عنه فإن الشيطان كان يهرب من ظله رضى الله عنه انتهى .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول :

ليس السر الذى يطرد إبليس يكون من الشيخ ، وإنما السر فى صحة ارتباط المريد بالشيخ واعتقاده فيه أن الله تعالى يطرد عنه إبليس ببركة شيخه ، وقد قال الله تعالى : «أنا عند ظن عبدى بى» انتهى .

وهو كلام نفيس ولكن من كمال الشيخ أن يكون على قدم الاستقامة ليس عنده ميل إلى معصية ، فإن الشيطان لا سبيل له على من لا يميل إلى المعاصى جمله من المعصومين والمحفوظين ، وأما غير المحفوظ ، فله عليه السبيل ، وإذا كان لإبليس على الشيخ سبيل قل النفع به ضرورة ، وذهبت خصوصيته التى صار بها شيخا .

(١) مطموس من الأصل .

وأما قول الأستاذ أبي القاسم الجنيد :

وكان أمر الله قدرا مقدورا لما قيل له أيزني العارف فهو في غاية التحقق ، فإنه رضي الله تعالى عنه ترك باب عدم الحفظ للولي أدبا مع القدرة الإلهية مع أن ذلك نادر وقوعه جدا من أهل ولاية الاصطفا الذين منهم مشايخ القوم في كل عصر فافهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة زجرهم لأصحابهم من الأمراء والمباشرين وغيرهم إذا سمعوا أحدا منهم يجعلهم من الاولياء والصالحين

لأن ذلك من الغرور أو الجهل وإن كان ذلك مطلوبا من المريدين كماتقدم بسطه أوائل الكتاب ، ومن أين يعرف أحد من الأمراء أو التجار أو المباشرين الولي والصالح ، وأحدهم لم يدخل دائرة الولاية قط ، ولا أشرف عليها .

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

من أقر أحد من إخوانه على اعتقاد الولاية فيه جزما ومال إليه جره ذلك إلى المقت وسمع مرة فقيها يدعوا عقب قراءة الختم بقوله :

اللهم ثواب ذلك في صحائف شيخنا القطب الغوث سيدي أفضل الدين ، فصاح به صيحة كاد أن يشق قلبه .

وقال : لولا أعرف أنك جاهل ما حصل لك معي خير ، فإن حكم أحدنا إذا نسب إلى الولاية حكم من يخرج في بابه الخيال في صفة قاضي أو أمير ، فيضحك الناس عليه ، ولولا أن أولياء الله تعالى من أصحاب التوبه يجعلون هؤلاء المتمشيخين وأصحابهم كأهل يابه الخيال ، لأدبوهم ، ومقتوهم لأنهم لا يحملون إقامة ميزان الأدب عليهم أنتهى .

فإياك يا أخي ثم إياك أن يبول الشيطان في أذنك وتظن أنك صرت من أولياء الله تعالى ، فإن ذلك جهل وغرور فإن الجمهور كلهم أجمعوا على أنه لا يصح لولي أن يعرف بولاية نفسه ، ولو علمها كان من الأدب أن لا يدعيها في نفسه إلا أن يؤمر بذلك ، كسيدي عبد القادر الجيلي والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم لكل من أحب طائفة القوم وإن لم يلحق بهم

ويحبون جماعة أقرانهم ، ويودون لهم كل خير فى الوجود ، ويسألون الله تعالى لإخوانهم أن يرفع إسمهم ، ومقامهم فى الدنيا والآخرة على مقامهم وإسمهم ، وذلك من أكبر علامات صدقهم فى الطريق .

عكس ما عليه الكذابون الذين ظهروا فى هذا الزمان .

فقل ما ترى أحدا من أصحاب شيخ يحب جماعة الشيخ الآخر بل ينظر أحدهم إلى أخيه شزرا كأنه فى دين غير دينه .

وقد كان سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى يقول :

من علامة انتفاع المريد بشيخه أن تذهب عنه رعونات نفسه ببركة صحبته ، ويصير هادى الطبقة كالملائكة ليس له لسان ، ولا يد ، ولا يقع فى نقيصة فى أحد بل يعتقد الكمال فى الناس كلهم وأما من حرج مقراضا من صحبة شيخ فى الناس من أهل الخرقة وغيرهم لا يعجبه أحد فذلك من علامة استحكام المقت فيه ولو كان شيخه حاضر التبرأ منه ومثل هذا لا ينتج على يد أحد ولو كان من أكمل الناس انتهى .

وقد ظفرت فى عمرى كله بثلاثه أنفس من أهل الصدق ممن لا يعتقد فى أحد من أقرانه سواءا وهم سيدنا ومولانا سليمان الخضيرى ، والشيخ شهاب الدين السبكى ، والشيخ إبراهيم الذاكر رضى الله عنهم ، فما سألتهم قط عن أحد من شرار الناس إلا قالوا : ونعم من فلان ، ثم يذكرون صفاته الحسنة عكس ما يذكره جميع الناس عن ذلك الشخص والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن يكتموا عن إخوانهم حوايجهم

حتى يخفون عنهم كون أحدهم يريد أن يشترى قمحا أو حطبا ، ونحو ذلك من سائر ما يحتاجون إليه ، إذا علموا من أصحابهم أن أحدهم يبادر إلى شراء ذلك من مال نفسه ، أو يساعدهم فى ثمنه حملا للكلفة ، والمشقة عن أصحابهم ، وربما تكلف أحدهم واشترى ذلك بدارهم فيها شبهة أو بغير نية صالحة ، فيؤذى الشيخ ، ويؤذى نفسه ، ويضيع ماله بغير طريق شرعى ، وفى الأثر : « أن الله تعالى لا يقبل من العبد إلا ما كان طيبا وابتغى به وجه الله تعالى » أنتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يفتح أحدهم علي نفسه باب قبول الرفق من الناس ثم يفرق ذلك علي الناس ولا يأخذ منه شيئاً

فإن إبليس بالمرصاد لمثل ذلك ، فربما استدرجه إلى محبة نشر صيته بالزهد ، والورع ، والعفة ، فتميل نفسه إلى ذلك فيهلك ،ومحل ذلك أن يتكدر إذا بلغه عن أحد من أعدائه أنه يحمله على الرياء ، والنفاق ويقول : إنه لبق فى العبد ، وما كل أحد يعرف يصطاد الحرام والشبهات مثله ، فإن تكدره من مثل ذلك يدل على ريائه ، إذ الصادق هو من لا يبالى بذم الناس فيه .

فليمتحن من يدعى الصدق فى ذلك نفسه بهذه الميزان فإن رأى نفسه تتكدر من مثل ذلك فليستغفر الله تعالى وليتب من ذلك كما يتوب من الرياء بل أعظم .

وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الخامس عشر من كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن لا يتعاطوا سبباً يميل إليهم أبناء الدنيا إلا لغرض صحيح شرعي

لأن كل ما لا يبتغى به وجه الله تعالى ، فهو مضمحل .

فليحذر الفقير من أن يكثر من مجالسة أبناء الدنيا ، ويقرهم على الكلام اللغو فإن ذلك ربما جرهم إلى الغيبة فى الناس ، وربما يقول لمن بعد له فى مثل ذلك إنما أسامحهم فى ذلك ليميلوا إلى ، حتى أسارقهم بالنصح والتربية ويستدل بأنه ﷺ كان يجالس أصحابه ، وكانوا إن تكلموا فى أمر الدنيا تكلم معهم ، وإن تكلموا فى أمر الآخرة تكلم معهم ، وكان لا يحزرهم إلا عن حرام لأننا نقول له : هات لنا جماعة مثل رسول الله ﷺ ومثل أصحابه ، وأين الشياطين من الملائكة ، وأين المعصوم أو المحفوظ مما يلعب به إبليس[1] .

وقد قال العلماء :

من شرط القياس أن يكون بين المقاس والمقاس عليه علة جامعة فافهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : ومن شأن المريد : التباعد عن أبناء الدنيا ، فإن صحبتهم سم مجرب لأنهم ينتفعون به وهو ينتقص بهم ، قال الله تعالى ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، .
وأن الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقربا إلى الله تعالى وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا بالله تعالى .

ومن أخلاقهم : إذا توسط أحد لهم في شئ للفقراء من قمح أو عسل أو رزقه أو جوالي أو غير ذلك أن يشركوه معهم في ذلك بشرط الحل فيه فإن ذلك من الإنصاف

وهذا الخلق قد بخل به كثير من الطماعين المتشبهين بالفقراء ، فينصب لهم شخص عند الأمراء وغيرهم ، ويوصل إليهم ذلك بتمامه ، وكماله ، ثم يحرمونه منه ، ولا يعطونه شيئاً لأولاده ، فيملأ الدنيا عليهم ، ويمزق أعراضهم .

وقد رأيت بعض الفقراء الملاح إذا أتاه شخص بشئ من نحو ذلك يقول له :

يا أخى هذا من كسبك وتعبك ، وأنا لم أتعب فيه ، فخذه ، ثم بعد ذلك إن سمحت نفسه وأعطاه شيئاً منه قبله ، وإلا أعرض عنه .

فكن يا أخى من أهل الإنصاف والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم في حال كمالهم طلب حوائجهم من الله تعالى فى الدارين من باب الفضل والمنة

لا فى مقابلة (   )[1] خلقكم وما تعلمون ، فالفضل للخالق الذى هدى إليه الخلق محلا لتصريفه فيهم بما أخبر عن نفسه بأنه يحبه منهم من التوبة والطهارة مثلا فى نحو قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين[2] »

ومحك الصدق فى التخلق بهذا الخلق أن لايحس بتقربه بالطاعات زيادة على حاله عند فقدها بل يتساوى عنده الحالان ، ومتى وجد أنسا وتقريبا فى الطاعات أو فقد ذلك بفقدها فهو لم يشم من مقام الكمال ذرة .

ومن كلام ابن عطاء الله .

من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل انتهى .

فإذا بلغ العبد مقام الكمال رجح الطاعات على المعاصى بترجيح الحق جل وعلا لابنفسه ، وإن كان الكل خلقه تعالى فافهم .

---

(١) مطموس من الأصل .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٢ .

وقد قدمنا أن من أخلاق الفقراء أن يفتحوا العمل الصالح كله على اسم سيدنا رسول الله ﷺ من حيث أن الثواب له بالإصالة ، فلا يرون العمل ، وثوابه لهم أصاله ، ثم يهدونه إلى رسول الله ﷺ كما يقع فيه كثير من الناس لأن ذلك يطرق صاحبه المنة على رسول الله ﷺ ولا يخفى ما فى ذلك من سوء الأدب ، فعلى كل حال ليس للعبد أن يشهد له استحقاقاً لذلك الثواب بالعمل الواقع على يديه ، لأنه لا يخلوا أن يشهد كونه خلقاً لله تعالى ، ولا ثواب له ، وبالأصالة لسيدنا رسول الله ﷺ فلا ثواب له أو كونه عبد الله فالعبد لايستحق على سيده شيئاً وما بقى إلا أن يطلب ذلك الثواب من باب المنة والفضل لميزانه السابق آنفا أظهاراً للفقراء والفاقه .

ومن قال لا حاجه لى بثواب فهو كاذب مع اظهاره الغنى بذلك عن فضل الله تعالى، ولا يخفى ما فى ذلك من سوء الأدب وقد قال تعالى : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد[1] فافهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم محبة كل من زاد عليهم في الطاعات من إخوانهم أكثر من محبتهم لنفوسهم تبعا لله عز وجل

فإنه يفضل من بينهم من كان أكثرهم طاعه له ، فكل من أحب نفسه أكثر مع كونها أقل طاعة فقد خالف طريق القوم .

وهذا الخلق لا يصح التخلق به إلا لمن زال عنه حب الرياسة ، والا فمن لازمه غالباً التكدر ، ممن يزيد عليه فى الطاعات فضلا عن محبته له لكونه يطفئ نوره بين الناس ، ولايصير له كبير طاعة يتميز بها .

فعلم مما قررناه أن من علم من نفسه يقينا أن طاعاته لله تعالى أكثر من أخيه ، فلا حرج عليه فى محبته نفسه من حيث كونها أكثر عبادة لربها من التجريد فى المعانى والبيان فشاباش[2] للفقراء الصادقين الذين يريدون وجه الله تعالى ويدورون مع كل شئ يحبه الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة فاطر آية : ١٥ .

(٢) نوع من التحية للفقراء الصادقين .

ومن أخلاقهم الفرح بالفتح على مريديهم إذا فارقهم بغير فتح عقب غضبهم عليه مثلا

ثم فتح عليه على يد أحد من أقرانهم ، يفرحون بالفتح لذلك المريد على يد غيرهم أكثر من فرحهم به إذا أوقع الفتح على يدهم ، لأنه إذا وقع على يدهم لابد فى الغالب من شهود الفقير نسبة الفتح إليه ، ولو لحظة وإن ذلك إنما لحسن تربيته ، ومعرفته بطريق السلوك ، وفى ذلك رائحة من الشرك الخفى بالله عز وجل .

بخلاف ما إذا وقع الفتح على يد غيرهم لا يكاد أحد منهم ينسب إلى نفسه شيئاً من ذلك .

فليمتحن من يريد معرفة كونه صادقا نفسه بذلك ، فإن رآها تنشرح بحصول الفتح على يديها فليحكم على نفسه بالرياء ، فإنه الصادق ليس مقصوده إلا حصول الهداية للخلق بأى وجه كان .

وهذا خلق عزيز وجوده فى هذا الزمان اللهم إلا أن ينشرح بحصوله بفضل الله تعالى ، ورحمته عليه حيث جعله أهلا يفتح على يديه لأحد ، فهذا لاحرج عليه ولا يقدح فى إخلاصه إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن ينشرح صدر أحدهم إذا ابلغه أن الناس يقولون عنه أنه لم يرث من مقام شيخه إلا الدعاوى فقط وإن فلانا هو الذي ورث حال الشيخ وسره

ومتى انقبض خاطر أحدهم ممن يفضل على أقرانه الذين أخذوا عن شيخه عليه ، فهو دليل على الرياء والنفاق .

فإن الصادق من شأنه أن يحب نسبته إلى الرياء ونسبة أقرانه إلى الإخلاص لأنه لا يراعى ، ولا يراقب إلا الله تعالى دون الخلق، فكلما نسبوه إلى الرياء انشرح ، وكلما نسبوه إلى الإخلاص انقبض كل ذلك خوفاً على نفسه أن تميل إلى مراعاة الناس مع الله تعالى ، فيشرك به .

فليمتحن الصادق نفسه بما إذا سمع الناس يقولون عنه ، وعن جماعته أنهم شياطين أبالسة نصابون ، وأنه ماورث شيخهم فى المقام إلا فلانا وجماعته .

فإن انشرح لذلك فهو صادق ، وإن انقبض ، فهو مدع كذاب .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

من علامة اخلاص الفقير إذا مات شيخه وبرز شخص من أقرانه بعده أن يتلمذ هو له ، وجماعته ويقول :

الحمد لله الذى كفانا هذا الأمر وحال بيننا وبين آفات التصدر والمشيخة بوجود أخينا فلان[1] انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم للخروج من الناس في الاستسقا

فلا يخرج أحدهم حتى يفتش نفسه ، ويتوب ، ويندم على كل ذنب فعله طول عمره، ثم يخرج ، وهو خجل من الله تعالى مستشعر أن سبب القحط والغلاء الواقع بالناس ، إنما هو ذنوبه فقط كما درج عليه السلف الصالح ، كمالك بن دينار ، والفضيل بن عياض ، وسفيان الثورى ، واضرابهم .

وقد تقدم أنهم طلبوا مالك بن دينار مرة ليخرج معهم للاستسقاء ، فأبى .

وقال : أخاف أن تمطر السماء نارا أو حجارة على الناس بسبب خروجى معهم ، وأخرجوه مرة كرها ، فصاروا يستسقون ، فلا يسقون .

فقال : أنتم تستبطئون المطر ، وأنا استبطئ الحجر .

وكان سفيان الثورى إذا أمطرت عليه سحابه ، وهو يملى الحديث يسكت .

ويقول : اصبروا حتى تمر هذه السحابه فإنى أخاف أن يكون فيها حجاره يرينا بها .

فإياك يا أخى أن تخرج إلى الاستسقاء فيمطر الناس ، فتظن أن ذلك ببركة دعائك ،

---

(١) يقول الإمام القشيرى :
ومن آفات المريد : ما يتداخل النفس من خفى الحسد للإخوان ، والتأثر بما يفرد الله عز وجل به أشكاله من هذه الطريقة ، وحرمانه إياه ذلك وليعلم أن الأمور قسم ، وإنما يتخلص العبد عن هذا باكتفائه بوجود الحق وقدمه عن مقتضى جوده ونعمه .
فكل ما رأيت أيها المريد قدم الحق سبحانه ، رتبته فاحمل أنت غاشيته ؛ فان الظرفاء من القاصدين على ذلك استمرت سنتهم :
واعلم أن من حق المريد إذا اتفق وقوعه فى جميع إيثار الكل بالكل ، فيقدم الجائع والشبعان على نفسه ويتلمذ لكل من أظهر عليه التشيخ ، وإن كان هو أعلم منه ، ولا يصل إلى ذلك إلا بتبريه عن حوله وقوته ، وتوصله إلى ذلك بطول الحق ومنته .

فإن ذلك غرور ، فإن الدعاء لا يقبل إلا ممن كان الله تعالى عنه راض كما قال تعالى « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى[١] » .

وكل من عصى ربه تعالى استحق رد دعائه إلى أن يتوب ويقبل الله توبته ، ومن اين يعلم أن الله تعالى قبل توبته ؟

وقد تقدم بسط ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إجابتهم إلي الوليمة التي فيها أحد من أقرانهم وفرحهم أكثر من انعدام دعوتهم بالحضور

لأن الصادقين يعدون الاجتماع بإخوانهم يوم عيد ، ثم إذا دخل أحدهم ، ورأى أحدا من أقرانه قد سبقه لا يجلس ، حتى يقبل رجله أو ركبته ، ويظهر الذل والمسكنة بين يديه ، حتى يفهم الحاضرين أنه لايصلح تلميذاً له ، ثم يجلس بين يديه لا يجنبه ، حتى يعزم هو عليه بذلك ، ويجعل الحضرة كلها له .

وهذا الخلق لا يفعله إلا من تصفى من الرعونات كلها .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى إذا دعى إلى وليمة ، وقد حضر فيها أحد من مشايخ العصر لا يدخل ، حتى يستأذن ذلك الشيخ ، وتارة يؤثره على نفسه بالمشيخة فى تلك الوليمة ، ثم يستأذن صاحب الوليمة ، ويرجع منشرحا سائلا ربه عز وجل أن يستر ذلك الشيخ فى ذلك المحفل ، وربما يظن الناس أن بين الشيخين وقفة ، حين رأوه رجع ، وليس كذلك .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : كل فقير لا يصلح أن يخرج مع الناس فى الاستسقاء تنكسر نفسه أن يتلمذ لأحد من أقرانه ، فهو متكبر لا يصلح أن يخرج مع الناس فى الاستسقاء ، ولا أن يعتقد فيه الصلاح ، لأنهم ربما منعوا المطر بسببه ، فليتب هذا الشيخ ، ثم يخرج ، وليحذر من ظنه أن الناس يسقون بدعائه فإن ذلك الفقير إذا مر بمكان مر قريبا .

وسمعته مرة يقول : من علامة المدعى بغير حق للطريق أن يرى نفسه هو الشيخ الحقيقى فى البلد مثلا ، وغيره هو المدعى لها بغير حق انتهى .

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٨ .

وقد رأيت شيخا دعى إلى وليمة .

فقال لهم : من هناك من المشايخ .

فقالوا له : فلان .

فرجع وقال : مثلى لا تطلع له طالعة .

فقلت له : فلأى شئ تطلب أن تطلع لك طالعة لم لا جعلت نفسك من أتباعه .؟

فقال : المؤمن لا ينبغى له أن يذل نفسه .

فقلت له : ليس فى مثل ذلك ذل إنما هو تواضع ، فلم يصغ إلى قولى ، ورجع ، فمثل هذا خارج عن الطريق من كل طريق ، فالله يغفر لنا وله والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم عدم إظهار الوقفة بينهم للناس

سترا للخرقة فإن إظهار ذلك فى غاية القبح لا سيما إذا دخل شيخ إلى وليمة ، فخرج الشيخ الذى كان دخل قبل ، فإن الناس يلوثون بهما ، ويقعون فى غيبتهما ، ويحصل لصاحب الوليمة غاية التشويش ، فعلى كل من الشيخين اللوم فى عدم رياضة نفسه إذ لو راض أحدهما نفسه لوسع الآخر ، فكان الذى سبق لا يخرج ، والذى دخل لم يدخل حتى صالح الآخر ، ثم دخل فدخوله عليه بلا تقدم مصالحة قلة سياسة .

وقد كان بين حسن بن سرحان والشريف بن هاشم وقفة فأنشد حسن :

أنا ونسيبى الشريف بن هاشم محبين جهرا مبغضين السرايرة

فانظر يا أخى إلى أخلاق العرب كيف يظهر كل واحد منهما المحبة لأخيه بين الناس ، حتى لا يشمت به عدوه ، مع أنهم معدودون من جملة الجهلة ، فأهل العلم والصلاح بهذا الخلق أولى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يحثوا أصحابهم على تنبيههم لهم كلما وقعوا في شئ من الأحوال الناقصة ليتوبوا منه كما عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء

فعلم أن كل من قال لأصحابه احملونى على المحامل الحسنة فقد أغلق على نفسه باب النصح من إخوانه ، وذلك خلاف ما كان عليه السلف الصالح .

وقد كان الإمام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يذهب إلى دار حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه ، ويقول له :

يا حذيفة أنظر هل فى شئ من النفاق ، فإنك كنت تعرف المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ ؟

فيقول له حذيفة : والله يا أمير المؤمنين لا أعلم فيك شيئا من النفاق .

فيقول الحمد لله ، ثم يرجع .

وقال يوما لأصحابه : ماذا تفعلون بى إذا اعوججت عن الطريق ؟

فقالوا : كنا نضرب هامتك بالسيف إن لم تستقم[1] .

فقال : هكذا كونوا مع أصحابكم .

وتقدم عن سفيان الثورى أنه كان يقول لأصحابه : لا تقتدوا بى فى جميع أحوالى فإنى رجل مخلط فى دينى .

وأما ما نقل عن بعض أهل الطريق ، من أنهم حثوا أصحابهم على الاعتقاد فيهم ، وعلى حملهم على المحامل الحسنة ، فذلك ليخلصوا أصحابهم من سوء الظن بهم ، فلا

---

(١) قال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة)
وقال تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام (وأنصح لكم) وعن هود عليه السلام (وأنا لكم ناصح أمين) وفى الحديث : عن أبى رقية تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : الدين النصيحة .
قلنا : لمن ؟
قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، رواه مسلم وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم) متفق عليه .
وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) متفق عليه .
وعن أبى الوليد عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله تعالى فيه برهان وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم) متفق عليه .

يحصل لهم بعد ذلك نفع على يدهم ، أو ذلك فى حق من كان محفوظاً من الرذائل ، كالشيخ عبد القادر الجيلى وسيدى أحمد بن الرفاعى وأضرابهما ، فمن وصل إلى مقام هذين الشيخين ، فله أن يقول مثل ذلك لأصحابه .

وقد أخبرنى من أثق به أنه شهد شخصا من المدعين أنه يقبل المرأة الأجنبية ، ويقول لأصحابه : إياكم أن تنكروا على ، فإن لى حالا مع الله تعالى خلاف ماترون انتهى .

ومثل هذا من جملة حزب إبليس الداعين إلى الضلال ، ويجب على كل من بلغه خبره أن ينفر الناس عنه بقدر طاقته والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم اغترار أحدهم بكثرة أتباعه

بل يحزنون إذا كثر أتباعهم ، لإيمانهم بأنهم يسئلون عن حقوقهم يوم القيامة هل وفوا بها أم لا ؟

فمن شأنهم أن ينظروا للذى عليهم أولا دون الذى لهم أولا إلا على وجه الشكر لله تعالى فى تكبيره لأحدهم بين العباد من حيث جعله رأسا وله أتباع .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

من علامة المغترين أن يفرح أحدهم بجماعته إذا كثروا ، وينقبض خاطره إذا قلوا الالغرض شرعى .

وسمعته يقول أيضا : لو أن الشيخ بالغ فى نصح الفقراء الذين حوله لنفروا بأجمعهم عنه ولكنه غشهم ، فكثروا حوله ، وقد وقع لبعض أخواننا أنه نزل الريف يطوف البلاد على اسم أنه يرشد الناس للطريق ، فصار الناس يطبخون له الطعام الواسع ، ويتكلفون له فى بلاد الغربية ، فدعاه جماعة من بلاد الشرقيه أيام الشعير ، فصاروا يحمصون للشيخ الشعير ، والفريك فى الفرن ، ويطبخون له الفول الأخضر بالرب .

فتفرق عنه أصحابه ، وكانوا نحو ثلاثمائه فبقى معه واحد اسمه أويس ، فغافله وهرب الآخر هكذا حكى لى هو ، فعلم أن جميع من كان حوله فى بلاد الغربيه إنما كان حوله لأجل بطونهم لا غير ، وإن دعواهم أنهم من المحبين للشيخ كذب محض .

وقد أجمع الأشياخ على أنه ماتم حالة للعبد اعلا من اشتغاله بالله وحده ، وإن اشتغال العبد بإرشاد الخلق ، وإن كان فيه خير ، ففيه رائحة اشتغال بالكون عن الله تعالى فتم مقام كامل ومقام اكمل ، ومن فهم معنى سورة : « إذا جاء نصر الله والفتح » علم ما قلناه يقينا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم كثرة البكاء والنوح على عدم البكاء عند تلاوة القرآن الكريم

لاسيما فى الأسحار ، فإن ترك البكاء من قساوة القلب ، وذلك من أكبر علامات الشقاء .

وقد قل التخلق بهذا الخلق ، حتى لا صرت لا ترى باكيا من الفقراء الا قليلا .

وقد بكى جماعة من الفقراء فى مجمع ، وهناك فقير لم يبك .

فقالوا له : لم لا تبكى مثل اخوانك .

فقال : هؤلاء أقوام ضعفاء الحال ، ونحن بحمد الله قوينا على تحمل مثل ذلك ، فينبغى التسليم لمثل هذا ، وهو أولى من تكذيبه بين الناس .

وقد كان فى وجه الإمام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خطان أسودان ، وكذلك عثمان وعبد الله ابن عباس رضى الله تعالى عنهم .

وكان الرسول ﷺ إذا صلى فى الليل يسمع لصدره أزيز كأزيز القدر المغلى فيه الماء، أو الرحى من شدة كتمه البكاء(١) .

وبكى السيد داود عليه الصلاة والسلام من خشية الله تعالى ، حتى نبت العشب من دموعه .

وكان الإمام عمر بن عبد العزيز إذا بكى ينثر دموعه حوله حتى يظن الداخل أن ذلك من ماء الوضوء ، وبكى مرة فوق سطح ، فجرى الماء من دموعه ، حتى نزل من الميزاب على وجه ضيف كان نائما تحت الغرفه .

---

(١) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ (إقرأ على القرآن) .
فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل .
قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى .
فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .
قال : حسبك الآن .
فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان . متفق عليه .

وقد بسطنا القول فى البكائين خوفا من الله تعالى فى كتاب هدى السلف الصالح فراجعه والحمد الله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إخراجهم للضيف مايجدونه ولو كسرة يابسة من جريش الشعير

ولا يستحيون من اخراجها ، ولو لأكابر الأمراء .

وإذا كان الضيف ممن يعتقد الصالحين ، فإنه يجد فى تلك الكسرة لذة عظيمة لايعادلها لذة .

وقد أخبرنى الشيخ سليمان الخضيرى : أن جماعة من أكابر الدولة دخلوا على شيخه سيدى أحمد المرحومى زائرين ، فأخرج لهم كسرا يابسة وفتها لهم فى طعام بايت ، فأبت نفوسهم أن يأكلوا من ذلك ، فلحقهم القولنج فى الطريق فنزلوا من على دوابهم ، واضطجعوا من شدة الوجع ، فأرسلوا قاصدهم للشيخ ، فأرسل لهم الطعام البايت ، وقال: كلوا منه تشفوا ، فأكلوا منه فشفوا لوقتهم ، فتابوا ، واستغفروا ، ومن ذلك اليوم ما قدم لهم فقير شيئا حلالا إلا وأكلوا منه فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة حثهم للفقراء المقيمين في زاويتهم علي كثرة الذكر لله تعالي وتلاوة القرآن العظيم وقراءة الحديث والفقه من حيث كونهم رعيتهم

ولا يمكنوهم من القراءة على غيرهم إلا لضرورة ، ويرسلوهم لمن يكون من أهل العمل بما يعلم دون المجادلين بغير عمل فإن القراءة على مثل هؤلاء يزيدهم جدالا ، وعدم احتفال بالعمل بما يعلمون إذ الولد سر أبيه .

وكان الشيخ أبو العباس الغمرى يرسل جماعات للشيخ أحمد بن الأقطع البرلسى رضى الله عنهما يقرعون عليه ، لكونه كان رجلا صالحا يأكل من عمل يده من الحياكة ، وكانوا يقرؤن عليه فى فقه الأربع مذاهب ، وهو فى النول ينسج القطن ، والصوف ، وتارة يرسل وراء إلى المحلة الكبرى ، فيقيم عنده الأشهر ، والناس يقرءون عليه ، وإنما كان سيدى أبو العباس لا يقرئ جماعته لاشتغاله بمهمات الناس من المكروبين .

وأيضا فإن الشيخ إذا اشتهر سار أسير الأرباب الأحوال والحوائج ، والشفاعات ، فلا يصير له وقت فراغ لإقراء علم ، وإلا فقد قدمنا أول الكتاب أن من شرط الشيخ أن يكون عالما بالكتاب والسنه بحيث يكفى أصحابه فى العلوم الشرعية ، وإن من لم يكن عالما بهما فليس بشيخ ، ومالنا معه كلام والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم حثهم لأصحابهم على كثرة تلاوة القرآن الكريم احتسابا لله عز وجل

ولا يأخذون عليه عرضا من الدنيا إلا الحاجة شرعية خوفاً من نقص أجورهم ، فإن من قواعد طريقتهم أن يقصدوا بكل عبادة التقرب إلى الله تعالى دون الاغراض الدنيوية ومن يقرأ القرآن الكريم بالفلوس ربما نقص أجره .

وقد كثرت قراءة القرآن الكريم بعوض فى هذا الزمان ، حتى من شيخ الحضور فى الزاوية ، وذلك ينافى شهامة أهل الطريق ، وهو خلاف مادرج عليه مشايخ الطريق ، والذين أدركناهم فى النصف الأول من القرن العاشر فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم اعتمادهم على معلوم من رزقة أو جوالى أو هدية من حلال أو نحو ذلك بل هم معتمدون على الله تعالى دون الأسباب

وقالوا : إذا أقبل العبد على عبادة ربه خالصاً سخرت له الدنيا وأهلها وأخذ منها كفايته وإن شاء ردها وطوى الأيام المتوالية خوف الفتنة فإن الفقراء إنما يتركون الدنيا فى بدايتهم إختياراً لا اضطراراً وذلك لأن من تركها اضطراراً لا يسمى زاهداً فيها والزهد فيها أعظم أركان الطريق إذ لايصح لعبد الكمال فى شئ من عمل الآخرة إلا بعد الزهد فيها وفى جاهها ، ورياستها .

فاعلم ذلك يا أخى واسلك طريق المتوكلين الذين لا تهم عندهم لربهم فى رزقهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة حيائهم وخجلهم من سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ إذا كان لهم ورد في الصلاة عليه في وقت مخصوص وحصل لهم تعويق عن فعله في ذلك الوقت

من حيث أنه ﷺ ربما يصير منتظراً لذلك العمل بتقدير التفاته إليه وكثيراً ما يقع لى مثل ذلك ، فأصلى عليه أضعاف ما كنت أصلى عليه فى ذلك الوقت ، ولا أرى أنى وفيت بحقه ﷺ من حيث استشعارى انتظاره ﷺ لصلاتى عليه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يكره توقيت الأذكار التى لم يعين الشارع لها وقتاً ويقول :

من الأدب : أن العبد يذكر الله تعالى كلما وجد عنده إداعية ، وإلا فربما صار يذكر بحكم العادة من غير حضور فلا يحصل له به مقصود الذكر فاعلم ذلك يا أخى واعمل به والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لزوجاتهم وعدم الغفلة عن تعليمهن أحكام دينهن من طهارة وصلاة وصوم

وقد قالوا يعرف قدر نفع الفقير لإخوانه من رؤية نفعه لزوجته ، وجيرانه الأقربين به بشرط نصحهم[1] قال الله تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين[2]» . فمن لم تنفعه الذكرى ، فإيمانه ضعيف ، وليس على المذكر إثم بعد أن ذكر من كان غافلا .

فذكر يا أخى زوجتك واذكر لها عقوبة ترك الصلاة إن لم تقبل ، وعقوبة جوارحها إن لم تكفها عن محارم الله تعالى .

وهذا الباب قد أغفله غالب الفقراء ، وطلبة العلم فتجد أحدهم يعانق زوجته ليلا ونهارا ، وهى جنب لا تغتسل ولا يخفى ما فى ذلك من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمنع من دخول الملائكة بيته ، واستحقاق العقوبات فى الآخرة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : قال (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) .

(٢) سورة الذاريات آية : ٥٥ .

ومن أخلاقهم كثرة شكرهم لله تعالى إذا جعلهم خداماً للفقراء القاطنين عندهم

ولا يخطر ببالهم قط منة عليهم بل يرون المنة للفقراء عليهم الذين أهلوهم لخدمتهم من طبخ ، وغربلة قمح وطحين وخبز وعجن وغير ذلك .

وقد من الله تعالى على بهذا الخلق من نحو سبعة وثلاثين سنة إلى وقتى هذا ، فلا أرى لى بحمد الله تعالى فضلا على أحد منهم بل أرى استعماله تعالى لى فى ذلك غاية الفضل لأنه عنوان على محبة الله عز وجل كما أشار إليه خبر (الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله) فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم تخصيص أحدهم نفسه بغير طريق شرعى بشئ من الهدايا التى تأتى إلى الزاوية لا سراً ولا جهرا

وبذلك تدوم محبة الفقراء للإقامة عندهم ، فإنهم إذا رأوهم يتخصصون عنهم نفرت نفوسهم منهم ، ومن الإقامة عندهم ، وقل اعتقادهم فيهم ضرورة .

وقد تناظر كلب السوق ، وكلب الصيد .

فقال له كلب السوق : أنت كلب وأنا كلب فلأى شئ يطردونى إذا رأونى ، وأنت يجلسونك فى مجالسهم ، وعلى فرشهم ، فما الفرق بينى وبينك .

قال : الفرق ظاهر فإنى أصطاد لهم ، وأنت تصطاد لنفسك انتهى .

فالعاقل من اعتبر والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : مساعدة الخادم والنقيب في تنقية الطحين وعجنه وتقريصه ورصه وخبزه إذا رأوهم محتاجين إلي مثل ذلك

وكان على هذا القدم سيدى إبراهيم المتبولى وسيدى عثمان الحطاب وسيدى أبو الحسن الغمرى . وقد رأيته وأنا مجاور عنده يقرص العجين ويوقد تحت الفرن ويغسل الأوانى ويكنس البيت ويقطع اللحم بالسكين ويقول :

هكذا رأيت والدى رحمه الله يفعل وكذلك (   )[١] وسيدى أحمد الزاهد رضى الله عنهم أجمعين .

وفى ذلك فوائد منها :

مشاركة الخادم فى الأجر كما كان رسول الله ﷺ يفعل .

ومنها رفع كلفتهم خدمتهم له .

ومنها تنشيط قلوب الفقراء للخدمة إذا رأوا الشيخ يخدم .

فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم محبتهم لمجاورة العميان والأيتام والعرجان والأرامل وكل عاجز عندهم

لأن أحدهم إن كان صادقا فى الطريق ، فهو يرى نفسه فى المقام تحتهم[٢] لكون الحق تعالى عندهم كما قال الله تعالى « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » .

وإن كان غير صادق فى الطريق ، وإنما هو من النصابين كان هؤلاء العاجزون أعون له على النصب ، لأنهم له كالشبكة للصياد يصطاد بهم الدنيا من الصدقات ، والهدايا ، ويصير الناس يقولون : فلان له عائلة كثيرة ، ولا لهم شئ يقوم بهم ، وما فى زوايا البلد فقراء أكثر من فقراء زاوية فلان ، ومن هنا كره بعض العارفين إقامة المجاورين عنده .

وقال : من لبس مرقعه ، فقد سأل ومن جلس فى زاوية بالفقرا فقد سأل انتهى .

ولكن ينبغى أن يقال فى مثال ذلك : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

وتقدم أن دليل القوة فى إقامة المجاورين عندهم تقريره ﷺ وسلم أهل الصفة على إقامتهم فى مسجده ﷺ ، وسيأتى ذلك فى الباب الحادى عشر أيضاً والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل .

(٢) عن حارثه بن وهب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر) متفق عليه والعتل الغليظ الجافى والجواظ بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة والجموع المنوع وقيل الضخم المختال فى مشيته .

ومن أخلاقهم : خزنهم قوت السنة فأكثر لأجل ضعفاء اليقين من الأرامل والعاجزين القاطنين عندهم

فإنهم لا تهدأ نفوسهم وتسكن من الاضطراب وتقبل على الاشتغال بالعبادة إلا بمثل ذلك .

وكان سيدى مدين وشيخه الشيخ أحمد الزاهد لا يخزنان شيئا من القوت وآلات الطعام ويقولان : إن الفقير إذا صار عنده قوته يصير الحق تعالى على باله أكثر مما لو احتاج إلى شئ وإذا خزن كل ما يحتاج إليه عنده ربما ينسى ربه عز وجل قال الله تعالى : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا إليه من قبل[1] » .

وقال تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه[2] » .

وقال تعالى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[3] » .

ولاشك أن نسيان الله تعالى من أكبر الكبائر عند القوم ، ومن هنا استخار ﷺ لأهله أن يكون رزقهم قوتا ، وفى رواية كفافا ، وذلك ليدوم توجههم إلى ربهم بالفاقة والحاجة ، فإن القوت الذى لا يفضل منه شئ فى غداء ولا عشاء ، والكفاف هو مايكف أحدهم عن سؤال الناس ، ولكل مقام رجال والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم كثرة ترقيعهم الثياب والعمائم

إذا لم يجدوا شيئاً يلبسونه جديداً من وجه يرتضونه ، أو ترقيعها لأجل إيثار إخوانهم عليهم بلبس الجديد ، أو ليقتدى الناس بهم فى القناعة من الدنيا باليسير ونحو ذلك من الأغراض الصحيحة .

وكذلك من شأنهم الطى والجوع إذا لم يجدوا شيئا يناسبهم فى الأكل من حيث الحل لا سيما أواخر أعمارهم .

---

(١) وتمام الآية : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) سورة الزمر الآية : ٨ .

(٢) وتمام الآية : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعلمون) سورة يونس آية : ١٢ .

(٣) سورة العلق آية : ٦ .

فإن الفقير إذا دخل فى معترك المنايا لا يصير كل طعام يناسبه أكله من حيث المزاج .

وكذلك ينبغى للفقير إذا طعن فى السن أن يزيد فى الورع ليأتيه الموت على ذلك .

وكل فقير لا يحصل له جوع ولا عرى ، فهو من أبناء الدنيا ليس له فى طريق الفقراء نصيب بل بعض الفقراء ربما كان أكثر أكلا وشربا وملابس من كثير من التجار والمباشرين .

ولما بلغ سيدى محمد الحنفى الشاذلى رضى الله تعالى عنه مابلغ من الملابس والمأكل وأتى الملوك إلى زيارته ، حتى كان الملوك عنده كآحاد الناس فكان تارة يأذن لهم فى الدخول ، وتارة لا يأذن لهم فسأل الله تعالى أن يميته على قوارع الطرق ، ومضاجعة الكلاب ، وأن لايموت ، حتى يصير القمل يسبح فى ثيابه ، ورأسه ولحيته ، فأجاب الله تعالى سؤاله ، ومات على هذا الحال ، وكان ذلك من جملة عناية الحق تعالى به ، حتى لا ينقص له رأس مال والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم الأكل من وقف زاويتهم إذا كان فيه شبهة كأن وقفه أحد من الأمراء الذين لا يتورعون

ثم إن كان أحدهم ناظرا عليهم صرفه كله للمستحقين ، ولا يأخذ منه شيئا لنفسه إلا لضرورة شرعية .

وكان سيدى على الخواص يقول :

لا ينبغى لشيخ الزاوية أن يخص نفسه بشئ عن الفقراء القاطنين فى الزاويه بل ، ولا يلحس منه لحسه .

وهذا الخلق قل من يفعل به فى هذا الزمان بل يفرح أحدهم إذا وقف أحد من الظلمه على زاويته شيئا .

وقد وقع أن شخصا أخبرنى أن فى وقف زاويتنا شيئا أخذ من غير وجه شرعى ، فسألت الله تعالى أنا والفقراء أن يعطل تلك الجهة التى فيها شبهة ، فاستجاب الله تعالى دعانا وعطل من الوقف جهتين ، فلم يقدر أحد من الجباة يأخذ منهما شيئا إلى وقتنا هذا فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لإخوانهم القاصرين من أهل الزواية حتي يصيروا يردوا ما يأتيهم من هدايا الولاة بطيبة نفس لا حياء من الشيخ أو خوفا منه

وذلك بأن يمهد لهم قواعد السلف الصالح فى الورع ، ويذكر لهم ما أعده الله تعالى لمن تورع فى مطعمه وملبسه كما ورد من أن الله تعالى يجلهم ، ويستحى منهم يوم القيامة أن يوقفهم للحساب كل ذلك لكونهم كانوا يخافونه بالغيب فى الدنيا ، فلايجمع عليهم خوفين ويذكر لهم أيضا تعظيم الملوك لمن زهد فى الدنيا ، وتقبيلهم أرجلهم بخلاف الراغب فى الدنيا ، فإن الشيخ حكيم الزمان ، فيرغبهم فى الورع تارة بالحظوظ الدنيوية ، وتارة بالحظوظ الأخروية إلى أن يقوى إيمانهم ([1]) الله تعالى تورع امتثالا لأمر الله تعالى لاغير واعلم أن هذا الخلق صار غريبا فى هذا الزمان فى غالب الأشياخ مع أنه من أخلاق المريدين .

وقد رأيت شخصا يلوم من لم يعطه من الزكاة كما أعطى غيره ، وذلك من أقبح ما يكون لأن من شرط الشيخ أن يكون أعف الناس ، حتى لا يقتدى أحد به فى شراهة النفس ، وإن قدر أن الشيخ قبل الدنيا ليفرقها على جماعته لمصلحة رآها ، فلا ينبغى له أن يأخذ من ذلك لنفسه ولا لولده شيئا لئلا يصير فى دناة الهمة كآحاد الناس ، فيخرج عن مرتبه المشايخ الذين يزعم أنه منهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم رضاهم بقراءة اخوانهم القرآن بالفلوس ليلة الجمعة في البيوت والقبور إلا بنية صالحه

فإن الفقير إذا رضع قلبه من محبة الدنيا عسر على الشيخ فطامه ، ولم يكن ذلك فى جماعة الأشياخ الذين أدركناهم فى النصف الأول من القرن العاشر إنما حدث ذلك فيمن بعدهم ، حتى أنك ترى غالب الزوايا الآن تخلوا ليلة الجمعة ، وصباحها من قارئ أو ذاكر اللهم إلا أن لا يكون فى الزاوية ما يقوم بأحدهم من اللقمة والخلقة كما أشرنا إليه بقولنا إلا بنية صالحة .

---

(١) مطموس فى الأصل .

فمثل ذلك لا يقدح فى الفقر الا سيما إن إبتلى أحدهم بعيال وأولاد . وقد أشار إلى نحو ذلك حديث : « أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى » فإنه نكر الأجر فيه ، فشمل الأجر الدنيوى والأخروى .

وإذا أراد الله تعالى عبداً لله لشئ هيأ له أسبابه ولا سبيل إلى فطامه عنه وقد سألت الله تعالى لكل مجاور يقيم عندى بنية الدنيا أن يحرمه الأكل مما يجمع عقوبة له ، فإنه لا ينبغى أن يجمع الدنيا إلا من كان يتاجر فيها بالبيع والشراء ، وأما الفقير الذى يظهر التجرد من الدنيا والزهد فيها وطعامه وشرابه موجود فى الزاوية شتاء وصيفا فماله ولجمعها ولذلك قال ﷺ فى فقير مات ووجدوا فى داخل إزاره دينارين فقال : « كيتان من نار » أى لأنه جمعهما على نية إمساكهما شحا على نفسه أو غيره ، ولو أنه أخذهما على نية إنفاقهما فى مرضاة الله تعالى من غير تلبيس لما كان عليه كيتين من نار والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم حسن سياستهم لمن شرد عنهم من أصحابهم واشتغل بالدنيا وتشرب قلبه حبها

وصار له زوجة جميلة ، وثياب حسنة ، وسبح فى الدنيا كسباحة فقراء الفقهاء ، وصار يجرى ليلا ونهاراً [(١)] ، فلا يقولون لمثل هذا إنك قد ارتددت عن طريق الفقر وانسلخت من الخير ، وصار على وجهك ظلمة وإنما يقول أحدهم له :

يا أخى إنك أو حشتنا كثيراً وكلما أتأمل فى الجماعة وهم يقرؤن فى الحزب ولا أراك يحصل لى وحشة فإنى أحب أن يكون وردنا كل يوم فى صحائف جميع أصحابنا ونحو ذلك .

فليحذر الشيخ من أن يزجر من خرج عن طاعته من المجاورين ، واستغنى عن اللقمة والجبة التى كان يأخذها من وقف الزاوية ، فربما فجر على الشيخ ، وصار يحط عليه فى المجالس وما حذرتك إلا مما رأيته من بعض أصحابى ، فإنه لما خرج عن أحكام المجاورة يصار يغيب الأيام المتوالية ، ويفوت قراءة العلم والورد معنا ، ويقيم

(١) يقول الإمام القشيرى : وإن ابتلى مريد بجله ، أو معلوم ، أو صحبة حدث ، أو ميل إلى إمرأة أواستنامة إلى معلوم، وليس هناك شيخ يدله على حيلة يتخلص بها من ذلك ، فعند ذلك حل له السفر والتحول عن ذلك الموضع ، ليشوشن على نفسه تلك الحالة . ولا شئ أضر بقلوب المريدين من حصول الجاه لهم قبل خمود بشريتهم .

الحجة على ويقول : لو طلبتمونى بالقلب لحضرت وكثيرا ما يأتينى ، فأصير اتكلف التبسم ، وأكلمه الكلام الحلو كما أفعل بالأجانب لعلمى بأنى لو كلمته كما أكلم المريد الذى هو تحت الطاعة لم يحمل ، والله تعالى يصلحه أو يبعده عن الزواية لئلا يتلف بقية فقراء الزاوية فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إلقاؤهم بالهم إلي الفقراء القاطنين عندهم

وتخولهم بالموعظة الحسنة ، وينبغى لهم أن لا يكلفوا الفقراء إلى ترتيب ورد زائد ، فإن النفس من شأنها الميل إلى الكسل ، والراحات ، والغش لصاحبها ، فلذلك كان الأشياخ هم الذين يرتبون لهم الأوراد التى تستغرق غالب الليل والنهار ، والشيطان للفقراء بالمرصاد ، فربما وسوس للشيخ وقال له :

لاتحثهم على الاشتغال بالكلية ينفروا منك فى هذا الزمان بل اجعل الأمر كرا وفرا ، فأصغى الشيخ إلى كلامه ، فأتلف جماعته ، وأهلكهم من كثرة الكسل ، حتى صار أحدهم يستثقل المكث فى مجلس الذكر عكس ما كان فى الزمن الماضى ، وإن جلس أحدهم فيه لا يجد للخير طعما .

فينبغى للشيخ شدة حث الفقراء على الخير ومعاتبتهم على كل خير فاتهم ، وهيهات أن يعملوا بقوله .

وقد من الله تعالى على بجماعة فى الزاوية يقرؤن القرآن ، ويذكرون الله تعالى ليلا ونهارا على التواصل فلا يغفل أحد إلا ويذكر آخر ، ومما وقع لى أن ثلاثة من الملائكة دخلوا على الخلوة ليلا فى المنام ، وفيهم واحد طوله نحو سبعة أذرع وألوانهم كألوان الزعفران .

فقال الطويل للقصيرين :

قد طفتم الليلة جميع الأرض مشارقها ومغاربها فهل رأيتم أكثر اشتغالا من أهل هذه الزاوية ؟

فقالا : لا .

ثم قال لهما : ما تقولان فى حماية مجلس الذكر الذى عندهم إلى أين يبلغ من ناحية القبلة ؟

فقالا : يبلغ إلى حد باب جامع الحاكم الذى من ناحية باب النصر .

فقال : ومن الشرق .

فقالا : إلى حد باب الشعرية الذى على يسار الخارج منه .

ثم استيقظت حامداً لله سبحانه شاكراً فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إذا عمر أحدهم زاوية أن يحرز النية الصالحة في عمارتها ليدوم الخير فيها بعده

فقد قالوا : إن الخير يدوم فى مكان الفقير بقدر عزمه فى الخير ؛ ونيته الصالحة أى غالبا ، وإلا فقد يختار الشيخ عدم الشهرة فى مكانه وخلوته كحاله فى حال حياته كسيدى أحمد الزاهد وسيدى يوسف العجمى ولا أعلم الآن خارج مصر من قراها أكثر اشتغالا عن زاوية سيدى أحمد البدوى وبعده زاوية شيخنا محمد الشناوى رضى الله تعالى عنه فى محلة روح وأما مصر فليس بعد جامع الأزهر فيها مكان أكثر خيراً ولا اشتغالا بالعلم والقرآن من جامع سيدى أبى العباس الغمرى ، فإنه عمره بإشارة سيدنا رسول الله ﷺ على لسان شخص من أولياء الله تعالى كان يبيع لبن المعز الحليب كما أخبرنى بذلك الشيخ أمين الدين الإمام به ، فقد أرسل سيدى محمد الغمرى خادمه إلى باب النصر وقال : قف بعد الصبح فإذا دخل إنسان معه معز يقول : يا لبن حليب فقل له : إن محمد الغمرى يسلم عليك ويقول لك : شاور له رسول الله ﷺ فى عمارة جامع بمدق الكتان قريبا من سوق أمير الجيوش فقال له : عاودنى غدا ، فعاوده فقال : قد أذن لك فعمر ، وتوكل على الله تعالى ، وإياك أن تبنى فيه طوبه فيها شبهة . انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم منع مريدهم من زيارة غيرهم مصلحة له

إذ لا يطلب مريد زيارة غير شيخه إلا لعلة نفسانية ، وأصل ذلك عدم رؤيته فى شيخه الكمال أواعجاب المريد بنفسه من جهة كثرة عبادته فى شهوده فتقول له نفسه زر فلانا لينظر حالك ، ويشكرك بين جماعته ، فيزدادون نشاطاً ، فيخرج حينئذ

للزيارة أنها بنية صالحة ، فيحصل له العكس ، والمقت ، ولو أنه غير معجب بنفسه لما اشتهت نفسه قط زيارة أحد بل كان يستحى أن يقابل الناس ، ويؤيده قوله ﷺ : « اعدوا نساءكم يلزمن قعور بيوتهن » . انتهى .

وسمعت سيدى محمد الشناوى رحمه الله تعالى يقول: قلت لشيخى سيدى محمد السروى يوما مرادى أزور فلانا، فنظر إلى شذرا، وقال: يا محمد إذا لم أكن أملأ عينك فلأى شيء جلعتنى شيخاً لك.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

من حكم المريد الصادق أنه كلما ازداد عباده كلما أزدادت نفسه تواضعا عنه عند نفسه ، حتى يصير كالذى كبسوه بفاحشة وجرسوه فى بلده ، وعلم به الخاص والعام . انتهى .

وقد سمعت أن فقير كان صاحب المطاوعة وترك المطاوعة طريقهم ، فصار يتعبد بين الفقراء فلا يقيمون له وزنا ، فاشتهت أن يزور أحدا ممن يشكره ، ويحمده فخرج للزيارة فرجع مركوبا لا بليس فنزع ثيابه وطلب أن يكون مجذوبا بنفسه من غير وارد إلهى ، فلولا حصلت فيه شفاعة لمزّق إلى الممات .

فلا تظن يا أخى أن أحدا من الفقراء الصادقين يمنع مريده من الزيارة لغرض نفسانى أبدا حاشاهم من ذلك كما مر بسطه مرارا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إذا عاتبوا مريدا أوائل صحبته لهم فلا يعاتبوه إلا بعد تمهيدهم له بساطا بحيث يفهم منه محبة الشيخ له

فإن العتاب للمريد المذكور على غفله ربما لا يحتمله ، فيصير يبحث عن نفسه ، فلا يحصل له بالعتاب فائدة .

وقد قالوا : كل مريد لا يعتقد فى شيخه أنه أشفق عليه من والديه ، ومن نفسه ، فبعيد عليه أن ينتفع بنصح شيخه أو بعتاب له ، فياسعاده من قبل لصح مربيه ، وقلده ، ويا شقاوة من أجاب عن نفسه ، فإن مربيه قد خرق ببصره إلى الدار الآخرة ، وعرف ما يقبل من الأعمال ، وما يرد ، وما يفرح العبد يوم القيامة ، وما يحزنه ، والمريد محجوب عن ذلك .

فكل شيخ يود لمريده ما يفرحه يوم القيامة كما يود له الحجاب الطبيعى ليريحه من التعب .

وقد قالوا : كل مريد لم ينخرق حجابه ، فياطول تعب شيخه فيه فاعلم ذلك أيها الأخ والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن يكون أحدهم متبحرا في العلوم

بحيث يدرس فى المذاهب الأربعة حتى لا يحوج مريده إلى القراءة على غيره كما مر بسطه مرارا .

ومن لم يقدر على تدريس مريديه فى المذاهب الأربعة ، فهو ناقص ، وربما قال للمريد : تمذهب بمذهبى حتى أدرسك فيه فلا يرضى المريد أن يوافقه على ذلك فيحتاج المريد إلى القراءة على غيره فتختلف عليه المشارب ، فلا يحصل له العلم من الشيخ فيعتقد المريد بنفسه أنه أعلم بمذهبه من شيخه فتذهب حرمة شيخه من قلبه .

وقد درج السلف الصالح كلهم على الاشتغال بالعلم حتى يصير أحدهم يقطع العلماء فى مجالس المناظرة ، وذلك ليكفى فى العلم من تلمذ له من أهل سائر المذاهب[1] .

وهذا الخلق قد صار غريباً فى هذا الزمان ، فعلم أن كل شيخ لم يكف مريده ، وتكدر منه إذا قرأ على غيره ، فهو صاحب رعونه لا يصلح أن يكون من أهل الطريق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حماية أصحابهم ممن يظلمهم

لأنهم ما استندوا إلى أحدهم غالباً إلا ليحميهم ممن يؤذيهم فى دار الدنيا لما رأوا الأمراء والأكابر يعتقدونهم ، ويترددون إليهم .

فمن لم يحم مريده ممن يؤذيه ، فهو ناقص اللهم إلا أن يكون المريد له صبر على تحمل الظلم ، والأذى ، فمثل هذا لا ينبغى للشيخ أن يتوجه إلى الله تعالى فى حمايته ، لقوته وصبره .

---

(١) والعلم الكسبى من أهم شروط التصوف بل إن حديث (من عمل بماعلم ورثه الله علم ما لم يعلم) يدل على ذلك فكيف يتأتى له العمل بما لا يعلم وهذا الحديث يعتبر من أساسيات المدخل إلى علم التصوف الإسلامى .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله تعالى يقول :

لا ينبغى لفقير أن يظهر للناس كرامة فى هذا الزمان إلا بقدر حماية أصحابه بين الناس ، فإن من لا كرامة له لا يحمى له صاحب .

وقد وقع لسيدى إبراهيم الجعبرى أن جماعة الوزير حبسوا حمول صابون جماعته لأجل المكس فأرسل للسلطان أن يحميهم من المكس فأبى ، وقال : هذا مال المعسكر ، فتوجه سيدى إبراهيم إلى الله تعالى فحبس بول السلطان فاحتالوا على ادرار بوله بكل طبيب ، فما قدروا ، وصار السلطان يتلوى كالثعبان ، وهو صائح ، فقالوا له : اعف عن صابون أصحاب الشيخ فعفى عنه ، فبلغ الشيخ ذلك ، فأرسل له ابريقا من ماء وقال استنج منه ففعل ، فأطلق بوله فى الحال فمن ذلك اليوم لم يعارض أحد من جماعته فى شئ .

وكذلك وقع لسيدى محمد الحنفى أنه حبس بول السلطان ، حتى استغاث به ، فأرسل له رغيفا مبسوسا ، فأكل منه فبرئ من وقته فإن كان معك يا أخى حال وتصريف فى رفع الظلم والناس تستند إليك ، فأتخذ لك أصحابا والا فلا تصحب أحدا خيرا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حمل تبعة زواياهم إذا كانوا نظارا عليه من تحكيم الظلمه والمفتشين علي جباته ومباشريه

وذلك إما بالحال أو بصرفه فى مصارفه الشرعية ، وعدم تخصيص أحدهم بشئ لنفسه أو ولده عن الفقراء ، فإن الناقد بصير .

وإيضاح ذلك أن الحماية الالهية لا تقع إلا لمن هو واقف فى مصالح العباد من الفقراء والمنقطعين أما من وقفه فى شئ من أمور الدنيا لمصالح نفسه فقط ، فلا يستحق من الله تعالى حماية .

وقد من الله تعالى على بالحماية لوقف زاويتى بمشى فيه بنور الله تعالى أنا وناسى والحياة له وقد رأينا غيرنا معه مربعات السلاطين ، ومع ذلك ، فلا يقدر على حماية وقفه من الظلمة ، لكونه يتخصص بغالبه ، ويتزوج منه ، ويلبس ، ويركب الخيول المسومة ؛ ويلون المطاعم .

وأخبرنى بعض جباته أن ثلث مال الوقف يخرج براطيل ومغارم للكشاف ، ومشايخ العرب ، والفلاحين ، حتى يصلوا إلى تخليصه ، وأنا أعلم وأتحقق أن لو تخصصت بشئ منه كغيرى لم يقدرنى الله على حماية شئ منه ، وكثيرا ما يزور فقراء الزوايا عنى المكاتبات للمكاسين ، ويمشون لهم على اسمى ، حتى قال اليهودى بمجلس المكس ببولاق للشيخ عمر نائبى فى النظر :

نحن نستكثر شيئا من القمح والعسل والسمن الذى يأتى زاويتكم لعلمنا بأن الشيخ لا يتخصص عن الفقراء بشئ بخلاف غيرهم ، فإنهم يأخذونه على إسم الفقراء ، ويأكلونه ، ويبيعون ما فضل عن حاجتهم ، فلذلك نأخذ منهم المكس لأن السلطان أولى بذلك فمن يتخصص ويحب الدنيا لا تصح حمايته منا انتهى .

فاعلم ذلك يا أخى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم توقف أحدهم فى وزن ما عليه من حقوق الناس ولا يحوجون من له عليهم حق بأن يقف بهم على حاكم شرعى أو سياسى

بل لو نازعهم أحد فى دار بنوها وهى جديدة لأعطوها له من غير وقوف على حاكم فالدنيا فى عين أحدهم لا تساوى جناح بعوضه ، فما يخص أحدهم من جناح البعوضه إذا فرقت على جميع أهل الأرض ، حتى يقف لأجله على حاكم .

وقد بلغنا أن سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله تعالى عنه عمر له دارا ورواقا فى بلدة أم عبيدة ، فنازعه واحد فى أرضها يوم انتقاله إليها فأخرج الشيخ أمتعته ، وعياله منها فى الحال ، فلما رأى المدعى شدة عزمه على النقله منها .

قال : ياسيدى ليس لى فيها حق وإنما امتحنتك لأعرف ميلك إلى الدنيا أو زهدك فيها ، ثم قال له : يا سيدى تخرج من دارك التى تعبت على عمارتها بمجرد دعواى من غير وقوف على حاكم .

فقال له : ياولدى الدنيا أهون عندنا من أن نقف من أجلها على حاكم انتهى .

وقد رأيت مرة شيخا مربوطا مع رسول القاضى ليدعى عليه بسبب عثمانى فى كل شهر أخذه بغير حق .

فقلت له : أف عليك بهدلت الطريق ، وكان له شعرة وعذبة ، فصار رسل القاضى يقولون له : فى سبيل الله شعرتك وعذبتك ، وأنت تحوج الناس إلى أن يشكوك من أجل عثمانى كل شهر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فقد رخصت والله الطريق وأهلها .

وقد سمع الشيخ نور الدين الحسنى من خلوته فى مدرسة السلطان حسن شخصا يقول : ياقفة شيوخ بعثمانى ، فأخذه من ذلك ما أخذ ، وترك تلقين الذكر من ذلك اليوم ، وكان مع الشخص خشبة الشيوخ التى يصرح بها النساء الكتان ، فعلم أنه ينبغى لمن لم يقدر على شروط أهل الطريق أن لا يتظاهر بلبس زيهم والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم : معرفتهم باسم الله الأعظم

ولولا معرفتهم به ما صح لهم تصريف فى أحد من ولاية أو عزل أو غير ذلك وذلك دليل على اتصافهم بكتمان الأسرار .

ولولا علم الله تعالى بقدرتهم على الكتمان ما علمهم اسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى فما دخل النار فى الدنيا من دخل من الأولياء ولا تضره النار إلا به ولا مشى أحد على الماء إلا به ، وكذلك جميع الأفاعيل .

ولكن ما كل أحد يقدر على حفظ نفسه من التعريف به فى غير المحل المستحق له ولذلك يبخل به الأشياخ على أكثر مريديهم لخوفهم أن يتصرفوا به فى كل من أغضبهم ، فيهلكوه فيمقتهم الله تعالى كما وقع لبلعام بن باعورا وقد خدم شخص ذا النون المصرى رحمه الله تعالى سنين ليعلمه اسم الله الأعظم ، فلم يفعل .

فقال له يوما : ياسيدى لى فى خدمتك سنين ، وأريد أن تعلمنى اسم الله الأعظم .

فقال : إن شاء الله تعالى .

ثم إن الشيخ دخل البيت ، ووضع له فارا فى طبق ، ووضع له مكبه ، وسد عليه بمنديل .

وقال له : أوصل هذه الهدية إلى صاحبنا بمصر العتيق .

فبينما هو على الجسر الذى كان بين الجيزه والروضة إذ أحس بخفة فى الطبق .

فقال : إن الشيخ يسخر بى وليس فى الطبق هدية .

فحل المنديل ورفع المكبة فجرى الفأر ، ودخل فى شق ، فرجع بالطبق .

فقال له الشيخ : إذا لم تؤتمن على فأر فكيف أعلمك اسم الله الاعظم ، وأخرجه من خدمته[١] .

وقال له شخص يوما : ياسيدى علمنى اسم الله الاعظم .

فقال : فأرنى الأصغر كان الشيخ يزجره عن مثل ذلك ويعلمه أن أسماء الله تعالى كلها عظيمة انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

اسم الله الأعظم هو كل شئ عرف العبد من أين صدر انتهى .

وأخبرنى الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى بأنه رأى البارى جل وعلا وشخص ليله أن يخلع عليه شيئا من قدرته .

فقال له البارى جل وعلا : لاتحمل القيام بحق ذلك فإنى حليم على من عصانى صبور على من آذانى وأنت لواعطيتك ذلك لأخربت الوجود انتهى .

وقد من الله تعالى على بمعرفة اسمه تعالى الأعظم ، ولكن لم أتصرف به قط إلا فى العفو والعافية والموت على الإسلام والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم كثرة كسوتهم لاخوانهم من غير توقف ولو كان من أنفس ثيابهم

فالحلة التى تساوى ألف نصف عندهم كالثوب الخلق على حد سواء فلا تظن يا أخى أنه خلق عظيم عندهم كما سيأتى بسطه إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يروى سيدى أبو الحسن الشاذلى عن شيخه سيدى عبد السلام بن مشيش (ورأيت له خرق عادات كثيرة – يقصد الشيخ بن مشيش – فمنهما أننى كنت يوما جالسا بين يديه وفى حجره ابن صغير يلاعبه فخطر ببالى أن أسأله عن إسم الله الأعظم ، قال : فقام إلى الولد ، ورمى بيد فى طوقي ، وهزنى ، وقال : يا أبا الحسن ، أنت أردت تسأل الشيخ عن إسم الله الأعظم ، ليس الشأن أن تسأل عن إسم الله الأعظم ، إنما الشأن أن تكون أنت هو إسم الله الأعظم يعنى أن سر الله مودع فى قلبك .
قال : فتبسم الشيخ وقال لى : جاوبك عنى فلان .

ومن أخلاقهم إقبالهم على المريد بقدر إقباله عليهم

بل دون إقباله عليهم اظهارا لعزة الطريق ، فربما كان المريد يستهين بالطريق ، وأهلها إذا أقبل الشيخ عليه وأظهر له المحبة لأنه محجوب عن مايريد الشيخ أن يدعوه إليه ، فليكن الشيخ حكيما يقبل عليه تارة ويدبر عنه أخرى بحسب ما يرى من المصلحة للمريد .

وقد جربت أنا غالب أصحابى .

فرأيت بعضهم كلما قربته قل انتفاعه .

وبعضهم كلما أبعدته زداد انتفاعه .

وبعضهم أسالمه مخافه شره وأظهر له المحبه ، والحال أنه من أبغض الخلق إلى فى الله تعالى لاعراضه عن الله وقد قال تعالى « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا[1] » .

فشمل الإعراض بالقلب والوجه معا ، وذلك فيمن حقت عليه الشقاوة .

وأعرف جماعة ممن ينتسبون إلى صحبتي يحضرون مجالسى فى الورد ، والعلم نفاقا خوفا من أن يلوث أصحابى بهم ، فيحضر أحدهم ، ليدفع عن نفسه ظن الناس أنه غير وبدل لا محبة فى الله ورسوله ﷺ ، ولا محبة فى .

وربما يحضر أحدهم منتقدا لى منكرا على بالباطن فيزداد مقتا إلى مقته .

وهذا أمر وقع فيه كثير ممن انسلخ عن المجاورة ، وخالط ابناء الدنيا وأحب النسبة إلى لغرض من الأغراض الدنيويه فقط .

وقد رأيت من يؤذى شيخه وأولاده بلسانه ويده ، ثم إذا احتاج إلى حاجه عند الولاه يكتب فى قصته أنه من جماعته ، وينتسب إليه ، حتى تقضى حاجته ، لعلمه أن الولاة إذا علموا أنه انسلخ من طاعة شيخه لا يقضون له حاجة .

وقد وقع مثل هذا لجماعة من المجاورين بالزاويه ، فمنهم من مات على مقته ، ومنهم من هو تابع فى الأثر ، وما كان هذا مرادى ، ولكن جرت سنة الله تعالى فى عباده الداعين إليه أن تنقسم أصحابهم بحكم الإرث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى

(١) سورة النجم الآية : ٢٩ .

شقى وسعيد بحسب القسمة الالهية ، فيجعل الله تعالى ذلك الداعى آلة لحصول المقت فى جماعته ، فلا يقال لو أن الشيخ نظر إلى ذلك المريد باللطف ، والمحبة ، لكان أطاعه ، ولم يمقت لأنا نقول لا أحد أكمل شفقة ، ولا سياسة ، ولا رحمة من سيدنا رسول الله ﷺ ، ومع ذلك فقد طلب إسعاد عمه أبى طالب ، وجماعة من قومه ، فلم يجبه الحق سبحانه إلى ذلك .

فليكن المريد على حذر من مخالفة شيخه وليكن الشيخ على حذر من مقت جماعته بسببه ، ومن استجلابه لقول الناس إن الشيخ مقت فلانا فلم يفلح والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن لا يدخلوا في صحبة أحد حتي يعرضوا علي أنفسهم حقوقه

فإن رأوها تقوم بحقوقه صحبوه ، وإلا سالموه ، وأحبوه محبة الإسلام العامة .

ومن أشد الأصحاب حقوقا وأصعبها على الفقير حقوق الظلمة ، وأعوانهم ، والولاة وأعوانهم ، والمتمشيخون بأنفسهم ، أو بالآباء والجدود أو المتفعلون فى طريق القوم الذين هم المتصوفه لا الصوفيه .

فأما حقوق الظلمة واعوانهم والولاة فلا يصح لفقير صحبتهم إلا مع مداومة النصح لهم ليلا ونهارا ، وردهم عن أفعالهم الخارجه عن قواعد الشريعة ليلا ونهارا ، ويحمل كل ما أخلوا به بعد النصح من عقوبه المعاصى ، ومظالم العباد أو التوجه فيها إلى الله تعالى ، فيسأله تعالى أن يغفر ما لهم ، أو يحولها إلى صحيفته ، وإذا أصابهم هم أو كدر بسبب تحويل نعمة عنهم من مال أو ولد أو ولاية لا يهدأ ، ولا ينام ، ولا يأكل ولا يشرب ، إلا كالمضطر ، ولا يجامع ، ولا يضحك ، ولا يعصى ربه ، ولا يغفل عنه ليلا ولانهارا ، حتى ترجع عنه تلك البليه ، وترجع له النعمة ، ومن يطيق تحمل مثل هذه الأمور .

وأما حقوق المتمشيخين بأنفسهم أو بالآباء والجدود الذى تصوفوا بالدعوى ، ولم يصلوا إلى مقام الصدق فى الطريق ، ولا يكاد من يصحبهم أن يقوم لهم عوجا ، ولا أن ينزلهم عن مقامهم الذى ادعوه ، ولا أن يتلمذوا له ، فلاهم يعرفون الطريق بأنفسهم، ولا هم يرجعون إلى من يرشدهم ، وربما تلقف أحدهم بعض كلمات من حكم

القوم وحفظها وصار يطرز بها المجالس ، حتى يظن من لا معرفة له بالطريق من التجار والمباشرين أنه من محققى الصوفيه ، وهذا الأمر قد كثر وقوعه فى غالب فقراء هذا الزمان ، فلاتكاد تجد لأحدهم شيخا حقيقيا إنما يستندون إلى قولهم صحبنا الشيخ الفلانى ، والشيخ العلانى ، ويعينوا جماعة كانوا فى عصرهم والحال أنهم لم يأخذوا عنهم ، وأعرف منهم شخصا ادعى أنه صحب شيخا من مشايخنا ، فكذبه أصحاب شيخنا ، فانتمى إلى شيخ آخر ، فكذبه أصحابه ، فادعى بعد ذلك أن سيدى عليا المرصفى أتاه فى المنام ، وقال له : ابرز للناس ، فأرشدهم ، وربما كان ذلك أبليس ، فإن سيدى عليا كان كالجبل الراسى فى مصر لا يزلزله زعازع الرياح .

وقال لى مرة : أنا لا آذن لأحد من جماعتى يتصدر للمشيخه إلا بعد وقوع الإذن لى من رسول الله ﷺ .

فقول هذا المدعى إن الشيخ أتاه فى المنام كذب ، وزور لمخالفة ذلك لحال الشيخ الذى كان عليه حال حياته من الاحتياط فى ذريته ، ومصداق ذلك نفرة الناس عنه بعد مدة قليلة ، فلم يبق حوله الآن أحد ، وانكشف حاله لهم لعدم من يمده من مشايخ السلسلة ، فإنه دعى لا أب له فيها ، ومعلوم أن الطريق ترفض غير أهلها بالخاصة فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم غفلتهم عن ارشاد هذه الأمة إلي طريق الرشاد

تارة بالوعظ على الكرسى وتارة بالتسليك لهم على طريق مشايخ الطريق عملا بقوله تعالى لنبيه ﷺ : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين[١] » ولما قربت الساعة تأكد عدم الغفلة عن ارشاد الناس لكثرة الضلال وتزلزل قواعد الدين[٢] .

---

(١) سورة الذاريات آية : ٥٥

(٢) إذا كان لنا أن نأخذ صورة عن مجالس الصوفية فى تعليم الناس فإن أوضح صورة يمكن لنا ن نأخذها هى صورة الإمام أبى الحسن الشاذلى .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود : يقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى : بلغنا أن الشيخ الكامل أبا الحسن الشاذلى لما فى اختياره مع الله مكث ستة أشهر لا يتحرى أن يسأل الله فى حصول شئ .

ثم نودى فى سره : إسألنا عبودية لا ترجيع فيها للعطاء عن المنع .

قال : فسألت الله ورجوته امتثالا لا تحجيراً عليه ، فإن يخلق ما يشاء ويختار ، وليس معه اختيار » اهـ .

لقد فنى اختيار أبى الحسن مع الله ، وهذه المرتبة لا يتأتى للانسان أن ينالها فى إبتداء حياته السائرة إلى الله .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من نعم الله تعالى على عباده كونه تعالى لا يخلى الأرض من قائم له بحجة فى دينه رضيه لولايته ، واختاره لمعاملته يبين به دلالاته ، ويوضح به طرقاته فطوبى

لابد أن يسبقها جهاد شاق كيف وصل أبو الحسن إلى أن يسترسل مع الله على ما يريد فنفى إرادته فى إرادته . واختياره وأن يكون بالله إيراداً وإصداراً ؟

لقد كان الجانب العلمى من العناصر التى حددت شخصية الشاذلى .

لقد بدأ الدراسة والتحصيل صغيراً ، فتثقف كأحسن ما يكون المثقف .

لقد تثقف على الطريق العادى فحفظ القرآن ، ودرس الفقه ودرس العلوم الدينية : وسائل وغايات « ولم يدخل فى علوم حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة » .

وكان (ذا علوم جمة) .

وهو صاحب العلوم الغزيرة .

ولقد تدرج فى هذه العلوم سلما فسلما ، ثم أخذ يختار الكتب التى يدرسها ويشرحها وينصح بقراءتها ، ويحبب فى أصحابها ؛ وكان منها .

١ – كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى ، وهو كتاب أقام الجو الثقافى وأقعده حين صدوره ، وكان سببا فى صعوبات كثيرة إعترضت المؤلف بسبب الآراء التى احتوى عليها .

وهو كتاب أثار إهتمام الإمام الأكبر محيى الدين بن عربى إثارة كبرى ، فأفرد له كتابا خاصا ، ثم أفرد له صفحات وصفحات من كتاب الفتوحات ، وحاول أن يجيب على ما ورد فيه من أسئلة ، ووضع نفسه أيضاً بهذا موضع التحدى وكأنه يقول : هاءنذا أجيب على الأسئلة متحديا فى ما يتعلق بصحة الأجابة .

لقد كان الشاذلى يلقى دروسا فى شرح هذا الكتاب ، ولقد بلغ من روعة هذه الدروس أن كان أبو العباس المرسى يحرص كل الحرص على حضورها لما كان لها فى نظره من الأهمية ؛ وحينما يكون على سفر فى شأن من شئون الدعوة فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها .

ولقد كان كتاب ختم الأولياء مفقود إلى عهد قريب ، ثم عثر الأستاذ عثمان يحى عليه فطبعه فى بيروت طبعة محققة مع دراسة عن الترمذى .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه عن أبى العباس المرسى :

« وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الربانى محمد بن على الترمذى ، وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة وكان يقولان أنه أحد الأوتاد الأربعة » اهـ .

وقبل أن نتحدث عن كتاب آخر نذكر هنا ما رواه ابن عطاء الله السكندرى قال :

أخبرنى بعض أصحابنا قال :

قال الشيخ ، قيل لى :

ما على وجه الأرض مجلس فى الفقة أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم ، ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك » .

٢ – وكتاب « المواقف والمخاطبات » من تأليف الشيخ محمد بن عبد الجبار النفرى وهو كتاب ليس بالسهل ، لأنه يعبر عن حالات روحية عالية لا يتأتى لغير أصحاب الأذواق العالية فهم الكثير منها ، وهو كتاب للخاصة ، وأراد أبو الحسن أن ييسره لكل من عنده استعداد ، وأن يفتح مغاليقه لكل من يستشرف عالم الحكمة .

يقول ابن عطاء الله عن الشيخ أبى الحسن :

« كان يوما فى القاهرة فى دار الزكى السراج ، وكتاب المواقف للنفرى يقرأ عليه فقال :

« اين أبو العباس ؟ »

فلما حضر ، قال الشيخ :

لمن كان كذلك فى هذا الزمان الذى خفى فيه نور العلماء ، وقد أخذ الله تعالى الميثاق والعهد على العلماء بتبين الحق وعدم كتمانه ومن قدر على ذلك وتركه فهو عاص لله تعالى ولرسوله ﷺ انتهى .

تكلم يا بنى ، تكلم بارك الله فيك ، تكلم ولن تسكت بعدها أبداً
قال أبو العباس :
« فأعطيت لسان الشيخ من ذلك الوقت » اهـ .
ولقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة :
٣ – كتاب قوت القلوب لأبى طالب الملكى .
٤ – كتاب الإحياء للإمام الغزالى .
وهذان الكتابان من واد واحد ، ولقد تأثر الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء بأبى طالب الملكى ، وذكر أنه قرأ كتاب قوت القلوب كوسيلة من الوسائل التى تعرفه بالتصوف ، وذلك قبل أن يأخذ من الجانب العملى والرياضة الصوفية .
لقد نصح الشاذلى بقرائتهما : فقال عن قوت القلوب : عليكم بالقوت فإنه قوت .
وقال عن الكتابين :
كتاب الإحياء يورثك العم ، وكتاب القوت يورثك النور . ولقد كان الشيخ أبو الحسن يقول :
إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد .
٥ – ومن قبل الكتابين السابقين كان الإمام الشاذلى يقرأ أيضاً الرسالة القشيرية ويشرحها ، وقد سبق شئ من الحديث فى ذلك وسيأتى أيضاً حديث عنه .
٦ – وكتاب الشفاء للقاضى عياض من الكتب المباركة التى نالت تقديراً كبيراً فى أوساط كثيرة ، وكان يقرؤه أبو الحسن وينصح بقراءته .
٧ – وكتاب أبى الحسن المفضل فى التفسير هو كتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية وهو كتاب يشرحه عنوانه ، فهو محرر : كلماته منتقاه فنحيره ، ممررة وعباراته دقيقة . وهو وجيز وإن لم يكن فى إيجاز تفسير الجلالين أو البيضاوى .
وقد بدأ طبعه الآن فى المغرب ، فطبع منه الجزءان : الأول والثانى .
هذه هى الكتب التى ورد ذكرها فيما كتب عن أبى الحسن فى المصادر القديمة ، وهى كتب مختارة فى غاية النفاسة ، تدل على مشرب عال فى التفسير والسيرة النبوية والتصوف .
وليس بغريب بعد ذلك أن ينقل الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى الطبقات عن شيخه على الخواص أنه قال :
« كانت القاعدة عند الشيخ ابى الحسن الشاذلى ، والشيخ ابى العباس تاج الدين بن عطاء الله ، والشيخ ياقوت العرشى ، فى قبول الطلاب : زلا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبحر فى علوم الشريعة ، وألاتها بحيث يقطع العلماء فى مجالس المناظرة بالحجج الواضحة .
فإذا لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد » اهـ .
إن العلم عنصر من عناصر شخصية الإمام الشاذلى وهوعنصر من عناصر طريقته أيضاً وصلى الله وسلم على من أمر أن يقول : (رب ذدنى علماً) .
وسبحان القائل :
« إنما يخشى الله من عباده العلماء » .
وتقدس الذى يقول :
« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .
ويصل أبو الحسن إلى الذروة حينما يعتبر الجهل والرضا به من الكبائر بل حينما يعتبره من أكبر الكبائر ويقول :
« لا كبيرة عندى أكبر من أثنين : حب الدنيا بالإيثار ، والمقام على الجهل بالرضا » .

فإياك يأخى أن تنكر على أحد يعظ الناس فى هذا الزمان ، أو تنكر عليه إكثاره من الوعظ فى المساجد المتعددة ، فإن ذلك منك غاية الجهل لأنه قايم عن العلماء التاركين

لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة .

والمقام على الجهل أصل كل معصية .

ولا يتأتى أن نجاوز الجانب العلمي دون ان نذكر مثال نبين به مدى ما وصل إليه أبو الحسن من عمق عميق ، ومن فهم دقيق فى المسائل العلمية .

ونحن كلما رأينا إشارات من علم أبى الحسن الذى ألبس فيه العلم الرسمى نسيم الأرواح وألبست فيه معارج الأرواح صورة العلم الرسمى .

أقول كلما رأينا ذلك أسفنا كل الأسف على ماحصل من إهمال فى تقييد دروس أبى الحسن ومع ذلك فإن أبا الحسن قد ربى رجالا بدلا أن يخرج كتبا ولقد سئل رضى الله عنه :

لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم ؟ فقال رضى الله عنه :

كتبى أصحابى(١) .

ومع إيماننا بأنه ربى رجالا نشروا علمه ، وأذاعوا طريقته ، فقد كنا نتمنى أن لو اهتم أحد مريديه بتقييد نفائسه ودرره . والمثال الذى نذكره الآن مأخوذ من رسالة طويلة كتبها لأحد أصدقائه بتونس هو سيدى على بن مخلوف .

وهذا المثال عن الروح وقد ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

هذه الآية الكريمة كانت مثار خلاف شديد بين المفسرين من مختلف النزعات : وذلك أن كثيراً من المفسرين رأوا أن الآية إنما هى منهى عن البحث فى الروح ، بمعنى النفس الإنسانية ، لأنها من أمر الله سبحانه ، وهى من أمره ، هو وحده العالم بها .

وعارض هؤلاء كثيرون يرون أن الروح فى الآية الكريمة : إنما هو القرآن الكريم ، بدليل سياق الآيات السابقة واللاحقة ، فإنها كلها فى القرآن الكريم ، والقرآن يسمى روحاً كما أن جبريل عليه السلام روحاً .

هل الآية نهى عن البحث فى الروح أم أن الروح فى الآية شئ آخر غير النفس الإنسانية ؟ ولم يأخذ أبو الحسن بهذا الرأى أو بذاك ، وإنما أدلى برأى تشهد بأصالته وعمقه ودقته ، يقول رضى الله عنه :

« ومن ظن أن هذا العلم : أعنى علم الروح وغيره ، مما ذكر وما لم يذكر لم يحط به الخاصة العليا أهل البدء الأعلى فقد وقع فى عظيمين :

جهل أولياء الله إذ وصفهم بالقصور عن ذلك ، وظن بربه أنه منعهم : وكيف يجوز أن يظن على مخصوص ، وسرى به التكذيب إلى القدرة والشرع بقوله عن اليهود أو عن العرب كما تضمن الخلاف :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » .

فما الدليل لك منها على جهل الصديقين وأهل خاصة الله العليا .

والكشف عن هذا أن السؤال يقع بأربعة أحرف : بهل ، وكيف ، ولم ، ومن ، فهل يقع بها السؤال عن الشئ أموجود هو أو معدوم .

وكيف ، يقع بها السؤال عن حال الشئ .

ولم ، يقع السؤال بها عن العله .

وليس فى الآية شئ من هذا . فإنك إن قلت فيها معنى هل ومعنى هل يقتضى هل الروح موجود أو معدوم وقد عرفوا وجوده من قبل ، ولو لا ذلك لما قال (ويسألونك عن الروح) فثبت أنهم عرفوا وجوده فبطل هذا .

وليس فيها سؤال عن الحال كيف هو ، ولا سؤال عن العلة لم كذا وكذا ولو كان سؤالهم عن هذين لما قنعوا بقوله : « قل الروح من أمر ربى » ولشغبوا وترددوا إذ ذاك شغلهم وعادتهم وإرادتهم ، فثبت أن السؤال إنما كان عن الشئ من أين هو بدليل الجواب والبيان الظاهر الشافى بقوله :

« قل الروح من أمر ربى » إذ الرسول عالم بما سألوا عنه فأجاب عن الله بذلك كما تقول آدم نسألك عنه وفهم المسئول السؤال فقال : آدم من تراب ، فإذا رضى الجواب قنع وليس يرجع العدو إلا بفهم عظيم من الحصن

لذلك بفرض كفاية ، وإياك أن تحمل الواعظ على أنه إنما قصد بذلك غير الله تعالى ، فإنه حرام عليك ، فإن الزمان كلما أظلم طولب العلماء بكثرة السرج العلمية ، ليضيئوا

العظيم الذى لا مرد له .

فكيف يزعم الزاعم أنه لا يعرف ولا يجوز أن يعرف .

فقد أوجب الله علينا معرفته ولا مثيل له ولو ، ضيعناها لكنا كفاراً أو عصاه ، فكيف بموجود مخلوق أمثاله كثيرة .

هذا عين الجهل أن يقال لا يجوز أن يعرف من له المثال والنظير وهو الروح ، ويوجب معرفة من لاشبيه له ولا نظير . فنعوذ بالله من جهل الجاهلين وظلم الظالمين .

والذى أقول به إن لله أسراراً لا يسع فيها الرسم . ولايليق بها الكتم . أن لا ترسم فى الدواوين لعمى البصائر وضعفاء النحائز . ولا يليق بها الكتم ، ولوضوحها وشدة ظهورها . فلا تعبأن بهم مع كثرة حججهم وذل للحض، واخضع له فيما هم فيه .

وأعرض عنهم فيما لا علم لهم به . وقد أمر الله سبحانه نبينا محمداً ﷺ بالإقتداء بإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، وهو الفاضل الذى لا يصل إليه أحد .

ويقول قد شاركتم فى النبوة والرسالة والهداية والأمور الطارئة على النفوس والأبدان والقلوب والأرواح ، واقتد بهم فيما فيه الشركة وما خصصنا به : ففينا وإلينا ، كذلك أيضاً من فهم هذا السر بها وأن الله مع عامة المؤمنين ومع أوساطهم ومع الأعلين وفارقهم فيما هو خاص للمخصوصين .

فإن تكن منهم فازدد بعلمك وعملك فقرا إلى الله وتواضعا لعباده . واعطف بالرحمة على عامة المؤمنين وإن كانوا ظالمين إلا حيث أمرك الله بالغلظة . عليهم مع الدعاء الصالح والدفع عنهم » اهـ .

وأظن أنه لا غرابة بعد هذا فى أن يروى ابن كثير – كما يذكر صاحب المفاخر – أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يحضر مجلس الأستاذ أبى الحسن فيسمع تقريره للحقائق ويشاهد حسن إفصاحه عن العلم اللدنى فعند ذلك يحصل له وارد من جانب الحق ويركصه على قدميه طربا مع المريدين ، ويقول : (تأملوا هذا التقرير فإنه قريب من ربه) اهـ .

ولقد لمس المؤرخون لأبى الحسن والشعراء المادحون له هذا الجانب العلمى عنده ، ورأو ما فيه من أصالة وعمق، فأشاروا به . ومن هؤلاء الإمام البوصيرى صاحب البردة الذى يصفه فى قصيدة يمدحه بها بأنه : « بحر العلم» .

أما ابن المليق فيقول عن أبى الحسن :

لقد كان بحراً فى الشرائع راسخا *** ولا سيما علم الفرائض والسنن
ومن منهل التوحيد عب وارتوى *** فلله كم روى قلوبا بها محن
وجاز علوما ليس تخص لكاتب *** وهل تحصر الكتاب ما جاز من فنن

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله ابن عطاء الله السكندرى فى وصف هذا الجانب العلمى .

وما من شك فى أن أبا الحسن :

(كان عالما عارفا بالعلوم الظاهرة ، جامعا لدقائق فنونها ، ومفتضا لأبكار المعانى وعيونها من : حديث ، وتفسير ، وفقه ، وأصول ، ونحو صرف ولغة ومعقول وحكمة ، وأدب .

وأما علوم المعارف الإلاهية : فقطب رحاها ، وشمس ضحاها) وختم هذا الجانب العلمى عند أبى الحسن بقول صاحب المفاخر العلية عنه : (وهو صاحب الإشارات العلية والعبارات السنية ، جاء فى طريق القوم بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب الذى جمع بين العلم والحال ، أو الهمة والمقال وتخرج بصحبته جماعة من الأكابر مثل أبى العباس المرسى وأبى العزائم ماضى وغيرهم وتلمذ له أعيان كثيرة من أعيان أهل الله تعالى) .

ويقول شارح القاموس المحيط ، السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس : (وممن كان يحضر مجلسه العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وناهيك بهما والحافظ المنذرى ، وابن الحاجب ، وابن الصلاح ، وابن عصفور وغيرهم بالكملية بالقاهرة) .

على الناس بها ، ولو فى حال سماعهم للوعظ فقط وما على الواعظ من نسيانهم للوعظ إذا فارقوا مجلسه من شئ قال الله تعالى (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون[١]) .

وسمعت سيدى عبد القادر الدشطوطى رحمه الله تعالى يقول :

لا يجوز لمن أودعه الله علما وعقلا وفهما وبصيرة فى الدين أن يكتم ذلك عن الناس الحائرين إلا بعذر شرعى بل الواجب عليه دعوة الخلق إلى سلوك طريق الحق ، فيرشد الضال ، ويهدى الجاهل ، وينذر العالم ، ويحذر العارف انتهى .

قلت : قول الشيخ إلا بعذر يقع فيه بعض العلماء ، والجمهور على وجوب النصح والإرشاد ، وإن علم أن المحل غير قابل إما بالقرائن أو بالكشف قال تعالى « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر[٢] » وما ورد فى الآيات من الإعراض عن الكفار إن لم يجد الداعى إلى الله تعالى أمارات القبول منسوخ والله سبحانه اعلم .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من قال : إن الوعظ بدعه فهو المبتدع ، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يذكر أصحابه ، ويخوفهم ، ويأمر بعضهم أن يقرأ عليه القرآن ، ويبكى فى مجلسه ، ويدعون له وبدعوا لهم ، ولم يزل العمل بهذه السنة فى المدينة والأمصار .

وسمعت أخى الشيخ افضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

من قال إن الوعظ بدعه ، فمراده بذلك التسميه فيقول ذكرى ولا يقول وعظ لأنه لم يرد ومن أنكر الذكرى فهو جاهل لأنها كانت على عهد رسول الله ﷺ ، وقد ورد أنه كان لعبد الله بن رواحه مجلس على عهد رسول الله ﷺ يذكر الناس فيه إذا انصرف النبى ﷺ ولم يزل الأمر على ذلك بين الخلفاء الراشدين إلى عصر سيدى أحمد الزاهد إلى عصرنا هذا لكن كان سيدى أحمد الزاهد يخص النساء بوعظه دون الرجال ، ويقول :

إنهن مخدرات فى البيوت لا يجالسن الرجال فى دروس العلم ، ولا يخالطن الرجال من طلبة العلم بخلاف الذكور انتهى .

(١) سورة الأنعام آية : ٦٩ .
(٢) سورة الكهف آية : ٢٩ .

وثبت أيضا أن عمر بن الخطاب أذن لتميم الدارى رضى الله عنهما أن يذكر الناس، وكان عمر يجلس إليه فى مجلسه ذلك ، وأذن عثمان لكعب رضى الله عنهما أن يذكر الناس ، وبعث عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود إلى أهل الكوفة ليذكرهم ويعلمهم أحكام دينهم وكذلك بعث أبا هريرة إلى البحرين ، والأنصار فى جماعة يكثر تعدادهم لكن يبتغى لكل واعظ وكل مذكر أن لا يعظ أحدا ، ولا يذكره إلا بعد عمله بمواعظ الناس به ، وذكرهم به ، وليتأمل فى قول خطيب الأنبياء عليه الصلاة والسلام (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت[١]) .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

ينبغى لكل داع إلى الله تعالى فى طريق الظاهر والباطن من المدرسين والمسلكين أن لا يصدر لذلك إلا بعد تضلعه من علوم الكتاب والسنة ، ومعرفة أقوال العلماء ، وآدابهم ومعرفة المعانى والإسناد وبعد عرضه نفسه بين الجنة والنار فى كل منطق وبعد علمه أنه مسئول عن كلامه ماذا أراد به ويستعد بالجواب عن ذلك يوم القيامة فلا يتكلم بكلمة إلا مع علمه بأنه بعين الله عز وجل فى كل همة وطرفه وسر وعلانية ويقبح على من يعظ الناس أن يكون مرتكبا أمرا يخالف ما يدعوا إليه انتهى .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

ينبغى للداعى إلى الله أن يكون حكيم زمانه ، فيدعوا كل صنف من الناس من طريقهم اللائق بهم .

فيدعوا الملوك والأغنياء ، وأهل الاغترار من طريق الخوف والانتقام .

ويدعوا الفقراء من طريق الصبر ، والرجاء .

ويدعوا أهل العافية والسلامة من طريق الإيثار والشكر على النعم .

ويدعوا أهل البلايا والمحن من طريق الصبر وحسن الظن بالله تعالى .

ويدعوا العلماء من طريق خوف المكر والاستدراج .

ويدعوا الجهال من طريق فرض العلم والقيام بالواجبات .

ويدعوا المريدين من طريق المجاهدة للنفس ، وحفظ الجوارح من الآثام .

---

(١) سورة هود آية : ٨٨ .

ويدعوا المتوسطين من طريق مخالفة الهوى ، والهروب من الحظوظ .

ويدعوا العارفين من طريق الحياء من الله تعالى .

ويدعوا الصديقين من طريق الإجلال والتعظيم ، فيذكر كل قاصد من طريقه ، ومخاطبة عقله من موضع عقله عملا بحديث « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » وهذا يقتضى أنه لا ينبغى أن يعظ الناس إلا أكابر الأولياء فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن يشهدوا فضل الفقير إذا قبل منهم صدقة ويروا له اليد العليا عليهم

عكس ما يشهده غيرهم ، فإنهم يشهدون ببادئ الرأى فضلهم على الفقير ؛ ويقولون: الحمد لله الذى جعلنا نعطى ولا نحتاج إلى أحد .

وهذا المشهد وإن كان نفيسا فالأول أنفس منه .

وكذلك من أخلاقهم استقلال ما اعطوه ، وتعظيم ما أخذوه ، فإذا تصدقوا بألف دينار ، فهى عندهم ، كالحصاة ، وإذا أخذوا باقلة مسوسة كانت عندهم كالجبل العظيم.

وهذا الخلق غريب فى فقراء هذا الزمان بل ربما تصدق أحدهم بصدقه ، فتبعتها نفسه ، وصار يتحدث بها زمانا ، ولو أن أحدهم كان مخلصا لم يتكلم بمثل ذلك ، واكتفى بعلم الله عز وجل لأن المخلص لايعامل إلا الله عز وجل .

وقد قالوا الفقراء كالملوك لا يستكثرون لهم عطاء .

ولذلك ورد مرفوعا فى أبى داود (لا تسلوا الناس شيئا وإن كان أحدكم ولابد سائلا فاليسئل الصالحين أو ذا سلطان) انتهى ؛ أى لأن الصالحين والملوك لا يمنون بما أعطوه ، لشرف نفوسهم ، وحقارة الدنيا فى أعينهم .

فعلم أن الأجر والثواب مركب من وجود المعطى ، والآخذ ، ولكل منهما الفضل على صاحبه .

وقد بسطنا القول فى ذم السؤال وعلى فضل الإسرار بالصدقة فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تشوف نفوسهم إلي مكافأتهم علي هديتهم لإخوانهم إذا جاؤا من الحجاز أو الشام مثلا وأهدوا شيئا لإخوانهم

وإن علموا من أحد من أخوانهم المكافأة بعثوا يقولون له مع القاصد : قد حلف فلان أن لايقبل مكافأة من أحد من اخوانه فى هذه السفره ، وذلك حتى يدخل على قلب أخيه الراحه ، ويريحه إن كان بخيلا من قوله : والله ما كان لى حاجة بما أهداه إلى فلان ، وأنا حائر ان أكافيه بماذا ؟

وهذا الأمر قل من يتنبه له من المهدى والمهدى إليه .

فعلم أن كل فقير تلتفت نفسه إلى مقابلة على هديه فهو مدع كذاب ، وهو دنياوى خالص ، ولو عامل الله تعالى لم يطلب عبادته هديته عوضا ، وقد قالوا : من شكر المسافر اهداؤه شيئا إذا رجع شكر السلامة ، فكيف يطلب مكافأة الناس له على ذلك ، ومنفعته راجعة إليه هو والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم قطع برهم وحسنتهم للناس إذا علموا الخير وكفروا بواسطتهم ولم يروا لهم فضلا عليهم بل يزيدون في برهم واحسانهم إليهم

لأنهم بكفرانهم واسطتهم قد وفروا لهم الأجر أوزادوهم قربا من الله تعالى إن كانوا عبيد الله تعالى بخلاف من يشكرهم ، ويمدحهم فى المجالس ، فربما ذهب أجرهم بذلك المدح .

فليستغنم كل من يعامل الله تعالى البر والإحسان إلى من كفر نعمته بطريقه الشرعى، ثم إن المعين لهم على العمل بهذا الخلق كونهم لايرون لهم مع الله ملكا فى الدارين فلا يرون لهم فضلا على أحد إنما هم كالغلام الذى قال له سيده : اذهب بهذه الهديه إلى فلان ، فالفضل للمهدى لا للغلام .

وليتأمل الذى قطع بره وحسنته عن ولده أو تلميذه مثلا نفسه فى معاملة الحق تعالى له كيف الحق تعالى يطعمه ، ويسقيه ويكسوه ليلا ونهارا ، وهو يعطيه وإذا خالف أى أمر لا يقطع عنه بره ولا احسانه بل ربما فرغ من المعصية فوجد العيال قد

هيؤا له اللحم الضانى والدجاج وذوبوا له السكر فى الأوانى الصينى فالعاقل من يعامل عبيد الله تعالى كما يعامله الله تعالى من الصفح والعفو وقد شفع الحق فقال عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى مسطح لما وقع فى عائشه وخاض مع أهل الافك بقوله تعالى : « وليعفوا وليصفحوا[1] » .

---

(١) وتمام الآية (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) سورة النور آية : ٢٢ .

هذا وقد وردت قصة الإفك فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بما يدرأ أى قول سوء عن الرسول ﷺ والسيدة عائشة رضوان الله تعالى عليها يقول الله تعالى : إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل إمرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ، يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ، ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم .

وهذه الآيات نزلت فى السيدة عائشة دفاعاً عنها وبيانا لكذب هذا الحديث وصيانه لعرض الرسول ﷺ .

يقول ابن كثير : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى جماعة منكم يعنى ماهو واحد ولا إثنان بل جماعة ؛ فكان المقدم فى هذه اللعنة عبد بن أبى سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزه آخرون منهم ، وبقى الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن .

أما بيان ما ورد فى الأحاديث من ذلك فيقول الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهرى قال : أخبرنى سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى ، وكلهم قد حدثنى بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا ، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة ، وبعض حديثهم يصدق بعضا : ذكروا أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة رضى الله عنها : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذن بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظغار قد أنقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى إبتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى ، فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيره الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه .

قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ؛ فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلى .

فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : بلى أحب أن يغفر الله تعالى لى وأجرى على مسطح ما كان قطعه عنه من البر فافهم والحمد لله رب العالمين .

فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان ابن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وقد كان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة فهلك من هلك فى شأنى ؛ وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمناها شهرا والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشئ من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذى أرى منه حين اشتكى ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول (كيف تيكم) ؟

فذلك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعدما نقهت ، وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ؛ وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية وكنا نتاذى بالكنف أن نتخذها فى بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح وهى بنت أبى رهم ابن المطلب ابن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر خاله أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب فأقبلت أنا وابنة أبى رهم أم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها

فقالت : تعس مسطح .

فقلت لها : بئسما قلت ، تسبين رجلا شهد بدرا ؟

فقالت : أى هنتاه ألم تسمعى ما قال ؟

قلت : وماذا قال ؟

قالت : فأخبرتنى بقول أهل الإفك .

فازددت مرضا إلى مرض ، فلما رجعت إلى بيتى دخل رسول الله ﷺ ثم قال : (كيف تيكم؟) .

فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى .

قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما .

فأذن لى رسول الله ﷺ فجئت أبوى .

فقلت لأمى : يا أمتاه لما يتحدث الناس به ؟

فقالت : أى بنيه هونى عليك فو الله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

قالت : فقلت : سبحان الله وقد تحدث الناس بها ؟

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى ، قالت :

فدعا رسول الله ﷺ على ابن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى ، يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله .

قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود فقال أسامة : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً .

وأما على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك .

قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : (أى بريرة هل رأيت من يريبك من عائشة) ؟

فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت منها أمر قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله .

فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبى سلول .

قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : (يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ، فوالله ماعلمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خير وما كان يدخل على أهلى إلا معى) .

فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال :

أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .
قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ :
كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل .
فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة :
كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافق .
فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، وسكت رسول الله ﷺ .
قالت : وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى .
قالت : فبينما هما جالسان عند وأنا أبكى إذ استأذنت على أمرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكى معى ، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس .
قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبثت شهرا لايوحى إليه فى شأنى شئ .
قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : (أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه) .
قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة .
فقلت لأبى : أجب عن رسول الله .
فقال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .
فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ .
فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .
قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن .
والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم أنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقوننى ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه برئية لتصدقننى ، فو الله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .
قالت : ثم تحولت فاضجعت على فراش ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة ، وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها .
قالت : فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل عليه .
قالت : فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : (أبشرى يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك) .
قالت : فقالت لى أمى : قومى إليه .
فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذى أنزل براءتى .
وأنزل الله عز وجل : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) العشر آيات الأولى كلها : فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر رضى الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبداً بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى – إلى قوله – ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) .
فقال أبو بكر : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبدا .

من أخلاقهم الرحمة والشفقه على من كان على التقوي من أصحابهم ثم بدل وغير وصار فاسقا شريرا يستعيذ الناس من شره

فإن أحوج ما يكون إليك أخوك إذا عثرت دابته .

فإذا الأحوج أولى بالرحمة منك من المستقيم لعدم حاجة المستقيم إلى من يأخذ بيده .

وهذا الخلق من أعظم أخلاق الفقراء الصادقين .

وأما الكاذبون ، فربما مقتوا من غير وبدل ، ونفروه منهم ، ومن أصحابهم كل التنفير ، حتى صار يحط في الشيخ ، وفي أصحابه عند كل من سأله عن سبب مفارقته لهم ويقول : لو رأينا منهم خيرا مفارقناهم ، فيهلك نفسه بالتزكية لنفسه ، والتنقيص لشيخه وأصحابه ثم يرجع إثم ذلك على الشيخ وأصحابه لقلة سياستهم .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم طيب نفوسهم بإعطاء القط أو الكلب ورك الدجاجة أو قطعة اللحم إذا وقف ينظر إليهم وهم يأكلون

لاسيما إن كان للهرة أو الكلبة أولادا صغار ، فإنها تحتاج إلى ما يكثر لبنها لأجل كفاية أولادها وفي الحديث : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

وكذلك من أخلاقهم أن لا يتبعوا الهرة أو الكلب إذا خطف الأوزة أوالدجاجة المحمرة ، ويرون أن تلك الدجاجة إذا أرعبو الهرة أو الكلبة مثلا لا تجى كفارة لارعابها ثم إنهم يرجعون بعد ذلك على أنفسهم باللوم ويقولون لها لولا معرفة الهرة بخلك وعدم افتقادها كلما وقفت بين يدين وأنت تأكلين ماخطفت شيئا فاللوم عليك لا على الهرة .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ عن أمرى .
فقال : (يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟) .
فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصرى والله ما علمت إلا خيراً .
قالت عائشة : وهى التى كانت تسامين من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع ؛ وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك .
قال ابن شهاب : فهذا ما أنتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط ، أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث

فعليك يا أخى الإحسان إلى الحيوان حتى النمل بالطريق الشرعى ، فإنه ما أقام عندك الا يرجو إحسانك وعطفك إليه .

فارم للهرة أو الكلب شيئا منه ، وخل لها على العظام بعض لحم وحقق ظنها فيك الخير .

ثم إن أولى الناس بالعمل بهذا الخلق الفقراء ، وحملة القرآن لأنهم قدوه للناس[1] والحمد لله رب العالمين .

الزهرى .

(١) يقول رسول الله ﷺ : (إنما أنا رحمة من مهداة) ولهذا تعتبر الرحمة من أهم أهداف الرسالة الإسلامية ، وقد تمثلت فى سيدنا رسول الله ﷺ تمثلا كاملا ، وما كان قول الله سبحانه وتعالى عنه بدعاً من القول عندما خاطبه قائلا : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

لقد شملت رحمة رسول الله ﷺ كل العوالم التى خلقها الله سبحانه وتعالى ، ولم تقتصر على الأهل والأصدقاء كما هو المعتاد بل لم تقتصر على بنى الإنسان فحسب بل تعدت رحمته إلى الحيوان كذلك .

والله سبحانه وتعالى الذى يصف نفسه بالرحمة فى كل شئ كما ترى ذلك فى مفتتح كل سورة (بسم الله الرحمن الرحيم) بل وفى مفتتح كل شئ (بسم الله الرحمن الرحيم) .

يقول عنه : (وكان بالمؤمنين رحيما)

والله : (خير الراحمين)

وهو سبحانه (خير الغافرين)

والله سبحانه وتعالى : (كتب على نفسه الرحمة) ويطلب الله سبحانه وتعالى ألا نقنط من رحمته : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) .

أما إذا قنط الإنسان من رحمة ربه فإنه يكون من الضالين :

قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون .

إن الله سبحانه يصف نفسه بالرحمة فى أكمل معانيها فكان رسوله الذى اختاره هداية للعالمين ممثلا لهذه الرحمة فى أكمل معانيها أيضا .

يقول رسول الله ﷺ مخبرا عن نفسه (إنما أنا رحمة مهداة)

ويروى الإمام مسلم فى صحيحه : قيل يا رسول الله أدع على المشركين ، قال : (إنى لم أبعث لعانا وإنمابعثت رحمة) .

والواقع أن الذى يمثل هذه الصفة فى سيدنا رسول الله ﷺ أصدق تمثيل قول السيدة خديجة رضوان الله عليها لسيدنا رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى : (إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق) .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه رحيما بالصغار :

(رأى أحد الأعراب رسول الله يقبل أحد أحفاده فقال باستغراب : أتقبلون أبناءكم ؟ إن لى عشرة من الأولاد ماقبلت واحدا منهم قط .

فأفهمه ﷺ باستهجان أن الله قد نزع الرحمة من قلبه .

وكان صلوات الله وسلامه عليه رحيم بالحيوان :

(مر رسول الله ﷺ على بستان رجل من الأنصار فدخل فإذا جمل يئن وتذرف عيناه فأتاه النبى ﷺ ، فمسح عليه فسكت ثم قال رسول الله ﷺ : من رب هذا الجمل ؟

فجاء فتى من الأنصار فقال : هذا لى يارسول الله .

ومن أخلاقهم حضورهم بقلوبهم مع الله تعالى حال أكلهم وشربهم

وشهودهم أن ذلك من جملة فضل الله تعالى عليهم ، وأنهم لا يستحقون شيئا من ذلك ذرة بل لايقومون بواجب حقه تعالى لو سفوا الرماد .

ثم إن وقع أن أحدا منهم أكل أو شرب غافلا استغفر الله تعالى .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالأصالة الا ليجمع قلوبنا عليه ، ونراه هو المحسن الحقيقى ، فلا نعول على أحد من خلقه ، فمن لم يحضر مع الله تعالى بقلبه ، فقد أخطأ الطريق ، وربما حول الله تعالى عنه النعمة ، وأنزل به ما يسوءه ، ليرجع إليه قال الله تعالى (وبلونهاهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون)[1]

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله أيضا يقول :

الطعام كالصلاة فى حضور القلب مع الله تعالى ، وكفى بالمرء كفرانا أن لا يحضر بقلبه بين يدى من أحسن إليه .

وسمعته أيضا يقول : ما واظب أحد على الحضور فى أكله وشربه إلا أثمر له ذلك القناعة والرضا من الله فى الدنيا .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

فقال له : ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله ؟ إنك تجيعه وتؤذيه . فخجل الأنصارى .

على أنه إذا كانت هذه صفات سيدنا رسول الله ﷺ بالنسبة للرحمة فى شخصه فإن رسول الله ﷺ كان رحمة مهداة للعالمين ، كان يحث على الرحمة ويدعو إليها وما كان قول الله تعالى عنه : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) جزافا من القول ، فإن هديه ﷺ بالنسبة للرحمة كان مستمرا فى كل وقت وفى كل حين .

فى بعض المرات كان سيدنا رسول الله ﷺ يحدث القوم عن الرحمة ويحث عليها فقال له بعض أصحابه إننا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا .

ولكن سيدنا رسول الله ﷺ رأى أن هذا الفهم قاصر عن الصورة التى يريدها فعقب عليهم بقوله :

ما هذا أريد إنما أريد الرحمة العامة .

إنه يريد أن تتغلغل الرحمة فى كيانهم حتى تصبح طبيعتهم فى حد ذاتها .

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى فإنى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : لاتنزع الرحمة إلا من شقى .

ويقول : الراحمون يرحمهم الرحمن .

(١) سورة الأعراف آية : ١٦٨ .

ومن أخلاقهم عدم تكدرهم ممن ذهبوا إلي زيارته فلم يأذن لهم في الدخول عملا بقوله تعالي « وإن قيل لكم إجعوا فارجعوا هو أذكي لكم »(١)

فشئ جعله الحق تعالى أزكى لهم كيف يليق بمؤمن أن يتكدر منه .

وهذا الخلق لا يكون إلا لمن كملت رياضة نفسه ، حتى لم يصر يرى أحدا دونه فى قلة الدين ، وأما من لم يرض نفسه فمن لازمه غالبا التكدير ، ولايكاد يتذكر قول الله تعالى أن ذلك أزكى له أبدا .

وربما رجع يهجوا صاحب الدار ويقول : أنا الظالم الذى أمشى إلى مثل فلان .

وكل ذلك جهل كما وضحناه فى كتاب المنن الوسطى والحمد لله رب العالمين .

• • •

---

(١) وتمام الآيات : « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خيرلكم لعلم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحدا فلاتدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وماتكتمون» الآيات ٢٧ – ٢٨ – ٢٩ من سورة النور .

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآيات : هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك فى استئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده ، وينبغى أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف كما ثبت فى الصحيح . أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا ، فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم تسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن آئذنوا له .

فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إنى استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت النبى ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف » .

فقال عمر : لتأتينى على هذا بينة وإلا أوجعتك ضربا ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم مقال عمر ، فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا ، فقام معه أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهانى عنه الصفق بالأسواق .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرازق ، أخبر عمر عن ثابت عن أنس أو غيره أن النبى ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » .

فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبى ﷺ حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبى ﷺ ، فاتبعه سعد فقال : يارسول الله بابى أنت وأمى ماسلمت تسليمة إلا وهى بإذنى ؛ ولقد رددت عليك السلام ولم أسمعك ، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبا ، فأكل نبى الله فلما فرغ قال « أكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون » .

ومن أخلاقهم عدم دق الباب على أخيهم إلا لضرورة شرعية عملا بقوله تعالى : (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم)[(١)]

وهو إن ورد فى رفع الصوت من وراء الحجرات فدق الباب مثله .

بل وربما كان المقصود بالزيارة فى حضور قلب مع الله تعالى فى حضرة خشعت فيها الأصوات ، فيكون دق الباب على ذلك الفقير أشد من ضربه بالسيف كما جربنا ذلك .

---

(١) وتمام الآيات : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحان الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) الآيات : ٢ - ٣ - ٤ - ٥ من سورة الحجرات .

قوله تعالى : (لا ترفعوا أصواتكم) فى سبب نزولها قولان .

القول الأول : أن أبا بكر وعمر رفعا أصواتهما فنزلت وهذا قول ابن أبى مليكة .

وقد روى البخارى فى صحيحه ٤٥٢/٨ باب (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) الآية من حديث نافع عن ابن أبى مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبى ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى مجاشع وأشار الآخر برجل ، آخر ، قال نافع : لا أحفظ إسمه ، فقال أبو بكر لعمر ما أردت إلا خلافى ، قال : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما فى ذلك ، فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم ...) الآية قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عن أبيه ، يعنى أبا بكر . اهـ .

وفى رواية الترمذى : وما ذكر ابن الزبير جده وفى رواية الطبرى . وما ذكر ابن الزبير جده يعنى أبا بكر . اهـ .

والحديث أورده السيوطى فى الدر ٨٤/٦ وزاد نسبته لابن المنذر ، والطبرانى عن ابن أبى مليكة .

القول الثانى : أنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس ، وكان جهورى الصوت ، فربما كان إذا تكلم تأذى رسول الله ﷺ بصوته قال مقاتل .

ورواه الواحدى فى (أسباب النزول) ٢١٨ بغير سند ، ولم يعزه لأحد . وحديث ثابت بن قيس بن شماس رواه البخارى فى صحيحه ٤٥/٨ من حديث موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يارسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسا فى بيته منكسا رأسه ، فقال له : ما شأنك فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبى ﷺ فقط حبط عمله وهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبى ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى (يعنى بن أنس) فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : « إذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة » ورواه مسلم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وأورده السيوطى فى الدر ٨٤/٦ وزاد نسبته لأحمد ، وأبى يعلى فى معجم الصحابة وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وسبب نزول « إن الذين يغضون أصواتهم » أنه لما نزل « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » قال أبو بكر الصديق : يارسول الله آليت ألا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله .

قال الحافظ بن حجر فى تخريج الكشاف وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبى بكر قال . وروى الرواية السابقة .

قال : وأخرجه الحاكم والبيهقى فى المدخل من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت « الذين يغضون ...» الآية قال أبو بكر : والذى أنزل عليك الكتاب يارسول الله لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله عز وجل ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وكثيرا ما يضيق وقت الفقير عليه ، فلا يصير يقدر على لقاء أحد من الخلق إلا بتكليف زائد ، فإن أقبل على الخلق وأعطاهم حظهم من الإقبال ضر نفسه ، وفرق جمعيته وإن لم يقبل عليهم فربما مزقوا عرضه ، فمزق الله تعالى أديانهم بل نفس تمزيق عرض أخيهم تمزيق لأديانهم .

فينبغي للإنسان أن يحمل من لم يجبه من داخل الدار على أحسن المحامل ، فربما كان له ضرورة لا يقدر على إفشائها .

ثم من علامته أن له ضرورة عدم خروجه إلى صلاة الجماعة أوالورد مثلا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : صحة توجههم إلي الله تعالي في دفع الدنيا عنهم كلما أقبلت

المعتقد عليهم ن الأمراء ، والأكابر وخدموهم ، وأهدوا لهم الهدايا ، والتحف ، وذلك خوفا أن يكون ذلك حظهم من الأعمال الصالحة .

وقد دخل بعض الصحابه على سيدى رسول الله ﷺ فرأوه يدفع شيئا عن نفسه ولا يرى أحدا .

فقال : يارسول الله ما هذا ؟

فقال : الدنيا تطاولت لى فقلت لها : إليك عنى رواه البيهقى انتهى .

وهذا خلق غريب فى هذا الزمان وربما أدعاه أحد بغير حق ، فليمتحن الناصح لنفسه نفسه بما لو أوصى له شخص بألف دينار مثلا ، فجاء شخص من أعدائه وقال للموصى هذا شخص فاسق لا يستحق شيئا من ذلك ، ومحى اسمه ، وأعطى الألف لأحد من أقرانه فإن انشرح صدره لذلك ، فهو صادق فى الزهد فى الدنيا ، وإن تكدرت منه شعرة ، فهو كاذب .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

كل من لم يزدد محبة فيمن صد عنه الدنيا وأهلها فهو نصاب شيطان انتهى .

وقد وقع لأخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى إن شخصا أوصى له بثمانية دنانير وكتب اسمه فى الوصية .

فقال لى : إن رددتها أورثنى ذلك التعظيم فى الدنيا وإن قبلتها صار على حسابها ولكن قل معى يا الله اجعل صاحبها يحولها عنى من ذات نفسه ويعطيها لغيرى فبعد ساعة جاء شخص وقال له : إن صاحب الوصية حولها إلى غيرك فقال أخى : الحمد لله على ذلك لو كان أخى المذكور منفعلا فى الزهد ما قدر على توجه قلبه إلى محبة تحويل الدنيا عنه أبدا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم تنفيه الحق تعالي ما يأكلونه من الحرام بعلامات يعرفهم اياها

فيأخذوا فى القئ إن أمكنهم والا أخذوا فى التوبة والاستغفار

ومن العلامات أن يكون للشرع على ذلك الطعام إعتراض من حيث وضع اليد عليه.

ومنها وجود الظلمة فى قلوبهم ، والثقل فى طبيعتهم ، حتى كأن أحدهم أكل رصاصا .

ومنها أن يقوم أحدهم من النوم ، فيمكث ساعة حتى يستيقظ كما يقع لمن يأكل الربا.

ومنها أن تتعب نفوسهم من أكله فيتقيؤه قهرا عليهم من غير معالجة ، ويقع لى ذلك كثيراً لما آكل من طعام المباشرين فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم كثرة الخوف من أكل الحرام والشبهات

خلاف ما عليه طائفة من مشايخ هذا الزمان فقد رأيت شخصا منهم يفطر عند مكاس فى رمضان وهذا لا يليق بمن جعله الله تعالى قدوة للناس فى هذا الزمان ولماحدثته فى ذلك فكان من جوابه البحر لا يكدره الدلاء ولا ينجسه بول حمارفعلمت أنه بحاله هذا مفتون ولو أنه كان شم رائحة طريق أهل الله تعالى لم ينطق بمثل ذلك .

وقد كان سيدى ابراهيم المتبولى رحمه تعالى يقول : للقمة الحرام أوالشربة أثر عظيم فى قلوب الآكلين بحسب مراتبهم .

فأثرها فى قلوب العوام وقوعهم فى أعمال مذمومة لم يكن لهم عادة بفعلها .

وأثرها فى طلبة العلم ، والمريدين قسوة فى القلب ، وثقل فى الطبيعة .

وأثرها فى المتوسطين غفلتهم عما يعود عليهم نفعه من مصالح الدارين .

وأثرها فى الكاملين كثرة الخواطر التى لا منفعة فيها لهم .

وأثرها فى المكملين منعهم من دخول حضرة الله تعالى بقلوبهم بصلاة أو غيرها .

وأثرها فى القطب والامامين ، والأوتاد ، والأبدال أمور يذوقونها ، ويستغفرون الله تعالى منها .

فإياك يا أخى ، وترك التورع ، ثم إياك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن يقولوا بتوجه تام كلما قدم لهم طعام يخافون أن يكون فيه شبهة

اللهم ارحمنا من الأكل من هذا الطعام ، فإن لم تحمنا فلا تجعله يقيم فى بطوننا ، وإن جعلته يقيم فى بطوننا ، فاحمنا من الوقوع فى المعاصى التى تنشأ من أكل الحرام عادة ، فإن لم تحمنا من المعاصى ، فاقبل استغفارنا ، وتب علينا من ذلك ، وأرض عنا: أصحاب التبعات التى فى هذا الطعام فى نفس الأمر ، فإن لم ترضهم عنا ، فاعف عنا ، فإن لم تعف عنا ، فصبرنا على العذاب يا أرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم عدم اطعامهم الضيف شيئا فيه شبهة

فإن الله تعالى لم يكلف أحداً أن يضيف الا من الحلال .

ولوقدر أن الضيف طلب الضيافة من الشبهات لا يجيبونه إلى ذلك كما لا يجيب الولى الطفل إلى كل ما دعت إليه نفسه مما يضر بدنه أودينه .

فعلم أنه لا ينبغى العتب على فقير فى هذا الزمان من جهة عدم اطعامه الطعام للواردين عليه ، فربما كان لا يرضى ذلك الطعام للواردين عليه .

ثم إن هذا الخلق لا يقدر على العمل به إلا من خرج عن الحياء الطبيعى وإلا فمن

لازمه غالبا إطعام الناس الحرام والشبهات كهدايا مشايخ العرب والكشاف لذلك الفقير لاعتقادهم فيه الصلاح ، ونحو ذلك .

وقد كان سيدى على الخواص كثيراً ما يقدم للضيف الإبريق ويقول له :

إن شئت فاشرب فإنى لم أجد لك الآن شيئاً حلالاً أطعمك منه ، وربما أعطى الضيف لقمة يابسه ، أو ثمرة فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم التفاخر بكثرة اطعامهم الطعام حبا في نشر الصيت بذلك

كمايقع فيه من يتمشيخ بغير شيخ ، فإن كثرة طعام الفقير تدل على قلة ورعه .

وقد رسمت مرة للنقيب حين جاءنا قصع كبار وقال لى :

مقصودنا علامة عليها لتعرف إذا سرقت .

فقلت له : أكتب عليها بالنار كبر القصع من قلة الورع ، فكتبها فلم تزل تلك الكتابة عليها ، حتى تكسرت ، فكنت أتذكر فيها قلة ورعى كلما رأيتها ملآنة من الطعام والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم تقليل الطعام جداً في رمضان للضيف

إرشاداً له إلى الخير ، ولوتكدر هو من ذلك ، وذمنا فى المجالس لا نلتفت إليه ، وذلك لأن سر الصوم ونوره فى الجوع .

وكل من قدم لضيفه فى رمضان قدر ما يقدم له أيام الفطر ، فقد أساء فى حقه ، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً .

فاشفق يا أخى على دين ضيفك ، ولا تكن سبباً فى نقصان أجره ، فإنه ولو ذمك فى الدنيا سوف يمدحك فى الآخرة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تكلفهم للضيف

وذلك بأن يقدموا إليه مالاتتبعه نفوسهم مما دخل تحت يدهم ، فلا يذبحون دجاجة زوجتهم ، ولا عناق خادمهم مثلا ، ويقولون : نعوض عليكم ، فإن ذلك من التزود فى الدين.

وقد وقع أن سيد عبد العزيز الديرينى ذبح دجاجة زوجته لما زاره سيدى على المليجى[١] فلما استوت وقدمها إليه سمع سيد على زوجة سيدى عبد العزيز تقول ما كان لنا حاجة بهذا الذى أكل الدجاجة التى كانت تبيض للاولاد فتوجه سيد على إلى الله تعالى وقال للدجاجة قومى بإذن الله تعالى فقامت حية وأخذ المرق ففت فيه الخبز وأكتفى به وقال لسيدى عبد العزيز الديرينى ألا يطعم فقير إلا مما ليس فيه شبهة تبعه انتهى .

وأعلم يا أخى أن من ( )[٢] يكره لقاهم وهرب ولو على طول .

ثم إن قدر أن نفس صاحب الدار طيبة بذلك ، فالعيال لا يطيقون المداومة على الطبخ والعجين والخبيز ، فيصير يكره زوجته مثلا على طبخ الطعام ، وهى داعية ساخطة فلا يبارك للأكل منه .

ثم إن أكثر ما يقع فى مثل ذلك شيوخ البلاد وأولاد الفقراء الذين يطلبون الصيت لأغراض دنيويه .

وقد بسطنا على ذلك فى كتاب العهود والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم الصلاة في ثوب اشتغل الخياط عن الصلاة بخياطته

مهما كان ذلك لأجل استعجاله له أو كان من عادته ترك الصلاة .

وكذلك لا يصلون فى ثوب بلغهم أن الخياط استعمله فى حرام .

وقد وقع لى أن شخصاً خاط لى جبه ( )[٣] وخطتها عند غيره ثانياً احتياطاً للصلاة فيها .

ولم أر لهذا الخلق فاعلاً من أقرانى إلا قليلاً فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو سيدى على المليجى رضى الله عنه : كان من أصحاب الشيخ أبوالفتح الواسطى الذى كان من أصحاب سيدى أحمد الرفاعى فأشار إليه بالسفر إلي الإسكندرية فكان له بها كثير من المريدين وكان سيدى على المليجى معاصراً لسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وكان سيد أحمد البدوى إذا أرسل سيدى عبدالعال فى حاجة له يقول له : إذا وصلت إلى جمزور فاخلع نعلك فإن هناك خيام المليجى وذلك من عظم مقامه رضى الله عنه .

(٢) مطموس من الأصل .

(٣) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم عدم اعلامهم المعارف بما يريدون أن يعملوه من الولايم

فلا يعلموهم الابعد طبخهم الطعام وذلك خوفاً أن يتكلف أحد من معارفهم ، ويساعدهم بغير نيه صالحه ، فيصير لهم المنه عليهم ، ولا يحصل للمساعد شيء من الأجر .

وإن خافوا أن أحداً من النقباء يعلم بذلك المعارف أوصوه بالسكوت عن ذلك ، وهذا مادرج عليه السلف الصالح الذين أدركناهم خلاف ما عليه متصوفة هذا الزمان فإذا أراد أحدهم أن يزوج ولده أويختنه أو يعمل عقيقة أعلم بذلك سائر المعارف والأمراء والتجار ومعلوم أن أعلامهم مثل هؤلاء سؤال في المساعدة عند كل عاقل ، فربما تكلف أحدهم ، وأرسل بقرة ، أو خروفاً ، أو عسلاً ، أو أرزاً ، أو سمناً ، أو حطباً ، وصار طعاماً مجمعاً من حرام وحلال ، ثم يصير سيد الشيخ يطعم الناس من ذلك وعليه حسابه يوم القيامه ، وربما يرى لنفسه المنة بعد ذلك على من أكل مع أنه أتلف أديانهم وسود باطنهم بذلك الطعام .

وكان سيدى على الخواص لا يحضر وليمة عملها فقير لا يكلفها ويقول :

إن هذا يأكل بدينه هذا إذا فعل الطعام من غير سؤال الناس لا يفوته المباشرين ومشايخ العرب والكشاف بل رأيت من يبلص فى عمل مولده من حمزة المشاعل .

فالحمد لله الذى حمانا من مثل ذلك ، وقد عم مما قررناه أن كل من عمل له مولداً وأخذ كلفته من الناس ، فهو نصاب شيطان مغتر كذاب لم يشم من طريق القوم رائحة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم شهامة النفس واليقظة لكل ما يدخل جوفهم من طعام المريدين

ولا يأكلون إلا من طعام من يتورع منهم فى كسبه ولو أنه غضب منهم لا يلتفتون إليه ولا لقوله كسرتم خاطرنا فإنه جاهل بمقام الأشياخ وهذا الخلق قل من يتمسك به من مشايخ هذا العصر بل رأيت من يأكل من طعام مريده المكاس وإذا سئل فى ذلك قال : خفت أن أكسر خاطره ؛ وما عبد الحق تعالى بشيء أفضل من جبر الخواطر انتهي .

وهذا من الجهل بقواعد الشريعة ولا فرق حينئذ بينه وبين من عزم عليه شخص بأن يشرب معه الخمر فلو قال : إنما شربت جبرا لخاطره حددناه ، ولم نقبل له عذراً ، وحكمنا بفسقه فالعاقل من وزن فعاله بالشريعة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم التداوي بإشارة كافر

خوفاً أن يوافق ما وصفه الشفا ، فيحصل لهم الميل إليه ، فلا يصير أحدهم يقدر على عداوته كما أمر الله تعالى وهذه نكته تخفى على كثير من الفقراء الساذجين .

وكانوا إذا لم يجد أحدهم طبيباً من المسلمين صبر واحتسب هذا مادرج عليه السلف الصالح .

وسمعت سيدى أبا السعود الجارحى رحمه الله يقول :

من كان يوفى بالعهود فلا يستطب باليهود .

فإياك يا أخى أن تستطب بكافر ، فتقع فى الميل إليه قهراً عليك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم الرضي بالبلاء والنظر في عاقبته

وفى الحكمة (   )[1] الحق تعالى يفيه لأنه لا يخلوا إما أن يكون .

عاقبة للذنب فيكون البلاء تكفيراً له .

وإما رفع درجات .

فلا يخلوا البلاء عن واحدة منهن ولكل واحدة علامة .

فعلامة الابتلاء عقوبة على ذنب أن يشعر المذنب بالهم والقلق والسخط .

وعلامة الابتلاء تكفيرا لذنب أن يصحبه الصبر .

وعلامة الابتلاء لرفع الدرجات أن يصحبه الرضى وانشراح الصدر حتى يتمنى دوامه .

ثم إن هذه العلامات الثلاث تتوارد على الفقراء إذا لم يحفظوا من المعاصى فإن حفظوا منها توارد عليهم العلامتان الباقيتان ماعدا الأولى والحمد لله رب العالمين .

• • •

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم إذا دخلوا على مريض يعودونه أن يتحملوا عنه المرض أو شيئاً منه من باب تعلق السبب على المسبب

وإلا فلا يصح لأحد أن يتحمل عن أحد ماقدره الحق تعالى عليه أبداً ، ويحمله العايد للمريض حقيقة ليس هو عين مرض المريض ، وإنما هو نظيره ، ومع ذلك فيؤجرون عليه بالنية الحسنة ، كما يؤجر من عزم على فعل خير ، ثم لم يقسم له ، فيعطيه الله تعالى أجر نيته لحديث «إنما الأعمال بالنيات[1]» فإنه قال فيه « وإنما لكل امرئ ما نوي» وما قال وإنما لكل امرئ ما عمل .

وهذا ما درج عليه السلف الصالح خلاف ماعليه غالب فقراء هذا الزمان ، فيدخلون على المريض ، ثم يخرجون من عنده ، ومرضه على حاله ما نقص منه شيء .

ومن أدركته من أهل هذا الخلق سيدى على الخواص ، وسيدى محمد بن عنان ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، فكانوا إذا لم يقدروا على التحمل يدعون له ، ولا يدخلون عليه[2] .

---

(١) وتمام الحديث : عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أوامرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» رواه البخارى ومسلم .

(٢) قد يستغرب القارىء العزيز هذا الخلق بالنسبة لسادتنا الصوفية ولكننا نعتقد أن هذا الإستغراب سيزول فى الحال بقراءة متأنية للتعليق الذى اخترناه من كتاب المختار من الأنوار فى صحبة الأخيار» للإمام عبد الوهاب الشعرانى وتحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة والأستاذ طلعت غنام حيث يبين لنا هذا الكتاب فضل الصحبة فى الله وأسانيد الصوفية لها من الكتاب والسنة وحقوق هذه الصحبة وشروطها بأبلغ بيان .

يقول الإمام الشعرانى :

اعلم وفقنى الله وإياك إلى ما يحب : أن الصحبة فى الله تعالى من أوثق عرى الإسلام ، ومن أكبر أبواب الخير ، وقد رغب العلماء فيها سلفاً وخلفاً .

وأما من حذر منها وقال : إن العزلة أقرب إلى السلامة من الآفات ، وأبعد من تحمل الحقوق فى المخالطات وأجزأ للإشتغال بالطاعات ، فإن ذلك فى حق المريد مادام قاصراً ، فإذاانتهى سلوكه وكمل حاله كان الأفضل فى حقه « الخلطة» بل – «الخلطة» فى حق مثل هذا واجبة كما قال بعضهم .

فعلم أنه لا يقال : العزلة أفضل مطلقاً .

ثم لا يخفى أن صحبة الأدنى للأعلى ليست بصحبة فى الحقيقة وإنما هى تعليم وخدمة ، إذا صاحب الإنسان من هو يشرب من بحره ويحيط بمقامه .

فإطلاق الصحبة بين المريد والشيخ والصحابى والرسول عليه السلام ، إطلاق مجازى لاحقيقى .

إذا علمت ذلك ، فنورد عليك شيئا من الأخبار الواردة فى فضل المتحابين فى الله تعالى لأن القلب يقوى بالإطلاع على الدليل :

روى الشيخان فى صحيحهما : « سبعة يظلهم الله فى ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد .

وقد نقدم قريباً أنه لا ينبغى المبادرة إلى الدعاء للمريض ، برفع المرض عنه إلا بعد انتهائه سواء أكان عقوبة أوكفارة أورفع درجات لكن هذا خاص بأهل الكشف التام،

ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه .
ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ! ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» .
وروى مسلم : « والذى نفسى بيده ! لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا .. ولن تؤمنواحتى تحابوا» .
أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتهم ؟ أفشوا السلام بينكم .
وروى أيضاً : «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد الله على سرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد.. ؟
قال : أريد أخا لى فى هذه القرية .
قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا غير أنى أحبه فى الله .
قال : فإنى رسول الله إليك ، إن الله أحبك كما أحببته فيه .
وروي ابن عساكر وغيره : « سبعة فى ظل العرش » يوم لا ظل إلا ظله :
رجل ذكرالله ففاضت عيناه .
ورجل يحب عبد لايحبه إلا الله .
ورجل قلبه معلق بالمساجد من شدة حبه إياه : ورجل يعطى الصدقة بيمنه فيكاد يخفيها عن شماله ، وإمام مقسط فى رعيته ، ورجل عرضت عليه امرأة نفسها فتركها لجلال الله . ، ورجل كان فى سرية مع قوم فلقوا العدو، فانشكفوا ، فحمى آثارهم حتى نجوا ونجا أواستشهد .
وروى البيهقى فى الأسماء : (سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلاظله) .
رجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله .
ورجلان تحابا فى الله .
ورجل غض عينيه عن محارم الله ، وعين حرست فى سبيل الله وعين بكت من خشية الله) .
وروى أيضاً فى شعب الإيمان : « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس !
وأهل التودد فى الدنيا لهم درجة فى الجنة !
ومن كانت له درجة فى الجنة فهو فى الجنة) .
وروى أيضاً : رأس العقل بعد الإيمان التحبب إلى الناس واصطناع الخير إلى كل بر وفاجره .
وروى الدارقطنى : (المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) .
(وخير الناس أنفعهم للناس) .
وروى أبو داود : (من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان) .
وروى أيضاً : (أفضل الإيمان أن تحب لله وتبغض لله ، وتستعمل لسانك فى ذكر الله .
وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ماتكره لنفسك . وأن تقول خيراً أوتصمت) .
وروى الامام أحمد : (أن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالى : ؟ اليوم ... أظلهم فى ظلى) .
وروى أيضاً : (المؤمن الذى يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لايخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) .
وروى أيضاً : (إن أوثق عرى الإسلام أن تحب فى الله وتبغض فى الله) .
وروى أيضاً بسند صحيح : (إن المتحابين فى الله لترى غرفهم فى الجنة كالكوكب الطالع الشرقى أوالغربى .
فيقال : من هؤلاء ..؟ فيقال : هؤلاء المتحابون فى الله) .
وروى أيضاً : (أحب الأعمال إلى الله الحب فى الله ، والبغض فى الله) .
وروى أيضاً : (من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرءلا يحبه إلا لله) .
وروى الطبرانى : (رأس العقل بعدالإيمان بالله التحبب إلى الناس) .

وأما من لا كشف عنده ، فيدعوا ، ويرجوا من الله تعالى الإجابة والحمد لله رب العالمين .

وروى أيضاً : (إن المتحابين فى الله فى ظل العرش) .
وروى أيضا : « المتحابون فى الله فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله) .
وروى أيضاً قول الله تعالي فى الحديث القدسى (وجبت محبتى للمتحابين فى ، والمتجالسين فى ، والمتباذلين فى والمتزاورين فى) .
وروى أيضاً : (لو أن عبدين تحابا فى الله ، واحد فى المشرق وآخر فى المغرب ، لجمع الله بينهما يوم القيامة ، يقول : هذا الذى كنت تحبه فى) .
وروى أيضاً : « ما تحابا رجلان فى الله ، إلا يجلسهم يوم القيامة على منابر من نور ، يغشى وجوههم النور ، حتى يفرغ من حساب الخلائق» .
وروى أيضاً : « من أحب قوماً حشر فى زمرتهم» .
وروى أيضاً : « المتحابون فى الله فى ظل الله ، يوم لا ظل إلا ظله ، على منابر من نور ، يفزع الناس ولا يفزعون» .
وروى أيضاً : « إن لله عباداً ، ليسوا بأنبياءولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله .
قيل : من هم يارسول الله؟
قال : ناس من بلدان شتى ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا فى الله وتصافحوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، يفزع الناس ولايفزعون» .
وروى أيضاً: « ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة فى وجوههم النور ، على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء، ولا شهداء! .
قيل : من هم .. ؟
قال : المتحابون فى الله ؛ من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه .
وروى أيضاً : (إن فى الجنة غرفاً يرى ظواهرها من بواطنها وبواطنها من ظواهرها ، أعدها الله للمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه) .
وروى : (إن فى الجنة لعمدا من ياقوت عليها غرف من زبرجد ، لها أبواب مفتحة تضئ كما يضئ الكوكب الدرى!
قال : قلنا يارسول الله ، من يسكنها ..؟
قال : المتحابون فى الله ، والمتباذلون فى الله والمتلاقون فى الله) .
وروى الترمذى – وقال : حديث حسن صحيح ـ : (قال الله تعالى : المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء) .
وروى أيضاً : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان . من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .
ومن أحب عبداً لايحبه إلا لله .
ومن يكره أن يعود فى الكفر ، بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف فى النار)
وروى أيضاً : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)
وروى ابن النجار : (استكثروا من الإخوان ، فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة) .
وروى الحكيم : (نظر الرجل لأخيه على شوق خير من اعتكاف فى مسجدى هذا)
وروى ابن أبى الدنيا : (حقت محبتى للمتحابين فى ، وأظلهم فى ظل العرش يوم القيامة ، يوم لا ظل إلا ظلى)
وروى أيضاً : (ما أحدث رجل أخا فى الله إلا أحدث الله له درجة فى الجنة) .
وروى أيضاً : (أصب بطعامك من تحبه فى الله) .
وروى الحاكم وغيره : (قال الله تعالى : المتحابون فى على منابر ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء) .

وروى البيهقى : « من أحب أن يجد طعم الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله» .
وروى أيضاً : « إن الله تعالى يقول : إنى لأهم بأهل الأرض عذاباً ، فإذا نظرت إلى عمار بيوتى ، والمتحابين فى والمستغفرين بالأسحار صرفت عذابى عنهم» .
والأخبار فى فضل المتحابين كثيرة ونقتصر منها على هذا القدر .

آثار السلف الصالح في المتحابين

ونذكر لك شيئا منها :
فعن « الحسن البصرى» – رحمه الله – قال : « كل من اتبع طريقة طاعة الحق – تعالى – لزمتك مودته ، ومن أحب رجلا صالحا فكأنما أحب الله عز وجل» .
وقال الإمام الشافعى – رحمه الله – : لولا صحبة الأخيار ومناجاة الحق – تعالى – بالأسحار ما أحببت البقاء فى هذه الدار .
وقال أيضاً : لقاءالإخوان ليس يعدله عندى شىء .
وقال مطرف بن الشخير : أوثق أعمال يعندى حب الرجل الصالح .
وقال أبو نصر بشر الحافى – رحمه الله – : عليك بصحبة الأخيار إن أردت الراحة فى تلك الدار ، وتنفك من رق الأغيار .
وقال سيدى أحمد الرفاعى – رحمه الله – : مصاحبة أهل التقوى نعمة عظيمة ، من نعم الله على العبد :
وقال « أبو السعود بن أبى العشائر – رحمه الله – من أراد أن يعطى الدرجة القصوى يوم القيامة فليصاحب فى الله .
وقال شيخ الوفائية – رحمه الله – : لا تبع ذرة من الحب لله أو فى الله بقناطير من الأعمال .
قال رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب» .
وقال سيدى على وفا : إذا أحببت أخا فى الله ، فاحفظه ، تزدد به ممن أحببته لأجله .
وقال الشيبح أبوالمواهب الشاذلى – رحمه الله – : عليك بتكثير سواد القوم ، فإن من كثر سواد قوم فهو منهم .
وقال أيضاً : إذارأيت نفسك معرضة عن أهل الله فاعلم أنك مطرود عن باب الله .
وقال أيضاً : عليك بصحبه الفقراء فإنه لو لم يكن إلا أخذهم بيدك يوم القيامة ، مع ما يحملون عن أصحابهم عن الدنيا من المصائب ، لكان فى ذلك كفاية ، وكم استغنى بصحبتهم فقير ،وجبر كسير ، وارتفع وضيع ، وستر شنيع ، وهلك ظالم ، وارتفعت مظالم ، وفيهم ورد الحديث : « بهم ترزقون وتمطرون وترحمون» .
وقال الشيخ سليمان الخضيرى – رحمه الله – من أراد أن يعطى الخير الكثير فليصاحب أهل المراقبة .
وقال سيدى على الخواص – رحمه الله – : من أراد أن يكمل إيمانه وأن يحسن ظنه فليصاحب الأخيار .
وقال سيدى أفضل الدين – رحمه الله – عليك بالود فى الله فقد ورد أن الله يقول لعبده : هل واليت لى وليا أو عاديت لى عدوا .
وقال أيضاً : من أراد أن يكون من أكابر أهل المقابر فليصاحب فى الله .
قلت : يؤيده ما حكاه اليافعى فى كتابه « روض الرياحين» عن بعض الأولياء قال: سألت الله تعالى أن يرينى مقامات أهل المقابر ، فرأيت فى ليلة من الليالى كأن القيامة قد قامت ، والقبور قد انشقت ، وإذا منهم النائم على السندس ، ومنهم النائم على الحرير والديباج ، ومنهم النائم على الريحان ، ومنهم النائم على السرر ، ومنهم الضاحك ، ومنهم الباكى .
قال : فقلت يارب لو شئت ساويت بينهم فى الكرامة ؟
فنادى مناد من أهل القبور : يا فلان ، هذه منازل الأعمال أما أصحاب السندس فهم أهل الخلق الحسن ، وأما أصاب الحرير والديباج فهم الشهداء ، وأما أصحاب الريحان فهم الصائمون ، وأما أصحاب الضحك فهم التائبون، وأما أصحاب البكاء فهم المذنبون ، وأما أصحاب المراتب فهم المتحابون فى الله تعالى .
قال اليافعى : هكذا ذكر فى الأصل الذى نقلت منه ، أعنى فسر أصحاب المراتب ، ولم يتقدم للمراتب ذكر ، وتقدم ذكر السرر ولم يفسرأصحابها ، فلعله أراد بالمراتب السرر المتقدم ذكرها، لأن حقيقة المراتب هى المناصب

الشريفة ، والمقامات العالية المنيفة .
ولاشك أن أصحاب السرر أشرف مرتبة وأعلى منزلة ممن على الأرض ، وإن كان أهل المراتب يجلسون على الحرير وغيره مع السرر المذكورة المعدة للإكرام التى لا تخلو من الفرش الغزيرة غالباً ، وإن لم تذكر معها ، كما قال تعالى : « إخوانا على سر متقابلين» .
فلمى ذكر سبحانه الفرش فى هذه الآية ، ومعلوم أن السرر المذكورة عليها الفرش المذكورة فى آيات أخرى .
وإذ قال قائل : جلس الملك على سريره وجلسنا عنده علم من ذلك شيئان :
أحدهما : أن السرير مفروش .الثانى : أن الملك إنما جلس على السرير ليرتفع على من عنده ، يرفعه المجلس مع رفعة المملكة ولا يرضى أن يجلس معه على السرير غيره .
قال : فعلى هذا يكون المتحابون فى الله أفضل من سائر المذكورين فى هذه الحكاية .
وقد ورد حديث الترمذى الصحيح : « قال الله تعالى المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» .
وقد ظهر من هذا الحديث ما يؤيد المقام المذكور : أنهم أصحاب المراتب ، وناهيك بها من مراتب ! وأكرم بها من مناصب احتوت على شرف جل قدره ، وعظم فخره ! مع ما لهم من السلسبيل الأهنا والجمال الأسنى ، والنعيم المقيم فى جوار المولى الكريم ! وأما ذكر السرر فى المقام المذكور ، وذكر منابر النور فى الحديث المشهور ، فليس بينهما تناقض ولا قادح مذكور ، فالمنابر تكون فى القيامة والسرر تكون فى القبور ، كما روى فى المقام المذكور.
انتهى كلام اليافعى – رحمه الله تعالى – .

حقوق الصحبة

إعلم – وفقنى الله وإياك لما يحب – : أن حقوق الصحبة كثيرة ولكن نذكر لك جملة من الحقوق التى لابد منها فى طريق العشرة والمخالطة .
واعلم أيضاً أن المشايخ قد حثوا على الإعتناء فى حقوق الإخوان ، وقالوا : من ضيع حقوق إخوانه ، ابتلاه الله تعالى بتضييع حقوقه وإذا ابتلى الله عبداً بذلك مقته ، وإذا مقت الله عبداً طرحه فى النار .
إذا علمت ذلك فأقول – وبالله التوفيق – :
من حقوق الأخ على الأخ : أن يتعامى عن عيوبه ، فقد قال المشايخ :
من نظر إلى عيوب الناس قل نفعه وخرب قلبه .
وقالوا إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس ، خبيرا بها فاعلموا أنه قد مكر به .
وقالوا : من علامات الإستدراج للعبد نظره فى عيوب الناس وعماه عن عيوب نفسه .
وقالوا : مارأينا شيئاً أحبط للأعمال ، ولا أفسد للقلوب ولا أسرع لهلاك العبد ، ولا أقرب من المقت ، ولا ألزم بمحبة الرياء ، والعجب ، والرياسة ، من قلة معرفة العبد عيوب نفسه ونظره فى عيوب الناس .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يحمل ما يراه منه على وجه من التأويل ، جميل ما أمكن فإن لم يجد تأويلا رجع على نفسه باللوم .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يرجو له من الخيرات والمسامحة وقبول التوبة ولو فعل من المعاصى ما فعل كما يرجو ذلك لنفسه .
ومن حق الأخ على الأخ : ألا ينظر إلى زلة سبقت ، ولا يكشف عورة سترت .
ومن حق الأخ على الأخ : ألا يعيره بذنب ولا غيره فإن المعايرة تقطع الود أوتكدر صفاءه .
ومن حق الأخ على الأخ : ألا ينظر له بعين الإحتقار .
ومن حق الأخ على الأخ : إذا اطلع على عيب فيه ، أن يتهم نفسه فى ذلك ، ويقول : إنما ذلك العيب فى ، لأن المسلم مرآة المسلم ، ولا يرى الإنسان فى المرآة إلا صورة نفسه .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يرى نفسه دونه على الدوام وذلك على سبيل الظن والتخمين ، فقد قالوا : من لم ير نفسه دون أخيه لم ينتفع بصحبته .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يؤثره على نفسه فى كل شىء .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يخدمه إذا مرض .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يحترمه ويوقره ، لاسيما إذا استحق ذلك ، كأن كان من العلماءأو من حملة القرآن الكريم ، أو من عترة رسول ﷺ .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يثنى عليه فى غيبته وفى حضوره بطريق الشرع فإن ذلك مما يزيد فى صفاء المودة .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يكرمه إذا ورد عليه بأن يتلقاه بالترحيب وطلاقة الوجه ، ويأخذه بالعناق إن كان رجلا ويفرش له شيئا يقيه من التراب .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يوسع له فى المجلس إذارآه فإن ذلك مما يزيده فى تقوية المودة .
وحق الأخ على الأخ : ألا يدعوه باسمه فقط ومن وصية بعضهم : إذا ناديت أخاك فعظمه تثبت مودته .
ومن الجفاء للأخ : نداؤه الخالى عن الكنية واللقب ، ولفظ السيادة ، وكذلك أولاده وأحفاده ، غيبة وحضوراً .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يعترف له بالفضل ، وأن يظهر عدم مكافأته ، لاسيما إن كان قد بدأه بهدية ، لأنه لا يقدر على بدايته ، كما قال الشيخ محى الدين بن العربى .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يزوره كل قليل من الأيام .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يصافحه كلما لقيه بنية التبرك وأمتثال الأمر .
ومن حق الأخ على الأخ : إذا لاقاه وصافحه أن يصلى ويسلم على النبى ﷺ ويذكره بذلك .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يهاديه كل قليل من الأيام ، لاسيما إذ بلغه عنه وقفة .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يرشده إلى ترك البغى على من بغى عليه وأن ينتصر بالله تعالى ، إذا أن إرشاد الأخ المظلوم إلى الإنتصار بالله تعالى والتسليم إليه سبحانه وتعالى من أكبر نصرة الأخ .
ومن حق الأخ على الأخ : مساعدته له فى التزويج .
ومن حق الأخ على الأخ : ألايغفل عن عيادته إذا مرض ولا عن خدمته لاسيما فى الليل .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يرشده إلى الوصية إذا حضرته الوفاة ، ولا يتبع الحياء الطبيعى ، والفائدة فى ذلك معلومة .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يسهر عنده إلى الصباح إذا كان فى حالة تفضى إلى الموت ، فربما يكون الأجل فى ذلك الوقت فيفارقه على وفائه بحقه .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يصدقه إذا انتسب إلى أحد من الأكابر من أولياء أوعلماء أوأمراء .
ومن حق الأخ على الأخ : ألا يكفره بذنب ، ولو لاث الناس به ، إذ لا يخفى قلة ورع الناس فى الكلام وعسر معرفة جميع الألفاظ التى يكفر بها الإنسان .
والتفكير كما قال شيخ الإسلام السبكى أمر هائل ، أقل ما فيه أنه أخبر عن إنسان أنه خالد فى النارلا تجرى عليه أحكام الإسلام فى حياته ولا بعد مماته .
ومن حق الأخ على الأخ ألا يبغض ذاته إذا وقع فيما لا يبتغى .
ومن حق الأخ على الأخ : إذا حصل بينه وبين أخيه وقفة أن يزيد فى بث محاسنه أكثر مما قبل الوقفة ، مراعاة للود . وقد كان السلف الصالح يمدحون عدوهم كلما ذكر أسمه بحضرتهم ، بحيث يظن الظان أنه من أعظم المحبين لهم !
ومن حق الأخ على الأخ : أن يقدم حوائجه الضرورية على عباداته المسلونة ، ومعلوم أن الخير الذى يتعدى نفعه أفضل من القاصر على فاعله .
ومن حق الأخ على الأخ : إذا رقع فى حقه شىء وبلغه أن يبادر إلى الاستغفار ، وإلى كشف الرأس والإطلاق إلى الأرض وإظهار الندم على ما وقع منه فى حق أخيه ، ويديم ذلك إلى أن يرحمه أخوه ، ثم إن لم يرحمه رجع على نفسه باللوم واعترف بأنه ظالم وقل من يفعل ذلك !!.
ومن حق الأخ على الأخ : أن يقبل اعتذاره ، ولو كان مبطلاً ، فقد روى الترمذى وغيره : « من أتاه أخوه متنصلا من ذنب فليقبل اعتذاره محقا كان أومبطلاً ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض .

وفى معنى ذلك أنشد :

أقبل معاذيرمن يأتيك معتذرا *** إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره *** وقدأحلك من يعصيك مستترا

ومن حق الأخ على الأخ : كثرة فرحه له إذا كثرت طاعاته وانقلب الناس إليه بالاعتقاد ، ومن لم يكن كذلك قام به داءالحسد وفى الحديث : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» .
ومن حق الأخ على الأخ : إذا أراد سفراً ألا يخرج حتى يودعه بالعناق إن كان رجلاً ، وبالإشارة إن كان صغيرا .
ومن حق الأخ على الأخ : إذا رجع من سفر أن يذهب إليه فى منزله ، فيسلم عليه ويهنئه بالسلامة ، وكذلك ولده وسائرأعزته إذارجعوا من سفر ، أو شفوا من مرض ، فمن حقه أن يذهب إليه أخوه ويهنئه بالسلامة .
ومن حق الأخ على الأخ أن يشاوره فى كل أمر مهم ، فقد ذكروا أن المشاورة تزيد فى صفاءالمودة .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يتفقد عياله وأولاده إذاغاب عنهم ، ومن كلامهم: « من لم يتفقد عيال أخيه فى غيبته فقد خان الصحبة» .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يشاطره فى ماله وغيره ، وقال الشيخ « أبوالمواهب الشاذلى» : يجب على الفقير إذا آخى فى الله أن يشاطره أخوه فى ماله ، كما فعلت الأنصار مع المهاجرين حين قدموا عليهم المدينة وهم فقراء ، فكل من أدعى الأخوة فى الله تعالى فامتحنه بهذه الميزان .
وقال سيدى (أبو مدين التلمسانى) : « لا تكمل صحبتك إلا بإنشراح صدرك لكل ما أخذه أخوك من مالك ، وثيابك ، وطعامك ، ومتى ما وجدت فى قلبك انقباضاً من ذلك فأنت منافق فى صحبتك» .
وقال بعضهم: « ماتصح الصحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا ، وليس بأخ من يقول : قصعتى أوثوبى» .
ومن حق الأخ على الأخ : ألا يتكدر منه إذا قال له : أنا أبغضك ، ويفتش على الصفات التى أبغضه لأجلها فيزيلها فإن زال بغضه وإلا كرر التفتيش ثانياً وثالثاً .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يكتم سره ،إذ السر كالعوردة ، وقد حرم الله كشفها ، والنظر إليها ، والتحديث بها .
وفى الحديث : « من ستر عورة أخيه ستر الله عورته ، ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته» .
وفى وصية الشيخ « أبى المواهب الشاذلى » : « إحذر أن تفشى سر أخيك إلى غيره ، فإن الله ربما مقتك بذلك فخسرت الدنيا والآخرة» .
ومن حق الأخ على الأخ : ألا يصدق من نم له فيه .
وقد ذكر حجة الإسلام «الغزالى» : « أنه يجب على كل من حملت إليه نميمه ستة أمور :
الأول : ألا يصدقه – أى النمام .
الثانى : أن ينهاه عن ذلك .
الثالث : أن يبغضه فى الله .
الرابع : ألا يظن بالمنقول عنه السوء .
الخامس: ألا يتجسس على تحقيق ذلك .
السادس : ألايحكى ما نم له به .
ومن كلام الشيخ «أبى المواهب الشاذلى» : « إذا نقل إليك أحد كلاماً عن صاحب لك فقل : « يا هذا أنا من محبة أخى ووده على يقين ، ومن قولك على ظن ، ولايترك يقين بظن ، ومن كلام الشيخ « أفضل الدين » : « إذا نقل إليكم أحد كلاماً فى عرضكم عن أحد فازجروه ، ولو كان أعز إخوانكم ، وقولوا له : إن كنت تعتقد فينا هذا الأمر فأنت ومن نقلت عنه سواء . بل أنت أسوأ حالا منه ، لأنه لم يسمعنا ذلك ، وأنت أسمعته لنا .
وإن كنت تعتقد أن هذا الأمر باطل فى حقنا ، وبعيد منا أن نقع فى مثله ، فما فائدة نقله إلينا» انتهى .
وقد ذكرنا فى غير هذه الرسالة «أن من أراد أن يدوم له ود أصحابه فليرد كلام النمام ببادئ الرأى » .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يذب عن عرضه لكن مع النية الصالحة ، والسياسة الحسنة .

وفى الحديث : « من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » .
ومن كلام الإمام «الشافعى» - رضى الله عنه- : « من علامات الصادق فى أخوة أخيه أن يقبل علله ، ويسد خلله ويغفر ذنبه» .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يوقظه قبل الوقت ليدخل الوقت وهو على أهبة ، فلاتفوته السنة الراتبة قبل الفريضة ، ولا تكبيرة الإحرام ، وكذلك من حقه أن يوقظه فى السحر ، إذ الشفقة فى أمر الدين أولى وأفضل من الشفقة فى أمر الدنيا . وينبغى أن يكون ذلك بلطف فإن النفس ربما تحركت مع الإيقاظ بغلظ .
ومن حق الأخ على الأخ : ألا يداهنه ، ففى الحدث :
«الدين النصيحة» .
وقال القوم: «الإخوان بخير ما تنافسوا ، فإن اصطلحوا هلكوا» .
ومن حق الأخ على الأخ أن يتهم نفسه بالكبر والنفاق ، إذا وجد عنده ثقلا منه ، ويسعى فى إزالة ذلك من باطنه .
وقد صحب شخص « أبابكر الكتانى» وكان على قلبه ثقيلاً .
قال : فوهبت له شيئاً ، بنية أن يزول ثقله عنى فلم يزل ، فخلوت به يوماً وقلت له : « ضع رجلك على خذى» ، فأبى ، فقلت له : « لابد من ذلك» ففعل ، فزال ما كنت أجده فى بطنى .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يقبل نصيحته ، فقد قالوا : « من أرشدك إلى ما به تخلص من غضب الله تعالى فقد شفع فيك ، فإن أطعته وقبلت نصحه فقد قبلت فيك شفاعته ، وإلا فنعوذ بالله من قوم لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، حيث كانوا عن التذكرة معرضين» .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يرشده إلى تعظيم حرمات الله والتباعد عن تعدى حدوده ، بحيث يصير إذا وقع فى أصغر الذنوب ، يرى ذلك الصغير من الكبائر بجامع المخالفة .
فلا يزال كذلك حتى يرى الغفلة عن الله خطيئة أشد من الزنا ، وقتل النفس . ثم إذا أكمل السالك رجع إلى أكمل من ذلك وهو تعدى حدود الله على حسب ما ورد فى الشرع ، فإن العبد تابع ما هو مشرع ، فيعظم الكبيرة على الصغيرة على المكروه ، والمكروه على خلاف الأولى :
وما بين الشارع ﷺ مراتب الحدود إلا ليعلمنا بتفاوتها ، فنعظمها بحسب مراتبها ، وكذلك القول فى قسم المأمورات فنعظم الواجب أكثر من المندوب ، والمندوب أكثر من المستحب ، وتندم على كل واحد بحسب تأكيد الشارع عليه .
فرجع السالك فى حال نهايته إلى صورة بدايته ، والقصد مختلف من حيث تفاوت المامورات والمنهيات فى الدرجة .
وكانت مساواة الأوامر والنواهى فى البداية للسالك من شدة تعظيمه لله تعالى ، فاستعظم مأموراته ومنهياته ، وسداً لباب المخالفة ، بقطع النظر عن مشاهدة حكمة تفاوتها ، كما ورد فى الشرع ، فثم مقام رفيع ومقام أرفع .
وعلى ما تقرر يحمل قول الجنيد : « ليس عندى ذنب أعظم من الغفلة عن الله تعالى» لأنه رأى أن سبب وقوع العبد فى الذنوب الغفلة عن الله تعالى .
ومن حق الأخ على الأخ :أن يأمره بستر المقام إذا تلمح منه الميل إلى الظهور ، ومن أحب الحق فهو عبد الخفاء.
وكل من خرج إلى الخلق قبل وجودالإذن الخاص به ، فهو مفتون ومسخرة للناس .
وما خرج الأولياء للخلق إلا بعد أن هددوا بالسلب إن لم يغفلوا ، فالعاقل من ستر مقامه حتى يتولى الله إظهاره بغير مراد منه .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يتظاهر بعداوة من عاداه بغير حق أما معاداته بالباطن فلا تجوز .
ومن حق الأخ على الأخ : أن يقوم له إذا ورد عليه ، ولو كره هو ذلك ، ولاسيما فى المحافل ، فقد قالوا : « إياك أن تترك القيام لأخيك فى المحافل ، فربما تولد من ذلك الحقد والضغائن فتعجز بعد ذلك عن إزالته» .
ومن حق الأخ على الأخ : ألا يحدثه بحديث كذب ، لأن فيه استهانه به ، وفى الحديث : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك مصدق ، وأنت له كاذب» .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا ينساه من الدعاء والمغفرة والرحمة ، كلما وجد وقته صافيا مع ربه ، سواءأكان ذلك فى ليل أو نهار ، أوسجود أوغيره .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يحقد عليه ، وفى الحديث :

« ثلاث من كن فيه ، فإن الله يغفر له ما سوي ذلك : من مات لايشرك بالله شيء ،ولم يكن ساحراً يتبع السحرة ، ولم يحقد على أخيه» .

وقال القوم : « كل من كان عنده حقد ،أو مكر ، أوخديعة أو غش لأحد ، فهو كذاب فى طريق القوم ، ولايجوز أن يكون داعياً إلى الله تعالى» .

ومن حق الأخ على الأخ: إذا تحدث أن يشخص ببصره إليه حتى يفرغ من حديثه ، فإن ذلك يزيد فى صفاءالمودة .

كما أن التلاهى عن حديث الأخ ، أوقطع كلامه قبل تمامه ، يورث الجفاء .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يمتحنه ، فإن الإمتحان من جنس كشف العوردة ، وقد قالوا : « إياك أن تمتحنوا إخوانكم ، فإن الله لايمتحن عباده ،إلا أن علم وفاءهم ، كيلا يخجلهم بإظهار ما كان كامنا عندهم» .

وقيل لكسري : ألا تمتحن أصحابك ..؟ فقال : « إذن نخرج كل عيوباً» .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يتهيأ للقائه بالحرمة والتعظيم كلما فارقه ، قال الشيخ «محى الدين» : « ولو كان زمن المفارقة يسيراً ، إحسانا للظن بأن الله نفحه نفحة ، أونظر إليه نظره من نظراته ، التى يرسلها فى اليوم والليلة إلى عباده ، فصار به أعلى مقاماً منه» .

« ثم إن كان ذلك الأمر صحيحاً فقد وفاه حقه ، وإن لم يكن صحيحاً فقد تأدب مع الله تعالى ، حيث عامله بما تقتضيه مرتبة الألوهية ، من إكرام كل وارد على حضرتها» .

قال : « وهذاالأمر قل من يتفقد نفسه فيه ، لاستحكام الغفلة على القلوب » .

ومن حق الأخ على الأخ : إذا رآه فيما لاينبغى أن يعتقد أنه تاب من وقته ، وندم فى سريرته ، وقد كان بعض السلف يقول : « .. إنى لأستحى من الله أن أقطع التوبة عن شخص عصى ربه ثم توارى عنى بجدار» .

وقالوا : « من قطع التوبة عن أحد من العصاة ، رأى نفسه خيراً منه ضرورة ، وكل من ظن أنه خير من أحد المسلمين فهو جاهل مخدوع ، ولو أعطى من الكرامات ما أعطى » .

ومن حق الأخ على الأخ : أن يحفظ وده وإن خانه هو ، أوزاغ ، مراعاة للود .

قال « ابن الخطاب» : « رأيت رب العزة فى النوم فقلت : يارب علمنى شيئاً آخذه عنك بلا واسطة ، فقال : من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لله شكراً ، ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدل نعمة اللهكفراً ، فقلت يارب حسبى فقال : حسبك . انتهى »

ومن حق الأخ على الأخ : أن لا يمن عليه بمافعله من المعروف إذ هو خاصمه ونسى ذلك المعروف .

فإن ذكر المعرف فى المخاصمة عنوان على عدم الإخلاص فيه دليل على خسة الأصل ، فإن طيب الأصل لا يمن أبداً بمافعله مع أخيه من المعروف ، بل يرى الفضل لذلك الأخ ، الذى أكل عنده مثلا ، أوقبل منه هدية ، وفى الحديث :

« ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» وقال بعضهم: « المن بالمعروف فى المخاصمة دمل لا يندمل» يعنى : لاينسى ، بل يصير يكدر الصحبة كلما تذكره .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يخاصمه ، فإن المخاصم تقطع الود، وقد قالوا : « ما وجد أذهب للدين ، ولاأشغل للقلب من المخاصمة» يتولد الغضب ، والحقد ، والخديعة ، حتى إنه يكون فى الصلاة وخاطره معلق بالمحاججة ، ولا يخفى ما فى ذلك .

وفى الحديث : « كفى بك إثما ألا تزل مخاصماً» .

وأنشدوا :

ومن أخلاقهم عدم غفلتهم عن الصلاة في أول وقتها أيام مرضهم أو أيام تحملهم البلايا والمحن عن الإخوان أخذا بالعزائم

وإنما تكون الرخص لغيرهم فليس لأحدهم أن يؤخر صلاة الظهر مثلاً إلى آخر وقتها ، ويقول إنما يؤمر بالصلاة فى أول وقتها مثلاً الأصحاء أما المرضى فلايؤمرون بذلك ، وربما استدل أحدهم بحديث وهو دليل ضعيف (   )[1] لأن المراد بما يكتبه الحق تعالى له من الفضائل والنوافل (   )[2] مثلا لأنه يجب عليه أن يفعل ذلك بحسب قدرته مادام ثابتاً ، إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً .

ويقع لى بحمد الله تعالى أن المرض يخف عنى إذا دخل وقت الصلاة ، ثم إذا فرغت منها عاد المرض فالحمد لله رب العالمين .

تجنب قرين السوء واصرم حباله *** فإن لم تجد عنه محيصا فداره
وأحبب قرين الصدق واترك مراءه *** تنل منه صفو الود مالم تماره

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يبادر إلى هجره ؛ فإن المبادرة إلى مثل ذلك ليست بمحموده ، وخطؤها أكثر من صوابها ، وقد ذكرنا – فى غير هذه الرسالة – شرط جوازالهجر :

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يؤاخذه إذا قصر فى حقه مراعاة للأدب ، ومن وصية سيدى « على الخواص» : « اترك حقك لأخيك ماستطعت ، وأقل عثره أهل المروءات من إخوانك ، وإياك أن تعتدى على من اعتدى عليك ، فإن الحق تعالى مأباح الإعتداء إلا بشرط المثلية ، والمثلية متعذرة جداً ، فربما زادت وربماأثرت تلك السيئة فى الخصم أكثر مماأثرت فيك والمجازاة رخصة للضعفاء» .

ومن حق الأخ على الأخ : دوام الشفقة على أولاده :

والقيام بهم بعد موته ، قال القوم : « من لم يشفق على أولاد أخيه فى غيبته ، ولم يقم بهم بعد موته ، فليس بصادق فى أخوته» .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يقره على بدعه ، وإن لم يرجع عنها تركه ، خوفاً على نفسه أن يلحقه شؤمها ولو بعد حين .

ومن حق الأخ على الأخ : ألا يتزوج له زوجة طلقها ، أومات عنها ، ولو أوصاه بذلك ، وقال : « أنت أحق من الغير» .

فاعرض يا أخى ما فى هذا الفصل على نفسك ، فإن رأيتها متخلقة به فاشكر الله ، وإلا فعليك بالاستغفار من التقصير فى حقوق إخوانك ليلاً ونهاراً .

والحمد لله رب العالمين !!

(١ ، ٢) مطموس فى الأصل .

ومن أخلاقهم الرضي عن ربهم عز وجل إذا قسم لهم اليسير من الطاعات كما يرضون عنه إذا قسم لهم اليسير من الرزق علي حد سواء

فإن كلاهما قسمة الحق تعالى ، واختياره لهم وما قسمه واختاره لا ينبغى لعبد أن يسأل تحويله إلا بإذن منه .

وهذا الخلق لا يثبت فيه إلا الصادقون المعتمدون على فضل الله تعالى لا على أعمالهم إذ من لازم كل من يعتمد على عمله التكدر ضرورة كما يقع فيه العبّاد الذين لم يسلكوا على يد شيخ .

وقد نام إبراهيم بن أدهم ليلة عن ورده أيام بدايته فأصبح متكدراً لذلك ، فنودى فى نفسه – سره – :

يا إبراهيم كن عبدا لنا تستريح فإن أقمناك قم وإن أنمناك نم ؛ فليس لك فى الوسط شىء ، فإننا اعلم بمصالح عبادنا من أنفسهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم رؤية حقارة نفوسهم أن يقفوا بين يدي الله ، عز وجل

فلا يزاحمون على الحضرة الإلهية إلا بإذن خاص من طريق الإلهام الخاص .

وإذا نام أحدهم عن حضور الموكب الإلهى فى ليلة من الليالى يقول :

لك الفضل يارب الذى ما أوقفت هذه الذات النجسة القذرة بين أهل حضرتك الطاهرين المطهرين .

قلت : وهذا وإن كان فيه خير من جهة هضم نفوسهم ، فينبغى لأحدهم أن يندم ويحزن على فوات حظه من الوقوف بين يدى ربه عز وجل وقت تفرق الغنائم ، ومغفرة الذنوب العظائم .

وكان سيدى على الخواص إذا فاته قيام الليل بالنوم يشكر الله تعالى من حيث العافية، فإنه لولا العافية مانام ، فيحتاج صاحب هذا الخلق إلى عينين عين يحزن بها وعين يشكر بها كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن والأخلاق والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم، أنهم يجعلون ماسمعوا من واعظ أوخطيب فى حق أنفسهم بالأصالة

فلا يجعلون الخطاب لغيرهم من السوقة والعوام وأرباب الدعوى للعلم ، والعمل بغير حق ، حتى ربما انصرف أحدهم من مجلس الواعظ وهو يقول : أفلح الواعظ اليوم فى الحط على هؤلاء الذين لايعملون بعلمهم من الفقهاء والصوفيه ،ولا يكاد يأخذ لنفسه من ذلك كلمة واحدة .

فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : الفرح والسرور بكل شيخ أو واعظ برز في بلدهم أو حارتهم وصار يلتقط أصحابهم واحداً بعد واحد

حتى لم يبق حول أحدهم تلميذ واحد ، وذلك لأنه قام عنهم بدعاء الخلق إلى الله تعالى ، وأراحهم من رؤية نفوسهم ، والإعجاب بأحوالهم إذا تاب الخلائق على يديهم من الظلمة ، والعوام ، وأقبل الأمراء والمباشرون والتجار على الاعتقاد فيهم ، فإنه قل واعظ يسلم من هذه الآفات .

فعلم أن كل من تكدر من شيخ برز فى حارته ، فهو شيطان نصاب لم يشم من طريق القوم رائحة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم اعتراضهم علي العالم إذا زار أحداً من النصابين

فإنه لولا سلامة باطنه مازار ، فهو مأجور من حيث قصده ، وإن ترتب على ذلك إضلال العوام لكن الأولى للعالم أن لا يزور إلا من رآه على الكتاب والسنة من الصادقين لئلا يضل العوام ويقولون : لولا أن هذا من الصالحين مازاره العالم الفلانى .

فليكن العالم حاذقاً وإلا اقتدا به العوام ، فيهلكوا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حفظهم الأدب مع كبراء الوقت من علماء وصالحين

فلا يدرسون علماً ولا يسلكون مريداً إلا بعد قول أحدهم : دستورياً كبراء الوقت أدرس أو أسلك الناس العلم ، والأدب نيابة عنكم ، ويمثلهم فى نفسه إن كانوا غائبين عن مجلسه .

فمن سلك ذلك مده العلماء ، بالعلم ، والأدب ، وأمن من الارتجاج عليه كما جرب ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم لبس الثياب المحرات وعدم نكاح المنعمات والسراري الناعمات

وعدم ركوبهم الخيل المسومة ولا يرون ذلك مباحاً إيثاراً للتقشف فى هذه الدار كما أن الواجب عليهم عدم الإنكار على من خالفهم ولبس المحررات ونكح المنعمات إنه أحسن حالاً منهم[١] لأن لله تعالى عبيداً فى صورة المتكبرين ،وربما نعم الله تعالى عبده فى الدار الآخرة أيضاً ، ورفع قدره علينا لقوله تعالى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً[٢]) .

وقد أنشد بعضهم فى نحو ذلك :

كم عابداً قد صف أقدامه *** بالليل يبكى بالدموع السجام
ومـاله حظ سوى أنه *** أشقاه مولاه بطول القيام
وآخر قد نال ما يرتجى *** وحاز فى الفردوس أعلا مقام

فإياك يا أخى والمبادرة إلى إنكار على أحد من المتقشفين أوالمترفهين إلا بطريق شرعى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ربما يقصد أنه قد يكون أحسن حالا منهم للأسباب التى ذكرها بعد ذلك .
(٢) سورة الإسراء آية : ٢١ .

ومن أخلاقهم : عدم جلوسهم في المسجد علي حدث ظاهر أو باطن كالكبر والحقد وسوء الظن بمسلم ونحو ذلك كخطور معصية علي قلوبهم

فإنهم بين يدى الله عز وجل فى بيته الخاص ، وهو ناظر إليهم ، فكيف يليق بأحدهم أن يجالس ربه على حدث ، أو سوء أدب .

فينبغى للفقراء المجاورين أن يتنبهوا لمثل ذلك ، فربما كان قوس القدرة الإلهية بالتأديب ، والمؤاخذة موتراً لا يسامح العبد فى سوء الأدب مرة واحدة هذا فيمن تخطر المعصية على باله فى المسجد ، فكيف بمن يفعلها .

وكان سيدى محمد الشويمى يجلس تجاه وجه سيدى مدين رضى الله تعالى عنه ، فكان كل من خطر فى باله شيء قبيح بين يدى سيد مدين قام ، وضربه وقال : أما تستحى من الشيء وأنت يمر على خاطرك القبيح انتهى .

فإذا كان هذا حال من يخطر ذلك على باله بين يدى مخلوق ، فكيف بمن يخطر ذلك على قلبه بين يدى الله عز وجل فالعاقل من تنبه لمثل ذلك ، فعلم أن كل فقير ادعى الصلاح وجلس فى المسجد بغير حق أوأسائة الظن فهو كذاب فاسق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كراهتم لإخراج الريح منهم في المجالس أو المسجد تعظيماً لمن هم في حضرتهم كشفاً أو أدباً

فمن جاءته حالة إخراج الريح حبسه وخرجوا من المسجد إلى طريق الميضأه ، وأخرجوه لأن خروج الريح لا يليق إلا بالحشوش ، ومثل ذلك حشاً الفجل ، وأكل ذى ريح كريهه كما ورد فى الشريعة .

فإن تعذر عليهم الخروج من المسجد لاخراج الريح ، فينبغى لأحدهم أن يقول دستور يا عمار المسجد يعنى من الملائكة ثم يخرج الريح فإن الملائكة يحبون من يتأدب معهم ، ومع بيوت الله عز وجل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهة زيارتهم لعدوهم وحاسدهم من المسلمين بثياب رفيعة مبخرة خشية عليه من ادخال الغم عليه بذلك

فإن العدو والحاسد إذا رأى على عدوه ثياباً حسنة مبخرة كاد أن يذوب من الغيظ ، وازداد حسداً وعداوة .

هذا من جملة أخلاق الصالحين الحسنة ولا يصح ذلك إلا ممن كملت رياضة نفسه وتخلق بالرحمة على عباد الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا مرضوا أو قدموا من سفر أن لا يتسببوا في زيارة الناس لهم أو عيادتهم الا بنية صالحة

ولا يقولون اشتهينا رؤية فلان ، فإنه إذا بلغه ذلك بادر إلى العيادة ، أوالزيارة ، وربما كان وراءه ضرورة أهم من عيادتهم أو زيارتهم وأسلم من العلل .

فالعاقل من أشفق على دين أخوانه ولم يكن سببا فى نقصه ، فحرر يا أخى النيه فى نحو قولك ، وأنت مريض مثلاً أوحشنا فلان ، وروح إليه إذا بلغك أنه قال فى حقك ذلك بنيه صالحة لا تطلب عليها مكافأة فى الدارين والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كراهتم لحضور المحافل التي لم يندب الشرع إلي حضورها ومحبتهم لحضور ماندب الشرع إلي حضوره لكن بنيه صالحة

فليحرر الفقير نيته ثم يحضر وذلك كختوم ا لقرآن ومجالس المناظرة بين يدى الأمراء أوحضور عقد القران والسبب الذى يمنع الناس عدم تحرير النيه فى هذه المجالس ويقع فيه الكثير منهم أنه إذادخل أحدهم ولم يقوموا له أو كان جالساً فى صدرالمجلس فأخروه لما جاء من هو أوجه منه من أقرانه أو غيرهم ، وهذا وقع كثيرا لأرباب الأنفس الغوية المدعين للعلم والصلاح بغير حق .

فانشق عليهم من يقطعهم بالحجج أو يبين غلطهم أوجهلهم ، فتدوم العداوة بينهم شهوراً وسنين ، بسبب ما وقع لهم حين حضروا من عدم موافقة الناس لهم على أغراضهم .

وقد حضرت مرة مجلس ختم ، فنهاني عن ذلك سيدى على الخواص وقال :

هذه مجالس المباهاه بالعلم والمماراة فيه كما يعلم ذلك بالقرائن ، ومصداق ذلك أن غلط منهم أحد قامت عليه القيامة ، وإن وافق الصواب ، قالوا هذا الكلام ماهو له ، وإنما أخذه من كلام فلان .

قال : ومن علامة مباهاتهم بالعلم إحضارهم الأكابر من الأمراء، والمباشرين ، وغيرهم ممن ليس من أهل العلم ، وليس هوأهلاً لأن يفيد علماً أو يستفيد انتهى . والحمد لله رب العالمين .

● ● ●

ومن أخلاقهم :كراهتم للنوم على غير وتر

تعظيماً لامتثال أمر الشارع فى أمره أمته بالنوم على وتر فى نحو قول أبى هريرة : أوصانى رسول الله ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتى الضحى وأن أوتر قبل أن أنام .

وفى نحو قوله : إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا ياأهل القرآن انتهى .

فمن نام على وتر فقد نام على عمل محبوب للحق جل وعلا ، فإذا أخذ الله تعالى بروحه تلك الليلة مثلاً كان خاتماً لعمله يحبه الحق تعالى ، فيرجى له المغفرة كما أشار إليه قوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبك» ، أى لو كنتم محبوبون للحق تعالى ما عذبكم والحمد لله رب العالمين .

● ● ●

ومن أخلاقهم سؤالهم الحق جل وعلا أن يتجاوز ويعفو في حق من جنا عليهم وأذاهم من جميع المسلمين

فإذا دعوا على أحد لايستجيب الله لهم دعاء فيه لأن الله سبحانه وتعالى يستجيب لهم فيما تخلقوا فيه بأخلاق الله عز وجل وقد كان سيدى ( )[1] رضى الله تعالى عنه يحزن على عدوه إذا مات ويقول : من دعا واستجيبت دعوته فيمن ظلمه ، فقد خرج عن طريق القوم .

(١) مطموس من الأصل .

فإن من شأنهم كثرة الاحتمال ، ويفرحون إذا لم يستجب لهم دعاء ، لما جبلهم الله تعالى عليه من الرحمة ، والشفقة ، ولعل غالب الناس لا يقيم لهم وزناً ، إذا دعوا على ظالم ، ولم يستجب لهم دعاء فيه ، ويقولون : لو كان هذا صالحاً لأجاب الله تعالى دعاءه ، وهو جهل بمقام أهل الله عز وجل فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم المجادلة لأحد من الفقهاء عند ثوران نفوسهم أو نفس من جادلوه خوفا من تعدي الحدود في أدب العلم

بل يصبرون ، حتى تروق نفوسهم ، ونفس خصمهم .

وإيضاح ذلك أن كل شخص لا يجادل إلا بمازين له في نفسه ، ورأى أنه الحق ؛ فلا يكاد أحدهما يرجع إلى الآخر أبداً .

فليعذر كل واحد أخاه بمايعذر به نفسه .

فإن عمل كل انسان بمارآه حقاً أولى والسلام .

وبالجملة فمن لم يقرأ آداب البحث فليس له أن يجادل أحداً والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة مشاورتهم لإخوانهم في كل أمر لم يصرح الشارع فيه بخصوصية بخلاف

مثل سنة الظهر ، أوجماع الزوجة ، والغسل من الجنابة ، فإنه لا يحتاج مشاورة فى مثل ذلك .

فقد سمعت سيدى على الخواص يقول : لا يحتاج الإنسان إلى الاستشارة فى شيء من المأمورات الشرعية لأن الله تعالى لم يتخذها حبالة للمكر بصاحبها بخلاف ما سكت عنه ، فقد يتخذ حبالة أخرى ، ثم إن فى المشاورة فيما ذكر تمييل خاطر الأخوان إلى محبة بعضهم بعضا كما هو مشاهد ويقول أحدهم : لولا أن فلانا يحبنى ما شاورنى فى ذلك ، وحكم عدم المشاورة بالضد .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : الاستشارة بمنزلة تنبيه النائم فربما كان الإنسان جازماً بفعل شيء ، وعنده أنه صواب ، فيشاور أخاه فيه

فيقول له : متى فعلت كذا حصل من الضرر كذا ، فيرجع عنه فوراً ، وإن قيل له بعد ذلك إفعله لم يرض .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم القيام بواجب حق الإخوان الصادقين والقيام بحقوقهم

وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: لا تقصر فى حق أخيك اعتماداً على مروءته انتهى .

وكان يقول : لولا مجالسة الإخوان فى هذه الدار والتهجد فى الأسحار ما أحببت البقاء فيها .

فانظر يا أخى كيف قرن رضى الله عنه مجالسة الإخوان بمناجاة الله عز وجل ، وفى ذلك سر عظيم لا أبوح به ولو قطع منى الحلقوم ، وقد ظفرت طول عمرى بسبعة وعشرين واحداً من الإخوان الصادقين ممن أحب البقاء فى هذه الدار لأجلهم منهم سيدى محمد بن الشيخ محمد الحنفى الشاذلى بحديقة السباعين ومنهم الشيخ سراج الدين الحانوتى[١] فأسأل الله تعالى أن يفسح فى أجلهما وأن ينفعنى ببركاتهما آمين .

وقد رأيت حقوق الإخوان إيثارهم بما دخل يدهم من أمور الدنيا وادخال الفرح عليهم بحيث كونهم فى جميع ما بيدهم بحيث لا يفضلون نفوسهم عليهم بل قد يصلوا إلى حد أنهم يطلقون إحدى زوجاتهم لمن ماتت زوجته ، ويقسمون الذهب نصفين بينهم وبينهم ويأخذون منه كأحدهم[٢] .

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ المجمع على جلالته وعلمه وورعه وحفظ جوارحه الشيخ سراج الدين الحانوتى رضى الله تعالى عنه . مارأيت فى أقرانه أكثر اعتقاداً منه فى طائفة الفقراء ، لايكاد يغفل عن زيارتهم أحياء أو أمواتاً ، وقد استحييت من كثرة زيارته لى ماشياً تبعاً لشيخه الشيخ شهاب الدين بن الحلبى رحمه الله تعالى .

صحبته نحو عشر سنين إلى وقتنا هذا ، فما أظن أن كاتب الشمال وجد شيئاً يكتبه عليه من شدة تقواه وضبطه لجوارحه ، وما سمعته يذكر أحداً من المسلمين وغيرهم بغيبة . ومارأيته يزاحم على شىء من الدنيا ، ولا يتردد إلى أحد من الولاة إلا لضرورة شرعية ، من شفاعة فى مظلوم ونحو ذلك .

وكان مجلسه مجلس علم وأدب وخشية وخوف من الله عز وجل ، فقد طبعه الله على الأخلاق المحمدية والشيم المرضية والأحوال السنية ، لايكاد يطلع عليها إلا الله عز وجل ، من تهجد وقراءة أوراد ومراقبة . مات رضى الله عنه سنة سبعين وتسعمائة . وكان مولده عام تسع وتسعين وثمانمائة .

(٢) قد يستغرب بعض الناس هذا الخلق على سادتنا الصوفية ولكن نظرة متأنية لآداب هؤلاء السادة العظام مع إخوانهم كما وضعها الإمام الشعرانى ربما تؤهلنا لتقبل هذا الوضع وعدم استغرابه منهم يقول الإمام الشعرانى : إعلم - وفقنى الله وإياك إلى ما يحب - : أن آداب القوم لا تنحصر ، لأنها مجموع ما فى الكتب الإلهية والأخبار النبوية ، والآثار الصحابية والسلفية ، ولكن نذكر لك شيئاً من آدابهم تبركاً وفتحاً للباب فنقول : وبالله التوفيق :

وإن لم يقسم الله تعالى للاخوان ذلك ، فيكون خاطرهم بذلك طيباً لو وقع والحمد لله رب العالمين .

من آداب القوم أن يفروا فى جميع الشدائد إلى الله تعالى قبل جميع الخلق لعلمهم أن بيده – تبارك وتعالى – ملكوت كل شىء ، بخلاف غيرهم ، فإنهم لا يرجعون إلى الله إلا بعد الوقوف على خلقه .

ومن آدابهم : جمع الحواس والقلب حال العمل ، وقد ورد فى بعض الكتب الإلهية يقول الله تعالى للملائكة الكرام الكاتبين :

« اكتبوا عمل عبدى – فلان – واكتبوا أين كان قلبه حال العمل ...؟ ليأخذ ثوابه ممن كان قلبه حاضراً عنده» .

ومن كلام سيدى « على الخواص» : « كل عمل لم يحضر العبد فيه مع ربه تعالى فهو كالميتة وهو بالنفاق أشبه وذلك لأنه يوهم الناس أنه مع الله حال منجاته ، وهو مع الخلق ، وقد طالت الطريق على الناس لغفلتهم عن ذلك، فحجبوا بالأعمال عن المعمول له ، ولو أنهم لاحظوا المعمول له لاشتغلوا به .

ومن آدابهم : لايطلبون بعباداتهم مقاماً أو حالاً أو تقريباً من الحضرة الإلهية فقد قالوا من خدم الله تعالى لطلب مقام فقد طلب قطيعة ، ومن خدم لطلب الثواب ، أوخوف من عقاب فقد أبدى طمعه ، وأظهر خسته .

وقالوا : أبغض الخلق إلى الله من تملق فى الأسحار يطلب قربه تعالى بذلك .

وقالوا : افعلوا ما أمركم به الشرع – إن استطعتم – ولكن من حيث مشرعيته والأمر به ، لا من حيث علة أخرى، واتركوا العلل كلها في جميع أعمالكم وأحوالكم ، ولاتنظروا إلى ثواب فمن نظر إلى ثواب فى أعماله عاجلاً أو آجلاً فقد خرج عن أوصاف العبودية الكامل التى لا ثواب لها إلا وجه الحق عز وجل .

ومن آدابهم : تفتيش أعضائهم الظاهرة والباطنة صباحاً ومساءاً هل حفظت حدود الله التى حدها لها ، أو تعدت..؟

وهل قامت بما أمرت به من غض البصر ، وحفظ اللسان والآذان والقلب وغير ذلك على وجه الإخلاص ، أو لم تقم ؟

فإن رأوا جارحة من جوارحهم أطاعت شكروا الله تعالى ولم يروا نفوسهم أهلا لذلك ، وإن رأوها تلطخت بشىء من المعاصى أخذوا فى الاستغفار والندم ، ثم يشكرون الله تعالى إذ لم يقدر عليهم أكثر من تلك المعصية ، ولم يبتل جوارحهم التى مرضت حال عصيانها ، فإن كل عضو مستحق نزول البلاء .

ومن آدابهم : لا يغفلون عن تفتيش باطنهم ، فإن الأخلاق الردية كامنة فى العبد ، ومعلوم أن الفقراء إذا ترقوا فى المقامات كان وقوعهم فى المعاصى الظاهرة معدوم غالباً ، فيقنع أحدهم بذلك وينسى تفتيش باطنه وهو قصور عن درجة أهل العرفان ومن ظن أن الأخلاق الردية زالت عنه فقد وهم .

قال تعالى : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون» فلم يقل : ومن يزل شح نفسه ، بل أبقى الشح فيها ، إلا أنه يوق العمل بذلك بعبادته لله تعالى .

ومن كلام الشيخ (أفضل الدين) : «الله قد جعل فى طينة الآدميين سائر الأضداد ، فجميع الأخلاق الحميدة والذميمة تشرق وتغرب فى ذواتهم ، ولكن مادامت العناية الربانية تحف العبد فجميع الأخلاق الذميمة خامدة متعطلة ، فإذا تخلفت عنه العناية تحركت للاستعمال وخمدت أخلاقه الحسنة .

ثم لا يخفى أن طينة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – قد طهرها الله من سائر الرذائل بسابق العناية ، فافهم وإياك الغلط .

ومن آدابهم : عدم موافقتهم للوعد ، فلا يعدون أحداً بوعد إلا فى النادر، لعلمهم أن صدق الوعد لا يكون إلا للأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لعصمتهم ، وأما غيرهم فربما وعد وأخلف فيصير فيه خصلة من النفاق .

ومن آدابهم : إذا ذكر أحد من أصحابهم فى غيبته بحضرتهم لا يقولون : هو من أصحابنا ، أو من أكبر أصحابنا إلا أن كان دونهم بدرجات ، فإن كان مساوياً لهم أو فوقهم فيقولون : نحن من أتباعه أو خدامه .

ومن آدابهم : لايقولون : ذهب الأكابر والصادقون ، فإنهم ماذهبوا حقيقة ، وإنما ككنز صاحب الجدار .

وقد يعطى الله من جاء فى آخر الزمان ما حجبه عن أهل العصر الأول ، فإن الله قد أعطى نبينا محمداً ﷺ مالم يعطيه الأنبياء قبله ، ثم قدمه عليهم فى المدح .

ومن كلام صاحب الحكم : بدلا من أن تقول :

أين الأولياء ؟ أين الصالحون ؟ قل : أين البصيرة ..؟

ومثل هذا اللفظ لا يقع إلا من لم يكن عنده اعتقاد فى أولياء عصره وعلمائه ، ولا يخفى ما فى ذلك !

ومن آدابهم : لا يطلبون ألا يكون لهم حاسد فإن الحكم الوجودى اقتضى مقابلة النعم بالحسد ، فمن طلب ألا يكون له حاسد ، فقد طلب ألا تكون له نعمة .

ومن آدابهم : إذا ذكروا ذنوبهم لا يقولون : لا حول ولاقوة إلا بالله ، لما فى ذلك من رائحة الحجة على الله تعالى: بل يقولون : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» .

ومع الإفراد « رب ظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم»

ومن آدابهم : لايقولون : نأنس بالله تعالى فإن الإنسان لا يأنس إلا بجنسه ، والحق تعالى ليس بينه وبين عباده مجانسة بوجه من الوجوه .

فإذا رأيت فى كلام أحد من القوم أنه يأنس بالله تعالى فاعلم أنه غير محقق ، ولو حقق لوجد أنسه بما منّ الله تعالى لا بالله تعالى ، لإنتفاء المجانسة .

ومن آدابهم : لا يقولون : نطلب الله إذ الطلب لا يكون إلا لمفقود والله تعالى موجود وواجب الوجود ، ولا يطلب دركه لأنه لا غاية له ، وإنما يقولون : نطلب الطريق إلى معرفة الله .

ومن آدابهم : لايستعيذون بالله من شىء وإنما يستعيذون من شره ، وكذلك لا يقولون : اللهم اغننا عن جميع خلقك وإنما يقولون : اغننا عن شرار خلقك .

ومن آدابهم : عدم زخرفتهم الكتب التى يرسلونها إلى اخوانهم خوفاً من الكذب ، ومن وصية أبى نصر بشر الحافى :

«إذا كتب أحدكم كتاباً إلى أحد فلا يزخرفه بحسن الألفاظ ، فإنى كتبت مرة كتاباً فعرض لى كلام ، إن كتبته حسن الكتاب ، وكان كذباً ، وإن تركته سمج الكتاب وكان صدقاً ، فعزمت على ذكر الكلام السمج الصدق ، فنادى هاتف من جانب البيت :

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» .

ومن آدابهم : كثرة الاستغفار إذا اعتقد فيهم الخلق ، وهم فى السر خلاف ذلك ، وفى الحديث : « طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفار كثير» .

وقد حثوا على الاعتناء بالاستغفارليلاً ونهاراً ، سواء تذكر العبد ذنوبا أو لم يتذكر.

ومن آدابهم : إذا مرحوا أن يكثروا من الشكر والاستغفار وأن يقولوا : اللهم أنت أعلم بنا منهم ، اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنا بما يقولون ، واغفر لنا مالايعلمون .

ومن آدابهم : لايعتمدون على كسبهم ، فإن الاعتماد على الكسب شرك بالله عز وجل .

وقد ذكرنا فى غير هذه الرسالة معرفة طريق الخلاص من هذا الشرك وإن من خلص منه فهو المؤمن الذى يأتيه رزقه من حيث لا يحتسب .

ومن آدابهم : عدم نسبة شىء من الأعمال الصالحة إلى نفوسهم إلا بقدر نسبة التكليف فقط . قال القوم : كل عمل اتصل بالعبد شهوده فهو غير متقبل ، فمن شهد له عملاً فعمله عند نفسه لاعند ربه ، ومن حقق النظر علم أنه لا أثر لمخلوق فى فعل شىء من حيث التكوين وإنما له الحكم فقط وغالب الناس لايفرق بين الحكم والأثر .

ومن كلام سيدى (على الخواص) : مادام العبد ينسب الأمور لنفسه ذوقاً وإلى الله علماً ، فهو محجوب ، فإذا رفع الحجاب رأى أفعاله كلها خلقاً لله تعالى وذوقاً .

وأماعلمه أنه خلق الله تعالى ، فلا يكفيه إذ ليس العلم كالذوق . قال : وأكثر المريدين لم يثبت لهم قدم فى نسبة أفعالهم لله تعالى ، ولذلك يطلبون الجزاء من الله تعالى على ما أجرى على أيديهم من الأعمال الصالحة .

وكذلك يطلبون الجزاء من الخلق إن أجرى على أيديهم إحساناً لهم ، فلولا نسبتهم ذلك إلى أنفسهم ما طلبوا الجزاء

من الله ﷻ تعالى ولا من الخلق ، وما قال عارف قط : (إياك نعبد وإياك نستعين) إلا على وجه التلاوة فقط : لا وجه كون له شركة فى الفعل ، تعالى فعل الله عن الشرك فافهم .

ومن آدابهم : التجرد عن العزة والغنى ، والتحقق بالذلة والفقر إذا توجهوا إلى الله فى أمر دنيوى أو أخروى ، لئلا يمنعوا من الإجابة .

وفى كلامهم : إذا توجهت إلى الله فتوجه إليه وأنت فقير ذليل ، فإن غناك وعزتك - وإن كانا بالله - يمنعانك- الإجابة ، لأن الغنى والعزة صفتان لا يصح لعبد الدخول بهما على الله أبداً ، لأن حضرة الله تعالى لها العزة فلا تقبل عزيزاً ولا غنياً .

ومن آدابهم : لايسألون الله شيئاً من أمور الدنيا إلا مع التفويض ورد العلم إليه سبحانه ، عملاً بقوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

فيقول أحدهم فى سؤاله : اللهم اعطنى «كذا» و «كذا» إن كان فيه خيراً لى ، واصرف عنى «كذا» و «كذا» إن كان فيه شراً لى .

ومن وصية سيدى «عبد القادر الجيلى» : «احذر أن تسأل الله شيئاً إلا مع التفويض ، وأما إذا أعطاك تعالى شيئاً من غير سؤال فذلك مبارك وعاقبته حميدة ، وليس عليك فيه حساب - إن شاء الله تعالى - لكونه جاء من غير استشراف نفسى .

ومن آدابهم : عدم الاشتغال بالنعم عن المنعم ، إذ قبيح بالعبد أن يألف النعمة دون المنعم ، أويميل إليها ، فإن الميل إلى كل شىء دون الله مذموم إلا فى حقوق الله ومأموراته .

وفى وصية سيدى «عبد القادر الجيلى» : إياك أن تشتغل بما أعطاك الحق - سبحانه وتعالى - من المال فيحجبك بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال عقوبة لك وإذا اشتغلت بطاعته عن ذلك المال كان من المال المحمود لاالمذموم .

ومن آدابهم : لزوم الرحمة للمسلمين ، وفى الحديث :

(الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى) .

ومن كلام (سيدى على الخواص) : عليك بالرحمة بالمسلمين إن أردت أن ترحم ، ومن الرحمة لهم أن تحمل همومهم :

قال : وأعلم أن حملنا لهموم إخواننا المسلمين لا ينافى التسليم - كما توهمه بعضهم - فالعبد يحمل هم إخوانه من كسبهم للذنوب التى استحقوا بها البلاء النازل عليهم ، ويسلم من حيث التقدير الإلهى الذى سبق به العلم ، إذ لا يمكن رد مثل ذلك فافهم ، فإنه قد غلط فى ذلك جماعة زاعمين أنهم مسلمون لله تعالى ، ويخرجون على من يرونه يحمل هم إخوانه ، ويقولون : ما لفلان ومعارضة الأقدار ؟ ويتوهمون ما هم عليه أكمل ، وهو جهل . ففى الحديث : (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) وقد كان الإمام «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنه - إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك قط ، وكذلك « عمر بن عبد العزيز» و «سفيان الثورى» و«عطاء السلمى» . حتى يرتفع البلاء .

قالوا : الرحمة خاصة والبلاء عام ، وذلك من جملة رحمة الله تعالى :

ومن آدابهم : عدم شكواهم إلى الخلق ما يصيبهم من بلاء أو محن وغير ذلك .

ومن وصية سيدى « عبد القادر الجيلى» أحذر أن تشكوا ربك وأنت معافى فى بدنك ، أو لك قدرة على تحمل هذا البلاء ، بالقدرة التى قواك بها ، فتقول : ليس عندى قوة ، ولا قدرة . أو تشكوه إلى خلقه ، وعندك نعم مما أنعم بها عليك من العافية والنعم .

فاحذر من الشكوى لمخلوق جهدك ، ولو تقطع من لحمك ، فإن أكثر ما ينزل بابن آدم من البلاء من جهة شكواه ، وكيف يشكو العبد من هو أرحم به من والدته الشفيقة .

ومن آدابهم : كثرة شكرهم على النعم ، امتثالاً للأمر لا طلباً لزيادة .

ومن كلامهم : عليك بشكر النعم ، فإن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، وأحذر أن يكون شكرك لأجلها بل اجعل شكرك امتثالاً لأمر ربك بالشكر . ولهذا قال تعالى : (أن اشكر لى) فافهم!

ومن آدابهم : شدة سترهم لمقامهم ، فقد قالوا :
الكامل من يفهم نفسه ، حتى يزكيه ربه .
قالوا : أحسن بذور الحرث ما بذره ثم ستره بعد ما بذره حتى نبت فى بطن الأرض ، وأقبحه من نبت فوقها ، لأنه لا ثبات له !
ومن آدابهم : ترك التدبير وهو على قسمين :
تدبير محمود ، وتدبير مذموم .
المحمود : ما كان فيما يقربك إلى الله تعالى ، كالتدبير فى براءة الذمم من حقوق العباد ، إما وفاءاً ، وإما استحلالا ، وفى تصحيح التوبة ، وفيما يؤدى إلى قمع الهوى والشيطان .
والتدبير المذموم تدبير الدنيا للدنيا ، وهو أن يدبر فى أسباب جمعها افتخاراً بها ، واستكثاراً ، وكلما إزداد منها شيئاً ازداد منها غفلة واغتراراً .
وإمارة ذلك أن تشغله عن الموافقة وتؤديه إلى المخالفة ! أما تدبير الدنيا للآخرة ، فلا بأس به ، كمن يدبر المتاجر ليأكل حلالاً ، وينعم منها على ذوى الفاقة اتصالاً ، ويصون بها وجهه عن السؤال إجمالاً ، وأمارة ذلك عدم الاستكثار والإدخار والإسعاف منها والإيثار .
ومن آدابهم : ترك الاختيار مع الله تعالى ، فقد ذكروا أن بنى اسرائيل لماجعلوا لهم مع الله اختياراً ضربت عليهم الذلة والمسكنة وقالوا : إياك والفرار من حالة أقامك الله فيها ! فإن الخير ما اختاره الله لك .
وتأمل السيد (عيسى) عليه الصلاة والسلام – لما فر من بنى إسرائيل حين عظموه كيف عبد من دون الله تعالى ..؟! فوقع فى حال أشد مما فر منه .
وقالوا : أصل اختيار العبد إنما هو ظن العبد : أنه مخلوق لنفسه ، والحق تعالى ما خلق العبد إلا له سبحانه ، فلا يعطى عبده إلا ما يصح أن يكون له تعالى .
وقالوا : لا تركن إلى شىء ، ولاتأمن مكر الله لشىء ولا تغير شىء ، ولا تختر شيئا ، فإنك لا تدرى أتصل إلى ما اخترته أم لا ..؟
ثم إن وصلت إليه فلا تدرى ألك فيه خير أم لا ..؟
ولا تقف مع شىء ، ولا تحزن على شىء خرج منك ، فإنه لو كان لك ما خرج منك .
ولا تفرح بما يحصل لك من أمور الدارين سوى الله تعالى فإن ما سوى الله تعالى عدم !
ومن آدابهم : أن يرضوا بالدون من كل شىء تحبه النفس من شهوات الدنيا ، وأن يثبتوا إذا ضيق الله عليهم فى المعيشة ثم لا يخفى أن من رضى بالدون من كل شىء تحبه النفس من شهوات الدنيا لم يقع بينه وبين أحد منازعة ولا خصومة ، واستراح قلبه وبدنه من التعب فى تحصيل الزائد عن الحاجة .
فإن رزق كسرة من الشعير قنع بها وشكر الله عليها ، وإن رزق حبة قنع بها وشكر الله عليها .
ثم بعد ذلك إن جاءه أمر زائداً أكثر من الشكر عليه باللسان والبدن .
ومن آدابهم : لايقولون لمن قصدهم فى حاجة : « ارجع وتعال إلينا فى وقت آخر . ولايمنعون سائلاً إلا لحكمة ، لا شحاً ولا بخلاً .
ومن آدابهم : كل موضع عظمهم الناس فيه خافوا منه الفتنة لا يألفونه .
ومن آدابهم : قلة التحدث عن الأكل لأنهم جالسون حقيقة على مائدة الله تعالى ، والله ناظر إليهم وإلى آدابهم ، وآثارهم وشكرهم له – عز وجل – :
وكذلك من آدابهم : لا يأكلون من وسط الإناء عملاً بخبر : « إن البركة لتنزل فى وسط الإناء فكلوا من حافاته ، ولا تأكلوا من وسطه » .
ومن آدابهم : إجابة أخيهم التقى إذا دعاهم إلى طعامه ومن كلام سيدى (على الخواص) : « إذا دعاك أخاك المؤمن التقى إلى طعامه فأجبه تسره .
ولا تجب ظالماً ولا فاجراً ، ولا من يعامل بالربا ، ولا من يخص الأغنياء بدعوته دون الفقراء .
وإذا أكلت فلا تتحرك حتى ترتفع المائدة ، فإن ذلك من سنة السلف الصالح .

ومن أخلاقهم عدم رد ما يأتيهم من الهدايا الحلال إذا خافوا كسر خاطر ذلك المهدي

لاسيما الولاة الذين يشفعون عندهم فى المظلومين ، فإنهم لا يعرفون مصطلح الفقراء ويظنون أن الفقراء يشكرون فضلهم على ما يرسلونه لهم من الضحايا ، والأرز ، والعسل ، ونحو ذلك ، ولو أنهم أخبروهم بتكدرهم من إرسال شىء إليهم ربما أخذوا فى نفوسهم ، وصاروا يعارضون الفقير فى شفاعاته فى المظلومين ، ويتعبوا سره فى التوجه إلى الله تعالى فى تحويل بواطنهم .

وقد قالوا : تحويل الجبل بتوجه الفقير أهون عليه من تحويل قلب أمير وذلك أن الجبل لا عقل له ولا رؤيه فى الأمور التى تطلب منه بخلاف الأمير .

ثم إن كان الفقير محتاجاً إلى أكل مثل تلك الهدية بالطريق الشرعى أكل منها ، وإلا فرقها على من يستحق مثلها ، وقد فعلت مثل ذلك فيما يرسله الولاة إلينا من الضحايا فحل محل ردنا لهدايا الولاة والعمال كما مر فى الكتاب أنه لو ترتب على ذلك مفسدة والحمد لله رب العالمين .

وإذا غسلت يدك فادع بالبركة ، واستأذن في الخروج .

وفى وصية سيدى (على الخواص) : (لا تأكل وحدك ، وإلا فى ظلمه ، ولا تضيع من الطعام شيئاً ، فإن ما تقدم إليك لتأكله لا لترميه فى الأرض) .

وليس من آدابهم : صرف وجوههم عن الحاضرين عند الشرب قال الشيخ نجم الدين البكرى « إذا شرب أحدكم فليشرب وجهه إلى القوم ، ولا يصرف وجهه عنهم كما يفعل العوام بقصد الاحترام» .

وإذا فرغ أحدكم من غسل يده ، فليدع لمن يصب عليه بنحو (طهرك الله من الذنوب)

ومن آدابهم : إذا استبرءوا يجعلون يدهم من داخل الثوب ويخافون من وقوع يدهم اليمنى على (فرجهم) إكراماً للقرآن العظيم ، وكتب العلم ، والمسبحة التى يسبحون عليها .

ومن كلام الشيخ (أفضل الدين) : « إنى لأستحى أن أدخل الخلاء» بثوب وقعت فيه الصلاة أو قرىء القرآن .

وربما أترك القراءة إذا تكلمت كلمة قبيحة زماناً طويلاً حتى أنسى تلك الكلمة .

وكذلك أستحى أن أمسك (فرجى) بيدى اليمنى ، وقد بلغنا عن بعض الصحابة أنه لم يمس فرجه بيده اليمنى منذ بايع النبى ﷺ .

ومن آدابهم : تقصير ثيابهم ، قال الحسن البصرى – فى قوله تعالى : « وثيابك فطهر أى فقصر .

وكذلك من آدابهم – إذا لبسوا ثوباً جديداً – لا يغفلون عن قول : « الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ، ولا قوة» لما روى أبو داود ، عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« من أكل طعاماً فقال : الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوباً جديداً فقال : الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» .

ومن آدابهم : إكرام أهل الحرف المشروعة ، وتعظيمهم بطريق الشرع لأنهم متخلقون بالآداب مع الله تعالى ومع الكون ، وإن كانوا لا يشعرون بذلك .

(الأنوار فى طبقات الأخيار للامام الشعرانى)

ومن أخلاقهم : عدم الإنكار علي نصيحة أحد من المسلمين

فإذا نصحوا طالب علم مثلاً ، وقالوا له : اترك الاشتغال بالعلم الذى تشتغل به فلا ينبغى المبادرة إلى الانكار عليهم ، وإنما يسأل من الشيخ لماذا منعتم فلاناً من الاشتغال بالعلم الذى يقربه إلى الله تعالى ، وينظر جوابه فإن قال رأيته غير مخلص فى طلبه فهو عذر شرعى وإن قال غير ذلك فلا يخفى حكمه وحله وقد كان سيد أحمد الزاهد رحمه الله إذا رأى عند طالب العلم تكبر بعلمه أو عجباً واحتقار للناس يأمره بالإكثار من ذكر الله عز وجل ليطهر باطنه ورقه باطنه حجابه وترك الاشتغال بالعلم وتفرغ للذكر فطهر باطنه وذهبت رعونات نفسه كلها وأشرف ببصره على الدار الآخرة وعرف ماينفعه هناك من العمل وما لاينفعه فهناك يكون الإخلاص فى العلم هو سبب ومغفرة الذنوب .

وهذا الأمر قل من يقوم بفعله من طلبة العلم بل يسارعون إلى الإنكار على الأشياخ ويقولون : هؤلاء يمنعون الناس عن الاشتغال بالعلم الذى هو أفضل ما عبد الله تعالى به، ولا ينظرون إلى ذلك الممنوع هل هو مراىء بعلمه أم مخلص فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم : عدم هجرة أحد من المسلمين فوق ثلاث

لاسيما إن كانت الهجرة لحظ نفس لا لله عز وجل كما هو الغالب على الناس

وكل فقير هجر اخاه فوق ثلاث بغير حق ، فهو عاص لله تعالى ، ولرسوله ﷺ ، ولا يحل لأحد الاقتداء به لفسقه .

وقد كان سيدى عبدالعزيز الديرينى رضى الله تعالى عنه يقول : لا يليق بأمثالنا أن يهجر أحداً من المسلمين ، وإنما يليق الهجر بالعلماء العاملين الغواصين عن دسائس النفوس ، فإن العبد ربما هجر أخاه لحظ نفس ويزعم أنه لله عز وجل .

ولعله هجره لعدم قضاء حاجة سأله فيها عند أمير .

أو لكونه لم يقم له فى محفل .

أو لكونه لم يهد إليه شيئاً ونحو ذلك .

فيجب على العبد امتحان نفسه بما لو كان ذلك المهجور محسناً إليه كل الإحسان لايخل بشيء من واجب حقه لكنه مرتكب معصية من المعاصى ، فإن رأيت محبته قد زالت مع ذلك الإحسان إيثاراً لجناب الله عز وجل ، فليعلم أن هجرته لله تعالى ، وإن رأى محبته باقية مع العصيان لكونه محسناً ، فليعلم أن هجرته إذا وقعت إنما هى لحظ نفس من ترك إحسان ، أو قيام له فى المحافل ، ونحو ذلك وهذه ميزان تطيش على الذر .

وقد رأيت خلقاً كثيراً لا ينكرون قط على من يحسن إليهم ، ولو ارتكب من المعاصى ما ارتكبه ، ثم إذا ترك الإحسان إليهم يجعلون فيه العجر والبجر ، ويقولون أن هجره واجب لما هو عليه من المعاصى ، مع أن لهم فى صحبته سنين عديده ، وهو على ذلك الحال .

فليحذر الفقير من مثل ذلك الحال والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم حمل أصحابهم على المحامل الحسنة

فإذا عاشر صاحبهم أحداً من الفسقة لايبادرون الغضب عليه ، وإنما ينبغى حمله على أنه صحبه ليسارقه بالنصح شيئاً فشيئاً ليرجع عما هو مرتكبه من المعاصى .

وهذا الخلق قل من يثبت فيه من الإخوان حيث يبادرون بالغضب على صاحبه إذا عاشر فاسقاً ويقول : هجرته لله عز وجل من غير أن يفتش على قصده ، وهو جهل ، ورعونة نفس .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : إذا صاحب صاحبك الذى هو عندك من الصالحين أحداً من الأشرار ، فاعتقد صلاح ذلك الشخص ، واجعل إشاعة ذلك الشر عن ذلك الرجل لا حقيقة لها إنما إشاعة عنه الحسد ، وقل : لولا أن ذلك الرجل صالحاً ما صاحبه صاحبى الذى هو صالح عندى انتهى .

لكن ينبغى تقييده بالصاحب الحاذق ، أما الساذج ، فلا عبره باعتقاده الخير فى الناس .

فافهم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حضورهم مع الحق جل وعلي في حال جماعهم لحلائلهم

كما يحضرون مع الله تعالى حال صلاتهم ، بجامع أن كلا منهما مشروع .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

ما شرع الحق تعالى عبادة من العبادات إلا ليحضر العبد فيها معه تعالى ، فإنه تعالى لا يصح للعبد الحضور معه إلا فيما شرع فقط .

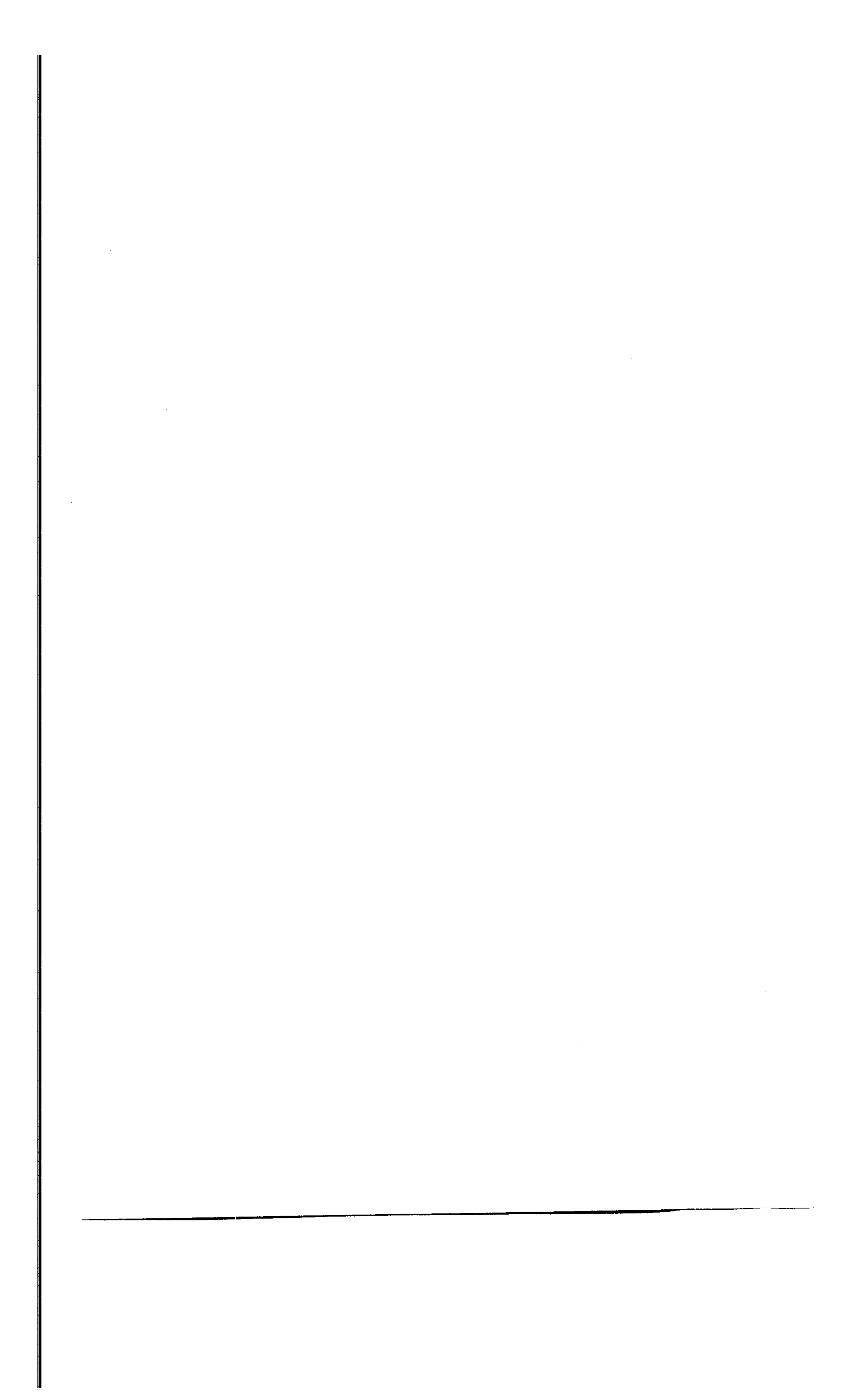
وكان يقول : ينبغى للعارف أن يعزل شهوته لجهة نفع حليلته دون شهوة نفسه هو .

وقل من يتخلق بهذا المقام من الأقران إنما يغيب أحدهم بلذته حال جماعه عن ربه فالحمد لله رب العالمين .



الباب السادس

فى جملة أخرى من الأخلاق



ومن أخلاقهم اكرامهم عيالهم وإعطاؤهم كل ماطلبوه من الحوائج

وإعطاؤهم فلوس الحمام كلما قربوا منهم ، أو ثمن الوقود .

ولايبخل على عياله بمثل ذلك إلا من ليس له فى طريق الصالحين نصيب .

ثم لا يخفى أن شراء الوقود لتسخن به المرأة الماء فى البيت أولى ، وأستر من ذهابها إلى الحمام ، كلما قرب منها زوجها ، لأنه ربما تكرر قربه منها فى الجمعة المرتين أو الثلاث وذهابها إلى الحمام ثلاث مرات فى الجمعة مما يلوث الناس بها فيه، فيحصل لها خجل وحياء لا تطيقه .

وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يخفون غسلهم عن أهليهم لأن الحياء فى مثل ذلك من الإيمان .

فليحذر الفقير من أن يدع الناس يلوثوا بعياله ويطلعوا عليهن كلما يجامعهن وليعطها أجرة الحمام أو ثمن الوقود أو يخفف عنها الجماع ، فيقرب منها كل خمسة عشر يوماً مرة حتي يفهم أنها تفعل ذلك لتغتسل من الحيض كما أفتى به عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعض النساء والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم ذمهم لأصحابهم الصادقين في محبة الطريق إذا خافوا عليهم عجباً بحالهم

فيقولون إن أصحابنا هؤلاء ما شموا لطريق القوم رائحة ، وليس بيننا وبينهم فى الباطن رابطة ، ولا مقدار شعرة ، ونحو ذلك ، ويورون ما أمكن .

ثم من علامة صدق التلميذ فرحه بذلك بين الناس ، ومتى تكدر ، فقد خان عهد شيخه ، وأظهر للناس كذبه فى محبة الطريق وأنه لم يشم من طريق القوم رائحة ، وإن شيخه صادق فى ذمه ، ولا يحتاج فيه إلى توريه .

وقد درج السالف الصالح الذين أخرجهم سيدى أحمد الزاهد على ذم تلامذتهم ماداموا فى السلوك ، ولايذكرون لهم كمالاً إلا عند انتهاء سلوكهم عادة ، وذلك لينتفع

الناس بهم ، ويجنوا ثمرة مجاهداتهم بل قال سيدى أحمد الزاهد فى مرض موته :

إنى خارج من الدنيا وما أحد من أصحابى شرب من مشروبى(١) .

فقالوا له : ولا مدين.

فقال : ولامدين.

وذلك لينهض همته بعده والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : وإذا أحكم المريد عقده ، فيجب أن يحصل من علم الشريعة ، إما بالتحقيق ، وإما بالسؤال عن الأئمة ما يؤدى به فرضه ، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط ، ويقصد الخروج من الخلاف ، فإن الرخص فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال .

وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل : إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى .

ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ؛ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً.

هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فأمامه الشيطان .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ، ولكن لا تثمر . كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا نفسا فهو عابد هواه ، لا يجد نفاذا .

ثم إذا أراد السلوك فبعد هذه الجملة يجب أن يتوب إلى الله سبحانه من كل زلة ؛ فيدع جميع الزلات : سرها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويجتهد فى إرضاء الخصوم أولا ، ومن لم يرض خصومه لا يفتح له من هذه الطريقة بشئ .

وعلى هذا النحو جروا ، ثم بعد هذا يعمل فى حذف العلائق والشواغل ؛ فإن بناء هذا الطريق على فراغ القلب .

وكان الشبلى يقول للحصرى فى ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية التى تأتينى فيها غير الله تعالى فحرام عليك أن تحضرنى .

ومن شرطه : أن يكون له بقلبه اعتراض على شيخه فاذا خطر ببال المريد أن له فى الدنيا والأخرة قدراً أو قيمة ، أو على بسيط الأرض أحد دونه لم يصح له فى الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ، ليعرف ربه ، لا ليحصل لنفسه قدراً .

وفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسه ، إما فى عاجله وإما فى آجله ، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ، ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه فى حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه ، فيجب أن يقر بذلك بين يديه فى الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته ، إما بسفر يكلفه أو أمر يراه .

ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى ، وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئًا من الأذكار ، بل يجب أن يقدم التجربة له ، فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله فى هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء ، فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضرر والذل ، والفقر والأسقام والآلام ، وأن لا يجنح بقلبه إلى السهولة ، ولا يترخص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات ، ولا يؤثر الدعة ، ولا يستشعر الكسل فإن وقفة المريد شر من فترته والفرق بين الفترة والوقفة أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل .

وكل مريد وقف فى ابتداء إرادته لا يجيء منه شئ .

ومن أخلاقهم أن لا يكتفي أحدهم بمعيشته في حسن سلفه

فإن سلفه إنما عملوا لأنفسهم، وليس لذريتهم من أعمالهم نصيب .

فكما اجتهد سلفهم ، حتى عاشوا فى حسن أعمالهم عادة ، فكذلك يكون الحكم فى حق ذريتهم ، فما دام الناس يكرمونهم لأجل سلفهم ، فهم لم يبلغوا مقام الرجال ،

وقد أخبرنى شيخنا الشيخ محمد الشناوى رضى الله عنه قال : مكثت فى بدايتى نحو عشر سنين أعتقد أن ولد الشيخ يطلع شيخاً بالخاصية من غير عمل، حتى أرشدنى شخص إلى طلب سيدى محمد السروى ، فعلمت أننى ما كنت على شىء .

وهذا الأمر قل من يتخلص منه من أولاد المشايخ ، فلايكاد أحدهم يكتسب فضيلة اكتفاءاً بجده .

وقد انخرمت هذه القاعدة فى فرع من ذرية شيخنا المذكور آنفاً ، فلم يكتف ولده الشيخ عبد القدوس بكونه ابن سيد محمد الشناوى بل جاهد بعد والده مجاهدة الرجال ، حتى بلغ مبلغهم فى الأحوال الظاهرة ، والباطنة ، وكذلك هى بوادر حال ولده المسمى بعبد القدوس الموجود ولم أجد أحداً من أهله حذا حذوه فى محبة القرآن والذكر والعلم واطعام الطعام وإغاثة اللهفان ونحو ذلك حتى أنه عمر الزاوية بعد والده فكأنه لم يمت فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن يكون أحدهم هينا لينا مع أخوانه في كل معروف

فإن حضر مع قوم يذكرون ذكر المغاربه ذكر الله تعالى معهم كذلك.

أو ذكر العجم ذكر الله تعالى معهم كذلك .

أو ذكر المطاوعه ذكر معهم كذلك .

أو ذكر الهنود ذكر معهم كذلك .

أو ذكر الشناويه والأحمديه والبرهامية ذكر معهم كذلك حتى كأنه واحد منهم .

وهذا الأمر لا يفعله إلا من كان له ذوق فى طريق الأدب أما الجامد ، كالحجر ، فربما جلس بعيد عن الذاكرين وقال هذا الذكر ما هو طريقه شيخنا ، أو هذه الصلاة على رسول الله ﷺ ما هى طريقنا ، فيفوت نفسه خيراً كثيراً ، وربما جفاه قلوب أولئك الذاكرين .

وقد رأينا جماعة كثيراً من الأشياخ يذكرون ذكراً على غير طريقه أشياخهم منهم سيدى محمد السروى ، وسيدى أبو السعود الجارحى ، وأقرهم أشياخهم فى حياتهم على ذلك لعلم الشيخ أن ذلك لا يؤثر فى صحة اقتدائهم بهم[١] .

---

(١) يقول الدكتور عبد الحليم فى كتابه المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها ابو الحسن الشاذلى : وأمر آخر أريد أن أعترف به وأن أشرح وجهة نظرى فيه :

ذلك أنى لم أتحدث عن وسط أبى الحسن وبيئته الإجتماعية ، ولم أتحدث عن شيوخه الذين يكثر بعض المؤرخين من ذكرهم ، اللهم إلا عن المولى الكبير سيد عبد السلام بن مشيش .

وإذا كنت لم أتحدث عن الوسط وإلا عن الشيوخ فإنما فعلت ذلك متعمدا إنى فعلته عن مبدأ وعن رأى قد ترويت فيه وتأملته .

إنى أرى فى صراحة أن هؤلاء الذين يكتبون عن الصوفية فيتحدثون عن الوسط والبيئة وعن الأساتذة والشيوخ ليقولوا بعد ذلك أن الصوفى تأثر وقلد وأخذ ، وأن فكرته هذه يدين بها لفلان ، وفكرته تلك يدين فيها للوسط الفلانى .. إن هؤلاء الذين يدينون بالآلية فى الفكر الصوفى أو بأن الصوفى مرأة تعكس صور المجتمع والمربين، وتنعكس فيها أفكار المجتمع والشيوخ ، ويأخذون فى تحليل آراء الصوفى وتفصيلها وتشريحها من أجل أن يعزوا كل فكرة إلى مصدر يختلف عن مصدر الفكرة الأخرى للصوفى نفسه ، إن هؤلاء الذين يصنعون ذلك مخطئون. فالصوفى لا يكون صوفياً بالقراءة ، أو الدراسة والبحث ، حتى ولو كانت هذه القراءة والدراسة فى الكتب الصوفية نفسها وفى المجال الصوفى خاصة .

وقد يكون شخص من أعلم الناس بهذه الكتب : درسها دراسة باحث متأمل ، وعرف قديمها وحديثها ، ويزين الزائف منها والصحيح ، وصنفها زمنا وميزها أمكنه .. وهو مع ذلك لاسهم له ، فى قليل ولا فى كثير ، فى المجالات الصوفية .

ولقد درس الإمام الغزالى كتب الصوفية المحققين ، درسها دراسة تعمق وتأمل ، لقد درس كتب الحارث المحاسبى ، وكتب أبى طالب المكى ، وماروى عن الجنيد ، والشبلى ، وغيرهم ، ثم اعترف بأن ذلك لم يجعله صوفيا ، ولو اقتصر على القراء ، مهما كانت عميقة ، لم كان له فى التصوف نصيب . ليست قراءة كتب الصوفية سلما يرقى به الإنسان فى معارج القد س. وابن سينا درس التصوف فى كتبه الأصلية وخالط الصوفية وتحدث إليهم ، وكتب فى التصوف فصولا توج بها كتابه الذى كان يعتز به وهو كتاب الإشارات والتنبيهات ... ومع ذلك فإن ابن سينا لم يصر بذلك صوفيا ولم تجعله دراسته للتصوف وكتابته عنه فى عداد الصوفية .

ثم إنه قد يكون الصوفى أميا لم يقرأ فلسفة ، ولم يجهد نفسه فى بحث .

والحديث إذن عن المصادر والبيئة والأساتذة والتقليد والتأثر ... فى مجال التصوف إنما يقوم على أساس فاسد ، وكل من ينهج هذا المنهج من الكتاب عن التصوف إنما يسير فى طريق زائف ، ويقف فرق جهدا منقض ، ويعتمد أسس تنقضها حياة الغزالى وحياة ابن سينا وحياة الخواص وحياة عشرات غير هؤلاء . =

وقد دخل على مرة سيدى محمد الشناوى وأنا فى مجلس الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ التى هى طريقة الشيخ نور الدين الشونى فصلى معنا ، وذكر على صورة ذكرنا.

= هذا الطريق الزائف سار فيه المستشرقون ، وحاولوا ما استطاعوا أن يقفوا بكل فكرة فى الجو الصوفى عند مصدر أجنبى ، وأن يجدوا فى تراث كل صوفى مسلم ألوانا من أفكار سابقة فى الزمن مختلفة أو متحدة فى البيئة . سار المستشرقون فى هذا الطريق الضال فضلوا أو أضلوا .

لقد ضلوا أو لم يتأت لهم –بعد أكثر من قرن ونصف أن يصلوا إلى نتائج موحدة ، أو يقينية أو شبه يقينية ، بل لقد ظهروا بمظهر لا يغبطون عليه ، وذلك أن الكثير منهم كان يرى الرأى اليوم : يؤيده بما شاء من كل شاردة وواردة ، ويتلقف من أجله كل خبر ورواية ، ويخرجه للناس على أنه الحق الذى لأمراء فيه ، ثم ينقضه هو نفسه من الغد ، فيخرج برأى آخر مغاير : يؤيده بما شاء وارده ويتلقف من أجله كل خبر ورواية .

لقد فعل ذلك المستشرق «ثولك» فاعلن مجوسية التصوف الإسلامى ثم عدل عن ذلك وأعلن إسلاميته . وفعل ذلك «نيكولسن» فأعلن إفلاطونية التصوف الإسلامى ثم أعلن إسلاميته فى جوهره : وأخذ المستشرقون يتحدثون عن مشكلة وهمية هى مشكلة مصادر التصوف ولا يزالون مختلفين .

وجارى الشرقيون المستشرقين فى الحديث عن مصادر التصوف وكما اختلف المستشرقون فقد اختلف الشرقيون ولا يزالون مختلفين .

سيستمر الخلاف لأن النقاش إنما هو عن مشكلة وهمية ، وسيستمر الخلاف لأن وضع المشكلة خطأ .

إنهم يتحدثون عن مصادر ثقافية على اعتبار أن التصوف ثمرة ثقافية كسبية ، وما دام ثمرة ثقافة كسبية فإنه إذن يتأثر بالوسيلة التى أدت إليه ، أى بالثقافة الكسبية التى كانت ثمرة لها .

ولكن التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية ، إن الوسيلة إليه ليست هى الثقافة ، ولكن الوسيلة إليه إنما هى العمل ، إن الطريق إليه إنما هو السلوك .

والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هى إلهام . وهى كشف ، وهى ملأ أعلى أنعكس على البصيرة المجلوة فتذوقه الشخص حالا ، وأحس به ذوقا وأدركه إلهاما وكشفا .

فهل يتأتى والحالة هذه أن تتحدث عن مجوسية التصوف الإسلامى ، أو عن أفلاطونيته ، أو فارسيته ، أو هنديته!

سار المستشرقون فى طريق خطأ ، وجاراهم الشرقيون فضلوا بضلالهم ، بيد أن المؤسف هو أن الناس ألفوا الحديث عما سماه المستشرقون مصادر التصوف الإسلامى ، وشارك فى الحديث عنها القارئون والسامعون ، وهكذا ليس الوهم صورة الجد ، واتخذ الزائف مظهر الصحيح وكان نقاش وكان جدل ، وما زال النقاش وما زال الجدل وسيستمر ذلك إلى أن يصحح الوضع .

وتصحيح الوضع إنما هو بحذف الوهم الذى اتخذ صورة الجد ، وبحذف الزائف الذى ليس مظهر الصحيح : أى بحذف ما يعبرون عنه بمشكلة «مصادر التصوف» .

ومن أجل ما تقدم لم أكتب من «مصادر» أبى الحسن وإذا كنت قد كتبت عن سيدى عبد السلام بن مشيش فإنما كتبت عنه كموجة ، موجه فقط ، والموجه ليس هو الموحى وليس هو الملهم ، ليس الموجه بصيرة ترق وتشف ، ولا سراً يصير مرآة مجلوة يحاذى بها الصوفى شطر الحق ولا ملأ اعلى ينعكس على بصيرة الصوفى فيتذوقه ويحسه ويشهده ، ولا مبادئ تلقى فى الروع فيدركها الصوفى سارية فى كيانه كله .

لقد تحدثت عن سيدى عبد السلام بن مشيش كموجة ، ولا بد للسالك من موجه ، لابد له من شيخ يقوده ، لا بد له من خبير يرشده .

يقول الأستاذ رينيه جينو الفيلسوف الفرنسى المعروف :

=

فقلت له : ياسيدى ندوم على هذا المجلس أو نجعل مكانه ذكر الله تعالى على طريقتكم .

فقال لى : دم على ما أنت عليه .

فكان ذلك من جملة طريقه لتقريره لى عليه .

وكذلك سلك سيدى مدين فى الملبوس طريقة خلاف ما كان عليه شيخه سيدى أحمد الزاهد وأقره شيخه على ذلك ، ودام سيدى محمد الغمرى أخوه فى الطريق على التقشف فى الملبس ، كما كان الزاهد ، وأقره شيخه كذلك عليه فاعلم ذلك وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

• • •

= ولابد فى التصوف من شرط جوهرى هو «التاثير الروحى» أو ، بتغير أدق البركة» وهو لا تأتى إلا بواسطة «شيخ» ومن هنا كانت «الطرق» ومن هنا كانت «السلسلة» .

وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخا فيؤثر بدوره فى مريد أو مريدين !» اهـ .

ويعنى الأستاذ رينيه جينو بالبركة «السر» الذى ينتقل من الشيخ إلى المريد حينما تلتقى يد المريد بيد شيخه معاهدا إياه على الإستقامة .

وإذا كان الأستاذ رينيه جينو يرى ضرورة الشيخ من أجل «السر» فإن الإمام الرازى يرى ضرورة الشيخ لأن:

«من سلك طريقا وعرف مراحلها ومنازلها وأطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل ، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل» اهـ .

إلام تستمر مهمة الشيخ ؟

إنها تستمر إلى أن يرتبط السالك بالسماء ، إلى أن يشرق عليه الملأ الأعلى ، إلى أن يتمكن فى المجال الروحى !

ومن هنا كان طبيعيا أن يقول أبو الحسن –وقد سئل عن شيخه– :

«أما فيما مضى فكان سيدى عبد السلام بن مشيش.

وأما الأن فأستقى من عشرة أبحر خمسة سماوية وخمسة أرضية ، أما السماوية فجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح ، وأما الأرضية فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى والنبى ﷺ» اهـ .

وليس معنى ذلك إنفصال المريد عن شيخه إنفصالا تاما ، فإنما معنى ذلك أن الشيخ رأى بنور الله أن تلميذه قد قطع الطريق ، وأنه أصبح جديراً بأن يرشد السالكين إلى الله، فيأذن له بالإرشاد ، ويبارك خطواته وتوجهاته فى الدعوة إلى الله ... ويشرق بذلك فى العالم نور جديد ، ويتالق فى سماء الروح كوكب مشرق ، وتسعد الإنسانية بها وإلى الله ويفى التراث الروح اللإنسانية بإشراقات جديدة قريبة العهد من الله . =

ومن أخلاقهم المحافظة على الفرائض والسنن الشرعية وحفظ ظاهرهم من مخالفة الشريعة في شيء من أحوالهم

خلاف ما عليه طائفة من الشياطين ظهروا فى النصف الثانى من القرن العاشر وادعوا عند العوام أنهم من أولياء الله الملامتية[١] ووافقهم العوام على الولاية لجهلم بالشريعة ، أو بطريق الملامتية فاعتقدوهم مع شربهم الخمر ، وأكل الحشيش ، وتقبيل النساء والمردان ، وصاروا يجيبون عنهم ، ويقولون هؤلاء مجاذيب لايشهدون إلا الله تعالى وذلك زور وبهتان .

وكأن لسان حال هؤلاء المعتقدين لهم يقول :

أن رسول الله ﷺ لم يبعث بالشريعة إلى مثل هؤلاء ، وإن الشريعة التى خالفها هؤلاء كذلك كذب ، وليست عن الله تعالى ، وذلك كفر صريح .

وأما ظنهم أن الملامتيه لايتظاهرون بأحكام الشريعة ، فهو كذب عليهم إذ الملامتية فى مصطلح القوم هم أكابر الرجال وهم على قدم الإمام أبى بكر الصديق رضى الله عنه[٢] لايتركون شيئاً من المأمورات الشرعية[٣] .

---

(١) يقول السهروردى فى عوارف المعارف فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم :
فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية (والإمام السهروردى يقصد هنا إدعاء هذا المذهب وإلا فالملامتية لايتركون شيئاً من المأمورات الشرعية كما سيأتى ذكره بعد قليل) ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشئ بل هم فى غرور غلط يتسترون بلبسه الصوفية توقيتا تارة ، وينتهجون مناهج أهل الإباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد ، والإرتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام ، والقاصرين الأفهام المنحصرين فى مضيق الإقتداء تقليدا ، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد فكل حقيقة ردتها الشريعة فهى ، زندقة ، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية ، والحقيقة هى حقيقة العبودية ، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية ، وحقيقة العبودية ، وصار مطالبا بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك ، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف ، ويخامر باطنه الزيغ والتحريف .
عن عمر بن الخطاب : إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحي على عهد رسول الله ﷺ وإن الوحى قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه ، وليس إلينا من سريرته شئ ، الله تعالى يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتى حسنة .
وعنه رضى الله عنه قال : من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن .
فإذا رأينا متهاونا بحدود الشرع ، مهملا للصلوات المفروضة ، لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل فى المداخل المكروهة المحرمة نرده ولا نقبله ، ولا تقبل دعواه أن له سريرة صالحة .

(٢) يقول أبو بكر الواسطى : (أول لسان الصوفية ظهرت فى هذه الأمة على لسان أبى بكر رضى الله عنه إشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء .
ويقول السراج فى ذلك : إنه يشير بهذا إلى قوله أبى بكر عندما سأله النبى ﷺ : إى شىء خلفت لعيالك؟. =

= قال : الله ورسوله .
فهى إشارة جليلة لأهل التوحيد فى حقائق التجريد .
وقال الجنيد البغدادى : أشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

(٣) ونشرح هنا فيما نقتطفه من أقوال السهروردى والهجويرى حال الملامتية :
يقول السهروردى فى عوارف المعارف : قال بعضهم: الملامتى هو الذى لا يظهر خيراً ولا يضمر شرا وشرح هذا هو أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص وتحقق بالصدق فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله .
فالملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالإخلاص ويرون كتم الأحوال والأعمال ، ويتلذذون بكتمها ، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته .
فالملامتى عظم وقع الإخلاص وموضعه ، وتمسك به معتدا به . والصوفى غاب فى إخلاصه عن إخلاصه .
فالملامتى وإن كان متمسكا بعروة الإخلاص ؛ مستفرشا بساط الصدق ، ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق ، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق .
والصوفى صفا من هذه البقية فى طرفى العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ، ورآهم بعين الفناء والزوال ، ولاح له ناصية التوحيد ، وعاين سر قوله (كل شئ هالك إلا وجهه) .
ويقول الهجويرى فى كشف المحجوب : إعلم أن مذهب الملامة فى هذه الطريقة ، نشره شيخ زمانه أبو حمدون القصار ، وله فى حقيقة الملامة لطائف كثيرة . ويرد عنه ، رحمة الله عليه ، أنه قال :
(الملامة ترك السلامة) وإذا تعمد شخص ترك سلامته ، وأحاط نفسه بالبلايا ، وتبرأ من المالوفات والراحات جميعا – أملا فى كشف الجلال وطلب المآل –حتى ييأس من الخلق، ويقطع طبع ألفته منهم، فإنه كلما كان أكثر انقطاعا منهم، كان أكثر اتصالا بالحق. فكل ما يقبل عليه كل خلق العالم– وهو السلامة يعرض عنه أهل الملامة، لتكون همومهم مخالفة للهموم، وهمتهم مخالفة للهمم، ويكونوا وجدانيين فى أوصافهم، كما روى أحمد بن فاتك عن الحسين بن منصور أنه سئل: من الصوفى؟ فقال: وجدانى الذات.
ويرد عن أبى حمدون أنه سئل على الملامة فقال: إن طريقها صعب ومغلق على الخلق، ولكن أقول عنها شيئاً، فهى «رجاء المرجئة، وخوف القدرية» وتحت هذا المعنى رمز.
إعلم أن هذا الطبع لا يكون أشد نفورا من حضرة الله بشىء إلا بالقدر الذى يكون كافيا لجاه الخلق، كأن يقول عنه شخص أنه رجل طيب ويمدحه، فيهبه روحه وقلبه، ويتخلف به عن الله تعالى. فالخائف يجتهد دائمًا أن يكون بعيداً عن موضع الخطر، وفى هذا الإجتهاد يكون للطالب خطران: أولهما، الخوف من حجاب الخلق، والآخر، منع الفعل الذى أدانه الخلق به، فيطلبون عليه لسان الملامة، فلا هو يركن إلى جاههم، ولا هو بقادر على أن يجعلهم مذنبين بملامته. فينبغى للملامتى أولا ، أن يقطع الخصومة الدنيوية والأخروية عن الخلق بما يقولونه، وأن يعمل لنجاة قلبه عملا لا هو بالكبيرة ولا بالصغيرة فى الشرع، ليرده الخلق، حتى يكون خوفه فى المعاملة كخوف القدرية، ورجاؤه فى معاملة اللائمين كرجاء المرجئة.
ولا يوجد فى حقيقة المحبة شىء أطيب من الملامة، إذ ليس لملامة الحبيب أثر على قلب الحبيب، ولا مرور للحبيب إلا على حى الحبيب، وليس للأغيار خطر على قلب الحبيب، لأن الملامة روضة العاشقين، ونزهة المحبين، وراحة المشتاقين، وسرور المريدين. وهذه الطائفة من الثقلين مخصوصون بملامة الجسد من أجل سلامة القلب، ولم تكن لأى أحد من الخلائق المقربين والكروبين والروحانيين هذه الدرجة، ولم تكن هذه المرتبة أيضاً لمن كانوا من الزهاد والعباد أعيان الخلق من الأمم السابقة إلا لهذا الفريق من هذه الأمة الذين سلكوا طريق انقطاع القلب.
أما عندى ، فطلب الملامة عين الرياء، والرياء عين النفاق، لأن المرائى يسلك الطريق الذى يقبله الخلق، والملاقى يسلك بالتكلف الطريق الذى يرده الخلق. وهذان الفريقان ظلوا فى الخلق ولا مخرج لهم منهم، حتى تكون طائفة قد خرجت بهذه المعاملة، والأخرى خرجت بتلك. ولا يخطر على قلب الفقير غير حديث الحق، وحين يقطع قلبه عن الخلق يكون فارغا من هذين المعينين، ولا يقيده شىء.

فلينتبه الأخوان لمثل ذلك فقد أجمع مشايخ الطريق على أننا لو رأينا شخصاً متربعاً في الهواء لايجوز لنا اعتقاده إلا بعد أن ننظر حاله عند الأمر والنهى ، فربما كان ذلك المتربع شيطاناً فعل ذلك ، ليغوى الناس .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : الملامتية عند القوم هم من أحكم علم الشريعة وعمل به ، وأخف بعض الأعمال التى تميزه عن أقرانه فقط لا من تظاهر ، بتعدى حدود الشريعة ، فإن ذلك شيطان فى صورة إنسان لايجوز لنا اعتقاد الولاية فيه .

وأما الذين يقلبون صورة الحشيش إلي الحلاوة ، أو الخمر إلى السكر ، فأولئك أرباب الأحوال ، وقد صرح أهل الطريق بعدم الاقتداء بهم ، ومايفسدونه أكثر مما يصلحونه .

فإياك يا أخى والخروج عن ظاهر الشريعة ثم إياك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة صفحهم وحلمهم علي من خاطبهم بقلب غافل

وإن كان الأدب من المريد أن لايخاطب شيخه إلا مع حضور القلب ، وذلك تخلقاً بأخلاق الله تعالى فى عدم معالجته بالعقوبة على من ناجاه بقلب غافل ، ولو أن الشيخ كلف مريده أن لايخاطبه إلا على الحضور الكامل لكلفه شططاً ، ثم لايقدر على الدوام على ذلك ، لأن مالا يطيق غالب الناس المداومة عليه مع الله العظيم ، فكيف يقدرون على المداومة عليه مع بعضهم بعضاً على أن ذلك إن وقع من الأشياخ ، فإنما هو على وجه الادمان فيهم ليترقى المريدون به إلى مقام مخاطبة الله تعالى على الحضور، فكأنهم يقولون للمريد : لا تخاطبنا قط إلا مع الحضور بقلبك معنا لتترقى إلى الحضور بقلبك إذا خاطبت ربك عز وجل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم بداءة : من يرونه محتاجاً بالعطية

ومتى قالوا لهم ، فقد خرجوا من طريق القوم لإخلالهم بواجب حق أخيهم ( )[١] فبمن نبدأ فقال بمن يرق قلبكم عليه أكثر .

وهذاالخلق من جملة أخلاق المريدين فضلا عن العارفين ، وقل من يفعله الآن من مشايخ هذا الزمان .

وقد ادعى شخص من أكابر فقراء هذا العصر أنه يحبنى مثل ولده ، وحلف على ذلك ، فسألته أن يرب لى نصفا من العشرين نصفاً التى له فى الجوالى كل يوم ، فحك خلف أذنه وقال : حتى أجد فى نفسى وارداً بذلك فله الآن عشرون سنة ، ولم يجيئه وارد ، فأين دعواه للمحبة ، وما هكذا درج السلف الصالح الذين أدركناهم .

وأصل ذلك إحكامهم مقام الزهد فى الدنيا قبل التمشيخ ، وقد عددت عائلة هذا الشيخ فوجدتهم خمسة أنفس فقط اللهم إلا أن يزعم ذلك الشيخ أطلعه كشفه على أنه لا نصيب للسائل فيما سأل أو الدعى أن ذلك الشىء يطغى السائل ، فينبغى التسليم له ، لأنه لم يمنع عن بخل والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة سترهم لعورات المسلمين التي يسرون بها ولا يعلنون

وإذا أطلع أحدهم على عورة لا يحدث بها أحداً من أصحابه فضلاً عن اعدائه تخلقاً بأخلاق الله تعالى ، وطلباً لأن يستر الله تعالى عورته فى الدنيا والآخرة ، فإن الله تعالى يجازى العبد من جنس عمله .

وممن صحبته من أهل هذا المقام الشيخ شمس الدين الخطيب الشربينى والشيخ سراج الدين الحانوتى وسيدى أحمد الراشدى وسيدى محمد الظاهرى موقع السلطان ، فجزاهم الله تعالى عن المسلمين خيراً والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم كثرة توبيخ نفوسهم إذا أطلعوا علي عورة أحد المسلمين .

ويقولون لها لولا تشوقك للاطلاع على عيوب الخلق ماوقعت على عورة أحد ، ولو كنت كارهه لذلك لحماك الحق من ذلك انتهى .

وأعرف جماعة إذا اطلعوا على عورة أحد لايحدثون بذلك نفوسهم بعد الاطلاع إنما ينسون ذلك ، حتى كأنهم لم يطلعوا على عورة أحد ، وإن وقع أن أحدهم حدث بذلك نفسه ندم واستغفر الله تعالى كما يندم ، ويستغفر إذا شرب خمراً ، فجزاهم الله تعالى عن أخوانهم خيرا والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم ازدرائهم الناس إذا وقعوا في معصية وإنما يخافون أن يبتلوا بما ابتلي به من المعاصي

ومن كان هذا مشهده ألهاه عن احتقاره الناس وفى الحديث من عير أخاه برضاع كلبه لم يمت حى (   )[1] انتهى .

ووقع ذلك لبعض الصحابة تصديقاً لكلامه ﷺ ، فالعاقل مشغول بهم نفسه إذا رآى أحداً فى معصية وقع خوفاً أن يقع الآخر فيها ، فإنه معرض لمثل ذلك لاسيما الأكابر من العلماء والفقراء لشدة إتهامهم لنفوسهم ، فيقول العاقل لنفسه : إذا كان هؤلاء الذين هم فى المقام قد وقعوا فى هذه الرذيلة ، فكيف أسلم أنا .

وكان سيدى على الخواص يكنى عن مثل ذلك ويقول : إذا كان الحلو ضرب مقارع فكيف بالحامض والحمد لله رب العالمين .

• • •

(١) مطموس من الأصل.

ومن أخلاقهم : الاعتناء بستر عورة عدوهم أكثر من عورة صديقهم

لأن كشف عورة العدو ربما يمازجه الشماتة به ، ولم تسمح نفس العدو ببراءة ذمته من مثل ذلك .

وقد قيل لمالك ابن دينار : هل تحب النصح فى الملأ ؟

فقال : أما من عدوى فلا .

فإياك يا أخى والتساهل بإشاعة كلام فيه نقص لعدوك ، وتزعم أنك ما أشعت ذلك عنه إلا لكونه تجاهر به ، فإن الناقد بصير ، وهذا من أعظم أخلاقهم ولايكاد يتخلق به إلا من راض نفسه كل الرياضة .

وقد كان سيدى على الخواص يجيب عن أعدائه بأحسن جواب ، وما سمعته قط يذكر عدوه بنقص لا تصريحاً ولاتعريضاً فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم المبادرة إلي الإنكار علي عالم أو صالح نقل عنه غلطة في الشريعة أو زلة من الزلات

إنما يتربصون ويفتشون حال ذلك الشخص على ما نقل عنه فإن رأوا مثله يقع فى مثل ذلك سكتوا وإن رأوا مثله يبعد وقوعه فيه أجابوا عنه بأحسن جواب ويقولون : هذا كذب وافتراء على فلان ، وهذا من محاسن أخلاقهم ، وقل فى هذا الزمان من يثبت فى مثل ذلك من الفقراء الذين ظهروا ففى النصف الثانى من القرن العاشر ، إنما يصير أحدهم يقول : مادريتم ما جرى فلان وقع منه كذا وكذا ويجعل أن ذلك الأمر وقع منه ، وربما كان كذباً وزوراً عليه فيعتمد تلامذته القاصرون على قوله ويصيرون يحكون ذلك للناس ولايعارضهم أحد فيه يقولون : مثل سيدى الشيخ لا يكذب ولا يحكى إلا الصحيح ، وقد حدث لى ذلك لما دسوا فى كتب مادسوا ، فصار بعض

المشايخ يحكى ذلك عنى على سبيل القطع ، ويقع هو وأصحابه فى عرضى ، فالله يغفر لنا ولهم فإياك يا أخى أن تقع فى مثل ذلك ثم إياك والحمد لله رب العالمين[1] .

(١) ولعل مما يجمع الأخلاق الخمسة الماضية قول الله تعالى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً) .
عدم محبة الله سبحانه وتعالى لشيء كناية عن سخطه على من يتكلم بالسوء إلا جهر المظلوم فإن له أن يجهر برفع صوته بالدعاء على من ظلمه أو يذكر ما فيه من السوء تظلماً منه مثل أن يذكر أنه سرق متاعى أو غصبه من ولو سبه أحد أبتداء فله أن يرد على الشاتم له.
وسبب نزول هذه الآية: أن رجلا ضاف قوما -أى اتاهم ضيفا- فلم يطعموه فاشتكاهم فعوقب على الشكاية فنزلت، ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه لما فرغ من بيان إيراد رحمته وإظهار رأفته بقوله (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وأمنتم وكان الله شاكراً عليماً) .
جاء بقوله سبحانه (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً) .
تتميما لذلك فكأنه قيل: إنه يحب الشكر وإعلانه ويكره السوء وإعلانه.
ويمكن لنا أن نأخذ من هذه الآية من التوجيهات ما يفيد المجتمع الإسلامى سواء فى حياة الفرد أو الجماعة فقوله تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) نهى مطلق عن إيجاد أى نوع من العداء بين الأفراد بعضهم مع بعض، فإن إعلان السوء والتحدث به يزيد فى كره الناس لبعضهم بل ربما يؤدى إلى زيادة الشحناء فتتطور الأمور بين المتخاصمين إلى مالا تحمد عقباه.
يقول الله تعالى (ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه) ويقول تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) فإن الصبر على اعتداءات الناس وتركها لتصريف الله عز وجل -وهو خير منتقم- هو النموذج الأمثل لما يجب أتباعه وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى وقال حديث حسن: (المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه؛ التقوى ههنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) وإذا تذكر كل مسلم دائماً أن الأخوه بين المسلمين هى الشعار الإسلامى فى كل زمان ومكان استصغر شأن العداوة فى نفسه ولم يفكر فى إهانة أخاه المسلم أو تحقيره بين الناس ولا يتعرض لسخط الله عز وجل بسبب الجهر بالسوء من القول.
عن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) بل نحن مأمورون بمراعاة هذه الإخوة فى كل وقت من الأوقات وليست خاصة بالعداوة نفسها بل كل ما يؤدى إلى الجهر بالسوء من القول يستوجب غضبه سبحانه فإن المسلم إذا زاد فى ثمن سلعة ينادى عليها فى السوق ونحوه ولا رغبة له فى شرائها بل يقصد أن يغر غيره فهذا حرام وإذا أعرض المسلم عن أخيه المسلم وهجره فذلك ظلم له وهو حرام.
قال رسول الله ﷺ (لا تحاسدوا ولاتناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله التقوى ههنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرىء من الشر ان يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) رواه مسلم.
وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس». ومن أنواع الجهر بالسوء من القول شهادة الزور وهى من أكبر الكبائر عن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إلا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يارسول الله: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررهما حتى قلنا ليته سكت. وشهادة الزور تعادل الإشراك بالله. قال رسول الله ﷺ: عدلت شهادة الزور اشراكاً بالله تعالى، ثم قرأ «فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به» .
وللتحدث بما لا يتماشى مع الحياء من علامات عدم الإيمان، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»
=

وعن أبن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما كان المؤمن بالطعان ولا الفاحش ولا البذىء» والكذب من الجهر بالسوء من القول ولا يكون المؤمن كذاباً. عن صفوان بن سليم رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله «ايكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم قلنا: افيكون بخيلا؟ قال: نعم: قلنا: افيكون كذابا؟ قال: لا.

وعن مالك أنه بلغه أن أبن مسعود قال «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب، فينكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فيكتب عند الله من الكذابين»:

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب ليهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا.

وبعد فيقول الله تعالى فى صفات عباد الرحمن (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، ولقد بين الله تعالى بهذه الصفة أن الحلم هو مثال الأخلاق الإسلامية التى يجب أن تتبع والمراد أنه إذا هاجمهم أحد من الناس أو أعتدى عليهم لم يردوا السيئة بالسيئة ولم يعتدوا عليه ولكنهم دائما خلقهم الحلم والترفع مع الإيمان والثقة فى أن الله سينتقم لهم من هؤلاء الجاهلين وليس معنى ذلك أن الحلم يؤخذ به فى جميع الأمور وجميع الحوادث فإن الغضب لأمور الشريعة والدين وللعرض والكرامة يجب على الإنسان ولقد أباح الله سبحانه وتعالى للمظلوم أن يشكو ظالم ويظهر أمره ويكشف للناس ما قد صنعه الظالم به .

وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يباح له أن يدعو على من ظلمه. يقول رسول الله ﷺ «أتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وعن مجاهد أن المراد «لا يحب الله سبحانه أن يذم أحد أحداً أو يشكوه » إلا من ظلم» فيجوز له أن يشكو ظالم ويظهر أمره ويذكره بسوء ما قد صنعه ونرى أنه فى حالة السكوت على الظالم هو إعانة له على ذلك الظلم وتهيأة السبل له لكى يزيد فى اعتدائه على حرمات الناس واستباحه أعراضهم فربما اعتدى اليوم على فرد وغداً إذا أستمر فى ظلمه يعتدى على جماعة يقول الله تعالى «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» وقال تعالى «وما للظالمين من ولى ولا نصير» والظلم ظلمات يوم القيامة.

عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة وأتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» وبعض الناس يفسر الظلم بأنه يتعلق بعظائم الأمور فقط ولكننا نرى فى الأحاديث النبوية أنواعا من الاعتداء قد لا يلقى لها بعض الناس بالا ولكنها تدخل فى باب الظلم المحرم فإن أخذ الهدية وقبولها على عمل يكلف به الشخص لا يستحق فيه هذه الهدية يعتبر ظلم:

عن أبى حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال: استعمل النبى ﷺ رجلا من الأزد يقال له: أبن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدى إلى فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «أما بعد» فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلى أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله بحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه فقال: اللهم هل بلغت».

وسب المسلم للمسلم من الظلم ولا ينعقد إسلام لمسلم إلا إذا سلم المسلمون من لسانه: «عن عبد الله بن عمر بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

والسرقة ولو فى أبسط الأمور تعتبر من الظلم والسارق فى النار «عن عبد الله بن عمر بن العاص رضى الله عنهما قال: كان على ثقل النبى ﷺ رجل يقال له كركرة فمات فقال رسول الله ﷺ هو فى النار فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها» «وعن أبى بكرة نفيع بن الحارث رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

أى شهر هذا؟
قلنا: الله ورسوله أعلم.
فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه قال:
أليس ذا الحجة؟
قلنا: بلى
قال: فأى بلد هذا؟
قلنا: الله ورسوله أعلم
فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه.
قال: أليس البلدة
قلنا: بلى
قال: فأى يوم هذا
قلنا: الله ورسوله أعلم
فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير إسمه
فقال: أليس يوم النحر؟
قلنا: بلى
قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه.
ثم قال: ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟
قلنا: نعم
قال: اللهم اشهد».
وبعض الناس لا يهمه إقتطاع حق أخيه المسلم أو تغيير حد أرضه بما يجعل ارضه فسيحة مضيقا الخناق على أرض جاره المسلم وهذا ظالم وله النار. «عن أبى أمامة إياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة.
فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يارسول الله؟
فقال: وإن كان قضيبا من أراك.
حتى أنه ربما يحكم القاضى حكما فيه بعض الظلم نتيجة أن يكون الظالم أعظم حجة من المظلوم نظر لثقافته أو ذكائه أو شىء من هذا القبيل فلا يفهم الظالم أن معنى هذا عدالة قضيته بل إنما يقضى له بقطعة من النار «عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار».
وعدم قضاء المسلم حاجة أخيه المسلم خاصة إذا كان من أرحامه كأبيه أو أمه وبقية أقاربه أو كان أرملة أو يتيما أو مسكينا يعتبر من الظلم لنفسه.
أولا: لأنه يحرم نفسه من الثواب المتعلق بهذا.
وثانياً: لأنه يظلم الآخرين لأن المؤمنون إخوة.
«عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة».
ويقول الله تعالى: «وافعلوا الخير لعلكم تفلحون».
وبعد فإن العدل فضيلة يؤدى بها كل ذى حق حقه دون أن يظلم أو يظلم «وكان الله سمعياً» بجميع الأمور فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم (عليما) بجميع المعلومات التى من جملتها حال الظالم والمظلوم.

ثم يقول الله تعالى: «إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا».
إن تظهروا أى خير تفعلوه من الأقوال والأفعال فيمن أحسن إليكم شكرا له على إكرامه اكم وتفضله عليكم بالتصدق بالمال أو صلتكم أرحامكم أو البعد عن الفحشاء والمنكر وإكرام اليتيم والسعى على الأرملة والمسكين وغير ذلك من أنواع الخير أو تفعلوا ذلك سراً .
وبالإضافة إلى ذلك أن تتبعوا ذلك الخير بالصفح عمن أساء إليكم مع حقكم فى رد هذه الإساءة والانتقام لأنفسكم فإن الله سبحانه وتعالى يعفوا عن المذنب مع قدرته على الإنتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى فيعفوا الله سبحانه وتعالى عمن عفا.
لقد بين لنا الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أمور إذا فعلناها نستحق عفوه سبحانه وتعالى.
أولها: فعل الخير علانية.
ثانيها: فعل الخير سرا.
ثالثها: وأن نعفوا عن السوء.
والله سبحانه وتعالى يحث دائما على فعل الخير باى طريقة كانت ما دامت ملتزمة مبادىء الشريعة الاسلامية.
يقول الله تعالى (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)
وطرق الخير كثيرة يقول الله تعالى:
(فاستبقوا الخيرات)
وقال تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين».
فالجهاد فى سبيل الله من أعظم طرق الخير فى الإسلام يحث دائماً على الجهاد وأنه ليس له من جزاء إلا الجنة
(عن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد أرأيت إن قتلت فاين أنا؟
قال فى الجنة
فألقى تمرات كن فى يده ثم قاتل حتى قتل) والله سبحانه وتعالى يطلب من التعجيل فى فعل الخير قبل أن يمضى الوقت ويمر الزمان:
(عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بادروا بالأعمال سبعا هل تنتظرون إلا فقراً منسيا أم غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر).
ومن أدق الأحاديث المبينة لكيفية حب الله سبحانه وتعالى لعبده إذا تقرب إلى ربه بجميع أنواع الخير الزائدة على الفروض ، فإن النوافل فى الحديث المقصود بها جميع أمور التقوى والصلاح التى يفعلها العبد زيادة على الغرض (عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أن الله تعالى قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه).
ولعل النموذج الأمثل للمسلم الحق الذى يستحق عفو الله سبحانه وتعالى ورضوانه هو نموذج عباد الرحمن. إن لله عبادا ينتسبون إليه باسم الرحمن إنهم عباد الرحمن ولهم صفات تتناسب مع أسم الرحمن وأول هذه الصفات: هو: أن ارتباطهم بالمادة إرتباط هين ضعيف إنهم يمشون على الأرض هونا أما غيرهم فإنهم يرتبطون بالأرض وكانهم مصفدون فيها ومادام عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا فإن قلوبهم متفتحة إلى كل خير متطلعة إلى السماء أن قلوبهم تهفو إلى الله تحبه لاتدعو سواه إنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر من ولد أوند تعالى الله عن ذلك أو ثروة أوجاه أو منصب ولكنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما.
وهى أسس جامعة ينتج عنها صفات أخرى كريمة محببة مطلوبة منها:
انهم لا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ولا ينتهكون الأعراض والحرمات ولا شك أن من ينتهك إثما من هذا القبيل فإنه يلقى سوءا بسوء .

أخلاقهم مشاركتهم في الفرح والسرور لمن ولد له مولود،

ومساعدتهم له فى عمل العصيدة والعقيقة إن كان حاله ضيقاً لا سيما الجار.

وهذا من أعظم أخلاقهم ، وغالب الناس لايحتفل بمثل ذلك ، ولا يساعده الجار الفقير بدقيق ولا عسل ، ولا غير ذلك ، ونسى قوله تعالى « وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب[1]» ، وغير ذلك من الآيات والأخبار .

فعلم أن كل من أدعى الولاية ، وأخل بحق جاره تساهلاً مع القدرة على وفاء حقه، فهو كاذب والحمد لله رب العالمين .

• • •

= وعباد الرحمن لا يأتون الزور والزور هو الباطل على أى وجه كان ، إنهم لا يأتونه ولا يعينون عليه ولا يجلسون فى مجالسه وإذ امروا باللغو مروا معرضين عنه يقول الله تعالى فى سورة القصص (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) .

ومن دعاء عباد الرحمن: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) وجزاء عباد الرحمن هو ما عبر عنه الله سبحانه وتعالى بقوله. (أولئك يجزون الغرفة) أى الدرجة العليا والمنزلة الرفيعة السامية (بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) . وتكون نتيجة ذلك كله أيضًا. أن الله سبحانه وتعالى يتكفل لكل من التجأ إليه بالنصر والتأييد ويتكفل بالرعاية والعناية لكل من آمن وعمل صالحا يقول تعالى. (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

ويقول الله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) والصفة الثانية التى تلازمهم. أنهم سلام أينما ساروا وحيثما حلوا وحتى إذا خاطبهم الجاهلون وهم الذين لم تستنر قلوبهم بنور الإيمان فإنهم يقولون ما يؤدى بالجاهلين إلى السلام.

وصفتهم الثالثة: أن قلوبهم معلقة بالرحمن فهم يبيتون له سجدا خشوعا خاضعين عابدين متبتلين يدعونه سبحانه أن يصرف عنهم عذاب جهنم فإن عذابها هلاك أليم.

وصفتهم الرابعة : هى الإتزان فى أعمالهم فهم مثلا إذا أنفقوا لم يسرفوا فى الإنفاق ولم يستول عليهم شح مهلك وإنما كانوا وسطا بين الإسراف والإمساك. أما الصفة الخامسة فهى أن أعمالهم خالصة لله تعالى إنهم لايشركون به ولا يعبدون رباً سواه والله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به والله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك.

(١) وتمام الآية: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) سورة النساء آية ٣٦٠.

ومن أخلاقهم حفظهم مقام إخوانهم في غيبتهم فضلاً عن حضورهم

فإذا رأوا مريداً لم يفتح عليه مع طول صحبته لأحد من إخوانهم يعتذرون عنه ، ولا يقولون لو كان هذا صادقاً فى دعواه الطريق لفتح على مريده ، وإنما يقولون لوقسم الله تعالى للمريد الفلانى على يدهم شيئاً لناله ، ولكنه لم يقسم لهم شيئاً على يدهم .

قال تعالى فى حق رسوله ﷺ الذى هو أكمل المرسلين : « ما على الرسول إلا البلاغ »[١] ولما تكدر ﷺ لعدم قبول قومه ما جاء به من الهدى أنزل الله تعالى عليه «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى»[٢] ، وقال تعالى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً»[٣] وقال تعالى « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»[٤] .

فعلم أن كل من ادعى الولاية وأنكر على كل شيخ لم يفتح على مريده ، فهو جاهل بالشريعة حسود ، لإخوانهم لم يشم من طريق الصالحين رائحة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أنهم لا يسألون ولا يردون ما أعطوه من الحلال

ولايدخروه ، وهى طريقة مستقيمة وأدلتها مشهورة فى الكتاب والسنة ، وقد يخالفونها كذلك لأدلة أخرى وأغراض صحيحة لأنهم لايخرجون عن الشريعة فى شيء من أحوالهم غالباً بخلاف غيرهم حيث يفتى فى غير محل لم يؤمر فيه

---

(١) وتمام الآية: (ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) سورة المائدة آية : ٩٩.
(٢) وتمام الآية: (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) سورة الأنعام آية : ٣٥.
(٣) وتمام الآية: (ولو شاء ربك لآمن من الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) سورة يونس آية: ٩٩.
(٤) سورة السجدة آية: ١٣.

بالسؤال، ويرد فى موضع أمر فيه بالأخذ ، ويدخر لغير غرض شرعى ، فعلم أنه لاينبغى المبادرة إلى الإنكار على من رأيناه يسأل منهم أو يرد أويدخر بل نسلم له حاله بالطريق الشرعى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لزوجتهم إذا تزوجوا عليها

وعدم شكر الجديدة بحضرة العتيقة بقصد تميل خاطر العتيقة إليها ، فإن ذلك مما يزيدها منها نفرة ، لأن شكرها يؤذن بزيادة محبتها ، فكأنه يقول للعتيقة أنا أحب الجديدة أكثر منك لدينها ، وصلاتها ، ونحو ذلك ، وهذا يقع فيه كثير من الفقراء الساذجين ، وقد أنشد سيدى عبدالعزيز الديرينى رضى الله تعالى عنه فى ذلك .

تزوجت اثنين لفرط جهلى *** وقد حاز البلا زوج اثنتين
فقلت أعيش بينهما خروفا *** أنعم بين أكرم نعجتين
فجاء الحال عكس الحال دوما *** عذاب دائم ببليتين
رضى هذى يحرك سخط هذى *** فلا أخلو من إحد السخطتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى *** نقار دائم فى الليلتين
إذا ما شئت أن تحيا سعيدا *** من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا وإن لم تستطعه *** فواحدة تكفى عنكرين

انتهى.

ولكن لم يزل الأولياء فى كل عصر يبتلون بسوء خلق زوجاتهم إما اختباراً لهم من الله تعالى ، وإما ليتأسى بهم أصحابهم إذا صبروا وإما تحملا منهم لأذى تلك المرأة عن الناس الذين يتزوجونها بحكم الفرض والتقدير .

وأما قول الفضيل بن عياض إنى لأعصى الله تعالى ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وزوجتى ، فهو جرى على الغالب ، فلا يلزم من سوء خلق المرأة سوء خلق

ذلك الولى ، وقد أجمع الفقراء فى عصرنا هذا على حسن خلق سيدى على الخواص وسيدى محمد السروى والشيخ عثمان الخطاب ( )[١] الديمى ومع ذلك فقد كانت زوجاتهم فى أسوء الخلق .

ومن ذلك أن زوجة سيدى على الخواص كانت تعتقد نجاسته ، وحكى لى مرة أنه غلط مرة ، فشرب من كوزها ، فصارت تحكه بشقفه ، حتى ظهر أثر الحك فى فم الكوز ، وكانت تهجره فى الفراش السنة وأكثر ، ومع ذلك ، فلما ماتت تبع جنازتها براية بيضاء على جريدة إلى أن أدخلها القبر ، وقال : خاطركى علينا فى عدم الوفاء بحقك ، ونحن نسألك بالنبى ﷺ أن تسامحينا ، ثم انصرف حزينا عليها .

فقلت له : ما وجهه الحزن عليها مع ما كانت عليه من سوء الخلق .

فقال : كان يحصل لنا على يديها الخير والأجر ، ونتمرن عليها فى الصبر ، وما فى أحد يخلفها فى ذلك ، ونحن نحب أن نفارق الدنيا على البؤس والشدة فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم سترهم لأحوالهم ما أمكن

ولايظهرون شيئاً من كمالاتهم إلا إن أمرهم الشرع بذلك كأن كانوا فى محل يقتدى بهم فيه ، فإن الإنسان كلما كتم أحواله كلما استنار قلبه وكلما أفشاها أظلم قلبه لخروج نور الأعمال منه وفرق عظيم بين الصادق الذى يتمنى أنه ينزل تحت الأرض السابعة حتى لايعلم به ومن يحب الظهور ، ويود أن الناس كلهم يعرفون فضله .

وقد درج السلف الصالح كلهم على محبة الخفاء لأنها طريق السلامة ، فلا يحبون أن يتميزوا عن أقرانهم بخلق غريب محمود إلا لغرض شرعى ، حتى كان أحدهم إذا درس أو وعظ يمسك الكتاب ويعظ منه أو يدرس إبهاما للحاضرين أنه عاجز عن

(١) مطموس من الأصل.

الوعظ والتدريس على ظهر قلب مع أنه لو تكلم بما فى قلبه ما حمله مركب إذا الكاملون لاتنحصر علومهم فيما وضعه الناس فى الكتب .

وقد كان سيدى أحمد الزاهد شيخ الطريق لايعظ النساء إلا من كراس إظهاراً للضعف مع أنه كان من الراسخين فى العلم ، ولما أنكر عليه الشيخ سراج الدين البلقينى ورماه بالجهل وكان إذ ذاك فى جامع الأزهر خرج له الشيخ فى حال كالدم الأحمر إلى أن دخل الجامع ونصب الكرسى فى صحن الجامع وصاح فى الناس بأعلى صوته من يسألنى عن كل علم نزل من السماء إلى الأرض أخبره به فاجتمع عليه خلائق فلما صحى قال للناس من جاء بى إلى هنا وأجلسنى على الكرسى ؟ فقالوا له : لم يفعل ذلك أحد وأنكم عملتم . كذا وكذا ، وقلتم كذا وكذا .

فقال : هل خرج لنا أحد يسألنا فقالوا له : لا فقال : الحمد لله لو أن أحداً خرج لنا لافترسناه أو قال اختطفته الجن انتهى .

فاجتهد يا أخى أن تبلغ مقام الكمل فى العلم ، ثم استتر وإياك أن تعظ الناس من كتاب عجزاً وتوهمهم أنك قادر على وعظهم ، وتدريسهم من غير كتاب فتقع فى النفاق والرياء وتحرم بلوغ ذلك المقام والناقد بصير .

وقد كان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه يقول : والله ما خرجت للناس إلا بعد أن هددت بالسلب مرات[١] .

---

(١) وقصة خروج سيدى أبو الحسن الشاذلى ومغادرة العزله يرويها هو بقوله:
قيل لى :
يا على . إهبط إلى الناس ينتفعوا بك .
فقلت :
يارب أقلنى من الناس فلا طاقة لى بمخالطتهم .
فقيل لى:
إنزل فقد أصحبناك السلامة، ودفعنا عنك الملامة .
فقلت .
تكلنى إلى الناس آكل من دريهماتهم .
فقيل لى:
أنفق يا على، وأنا اللى، إن شئت من الجيب وإن شئت من الغيب .

وطلب أهل مدينة بجاية بالمغرب من سيدى الشيخ أبى مدين رضى الله عنه أنه يعظهم فأبى فألحوا عليه ، فخرج وكان على بابه شجرة نبق ، فطار العصافير لما رأوه ، فرجع وقال : إن من نفر منه الطيور لا يصح أن يكن داعياً إلى الله تعالى ، فلم يزل فى بيته ، حتى خرج فتبعته العصافير إلى مجلسه ، وصارت تضرب بمناقيرها فى الأرض حين سمعت وعظه ، حتى ماتت .

ولما أتى الوارد إلى سيدى يوسف العجمى أنه يأتى إلى مصر من مدنية كوران عاوده الوادر فقال : خاطر نفسانى ، فسمع هاتفا يقول : يايوسف إذهب إلى مصر مرتين أرشد الناس ، وهو يقول : هذا شيطان ، فلما خاطبه الثالثة قال : اللهم إن كان هذا وارد حق من قبلك يارب ، فاقلب لى هذا النهر لبنا ، حتى أغرف منه بقصعتى هذا، وأشرب ، فانقلب ذلك النهر لبنا ، وشرب منه ، وأسقى الناس ، ثم ذهب إلى مصر ملحقه سيدى حسين التسترى ، وقيل إنه كان فى مصر قبله .

فقال له سيدى يوسف : يا أخى الطريق فى كل عصر لا تكون إلا لواحد والباقى مساعد له ، فإما أن تبرز أنت لإرشاد الناس ، وأكون أنا خادمك ، وإما أن أبرز أنا وتكون أنت خادمى تفخيما لى ، حتى يعظمنى الناس ، فيقبلوا نصحى وإرشادى ، فاستقر الأمر على بروز سيدى يوسف وشد سيدى حسين وسطه ، ووقف لخدمة سيدى يوسف مع أنه كان أرقى فى المقام من سيدى يوسف كما فعل سيدى على المرصفى وغيره .

فهكذا كان السلف رضى الله تعالى عنهم ، فالصادق من اقتدى بهم ، ولم يظهر من كماله شيئاً إلا بالميزان الشرعى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : شدة محبتهم للسادة الأشراف رضي الله تعالي عنهم إكراماً لجدهم ﷺ من حيث إنهم بضعة من ﷺ

ومن إجلالهم أن لايجلس أحدنا فوق صفه أو طراحة ، وهم تحتها ، وأن لايتزوج أحدنا شريفة منهم ألا إن كان يعد نفسه عبداً لها ، ويقدم لها نعلها كلما أرادت تمشى ، ويقوم لها كلما جاءت بعد تواريها بجدار أوستارة .

ومن إجلالها أن لايتزوج عليها ، ولايتسرى عملا بقوله ﷺ : « أما إنى لا أحرم ما أحل الله تعالى ولكن إن كان ابن أبى طالب يتزوج على ابنتى فليطلقها ، فإن فاطمة بضعة منى يسوءنى مايسوءها ، ويسرنى ما يسرها» ، فرجع على عن خطبته لابنة أبى جهل ، وكان على قد خطبها على السيدة فاطمة عليها السلام .

وكذلك من إجلال الشريفة أن لايقتر أحدنا عليها المعيشة إلا إن إختارت هى ذلك ولا تسأله شيئاً هو قادر عليه من أمور الدنيا ، فيمنعها منه ، ولاينظر إليها إذا كانت أجنبية لشهادة أو معالجة إلا ، وهو فى غاية الخجل من رسول الله ﷺ ، ولا ينظر إليها فى الإزار إذا مرت أو جلست عنده إلا لغرض صحيح شرعى وتأمل أنت إذا رأيت أحداً يرمق لما يظهر من ابنتك وهى فى الإزار كيف تتكدر منه ، فكذلك رسول الله ﷺ .

وقد ذكر الجلال السيوطى وغيره أنه كان يحرم نظر زوجاته رضى الله عنهم وبناته فى الإزار وما ثبت للأصل ثبت للفرع ، وإن تفاوت المقام .

وكذلك من إجلال الشريف أن لايمر أحدنا عليه ، وهو جالس فى الطرقات يسأل فلسا و رغيفاً إلا ويعطيه ما طلب أو فوقه ، ولو أننا أعطيناه عمامتنا أوثيابنا لكان أفضل لاسيما إن كان يقول : أعطونى كذا لأجل الله تعالى أو لأجل جدى ﷺ .

وكذلك من إجلاله إذا كان لنا عليه حق ، وهو يماطل فيه الا نشتكيه من حاكم ، ولانحبسه ، ولا نوبخه ، ولا نقول له حاشا أن تكون شريفاً ، ونحو ذلك من الألفاظ ، ولا نطالبه قط بعنف ، وإذا ضربنا أو أخذ مالنا نرى ذلك من باب إجراء المقادير عن

الله تعالى علينا بلا واسطة أحد من الخلق ، فإما نرضى وإما نصبر لا أنزل من ذلك .

فإن ما بعده إلا السخط ، وذلك فى غاية سوء الأدب .

وتقدم أن من جملة الأدب مع الشريف أن نعزم عليه بأنه يفتتح بنا مجلس الذكر ، وأن لايفتتح مجلس الذكر بحضرته ولو كان أصغر سنا منا ، أومعدوداً من العوام أدباً مع جده ﷺ .

وكذلك لانتخذه تلميذاً لنا فنستخدمه كما نستخدم المريدين كما يقع فيه من لا أدب له من المتمشيخين بل ننصحه بشريعة جده من غير رؤية نفوسنا من جملة أشياخه .

وقد بسطنا الكلام على حقوق الشرفاء فى المنن وفى مختصر الفتوحات المكية فراجعهما والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حفظ حرمة أشياخهم بعد موتهم فضلاً عن حياتهم

فلا يتزوجون لهم مطلقة ولا من توفوا عنها ، فإن حرمة الأشياخ فى الإفادة كحرمة الآباء فى الولادة ، وربما قتله الشيخ بالحال كما وقع لسيدى محمد الشويمى ، وسيدى محمد بن عنان ، وسيدى بهاء الدين المجذوب ، فطعنوا من تزوج امرأتهم ، فمات فى المنام .

وهذا الفعل وإن كان جائزاً فى ظاهر الشرع فما كل جائز يكون فعله أولى ، ويكفينا فى النفرة من مثل ذلك التجربة وما نقل عن بعض الشاذلية من أذنهم لتلامذتهم فى تزويج حلائلهم من بعدهم أو بعد طلاقهم لهن ، فإنما ذلك غيرة للجناب المحمدى أن يشاركه أحد فى خصوصيته وذلك خارج عن ما نحن فيه ، ولا يقدح فى أدب المريد والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم المزاحمة لمشايخ عصرهم على تلقين الذكر وأخذ العهد

لاسيما إن كانوا أقدم منهم هجرة فى الطريق إلا أن جاءهم إذن من سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ مثلاً ، فحينئذ يزاحمون مشايخ عصرهم إمتثالاً لأمر رسول الله ﷺ أو غيره من الأكابر .

فإن لم يقع لهم منه إذن صريح فمن الأدب أن يحولوا من طلب منهم التلقين مثلاً إلي المشايخ الذين هم أقدم منهم هجرة ، وإن رأوا من الطالب قلة اعتقاد فى مشايخ العصر حسنوا فيهم اعتقاده بحسب الطاقة .

ولم أجد لهذا الخلق فى مصر فاعلاً إلا القليل فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يتلمذوا لكل من طلب أن يكون شيخاً عليهم ولو كانوا مأذوناً لهم في المشيخة من أستاذهم

وكل من أبى أن يتلمذ لهم طلب منه ذلك ، فهو دليل على عدم صدقه فى الطريق وبقاء رعونة نفسه ومن كان كذلك فهو لا يصلح للمشيخة .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا يتوقف أحدكم فى التتلمذ لكل شيخ طلب منكم ذلك بل أجيبوه إلى ماطلب منكم ، ثم لايخلوا حاله من أمرين إما أن يكون ناقصاً أو كاملاً ، فإن كان كاملاً فتعلموا منه ، وإن كان ناقصاً ، فكملوه من حيث لايشعر هو بذلك ، ولا جماعته ، وذلك بأن تسألوه السؤالات فى الطريق ، فإذا لم يعرف الجواب عنها تقولون له : فماذا تقول فى هذا الجواب ؟ وتذكرونه له ، فيستفيده منكم من غير أن يلحق أذى بذلك من جماعته انتهى .

وقد فعلت أنا بحمد الله تعالى ذلك مع جماعة من فقراء مصر ، وقبلت أعتابهم ، وجلست بين يديهم كأحد تلامذتهم ، وأفيدهم فوائد لم تكن لهم على بال فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا ورد عليهم فقير يدعي المشيخة وتفرسوا منه أنه لايواظب علي مجلس الذكر معهم إلا أن جعلوه يفتتح عليهم الذكر فمن الأدب أن يعزموا عليه بأن يبتدئ الذكر

ولو عزم هو عليهم ردوا عليه الأمر ، ثم لايزالوا يسارقونه فى تبغيضه فى حب الرياسة ، حتى يصير يكرهها إن شاء الله تعالى وكأن لسان حال هذا الشخص يقول : إن لم تدعونى أفتح المجلس لاأحضركم .

وقد فعلت أنا ذلك مع ثلاثة طلبا أن يكون كل واحد منهم شيخاً ، فصاروا يفتتحون واحداً بعد واحد والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم أخذهم العهد علي مريد نكث عهد شيخه في حياته وجاء إليهم

لأنه لاخير فيه .

وهذا الخلق صار عزيزاً فى هذا الزمان .

وقد كان سيدى محمد الشناوى رحمه الله تعالى إذا أتاه فقير يطلب التلقين يقول له : هل سبق لك صحبة بأحد ؟ فإن قال : نعم قال له : فلم فارقته ؟ فإن قال : ما حصل لى على يديه خير حسَّن اعتقاده فيه وأبى أن يلقنه انتهى .

فاعلم ذلك يا أخى وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم أخذهم العهد علي مريد بأنه لايفعل كذا في المستقبل خوفاً عليه من نقض العهد

فإن خلق الأفعال ليس هو إلى العبد ، وإنما هو إلى الله تعالى ، وإنما الأدب : أن يعلمه التوبة من كل ذنب وقع فيه على الفور لا غير . هذا ما عليه المحققون والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم البشاشة في وجه أحد من مريدى مشايخ عصرهم

خوفاً عليه أن يميل إليهم بالمحبة ويترك شيخه ، فيحصل عدم الوفاء بحقه اللهم إلا أن يكون ذلك المريد ثابت القدم فى محبة أستاذه ، فهذا لا تضر البشاشة له ولا إطعامه الطعام لعدم المحذور الذى ذكرناه ، وهذا الخلق ما رأيت له فاعلاً فى مصر غيرى فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يحمي أحدهم الخرقة من الطعن في أهلها

وذلك بالاستقامة ، فلا ينبغى لأحدهم أن يلبس الصوف ، ويرخى له العذبه إلا بعد كمال رياضة نفسه ، وزوال سائر رعوناتها ، وذلك بالخروج عن محبة الدنيا ، وشهواتها ، ومناصبها ، بحيث لا يصير يسترقه شيء منها .

فإن الفقير مادام يميل إلى شيء من الدنيا ، فلبسه للصوف ، وارخاؤه العذبه نفاق ، ورياء .

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله تعالى إذا رأى على فقير جبه صوف قبل خمود نار بشريته يقول له : ياولدى استعجلت لباس الصالحين قبل استحقاقك له فإن الصوف لباس الأنبياء ، وحلية الاصفياء ، فأنزعه ، حتى تكمل رياضتك لنفسك وتلتحق بالصالحين عند الناس ، ثم ألبس لبستهم فاعلم يا أخى ذلك وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن لايبادروا إلي تلقين الذكر لكل من سألهم ذلك إظهاراً لعزة الطريق

وكذلك من أخلاقهم أن لايبادروا إلى تلقين أحد من العلماء إجلالا لهم وتعظيماً لجناب العلم إلا أن يكون أحدهم صاحب حال مع الله تعالى ، وتصريف .

وقد يكون ذلك العالم أعلم من ذلك الشيخ بالشريعة قد بلغنى أن الشيخ ( )[١] لقن شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسى ، فعبت ذلك عليه وأرسلت له أوبخه على مثل ذلك ، فتاب إلى الله عز وجل وقال : إنى كنت جاهلاً بمثل ذلك .

وكذلك وقع لشخص آخر أنه لقن الشيخ عبدالحليم بن مصلح ، فوبخه على ذلك غاية التوبيخ لعلمى بأن ذلك الشيخ لا يصلح تلميذاً للشيخ عبدالحليم ، وإنما أجرأه على ذلك كثرة التواضع من الشيخ عبدالحليم .

فعلم أنه لاينبغى لفقير أن يبادر إلى تلقين أحد من طلبة العلم إلا إن وثق بصدق حبه للطريق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم تعريضهم لأحد من الناس أن يصحبهم

أو لأحد من الأخوان أن لا يتخلف عن حضور وردهم ، أو لا يصلى الجمعة إلا عندهم ، ونحو ذلك من التقييدات التى لم تصرح بها الشريعة إلا لغرض شرعى بشرط الراحة فى ذلك اقتداء برسول الله ﷺ فإن للناس اعذاراً .

وقد قالوا : كل من ضيق على أصحابه لرعونة نفس نفروا منه بقلوبهم ، فعدموا النفع به كما عليه بعض مشايخ هذا الزمان الذين ظهروا بغير حق ، وجلسوا بغير إذن ، وقد شكى لى جماعة من أصحابهم مراراً مايقاسونه من شدة التضييق عليهم ، وما هكذا درج الأشياخ الذين أدركناهم .

---

(١) مطموس من الأصل.

والاجتماع مقدر وليس المقصود من الشيخ إلا أنه يجيب المريد كلما سأله عن مرض من الأمراض لا غير ، ولو أن هؤلاء الأشياخ كانوا صادقين مع الله تعالى ، لكانوا يرون نفوسهم أحفز الناس ، وكانوا يستحيون من دعاء الناس ، لمجالسهم خوفاً من الوقوع فى حب الرياسة ، والعجب .

فإياك يا أخى والتضييق على اخوانك إذا عملت شيخاً وسهل عليهم الطريق باطعامهم الطعام تارة ، وبشكرك لهم فى المجالس تارة ، وبخدمتك لهم تارة ولا تتكبر عليهم فإن سيد القوم هو خادمهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم تعاطي الأمور المفسقة في مقام العارفين

كأكل الشهوات ، وكثرة النوم ، واللغو ، والاعتناء بالملابس، والمناكح ، والمراكب .

فإن القوم قالوا : من فسق العارف تناوله الشهوات الحاجبة له عن حضرة الله تعالى.

وقال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى : من شارك الفسقة فى الشهوات فقد انخرط فى مسلكهم من حيث المؤاخذة بها والعتاب عليها وذلك بتفاوت المقام ، فإن معنى الغرور فى الحياة الدنيا إيثار العبد الدنيا على الآخرة ، ومن تناول الشهوات ، وأكثر منها فقد صدق عليه أنه آثر الدنيا على الآخرة ، وليس ذلك من صفات القوم الذين يحبهم الله عز وجل ، ومن كان عدو الله تعالى ، كيف يدعى الصلاح وفى الحديث «إن الله تعالى ليحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه»[1] انتهى .

وقد ذم الله تعالى الكفار بقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ﴾[2] وما ذم الله تعالى الكفار على فعله ، فنحن أولى بتركه والحمد لله رب العالمين .

(١) وتمام الحديث: (إن الله تعالى ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالخير وإن الله تعالى ليحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى المريض أهله الطعام) رواه البيهقى في شعب الإيمان وابن عساكر عن حذيفة.

(٢) وتمام الآية: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ سورة الأحقاف آية: ٢٠ .

ومن أخلاقهم : عدم الغفلة عن استحضار زلاتهم ونسيان حسناتهم فيستقلون طاعاتهم ويستكثرون سيئاتهم

وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم رضى الله عنهم ، حتى إن مالك بن دينار ، والحسن البصرى كانا يقولان : لو حلف حالف أن أعمالنا من لا يؤمن بيوم الحساب لقلنا له : صدقت لا تكفر عن يمينك انتهى وفى الحديث مرفوعاً : « المؤمن يرى ذنوبه كأنه تحت جبل يخاف أن يقع عليه فيهلك والفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفى فقال : بيده هكذا ينشه عنه»انتهى .

ويقرب من هذا من اغتر بكثرة علمه دون عمله ، فصار يرى علمه كالجبال مع أن عمله به ، كالذر ، وذلك من أعظم الغرور ، لاسيما إن كان كبيرالنفس كثير الجدال لا يتجرأ أحد ينصحه ، فإنه يهلك بالكلية والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا رأي أحدهم حاله فاق علي إخوانه حتي كاد أن يطفي نورهم أن يتظاهر بضد ذلك إيثاراً لإخوانه بالشهرة بالصلاح

فإذا اشتهروا وانطفى هو فرح بذلك أشد من ظهور نوره ، وأقبل على عبادة ربه وقال : الحمد لله كفانا أخونا فلان المؤنه ، فجزاه الله خيراً .

فإن من شرط الفقير الصادق أن يقوى نور أخيه ، ويختفى هو ، ثم يسأل الله تعالى لأخيه أن يحفظه من الآفات كالعجب وحب الرياسة ، ونحو ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أنهم لا يقنعون بالأخذ من أحكام الشريعة علي الوجه الظاهر دون مطالبة نفوسهم بالحقائق

وتفتش قلوبهم ، وإنقاء ما فيها من الصفات المذمومة من غير إزالة له ، كالكبر والرياء والحسد والعجب والنفاق ، وحب الرياسة ، وإرادة التسوية بين الأقران والسرور بظهور نقائصهم ، ومحبة الانفراد باسم الصلاح دون الأقران ، ونحو ذلك من صفات المغتربين .

وسبب هذا الغرور نسيان ما ورد من الوعيد لأصحاب هذه المعاصى الباطنيه كقوله ﷺ (الرياء هو الشرك الأصغر) وكقوله : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» وكقوله ﷺ : « حب المال والترف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» وغيرها من الأحاديث .

ولو نظروا فى قوله تعالى (إلا من أتى الله بقلب سليم[١]) لعرفوا أن الله تعالى يؤاخذهم بجميع الصفات المذمومة ، لأن من ارتكب صفة منها ، ولم يتب لم يأت ربه بقلب سليم .

وقد قال الإمام الغزالى : من لم يصل وقلبه مع جوارحه لم تصح صلاته كما عليه طائفة المتوسوسين ، وهو كمريض ظهر به الجرب ، فأمره الطبيب بالطلاء وشرب الدواء ، فترك شرب الدواءالقاطع لمادة الجرب ، وصار يطلى ظاهره ، فكلما برىء من شيء طلبه له من الباطن جرب آخر ، ولو أنه أزال مادة الجرب من باطنه لاستراح من علاج الظاهر ، وصار سليماً من الجرب طاهراً ، وباطناً ، فهكذا الخبائث إذا كانت كامنة فى القلب ، فلابد أن تظهر على الجوارح .

فعلم أن العبد لا يخرج عن الرياء والنفاق إلا لمن تساوت سريرته ، وعلانيته ولم يصر فيه صفة يفتضح بها فى الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الشعراء آية: ٨٩.

ومن أخلاقهم: كثرة اتهامهم لنفوسهم إذا ادعت أنها سلمت من الأمراض الباطنة

إذ لايلزم من الاطلاع على الدسائس الباطنة عدم الوقوع فيها وأكثر من يقع فى مثل ذلك المتمشيخون بأنفسهم ، ومن جلس للوعظ من غير سلوك على يد شيخ صادق، فيظن بنفسه أن مثله لايبتلى بتلك الأمراض ، وإنما يبتلى بها العوام ، وذلك غاية الغرور .

وإن قدر أنه ظهر منهم كبر على أحد من المسلمين لا يرونه كبرا وإنما يقولون : ذلك من عز الدين ، ولو أنهم كانوا صادقين فى أن ذلك من عز الدين لهضموا نفوسهم وتواضعوا كما كان عليه السلف الصالح من الصحابة ، والتابعين .

وقد عوتب الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فتح بيت المقدس ، وعليه مرقعة .

فقال : إنا قوم أعزنا الله تعالى بالإسلام ، فلا نطلب العز فى غيره .

وقد رأيت قوماً يلبسون الثياب الرفيعة الغالية الثمن من حرام وشبهات ، ويزعمون أن لبسها من إعزاز الدين ، وذلك من أكبر الغرور مع اطلاق أحدهم لسانه بالغيبة ، والحسد فى أقرانه ، فأين اعزاز الدين ، وإنما اعزازه بالعمل بأحكام الشريعة ، وآدابها على وجه الإخلاص هذا هو إعزازه .

وكذلك رأيت بعضهم يدعى مقام التواضع ، وأنه من أقل الناس وإذا نبهه شخص على شيء من نقائصه أو رد عليه تقريره فى مسئله يكاد يتميز من الغيظ ، ولو أن مثل ذلك وقع لأحد من أقرانه لربما فرح ، فأين إعزاز الدين إنما ذلك إعزاز للنفس ونصرة لها وإظهار للكبر كما ورد فى الصحيح مرفوعاً «الكبر بطر الحق وغمط الناس» أى رد الحق وعدم قبوله ، واحتقار الناس أى عن أن يكون أحدهم ناصحاً له أوواعظا له – فهذا فى أعلى درجات الكبر ولا يشعر بنفسه .

فلينتبه لمثل ذلك من عمل شيخاً فى هذا الزمان .

وكذلك رأيت بعضهم أحكم العلم والعمل ، ويدرس الناس العلم ، ويعظهم ، ويزعم أن ذلك خالص لوجه الله عز وجل ، ولو أن شخصا ظهر ، وصار يعلم الناس العلم ، ويعظهم ، وانقلب إليه جماعته لتميز من الغيظ .

فليمتحن العبد نفسه فإن تكدر ، فهو مرائى وإن لم يتكدر ، فهو مخلص فليشكر الله تعالى على ذلك .

وبالجملة فمتى رجح فى نفسه محبة أن يكون صلاح الناس على يده دون يد غيره ، فهو لم يشم من الإخلاص رائحة .

وكذلك رأيت بعضهم يشفع عند الحكام والكشاف ومشايخ العرب ، وغيرهم فى المظلومين ، ويزعم أن ذلك خالص لله تعالى ، ولو أنه ظهر شخص يشفع عندهم وقبلوا شفاعاته ، وصاروا يردون شفاعته هو لتكدر .

فليعرض الشيخ ذلك الأمر على نفسه ، فإن رآها فرحت بذلك الشخص الذى قبل الولاة شفاعته أكثر من فرحها بقبول شفاعته هو فهو صادق ، وإلا فهو لم يشم من الإخلاص رائحة ورأيت بعضهم يأخذ من مال الأمير وإذا توقف فى حله يرجع إلى قول ذلك الأمير مثلاً : إن هذا من المصالح ، ومثلك يستحقه لأنك حامل للشريعة ، وقائم بنصرة الدين ولا يخفى أن ذلك كله غرور ، ولو عمل بما علم من الشريعة لتورع عن قبول مثل ذلك .

وقد كان الإمام عبد الله بن المبارك يقول : ما أكل حامل القرآن من مال الولاة ، الذين لايتورعون إلا ناداه القرآن العظيم من جوفه : أضاعك الله تعالى كما ضيعتنى أين مواعظى ، وزواجرى ، وأنت تأكل من مال هؤلاء الولاة انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة تفتيشهم علي عيوبهم الكامنة التي لم تظهر لهم

وعدم قناعتهم بتطهير الجوارح الظاهرة والباطنة من المعاصى الظاهرة والباطنة ، فإن للشيطان ، والنفس فى مثل ذلك خدعاً ، ومكائد تغمض على غالب الناس ، ومثال من يقنع بتطهير جوارحه مما يظهر بها من الصفات يردون مالم يظهر مثل من أراد تنقية زرعه من الحشيش ، فدار عليه وقلع كل حشيش ظهر من الأرض ، ولم يفتش على مالم تخرج رأسه من الأرض بعد فبينما هو مطمئن من ظهوره إذ أخرج رأسه من الأرض وأفسد الزرع .

وكذلك رأيت بعضهم إذا نجاه الله تعالى من الأمراض الظاهرة والباطنة يصير يرى نفسه على غيره وذلك من أعظم الكبر ، فليتنبه الفقير لمثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا وعظوا الخلق أن لايدعوا الناس إلي شيء إلا بعد عملهم به

كما كان عليه الحسن البصرى ومالك بن دينار وغيرهما ، وذلك خوفاً أن يرد المدعون عليهم دعوتهم حين لايرونهم يعملون بها ، وهذا خلاف ما عليه بعض الوعاظ ، فيظن أحدهم بنفسه إذا عرف الصفات المنجية ، ودعى الناس إليها ، فهو ناج بمجرد دعوتها ، والحال أنه هالك شرعاً لمعرفته للصفات المهلكة من غير أن يجتنبها ، وربما قال أحدهم فى نفسه : إن الله تعالى ما أطلعك على صفات المحبين إلا وهو يحبك ، ولا على صفات المخلصين إلا وأنت مخلص ، ولا على عيوب النفس إلا وأنت منزه عنها وكذلك القول فى سائر الصفات .

وربما كان أحد هؤلاء أشد الناس حباً للدنيا والرياسه ، وأقل صبراً على التقشف وأكل الملح والخل وربما كان طعامه كل ليلة اللحم الضانى .

والحلوى مما لايجده غالب أقرانه .

وربما أظهر أحدهم الزهد فى الدنيا لشدة حرصه عليها ، وجعل الزهد فيها حرفة يحترف بها القمح والعسل والأرز ، والثياب من أبناء الدنيا .

وربما حث أحدهم الناس إلى الإخلاص ، وهو غير مخلص .

وربما أظهر أحدهم الدعاء إلى الله تعالى وهو من جملة الفارين عنه .

وربما خوف الناس من الله تعالى ، وهو منه آبق ، وآمن .

وربما أمر الناس بذكر الله تعالى وهو له ناس .

وربما دعاهم إلى القرب من الله تعالى وهو منه متباعد .

وربما ذم لهم الصفات المذمومة ، وهو بها متصف .

وربما حث الناس على الزهد فى الخلق ، وهو أشدهم رغبة فيهم ، ولو امتنع أحد من حضور مجلسه الذى يعظ الخلق فيه واجتمع بواعظ آخر لضاقت عليه الأرض .

وربما قالت له نفسه : إنما ضاقت عليك الأرض محبة فى الله تعالى لاحبا فى الرياسه .

فليمتحن نفسه بما لو أقبلوا على واعظ آخر وانتفعوا على يديه فإن فرح بذلك وانشرح فهو صادق فى محبة الخير للمسلمين ، وإن انقبض خاطره ، فهو محب للرياسة بوعظه خارج عن طريق أهل الله عز وجل .

وقد رأيت بعض المترددين إلى بعض الوعاظ ترك ذلك الواعظ ،وصار يتردد إلى واعظ آخر ، فصار كلما رآه يعرض عنه ، فقلت لذلك الواعظ : لاينبغى لك الإعراض عنه إلا إذا ترك طريق الشريعة جملة ولم يجتمع بمن يرشده أما من اجتمع بمن يرشده فلا ينبغ لك هجره فلم يدر جواباً فقلت له : فاستغفر الله تعالى يا أخى من وعظك للناس من حيث نيتك الخبيثة ، فاشتد غضبه على ، فمثل هذا بعيد عن طريق الرشاد والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا وعظوا الناس أن لا يخرجوا عن الأمور التى كلف الله تعالى بها عباده

بذكر المقامات ، والشطح ، والسجع ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع ، والعدل طلباً للاغراب .

بل ، ويكون عمدة مجلس وعظهم فى تطميع الناس فى رحمه الله تعالى ، وتخويفهم من عذابه .

فليحذر الواعظ الذى يتشبه بهم فيتحدث بشعار الوصال والفراق والهجر وغير ذلك ممايعدوا الناس القوية إلى التعشق بمالا يحل من النساء ، والمردان .

وربما صعق فى مجلسه صاعق ، فيظن من لافراسة له أن تلك الصعقة ربانية ، والحال أنها شيطانية ، فيصير الناس يقولون : كان مجلس الواعظ اليوم عظيماً صعق فيه جماعات ، والحال أنه كان مجلس سوء لما وقع فيه من جر الخلق فيه إلى الأغراض الفاسدة ، وتضليلهم عن سواء السبيل ، والله يهدى من يشاء إلي صراط مستقيم والحمد لله ب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : الإقبال علي الله تعالي في صلاتهم

وعدم الوسوسة فى المبالغة فى الطهارة ، ومخارج الحروف والنيه ، والتكبير وذلك لكثرة رياضة نفوسهم قبل ذلك ، وغلبة الحضور عليهم بخلاف من لم يرض نفسه ، فإن هذا ربما توسوس ، حتى فاتته الصلاة فى أول الوقت أو فاتته ركعة مع الإمام أو الصلاة كلها .

وربما توسوس فى التكبير ، حتى أخرجه عن حقيقته وربما توسوس فى مخارج الحروف ، حتى فرغ من القراءة ، وهو غافل عن معانيها ، وغاب عن هؤلاء أن الله تعالى لم يكلف العباد فى تلاوتهم القرآن إلا بما جرت به العادة العرفية فى الكلام .

وكان الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول : مثال من اشتغل بمخارج الحروف والفرق بين الظاء والضاد ونحو ذلك مثال من حمل رسالة إلى مجلس السلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ، ويتأنق فى مخارج الحروف ، ويكررها ، ويعيدها المرة بعد الأخرى بالتمطيط ، والفصاحة الزائدة ، فمثل هذا ربما أقيمت عليه السياسة ، ورد إلى دار المجانين ، لغفلته عن مقصود الرسالة ، وعدم مراعاته حرمة المجلس انتهى.

فالحذر الحذر يا أخى من ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : مطالبة نفوسهم بإلقاء الذهن إلي فهم معاني القرآن الكريم ومواعظه وزواجره إذا تلوه

ولايقنعوا بمجرد تلاوته وهذ رمته ، حتى إن بعضهم يقرأ كل يوم ختمه ، ويظن أنه صار بذلك من المقربين مع أنه يحب الدنيا ، وينازع عليها ، ويتمنى أن يكون فى يده جميع ما فى أيدى الناس ، وربما صارت ألسنة هؤلاء تجرى بألفاظ القرآن العزيز ، وقلوبهم تتردد فى أوديه الآمال والتفكر فى أمور الدنيا لايتعظون بمواعظه ، ولاينزجرون بزواجره ، ولا يقفون عند حدوده ، ولايعتبرون بمواضع الاعتبارات منه.

ولاشك أن من ترك أوامر الله تعالى ، ووقع فى مناهيه يستحق العقوبة ولو قرأ القرآن كل يوم ألف مرة .

وربما يكون الحامل لبعضهم على حب تلاوة القرآن حسن صوته عنده أو عند الناس فهو يقرأ أو يتلذذ بذلك ليلاً ونهاراً ، ويظن أن تلك اللذة إنما هى بمناجاة الله عز وجل ، وتلاوة كلامه من حيث هو كلامه تعالى ، والحال بخلاف ذلك ، إذ لو نظرت إلى لذة كلام الله تعالى ، لغاب عن حسن صوته ، ونغمته ، ولم يعلق خاطره بسواه لأن لذة كلام الله تعالى إنما تكون من حيث المعني .

وقد ذكرنا فى كتاب تلبية المغترين أن السلف الصالح كانوا يبكون كلما قرأوا القرآن الكريم، ويقولون نقرأ شيئاً ولا نعمل به والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم الاعتماد علي شيء من أعمالهم الشاقة كالصوم والحج الكثير

هذا إذا سلمت الأعمال من الآفات فكيف إذا اختفت بالآفات ، كالذى يقوم الدهر أو الأيام الشريفة ، ولا يحفظ لسانه عن الغيبة ، ولا بطنه عن الحرام ولا جوارحه عن المخالفات ، ولا خواطره عن الريا .

وكالذى يحج مع عدم رد المظالم إلى أهلها قبل الحج ، ويخرج بمراده الذى عمله من حرام أوشبهات .

وربما أخذ مال الولاة ينفقه على المحتاجين فى الطريق ، فأنفقه كله على نفسه وخزن ماله الذى هو أحل من ذلك .

وربما أخذ المال الحرام من الولاة ، وأنفقه وأوهم الناس أن ذلك من ماله رياء أو سمعه .

وهذه كلها ظلمات بعضها فوق بعض لأنه عصى بأخذه الحرام أولاً ، وبإنفاقه ثانياً، وبريائه بذلك ثالثاً ، ثم دخل إلى مكة بقلب ملوث بالرزائل ، وخبث الصفات ظاناً أنه على قدم عظيم ، وأن أحداً لم يؤد المناسك مثله ، وذلك غاية الغرور ، وربما رجع إلى بلاده ممقوتا من بعض الأولياء برؤيته نفسه على الناس فى حضرة الله تعالى الخاصة ، كما وقع لإبليس والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: إذا جاوروا بمكة أو المدينة أن يراعوا حقوق الله تعالى وحقوق نبيه ﷺ

وإن علموا من نفوسهم عدم حفظ الحقوق رجعوا إلى أوطانهم من غير مجاورة إذ المجاورة مأخوذه من مجاورة الإنسان لجاره ، ومن أقام بمكة فهو جار الله تعالى ، ومن أقام بالمدينة فهو جار سيدنا رسول الله ﷺ وإن لزم من مجاورة رسول الله ﷺ مجاورة الله تعالى ، وعكسه .

وقد أمر الله تعالى باعطاء الجار حقه فى عدة آيات ، وأخبار[1] .

(١) يقول الله تعالى: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وبالوالدين إحساناً، وبذى القربى واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى والجار الجنب، والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً» إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا فى الآية أن نحسن إلى الجار ذى القربى والجار الجنب، وقرن الأمر بالإحسان إليها إلى الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الجار ذا القربى هو الذى بينك وبينه قرابة، والجار الجنب الذى ليس بينك وبينه قرابة.

وكما أمر الله سبحانه برعاية الجار والإحسان إليه، فقد حث رسول الله ﷺ على العناية بالجار وأمر برعايته.

لقد أعلن رسول الله ﷺ إلى المسلمين عامة أن جبريل عليه السلام مازال يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيورثه.

ويروى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت.

أما من سولت له نفسه إيذاء جاره بأى وجه من وجوه الإيذاء فإن رسول الله ﷺ ينذره هذا الإنذار الخطير الذى يجب أن يتدبره كل مسلم.

عن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه الإمام البخارى والإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يارسول الله؟

قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه.

وفى رواية أخرى: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه.

والبوائق هى الشرور والإيذاء.

على أن الإحسان إلى الجار بمختلف صورالإحسان إنما هو وسيلة إلى الهدوء والطمائنينة والأمن وإلى التعاون المتبادل، إنه وسيلة إلى سرعة الإغاثة فى الشدة، وإلى النجدة فى المحن، وإلى الألفة والمودة حينما تسير الحياة سيراً لا شدائد فيه ومن أجل ذلك وغيره كانت حكمة الله سبحانه فى الأمر برعاية الجار والإحسان إليه وفى أمر رسول الله ﷺ، بالعناية بالجار وعدم إيذائه.

وبعد: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه يروى عن رسول الله، ﷺ، فيما ذكره البزار قال رسول الله ﷺ:

«الجيران ثلاثة: جار له حق واحد. وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاث حقوق، وهو أفضل الجيران حقاً.

فأما الجار الذى له حق واحد ، فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذى له ثلاثة حقوق، فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم.

ولاشك أن الله تعالى أو رسوله ﷺ أعظم جار فحقه أعظم الحقوق ، وقد تقدم أن من حقوق الله تعالى فى مكة أن لايخطر لمن جاور بها معصية ، ولاسب على طعام ، ولاثياب ، ولا مال زائد عن ضرورته فى ذلك اليوم إلا إذا لم يكن بمكة أحد محتاج لذلك ، وكذلك لا يشتاق إلى وطنه مدة إقامته إذا المشتاق إلى وطنه يصير قلبه فيه ، وجسده بمكة ، فكأنه لم يجاور ، ومن هنا كره الأكابر من الصحابة والتابعين الإقامة بمكة لعظم حقوقها ، حتى كان الشعبى يقول : كان الإمام عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه يقول : يكثر الحجاج فى آخر الزمان بلا سبب يهون على أحدهم السفر ، ويبسط له فى الرزق ، فيرجع محروماً مسلوباً لاتخاذه الحج للتنزه فى الجبال والرمال مع أن جاره الذى إلى جنبه محتاج ، فلا يتفقده ، ولا يواسيه لاسفراً ولا حضرا انتهى.

قال الشعبى ولاشك أن الإحسان إلى الجار أفضل من صرف المال فى التنزهات ، فإن من علامة الرياء تقدم المفضول على الأفضل .

وكان الشعبى يقول أيضاً : لأن أجلس حمام أحب إلى من اقامتى بمكة[١] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل ذلك راجع إلى قول الله تعالى:
«إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم»
والإلحاد فى اللغة هو العدول عن القصد والمراد بهذا الإلحاد هو الظلم على أى وجه كان سواء كان شركا أو قتلا أو إستحلال محظورات الإحرام أو استحلال الحرام تعمداً أو غير ذلك من إحتكار الطعام إلخ.
من أنواع الظلم.
ويقول الإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى: فإن قيل: هل يؤاخذ الإنسان إن أراد الظلم بمكة ولم يفعله؟
فالجواب من وجهين:
أحدهما: أنه إذا هم بذلك فى الحرم خاصة عوقب وهذا مذهب ابن مسعود فإنه قال: لو أن رجلا هم بخطيئة، لم تكتب عليه مالم يعملها ولو أن رجلاً هم بقتل مؤمن عند البيت، وهو بـ«عدن أبين» أذاقه الله فى الدنيا من عذاب أليم.
وقال الضحاك: إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو بأرض أخرى، فتكتب عليه ولم يعملها.
وقال مجاهد: تضاعف السيئات بمكة، كما تضاعف الحسنات، وسئل الإمام أحمد: هل تكتب السيئة أكثر من واحدة؟ فقال: لا، إلا بمكة لعظيم البلد. وأحمد على هذا يرى فضيلة المجاورة بها، وقد جاور جابر بن عبد الله، وكان ابن عمر يقيم بها.
والثانى: أن معنى: «ومن يرد»: من يعمل.
قال أبو سليمان الدمشقى: هذا قول سائر من حفظنا عنه.

ومن أخلاقهم : عدم الاحتفال ببناء المساجد إلا إن وسع الله تعالى عليهم من الكسب الحلال

وأما بناؤها من أموال الولاة ، وأعوانهم فهو عندهم فى غاية القبح ، وهذا الأمر قل من يتفطن له من الفقراء ، فيعمر أحدهم المساجد من الأموال التى يغلب فيها الحرام ، والشبهة ، ويفرحون بإضافة ذلك المسجد إليهم ، وقول الناس إن سيدى الشيخ عمر عدة جوامع مع أنه ليس له مال ولا كسب ، وأنه ينفق من الغيب .

ولما عمر سيدى أحمد الزاهد جامعه بخط المقسيم بمصر لم يدع أحداً من الولاة يساعده فيه بحجر واحد ، وكذلك سيدى محمد الغمرى .

فمن وصل إلى مقام هذين الشيخين ، فليعمر له زاوية فيبعد بيت الله تعالى عن الحرام والشبهات .

والمساجد كثيرة ، وغالبها الآن مهجور وقد قال الإمام الغزالى : من علامة الرياء فى بناء المساجد أن يكون فى بلد البانى لها فقراء ومساكين وأيتام محتاجون فلا يهون عليه الانفاق عليهم ، ويسهل عليه صرف ذلك فى الماء والطين .

ولاشك أن صرف ذلك إلى من ذكر أفضل ، ولو أنه طلب الأجر والثواب فما جعله ينفق المال على ذلك المسجد إلا محبته لثناء الناس عليه ، وذلك لا أجر فيه بل فيه الوزر لاسيما إن زخرف المسجد ، وزوقه بالرخام الملون ، فإنه يشغل قلوب المصلين عن الخشوع فى صلاتهم الذى هو المقصود الأعظم من الصلاة ، ويكتب ذلك فى صحائف البانى .

وقد قال الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه : لما أراد النبى ﷺ أن يبنى المسجد بالمدينة أتاه جبريل عليه السلام وقال : ابنه سبعة أزرع طولا فى السماء ولا تزخرفه ، ولاتنقشه انتهى قال : وغرور هذا البانى للمسجد من حيث أنه رأى المنكر معروفاً والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : النصح لإخوانهم من الأغنياء

فلا يقنعون منهم بحضور مجالس ذكرهم ، ووعظهم من غير صدقه على الفقراء وعدم إقراء الضيوف ، ومساعدة أرباب الديون ، وكسوة الأرامل ، والأيتام ، والعميان ، فإن المطلوب الأعظم من صاحب المال إنفاقه على نفسه ، وغيره من المحتاجين .

وربما كان ذلك الشيخ يقبل زكواتهم لنفسه ، فيستحى أن يأمرهم بإخراج زكاتهم كاملة ، ويقنع منهم بما يعطونه له ولا عليه بعد ذلك من الفقراء .

وكثيراً ما يمسك الغنى المال بخلا ، وحرصاً وشحاً ويشتغل بالعبادات البدنية التى لايحتاج فيها نفقه مال ، كصيام النهار ، وقيام الليل ، وختم القرآن ، ويظن أنه صار من عباد الله الصالحين مع أن البخل المهلك قد استولى على قلبه ، وهو مناف للصلاح.

وفى الحديث « ما جبل ولى لله تعالى إلا على السخاء وحسن الخلق» انتهى .

فعلم أنه لا يبرأ من ذلك إلا بإخراجه المال فى مرضاة الله تعالى ، وأما العبادات من صوم وصلاة فإنه لا يشفيه من هذه العلة .

وقد قيل لبشر الحافى رحمه الله : أن فلاناً الغنى كثير الصوم والصلاة فقال : هذا مسكين ترك الأمر الأهم ، وفعل غير المهم ولو أنه أطعم أحداً من الفقراء لقمة أو تصدق بدرهم لكان أفضل له من ذلك الصوم لأنه غايته تعذيب نفسه بالجوع اختياراً ، وذلك غير مطلوب .

قال : وإنما سامح العلماء فى تعذيب النفس بالجوع فى الصوم المشروع فقط بخلاف مازاد على المشروع والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم القناعة بمجلس الذكر صباحاً ومساء مع الغفلة عن الله تعالي فيما بينهما كما يقع فيه بعض المغرورين

ويحتج بحديث : « إذا ذكر العبد ربه أول النهار ساعة وآخر النهار ساعة غفر الله له ما بينهما» إذ المغفرة لا ترقى فيها ، ونهايتها أن تلحق المذنب بمن لم يذنب ذلك الذنب لا أن تلحقه بمن فعل الطاعات فافهم .

ومراد القوم فى هذه الدار دوام الترقى مع الأنفاس فى المقامات ، ومع ذلك ، فلا يرون أنهم قاموا بواجب حق الله تعالى ، كما هو معروف عند أهل الطريق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم الإغترار بمراسم الصالحين الظاهرة والوقوف معها

كلبس الصوف ، وإرخاء العذبة ، وحف الشوارب ، والتكلم على الخواطر من غير معرفة المجال التى تنبعث الخواطر منها من حضرات الأسماء الالهية بل بعضهم يتكلم على الخواطر مع جهله بالشريعة ، وهذا كله غرور .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه المسمى (بالكشف والتبيين عن غرور الخلق أجمعين إلا الأنبياء ، وكمل الصالحين) .

إعلم يا أخى أن المغترين من المتصوفة على فرق كثيرة لا تنضبط ولكن نذكر لك طرفاً صالحاً منها ونبدأ بمتصوفة زماننا ، فنقول ، وبالله التوفيق : قد اغتر متصوفة زماننا إلا من حفظه الله تعالى بالزى ، والمنطق والهيئة ، فساعدوا الصادقين من الصوفية فى هيئتهم وزيهم وألفاظهم ، وآدابهم ، ومراسمهم ، واصطلاحهم ، وأحوالهم الظاهرة فى السماع ، والرقص والطهارة ، والصلاة ، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخال فى الجيب كالمتفكر فى أمر ، وتنفس الصعداء وخفض الصوت فى الحديث ، وغير ذلك وظنوا أن ذلك ينجيهم ويكفيهم وغاب عنهم أن ذلك لا يكفيهم

إلا مع شدة المجاهدة للنفس ، والصبر على رياضتها ، ودوام ربط القلب مع الله تعالى فى عموم الحالات ، وطهارة الظاهر والباطن من سائر الخبايث ، والزلات ، وغير ذلك من منازل التصوف .

قال وقد رأيت من تحقق بمراسمهم الظاهرة ، وهو متكالب على الحرام ، والشبهات، وأموال الولاة ، وأعوانهم ، ويشاحح على الحديد ، والرغيف فى وظيفه ، ويحسد أقرانه على النقير والقطمير ، ويمزق عرض كل من خالفه فى شىء من أغراضه الفاسدة ، فقلت له : هذه الأمور تخالف ما تظاهرت به من مراسم الصالحين، فلم يلتفت لقولى ، فمثل هذا هالك من حيث يظن النجاة .

قال : ورأيت فرقة أخرى زادت على هؤلاء فى الغرور لما صعب عليها الاقتداء بالصادقين فى بذاذة الثياب ، والرضا بالدون فى الملبس والمطعم والمنكح والمركب والمسكن ، فأخذت تلبس المرقعات النفيسه ، والجبب الرفيعة ، والسجادات المصبوغة ، وقيمتها أغلى من قيمة الخز والإبريسم ، فإن جالسوا الأغنياء نظروا إلى قيمتها ، وإن جالسوا الفقراء نظروا إلى لونها ، وقالوا : هى جبه صوف ، وذلك ، حتى لا يعترض عليهم الفقراء ، ولا تزدريهم أعين الأمراء ، فلبسوا على الفريقين الفقراء بظنهم أنهم منهم ، والأمراء ، حتى مالوا إليهم ، وأخذوا أموالهم ، وربما كانوا مع ذلك مرتكبين جملة من المعاصى الظاهرة ، والباطنة مما لو اطلع الناس عليه لم يجالسوهم ، ولم يعتقدوهم .

قال : ولاشك أن ضرر مثل هؤلاءعلى المسلمين أشد من ضرر اللصوص ، لأن هؤلاء يسرقون القلوب بالزى ، وإظهار الصلاح ، فيقتدى الناس بهم فى الأفعال الناقصة فيكونون سبباً لهلاك الناس ، وإن اطلع على فضايحهم أحد قالوا نحن من الملامتية الذين يظهرون القبيح ويخفون المليح ، أولنا حال مع الله تعالى خلاف ما يظهر لكم منا ، وقد كذبوا والله فإن الملامتية هم أكابر الأولياء والأكابر محفوظون من كل فعل يسيء إليهم أما هؤلاء فإنه يظن من اطلع على فضائحهم الباطنة أن السلف الصالح كانوا كلهم كذلك فيسيء ظنه بالصوفية على الإطلاق .

قال : ورأيت طائفة أخري من هؤلاء المغترين ادعت علم المكاشفة ، ومشاهدة الحق تعالى ، ومجاوزة المقامات ، والأحوال ، والملازمة فى عين الشهود ، والوصول ، والقرب ، وهم كاذبون فى دعوى ذلك ، وليس معهم منه إلا الإسم ، فلفقوا من ألفاظ القوم كلمات شطح تتبوا عنها الأسماع ، وظنوا أنها من علوم الأولياء أصحاب الأسرار والمعارف ، وربما ظن بعض الجاهلين صدقهم فى ذلك .

قال : وعلامتهم أنهم ينظرون إلى أئمة الشريعة بعين الازدراء مع أن أحدهم لا يصلح أن يكون خادم حمار ، وربما كان ذلك الشخص الذى ازدراه معدوداً من أكابر العلماء .

قال : ومن علامة خروج هؤلاء عن الشريعة أن أكثر أتباعهم الفلاحون والحياكون دون أحد من طلبة العلم ، وكثيراً ما يقول العوام : إن هذا يتكلم بالعلم اللدنى ، والحال أنه من وسوسة إبليس له فى قلبه ، لأنه باض فيه وفرخ .

قال : ورأيت فرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء فى الغرور ، فاستحيت من الخلق ، ولم تستح من الله تعالى ، فتراها تعمل أعمالاً بينها وبين الله تعالى ولا تستحى منه ، وتستحى أن تفعلها بحضرة الخلق مع أن أحدهم يدعى محبة الله تعالى ، ولو أنه كان صادقاً فى محبته لم يتعد حدوده ولو أنه كان عارفاً به لفر مما يسخطه .

قال : ورأيت فرقة يقعون فى المحرمات بالإجماع فيما بينهم ، وبين الله تعالى ، ويتورعون عن فعل المكروه ، إذا رآهم الناس ، والحال فى ذلك ، ثم قال : وبالجملة فما ثم مقام من المقامات المنجية إلا ، ويمكن أن يدخله الغرور .

قال : ورأيت فرقة أخرى تميل إلى القناعة ، والتوكل من غير سلوك طريق الشريعة، فتراها تدخل البرارى بلا زاد بقصد تصحيح توكلها على الله تعالى ، وما علمت أن مثل ذلك بدعه لم تنقل عن أحد من السلف ، وقد كانوا أعرف بالتوكل منها، ومع ذلك فما فهموا من التوكل أنه المخاطرة بالروح ، ولا السفر بلا زاد ، لأن ذلك لم

يرد به شرع ، وإنما ورد الشرع بضده قال تعالى : « ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة[١]» وقال : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى[٢]» أى خذوا معكم الزاد واتقوا أن يكون من حرام كأن السبب فى ترك هؤلاء الزاد اعتمادهم على سؤال الناس نظراً لاعتقادهم فيهم التجرد عن الدنيا ، فهو يعلم أنهم لا يتركونه من غير افتقاد .

واتباع الشرع هو الدين ، وترك الاتباع خروج من الدين لمن تأمل .

قال : ورأيت طائفة أخرى ضيقت على نفسها فى القوت ، حتى اقتصرت منه على الحلال عندها ولكنها مع ذلك تهمل تفقد القلب ، والجوارح فى غير هذه الخصلة ، ومن تعمق فى بعض المأمورات ، وترك التعمق فى بعضها تساهلاً ، فهو مغرور .

قال : ورأيت فرقة أخرى ادعت السخاء وحسن الخلق ، وخدمة الفقراء ، والعميان والضيوف الواردين ، فجمعوا لهم جماعة فى زاويتهم ، وصاروا يتكلفون لهم الطبخ ، والعجين ، والكسوة ولعلهم إنما فعلوا ذلك شبكة لجمع حطام الدنيا من التجار ، والولاة تكثراً ، وتبسطاً ، فترى أحدهم يبالغ فى خدمة الفقراء ، ومهما حصل من الأغنياء ، والولاة يفرقه على الفقراء ، ولا يلحس منه لحسة ، ثم بعد ذلك يرفع القواعد ، ويصير يختص بما نصبه ، وأخذه على اسم الفقراء ، حين شاع اسمه بالإيثار ، والسخاء وربما أنه لو جاءه شىء ستراً لم يعط الفقراء منه شيئاً ، فمثل هذا شيطان فى صورة إنسان .

قال : ورأيت طائفة أخرى أشغلت نفسها بالرياضة ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفوس من العيوب ، وتعمقوا فى البحث عن العيوب ، واستنباط الدقيق من دسائسها الكامنة فيها ، وقطعوا عمرهم كله فى ذلك ، فمثل هؤلاء اشتغلوا بأنفسهم عن ربهم ، ولو أنهم أنصفوا لا تخذوا لهم شيخاً ، فأغناهم عن مثل ذلك ، فأشغلهم بالله عز وجل .

---

(١) وتمام الآية: «وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» سورة البقرة آية: ١٩٥.

(٢) سورة البقرة آية: ١٩٧.

وتمام الآية: «الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب».

قال : ورأيت طائفة أخرى اشتغلت بمطالعة كتب الرقايق ، ولفقوا لهم منها بعض كلمات ، وصاروا يذكرونها للناس ، ويهزون رؤوسهم كالمتعجبين منها ، وصار معهم من كل مقام من مقامات الطريق بعض كلمات ، حتى ربما ظن بعض السامعين بهم أنهم سلكوا الطريق ، والحال أنهم لم يشموا منها رائحة ، وبعضهم أفنى عمره فى سماع حكايات القوم ، وكتابتها ولم يتخلق بشىء مما قالوه فيها ، وهم يظنون بأنفسهم أنهم صاروا من الصوفية ، ومثالهم مثال من سافر إلى ملك ليجتمع به ، ويصير من جلسائه، فلما وصل إلى باب الميدان رأى روضة ذات أزهار ، فوقف يتعجب منها ، ومن روائحها حتى جاءه الموت ، ولم يجتمع بالملك .

وقال : ورأيت طائفة وقفت فى مبادئ الطريق حين تجلى نور طريق الحق ، فظنوا أنهم وصلوا إلى مقامات العارفين التى ينتهون إليها فى سلوكهم ، والحال أن بينهم وبين حضرة الحق تعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا وظن أنه ليس بعده حجاب ، ولعل ذلك النور الذى تجلى لهم إنما هو نور من أنوار القلب ، فإنه إذا ظهر أدركوا فيه الوجود كله على ما هو عليه، فظنوا أن ذلك إشراق نور الله تعالى عليهم وربما دهش أحدهم من حال ذلك النور ، وسمع النداء منه أنا الحق لا إله إلا أنا ، والحال أنه شيطان تجلى ، فى قلبه حين رأى الوجود كله مرتسماً فى قلبه ، ومن جملة الوجود إبليس ، فإن لم يتدارك الحق تعالى هذا الشخص ، وإلا هلك فى دينه ، وبهذه العين كان نظر النصارى إلى المسيح عليه الصلاة والسلام فإنهم لما رأوا إشراق نورالله تعالى عليه أكثر من غيره ظنوا أنه هو الله تعالى فعبدوه ، فهم كمن رأى كوكباً فى مرآه أو فى ماء فظن أن الكوكب فى المرآة ، أو الماء ، فصار يمد يديه إليه ، ليأخذه ، فهكذا غرور من دخل الطريق بلا شيخ ، فإنه يضل ، ويضل غيره[1] انتهى كلام الغزالى رحمه الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل قراءة: متأنية لكتب الإمام أبى حامد الغزالى كالمنقذ من الضلال وغيره توضح لنا صفات هذه الفئات الضالة وتبين لنا فساد منهجهم وكيفية هدايتهم.

وقد قال أبو نصر السراج الطوسى فى كتابه اللمع: باب فى ذكر: من غلط من المترسمين بالتصوف ومن أين يقع الغلط وكيف وجوه ذلك:

قال الشيخ رحمه الله: سمعت أحمد بن على الكرخى يقول: سمعت أبا على الروذبارى رحمه الله يقول: قد بلغنا فى هذا الأمر إلى مكان مثل حد السيف، فإن قلنا: كذا ففى النار وإن قلنا: كذا ففى النار.

=

ومن أخلاقهم : عدم التقيد على أحد من مشايخ العرب أو الأمراء إذا صحبهم بأن لا يصحب غيرهم

لأن التقييد إنما يكون للمريد الصادق الذى يطلب طريق القوم ، وأما هؤلاء الأمراء ومشايخ العرب ، فإنما هم معتقدون من خارج الطريق .

وما رأيت قط أميراً ولا شيخ عرب ، صار شيخاً يسلك الناس فى الطريق ، كمشايخ القوم أبداً مادام كل منهما باق على وصفه .

وإنما يصح منهم طلب الطريق لو خرجوا عن مناصبهم ، وأرضوا خصومهم كما هو مقرر فى رسائل القوم .

وقد حدث فى زماننا هذا جماعة تمشيخوا من غير إذن من أحد ، وصاروا يصطادون كل من حوله بر وإحسان من الكشاف ، ومشايخ العرب ، وغيرهم ، ويرسلون نقباءهم لاستجلابهم إليهم ، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك بقصد ائتلافهم عليهم ، ليشفعوا فى المظلومين عندهم ، لا بقصد علة أخرى ، ولو أنهم صحبوا غيرهم من أقرانهم لتميزوا من الغيظ .

= يعني: إن غلطنا فيما نحن فيه بدقيقة فنصير من أهل النار، لأن الغلط فى كل شئ أهون من الغلط فى التصوف وفى علمه، لأنها مقامات، وأحوال، وإرادات ومراتب، وإشارات، فمن تخطى فى ذلك إلى ماليس له فقد اجترأ على الله فيكون الله خصمه، فإن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه بما شاء كيف شاء.

وكل من ترسم برسوم هذه العصابة أو أشار إلى نفسه بان له قدماً فى هذا القصة، أو توهم أنه متمسك ببعض آداب هذه الطائفة، ولم يحكم أساسه على ثلاثة أشياء فهو مخدوع ولو مشى فى الهواء ونطق بالحكمة، أو وقع له قبول عند الخاصة أو العامة.

وهذه الثلاثة أشياء:

أولها: إجتناب جميع المحارم: كبيرها وصغيرها.

والثانى: أداء جميع الفرائض: عسيرها ويسيرها.

والثالث: ترك الدنيا على [أهل] الدنيا: قليلها وكثيرها إلى مالابد من للمؤمن منها.

وهو ماروى عن النبى ﷺ، أنه قال: أربعة فى الدنيا، وليست هى من الدنيا: كسرة تسد بها جوعتك، وثوب توارى عورتك، وبيت تسكن فيها، وزوجة صالحة تسكن إليها.

فاما سوى ذلك: من الجمع والمنع والإمساك، وحب التكاثر، والمباهاة، فجميع ذلك: حجاب قاطع يقطع العبد عن الله عز وجل.

فكل من ادعى حالا من أحوال أهل الخصوص، أو توهم أنه سلك منزلا من منازل أهل الصفوة، ولم يبين أساسه على هذه الثلاثة فإنه إلى الغلط أقرب منه إلى الإصابه فى جميع ما يشير إليه أو يدعيه أو يترسم برسمه، والعالم مقر والجاهل مدع.

=

فليمتحن من عمل شيخاً فى النصف الثانى من القرن العاشر نفسه إذا استجلب صحبة أمير ، فربما يكون ذلك لغير الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إجلال أشياحهم في غيبتهم وعدم الوقوع في شيء يكدر قلوب أشياخهم عليهم عادة

فإنهم بذلك يدوم عليهم الترقى على يدهم ، ومن غير قلب شيخه ، فقد قطع حبله منه ، وقد ورد مرفوعا « رضى الله تعالى فى رضى الوالد وسخط الله تعالى فى سخط الوالد ، ولاشك أن أبا التربية يلحق بأب الولادة فى ذلك .

وأجمع القوم على وجوب التأدب مع الوسائل .

وقالوا : من لم يتأدب مع الوسائل لا يصح له الدخول إلى المقاصد ، فإن الوسائل كالطهارة للصلاة .

وقالوا : من تهاون بغضب شيخ عليه مقته الله عز وجل وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم تكدرهم من مريدهم إذا زار شيخاً آخر

لا إذا علموا من طريق كشفهم أنه ليس لذلك المريد نصيب عندهم ، فهم يظهرون لهم التكدر فيحصل لهم وله الخير .

فمن منع مريده من زيارة غيره من غير كشف ، فهو غارق فى حظ نفسه ، وعلى ذلك يحمل أحوال الأشياخ من السلف الصالح ، ولا يجوز حملهم على أنهم إنما منعوا مريدهم رغبة فى الرياسة كما بسطنا الكلام عليه فى كتاب العهود وغيره والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : انشراح صدرهم لكل شيخ عقد له مجلس ذكر تجاه مجلسهم الذي عملوه في الجامع مثلاً

وذلك لعدم محبتهم فى الرياسة ، وكيف يليق بمن يدعى محبة الله تعالى أن يتكدر ممن يذكره تعالى .

وقد وقع لبعض الصادقين أنه كان يذكر الله تعالى فى جامع ، فجاء شخص بجماعته ، وجلس تجاهه يذكر الله تعالى فقام بجماعته ، وجلس فى حلقة الشيخ الجديد، وقبل رجله ، وأمر جماعته بذلك ، وهذا خلق غريب لا يوجد إلا فى أفراد من الفقراء بل ربما غضبوا من ذلك الشيخ الطارىء ، وربما ترافعا للحكام كما وقع لبعض المتمشيخين ممن يذكر الله تعالى فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم التميز في الجلسة بفرش سجادة تحتهم إلا لضرورة شرعية

ثم إن جلسوا بالشرط المذكور أعلموا أصحابهم بذلك خوفاً أن يقعوا فى عرضهم ، ولو فى نفوسهم إذ من شأن البشر كراهة شفوف نفس غيره عليه إلا من حفظه الله تعالى .

وكذلك من العذر تمييزهم فى الجلسة ليعرفهم الغريب فيسألهم عن أمور دينه إقتداءاً بسيدنا رسول الله ﷺ ، ولا يحتاج أن يقول الشيخ .

وتقدم أول هذه الأخلاق أن الأعراب كانوا يأتون النبى ﷺ ، ليتعلموا منه أمور دينهم فلا يعرفونه ، حتى يسألوا عنه ، فتكلم الصحابة فى أن يجعلوا له ﷺ مكاناً مخصوصاً يميزه عن أصحابه ، فعملوا له دكاناً من طين ، وفرشوا له فيه حصيراً من خوص ، فصار يجلس عليها ، فللفقراء الأسوة فى ذلك ، برسول الله ﷺ والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتم لأكل طعام مريديهم قبل أن يتمكن أحدهم من محبتهم ويري أن جميع ما هو فيه من فضل أستاذه

وذلك أن الأكل من طعام المريد المذكور ، وقبول الإحسان منه يورثه إذلالا على الشيخ ، فيقل نفعه على يديه ، وهذا خلق غريب فى هذا الزمان ، فلا يكاد أحد يفتش على مثل ذلك .

وكان سيدى محمد الشناوى يقول : مال المريد حرام على الأشياخ قلت : وهو محمول على التفصيل الذى ذكرناه وعليه يحمل حال من امتنع من السلف من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : فرحهم بتحويل من صحبهم من الولاه إلى غيرهم من الأقران وإن رأوهم قليلون الاعتقاد ، فيمن انتقلوا إليه حسنوا اعتقاده فيه حسب الاستطاعة ، وهذا خلق غريب لا يصح وقوعه إلا ممن فطم عن الدنيا ، وشهواتها ، وزهد فى حلالها فضلاً عن شهواتها ، وقد تخلقنا بذلك والحمد لله ، ولم أجد له ذائقاً من الأقران إلا قليلاً بل بعضهم يفسد ذلك الأمير على ذلك الفقير ، ويقع فى عرضه ، حتى يتركه ، ويصحبه هو ، وذلك خروج عن أداب أهل الطريق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : رجوعهم باللوم علي أنفسهم إذا حالف أحد أغراضهم من زوجة أو خادم أو ولد أو صاحب

ويقولون فى أنفسهم : لو استقمنا مع الله تعالى لاستقام الناس معنا ، ولو أطعنا الله تعالى فى امتثال أمره لأطاعنا الناس ، وإن لم يكن ذلك قاعدة كليه .

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول :

إنى لأعصى الله تعالى فأعرف أثر ذلك فى خلق حمارى ، وخادمى ، وزوجتى ، فيشمص الحمار ، ويخالف الخادم ، وتنشز الزوجة ، فإذا رجعت إلى نفسى ، وشرعت

فى تقويم عوجها رجع الحمار عن شموصه والخادم عن مخالفته ، والزوجة عن نشوزها انتهى .

وقد تقع مثل هذه الأمور للمستقيم من الأولياء ، ليقتدى الناس به فى الصبر لا لإعوجاج يكون هناك ، أو يبتلى بها ليعرف صبره أقوى هو أم ضعيف حين ادعى أنه من الصابرين والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : صبرهم على تحمل الأذى لهم من الناس وعدم صبرهم على من أذى أحداً من أصحابهم

لأن غالب أصحابهم إنما يصحبهم ليحموه من الأذى اللهم إلا أن يكون أصحابهم فى مقام الرياضة لنفوسهم ، فهناك يأمرونهم بالصبر كما يأمرون نفوسهم .

وكثيراً ما يأخذ الله تعالى لأصحابهم ثأرهم ممن أذاهم من غير سؤال من الشيخ انتصاراً من الحق تعالى له ، وذلك إما بعزله من وظيفته التى بها معاشه عادة ، أو مرض شديد ، أو بمصادرة من الحكام ، ونحو ذلك .

فالعاقل من لم يؤذى للفقراء صاحباً ، وقد سمعت سيدى محمد السروى يقول :

الفقير إذا غلب عليه الحال كان كالسبع الضارى الذى تغلب من صاحبه فربما كسر صاحبه وولده والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم تبجيل كل من أذاهم في غيبته وحضوره

وذكر محاسنه دون مساويه .

وقد تخلقت بذلك ولله الحمد ، فذكرت مناقب الجماعة الذين أذونى ، ودسوا فى كتبى العقائد الزائفة ، حى أتلفوها فى كتاب الطبقات(١) ، فلله الحمد على ذلك ، ولم أر له فاعلاً من أهل عصرى ، إنما يذكرون فى كل من أذاهم العجر والبجر ، ولاتكاد نفوسهم تسمح بذكر شيء من محاسنهم للناس ، وذلك دليل على بقاء الرعونة فى النفس ، واقتد يا أخى بالسلف الصالح فى ذ لك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم تساهلهم - كلما طعنوا في السن - في الأكل من هدايا الولاة

ومن لايتورع فى مكسبه ليفارقوا القوم لأنه من كمال الورع .

وهذا يقع فى الإخلال به خلائق من الفقراء .

وقد تساهلت مرة فى أكل بعض حبات من عنب أرسله لنا عيسى شيخ العرب بالبحيرة لما اشتهر عنه من الدين ، وكثرة الكرم ، فرأيت تلك الليلة كأنى راكب جملاً عظيماً وأنا طالب أرض مكة ، فرجعت من الطريق ، وحولت وجهى إلى بحرى مصر طالباً ناحية برشوم التين ، وأنا جنب أريد أن اغتسل من ساحل بحرها ، ثم استحال الجمل بغلة ، فمررت على أرض فيها برسيم ربه ، فسمحت لها بالأكل من ذلك البرسيم ، فأكلت منه شيئا يسيراً ، ثم تذكرت الحساب عليه فكففتها عنه ثم رجعت إلى مصر قبل أن أصل إلى برشوم ، وأنا جنب ، ثم أركبت البغلة ولدى عبد الرحمن ، ورجعت ماشياً ، ثم استيقظت فتقيأت تلك الحبات العنب حتى خرج معها ما أكلته أمس ، فكأنه خرج من بطنى حجر مظلم مسموم ، وكان اعطائى البغلة لولدى عبدالرحمن كناية عن إذنى له فى الأكل من العنب .

فانظر يا أخى فى هذا المنام الغريب والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد بذلك كتاب «الطبقات الكبرى» الشعرانى.

ومن أخلاقهم أن لا يسكتوا الجماعة إذا كانوا في مجلس الذكر إلا بعد أن يستأذنوا الحق تعالى بقلوبهم

أو يستأذنوا رسول الله ﷺ أن يستأذن لهم ربهم أن يسكتوا الجماعة بعد أن يأخذوا من الذكر حظهم ، ويظهر للشيخ مللهم من ذلك ليشغلهم فى مهم آخر من أمر دنياهم ودينهم ...[1] أو آخرتهم .

فإن الله تعالى ما نوع لعباده المأمورات إلا لما سبق فى علمه من مللهم من نوع واحد ، وإلا فإذا حصلت مجالسة الحق تعالى بنوع من المأمورات ، فماذا يطلب العبد بعد مجالسة سيده ، فإنها محط رجال الأولين والآخرين ، وأشرف حالة تكون ، وأعظم ثمرة تحصل لهم من سائر أعمالهم فافهم .

فعلم أنه لا ينبغى لشيخ المجلس أن يسكتهم غافلاً عن الاستئذان ، فإنه معدود من سوء الأدب عند العارفين ، وما وجدت لهذا الخلق فاعلاً من أقرانى إلا قليلاً فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن لا يظهرون للناس من إخوانهم من آداب الطريق إلا ما يعلمون من الناس القدرة على العمل به إلا لغرض صحيح

وذلك أن يكون لهم عذراً عند الله تعالى بنحو قولهم ياربنا ( )[2] ذلك خير لنا ولو علمناه خيراً لنا لاتبعناه ويؤيد ذلك قول القائل : إن من البيان لسحرا

قال : سفيان ولا ترى السحر إلا حراماً انتهى .

وقد كان المريدون فى الزمن الماضى لايقنعون بالآداب القليلة لعلو همتهم ، فصار أحدهم اليوم إذا سمع من شيخه بعض آداب يقول : يكفينى هذا ، فللناس حال فى حال إدبارهم وحال فى حال إقبالهم.

(١) بياض بالأصل.

(٢) مطموس من الأصل.

وتأمل يا أخى الناس حين يسافرون إلى الحج كيف يكرهون التقطير ، ولو أن شخصاً طلب أن يقطر جمالهم يبذلون المال لمن يقطرهم ، وإذا رجعوا وأشرفوا على أوطانهم كيف يكرهون التقطير ، ولو أن شخصاً طلب أن يقطر جمالهم كرهاً لبذلوا له المال على عدم التقطير ، فهكذا حال الناس اليوم ، فإن الدنيا الآن ، كأنها مركب موسقه أشرفت على أن ترسى على بر الآخرة ومايقع لنا من الأهوال فى هذه الدار ، فهو كالإدمان لأمور الآخرة ، والتمهيد لطريق مقاساة أهوالها والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إذا ظلم حكامهم رعيتهم أن ينصحوا الرعية ليرجعوا عن معاصي الله تعالي

ويأمروا الولاة بالرفق بالرعية ، والرحمة لهم حسب الطاقة ، ولا يشتغلوا قط بسب الولاة كما عليه المحجوبون عن معرفة أسرار الله تعالى فى خلقه ، فالظلم أمر مركب من الرعية ، والولاة فيقدر الله تعالى على الرعية الوقوع فى ما سبق به علمه من المعاصى ثم يسلط الولاة عليهم على حسب ما سبق فى علمه ، ولا .....[1] لسبيل لترك الرعية ما سبق فى علم الله تعالى من المعاصى ، ولا سبيل إلى ترك الولاة مجازاة العصاه باستخلاص ما بأيديهم من نعم الدنيا ، وعزلهم عن وظائفهم جزاء وفاقاً .

فمن أراد من فقراء الزمان عدم جور الحكام ، فلينادى فى رعاياهم معاشر الناس لا يعصى أحد منكم ربه لا سراً ولا جهراً ، فإن سمعوا ، وتركوا المعصية ، كما ذكر ، فإن الحكام يرجعون عن جورهم .

فإن قال الرعية : للولاة ارجعوا عن ظلمنا قالوا لهم : استقيموا ونحن نرجع عنكم فإذا قالوا : ليس ذلك بأيدينا قال لهم الولاة وكذلك رجعونا عن ظلمكم فى هذا الزمان ليس بأيدينا .

---

(١) مطموس من الأصل.

وبالجملة فهذا أمر ما بقى يرجى تركه ما بقيت الدنيا إلى ظهور المهدى رضى الله تعالى عنه بحكم الوعد الصادق من رسول الله ﷺ ، ومع ذلك فاللوم على كل الرعية والولاة شرعاً .

وتأمل يا أخى الحكام تجدهم كاللجام للدابة الحرون ، وإذا كان الناس يتعدون الحدود مع هذا اللجام ، فكيف لو ترك الحكام مؤاخذتهم على ظلمهم ، ولعلهم كانوا يأخذون أموال بعضهم بعضاً ويفسقون فى حريمهم جهراً ويقتلون بعضهم بعضاً .

فعلم أن وقوع المصلحة بوجود الحكام أعظم من مفسدة جورهم مع أنهم نواب للقدرة فى تنفيذ أحكامها فى الخلق .

فارجع يا أخى باللوم على نفسك إذا ظلمك حاكم قبل أن تلوم الحاكم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : تعظيم أولاد مشايخهم في العلم والطريق

والقيام لهم فى المحافل ، وغيرها ولو كانوا عواماً إجلالا لوالدهم.

وممن أدركته على هذا القدم سيدى محمد الشناوى ، وسيدى على المرصفى ، والشيخ سليمان الخضيرى ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، والشيخ ناصر الدين الطبلاى، رضى الله تعالى عنهم ، فما رأيت أحداً يعظم أولاد مشايخهم ؛ وأصحابهم مثلهم ؛ وذلك دليل على موت نفوسهم وفلاحهم فإن أصحاب الرعونات لم يزل بينهم الوقفة ؛ وبين أولاد مشايخهم وذلك لأن كل واحد يطلب أن يكون شيخاً على الآخر ؛ فالتلميذ يقول :

أنا صرت فى رتبة الشيخ وولده بالنسبة إلى كالمريد .

وولد الشيخ يقول : أنا مكان والدى ؛ فأنا شيخ على جميع تلامذته ؛ ولو أن هؤلاء فطموا عن الرعونات على يد شيخ ماوقعوا فى ذلك ، فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم شهود فضل تعلمهم عليهم في حياته وبعد مماته

فلايرون أنهم شموا رائحة مقامه فضلاً عن مساواته ؛ حتى إن بعضهم سمع شخصاً يقول : إن فلاناً خليفة شيخه ، فزجره عن ذلك ؛ وقال : لست بخليفة له ؛ وإنما أنا من معارفه ؛ لأن شرط الخليفة أن يكون على قدم من استخلفه فى الورع ؛ والزهد ؛ وقيام الليل ؛ وعدم وضع جنبه إلى الأرض .

وقد كان شيخى على هذا القدم ؛ ولم أتبعه فى واحدة من هذه الخصال ؛ فكيف تسمينى خليفة له . انتهى .

وهذا الخلق قد صار غريباً فى فقراء هذا الزمان بل سمعت بعضهم يقول : أنا بحمد الله أعلم من شيخى بالكتاب والسنة ؛ وبأحوال الطريق ؛ ومثل ذلك لا يقع إلا ممن مقته الله عز وجل ، والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم هدايتهم من جاءهم يسألهم في أن يحملوا حملته من الأمراء والمباشرين

لما دارت رحاتهم شمالاً إلى التوبة والاستغفار من كل ذنب فعلوه إلى وقتهم ذلك قبل أن يدخلوا فى جملتهم .

فكم ضرب أحدهم مسلما حتى دمى لحمه ، وكم حبسوه ظلماً ، وكم شربوا الخمر ، وكم زنوا وكم لاطو ، وكم تعاونوا فى الناس عند الظلمة ، وكم ، وكم ، وكم .

وهذا أمر قد أغفله غالب المتمشيخين فى هذا الزمان ، فيدخل أحدهم فى حملة من عزل من ولايته أو وظيفته مثلاً ، وربما كان ذلك عقوبة له على ذنوب مضت ظن أن الله تعالى قد غفرها ، والحال أنها لم تغفر .

فالعاقل من أمر صاحب الحاجة بكثرة الاستغفار والندم ، ثم بعد ذلك يدخل فى حملته بشرط أن يكون الشيخ الآخر تائباً من كل ذنب يعلمه الله ، وليس له سريرة سيئة يفتضح بكشفها فى الدنيا والآخرة .

ومتى كان الشافع أو المشفوع له مرتكباً ذنباً فليس هما من أهل هذا المقام والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : ملاحظة مريديهم إذا سافروا أو إذا أقاموا في بيوتهم

فلايزال أحدهم يراعى مريده ويحفظه عن الوقوع فى المعاصى المعلق على ملاحظة الشيخ ، ودعائه ، وأما الأمور المبرمة ، فلا قدرة للشيخ نفسه على دفعها عنه، فكيف يدفعها عن غيره .

فعلم أن كل من عمل شيخاً على مريد ، وغفل عن حفظه كان خائناً للعهد ، والله لايحب الخائنين .

وكذلك إذا راسل أحدهم أميراً فى قضاء حاجة لمكروب لايزال أحده يلاحظ حامل الكتاب ، حتى يجتمع بالأمير وتقضى حاجته ، ومتى غفل أحدهم عن القاصد ، ربما لم تقض له حاجة .

وكثيراً ما أقول لمن طلب منى كتاباً يسافر به للكاشف أو شيخ العرب بعد ثلاثة أيام مثلاً اصبر ، حتى تريد الخروج للسفر، فإنى لا أقدر على ملاحظتك ثلاثة أيام .

وهذا سر قل من يعرفه فضلاً عن أن يعمل به ، والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : اتهام نفوسهم في إمكان الوقوع في سائر الكبائر فضلاً عن الوقوع في الصغائر

فلايخلوا أحدهم قط بامرأة أجنبية ويقول بعيد على مثلى بأن أقع فى الزنا بها ، فإن فى الحديث «ماخلا رجل بأمرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» ومن كان الشيطان معه خيف عليه من الوقوع فى كل معصية .

بل العاقل لاينبغى له أن يفعل شيئاً يكون ابليس جليسه فيه ابداً بل يفر من مجالسته من حيث أنه عدو لله ملعون ، فإن مجالسته مذمومة ، ولو لم يقع مجالسة فى معصية أخرى .

ويتعين اجتناب مثل ذلك على أمثالنا ممن نفسه لاترتد عن المعاصى إلا إذا لم تجدها .

وقد خالف فى ذلك أقوام ، وقالوا للعجوز : أنت أختنا وللصغيرة : أنت بنتنا ، فوقعوا فى ما لا ينبغى ، فالعاقل من بعد عن مثل ذلك ، والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أنهم لايتزوجون لشيخهم زوجة سواء طلقها في حال خيانة أو توفي عنها

ولو موطؤة بملك ، أدبا معهم أوخوفاً من قتلهم كما وقع لسيدى محمد الشويمى ، وسيدى بهاء الدين ، فطعنا ذلك الزوج فى المنام ، فاستقيظ ، وأخبر الناس ، ثم مات لوقته .

وأما سيدى محمد بن عنان ، فطعن الذى عقد على زوجته أم أبى العباس ، فاستيقظ والطعنة فى جنبه ، كالكبد المشوى ، فحمل من جامع المقسم إلى بلاده بالشرقية ، فمات فى الطريق .

وكذلك وقع لسيدى نور الدين الشونى ولكن حصل فيمن أخذ امرأته شفاعة من سيدنا رسول الله ﷺ ، لكون التى تزوجها من المكثيرين من الصلاة عليه ﷺ .

ثم إن المعول فى الزجر عن مثل هذا الأمر التجربة بحصول الضرر من الأولياء إذا حصل عندهم غيرة على عيالهم وإلا ، فذلك جائز فى الشرع ومن شك ، فيجرب لاسيما في حق أرباب الأحوال .

وقد تقدم أن سيدى محمد المغربى الشاذلى كان يوصى أصحابه أن يتزوجوا حلائله بعد موته ويقول : لا أحب أن أشارك رسول الله ﷺ فى هذه الخصوصية أدبا معه ﷺ والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا دخلوا محفلاً وجلسوا عند الغال لايرون نفوسهم بذلك علي المتعذرين في المجلس من حيث مواضعهم أو غيره

ولو أنهم كانوا فى صدرالمجلس ، فدخل شخص من أراذل الناس ، فزحزحهم صاحب الدار إلى أسفل المجلس لا يتأثرون ، وذلك لأن نفوسهم قد ماتت إلا فيما يرضى المولى عز وجل .

وتقدم أن من شأنهم أنهم يرون نفوسهم أقل الناس ، وأن حكمهم مع الناس كحكم التلامذة مع شيخهم ، فلو زحزحهم أحد من مكانهم لأجل شيخهم لايتكدرون بل يفعلون ذلك اختياراً وينشرحون له ، فكذلك الحكم مع جميع المسلمين .

وسمعت سيدى على الخواص رضى الله عنه يقول : ليس التواضع أن يثبت الفقير له مقاماً عالياً ثم يتنزل منه للناس كما قد يشعر لفظ التواضع أن لايرى له مقاماً على أحد من المسلمين يتنزل منه ، ولو أن أحداً رفعه على أقرانه فى مجلس أوغيره لا يرى أنه ارتفع بل هو دائماً تحت بغال أقرانه ، وأعدائه فضلاً عن غيرهم انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا قرءوا القرآن أو سمعوه أن يجعلوا جميع مواعظه وزواجره في حق أنفسهم

وكذلك إذا سمعوا خطيباً أوواعظاً يأخذون جميع ما وبخ به الناس فى حق أنفسهم دون غيرهم ، وقليل من يتخلق بهذا الخلق ، وإنما يأخذون الكلام الصعب فى حق غيرهم ، ثم ينصرف أحدهم ، ويقول :

أفلح الخطيب أو الواعظ اليوم فى حق هؤلاء الفسقة ، والظلمة ولا يكاد يأخذ له فى حق نفسه كلمة واحدة ، وغاب عنه كونه فاسقاً ، أو ظالماً لأن الفسق هو خروج عن السنة ، والظم هو ظلم النفس بارتكاب المخالفات سراً وجهراً .

فأى عاقل يدعى سلامته من هذا الفسق والظلم .

فعلم أن من كان همه الفهم فى معانى القرآن ، وما فيه من الزواجر ، والقوارع ، فهو غائب عن الوسوسة فى مخارج الحروف ، وعن الإدغام ، والاقلاب ، والترقيق ، والتفخيم إلا بقدر ما جرت العادة ، إذ إلقاء الذهن إلى مثل ذلك يغيب به العبد عن كمال الحضور مع الله تعالى .

وقد قالوا : ليس من قدرة النفس أن تشتغل بشيئين معاً فى آن واحد إلا إن أمكنها الحق تعالى بقوة إلهية ، ولذلك كانت قراءة السلف الصالح ساذجة خالية عن الأنغام التى ابتدعت والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : الاحتجاب عن كل من أتاهم لغير غرض شرعي

فلايفتحون له الباب عملاً بالإحتياط فى ذلك ، وأعرف جماعة يأتونى كل قليل ولايحفظون لسانهم عن وقائع الناس وزلاتهم ثم يجيئ يحكى ذلك لى ، وعجزت عن أن أردهم فكأنهم رسل ابليس إلى .

وقد كان سيدى يوسف العجمى مع تمكنه فى الطريق لا يفتح باب الزاوية إلا لمسترشد أو مكروب أو لمن معه بر للفقراء ويقول :

إن أعز ما عندنا وقتنا ، وأعز ما على أهل الدنيا دنياهم من مال ، وطعام ، وكلام فى غير ضرورة ، فما كان عندهم حسناً ، فهو قبيح عندنا ، وإنما فتحنا الباب لمن أتى ببر للفقراء جبراً لخاطره ، ومجابرة لبره ، لكونه بذل لنا أحسن ما عنده ، فتنزلنا لعقله، وإلا فالفقراء فى غنى عما أتى به .

وقد قدمنا أنه لاينبغى دق الباب على فقير لأنه ربما كان فى جمعية قلب مع الله تعالى لا وجهة له إلى الخلق فينشى الداق عليه الباب الأدب معه .

وربما غارت عليه القدرة ، فأدبته بمرض ، أو زوال وظيفة ، ونحو ذلك .

وفى القرآن العظيم : (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم)(١) .

وفى الحديث « لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى » أى لا يسعنى من الله تعالى أن اشتغل بغيره فيه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم :كراهتهم لقيام الليل قبل أن يصطف كبراء الحضرة الإلهية

بل يصير أحدهم حتى يصطف الجماعة الذين هم أكبر منه عادة وعلى ذلك أهل حضرة ملوك الدنيا ، فلا يقف الأدون إلا بعد وقوف الأكبر .

وقد وقع لى أننى قمت أتهجد ليلة قبل دخول النصف الثانى فما كنت إلاهلكت .

فاعلم ذلك يا أخى واعمل عليه ولا تغتر بمن تراه يقوم من العباد قبل نصب الموكب الإلهى ، فليس من يعلم كمن يجهل والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وتمام الآية : (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) سورة الحجرات آية : ٥ .

ومن أخلاقهم : محبة مناجاة الله تعالى فى الأسحار

من حيث مجالسته فيها لا علة أخرى من حصول أنس ، وانتعاش قلب ، وانفساحه فمن قام الليل لأجل ذلك ، فإنما قام لحظة نفسه .

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام :

قل لفلان العابد أخلص عبادتك لله تعالى ، فإنك إنما تقوم فى الأسحار لمن تجده من لذة مناجاتى ، وأنا لا مجانسة بينى وبينك ، حتى تستلذ بى ، أو تأنسى فلنفسك قمت لا لى انتهى .

وسيأتى ذلك بأبسط مما هنا قبيل الباب السابع إن شاء الله تعالى .

وقد قال الشيخ فى الفتوحات : لا تكون إلا بالمناسب والمشاكل والحق تعالى لامناسبة ولا مشاكلة بينه وبين خلقه ، وما حصل له من الأنس فى عباداته ليس هو فى عباداته ليس هو بالله تعالى ، وإناهو بما من الله تعالى لا بالله تعالى .

قال : وهذا سر يغلط فيه كثير من الناس انتهى .

فعلم من باب أولى أن الفقراء الصادقين غائبون عن طلب الثواب بعباداتهم إذ لايطلب الأجر على عبادته لربه تعالى إلا كل محجوب عن حضرة الأدب مع الله تعالى ، وما طلب أحد من الأكابر الأجر إلا من باب المنة والفضل .

وقد قدمنا أن الله تعالى قال فى بعض الكتب الإلهية : ومن أظلم ممن عبدنى لجنة ونار ، ولو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلا لأن أطاع ، انتهى فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم : أن لا يزوروا ولياً أو عالماً حياً أو ميتاً إلا بقصد أن يمدهم بمدده أو لغرض شرعي صحيح دون أن يروا نفوسهم عليه بالزيادة

وكذلك كانوا لايخرجون من عند من زاروه إلا بمدد وخير بخلاف من بروا نفوسهم على من يزوروه من جهلة الزائرين ، فإنهم إما يمقتوا ، وإما يخرجوا بلا مدد ، وممن رأيته فى عصرنا هذا يزور الفقراء بقصد الاستمداد من مددهم الشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، وسيدى محمد الرملى ، والشيخ نور الدين الطنطاوى ، والشيخ شمس الدين الخطيب والشيخ نجم الدين الغيطى ، والشيخ سراج الدين الحانوتى رضى الله تعالى عنهم فاقتد يا أخى بهؤلاء الأشياخ .

وكان بعضهم إذا زار ولياً ، ورآه ناقصاً فى مقام كمله له فى البرزخ .

ووقع لى مع سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه ذلك وشكرنى على ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : تصديقهم للفقراء فيما يخبرون به عن أنفسهم من الأمور التي تحيلها العقول عادة

وقد وقع لسيدى على المرصفى أنه قرأ القرآن الكريم فى يوم وليلة ، ثلاثمائة ألف مرة وستين ألف مرة كل درجة ألف ختم . كما سمعته منه مراراً .

ووقع أن أخى الشيخ أبا العباس الحريثى صلى المغرب فى خلوتى فى رمضان وتعشيت أنا وإياه ثم افتتح القراءة فقرأ القرآن قبل مغيب الشفق خمس مرات .

ووقع لى أننى صليت خلف الشيخ عمر الإمام عندنا بالزاوية فى صلاة الصبح . فافتتح بسورة المزمل ، فسهوت عن سماعه وافتتحت من سورة البقرة فوصلت إلى

الآية التى هو فيها فى الركعة الأولى هذا أمر شهدته من نفسى وآمنت به ، فإنه كما يجب الإيمان بكرامات الأولياء ، كذلك يجب على العبد الإيمان بكرامة نفسه التى أكرمه الله تعالى به لأن كلا الكرامتين بأقدار الله تعالى للعبد لا مستقلاً .

وإذا نظر العبد إلى كون الكرامة فعل الله تعالى ، وخلقه لا يقع فى تعجب يعنى استبعاداً على القدرة ، فإن القدرة لا يعجزها شىء ، والله على كل شىء قدير ، وإنما تعجب الناس من مثل ذلك لوقوفهم مع نسبة ذلك للولى ، وهو حجاب عظيم إذ لو كانت الكرامة من قدرة العقد مستقلاً لم يمت إذا حضر أجله ، وكان يحيى نفسه إذامات ويفعل كل ما يريده فافهم[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام الطوسي فى كتاب اللمع :
باب : فى معانى الآيات والكرامات وذكر من كان له شىء من ذلك :
قال الشيخ رحمه الله : حكى عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه قال : الآيات لله والمعجزات للأنبياء ، والكرامات للأولياء ولخيار المسلمين .
وحكى عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه كان يقول : من زهد فى الدنيا أربعين يوماً صادقاً مخلصاً فى ذلك تظهر له الكرامات من الله عز وجل ومن لم يظهر له ذلك فإنما عدم فى زهده من الصدق والإخلاص ، أو كلاما نحو ذلك .
وعن الجنيد رحمه الله أنه قال : من يتكلم فى الكرامات ولا يكون له من ذلك شىء مثله مثل من يمضع التبن . قيل لسهل رحمه الله فى الحكاية التى قبل هذه فيمن زهد فى الدنيا أربعين يوماً : كيف يكون ذلك ؟ فقال : يأخذ مايشاء من حيث يشاء .
وسمعت ابن سالم يقول : الإيمان أربعة أركان . ركن منه الإيمان بالقدر ، وركن منه الإيمان بالقدرة ، وركن منه التبرىء من الحول والقوة ، وركن منه الإستعانة بالله عز وجل فى جميع الأشياء .
وسمعت ابن سالم رحمه الله وقيل له : ما معنى قولك الإيمان بالقدرة ؟ فقال : هو أن تؤمن -- ولا ينكر قلبك – بأن يكون له عبد بالمشرق ويكون من كرامة الله تعالى له أن يعطيه من القدرة وما يتقلب من يمينه على يساره فيكون بالمغرب ، يعنى تؤمن بجواز ذلك وكونه .
والصحيح عن سهل بن عبد الله أنه كان يقول لشاب كان يصحبه : إن كنت تخاف من السبع بعد ذلك فلا تصحبنى .
ودخلت مع جماعة بتستر قصر سهل بن عبد الله رحمه الله ، فدخلنا فى القصر بيتاً كان الناس يسمونه بيت السبع فسألناهم عن ذلك فقالوا : كان تجىء السباع إلى سهل بن عبد الله رحمه الله فكان يدخلها هذا البيت ويضيفها ويطعمها اللحم ثم يخليها ، والله أعلم بذلك ، وما رأيت أحداً من صالحى أهل تستر ينكر ذلك . وسمعت أبا الحسين البصرى رحمه الله يقول : كان بعبادان رجل أسود فقير يأوى الخرابات ، فحملت معى شيئاً وطلبته ، فلما وقعت عينه على تبسم وأشار بيده إلى الأرض ، فرأيت يعنى الأرض كلها ذهباً تلمع ثم قال لى : هات ما معك فناولته ما كان معى ، وهربت منه وهالنى أمره .
وسمعت الحسين بن أحمد الرازى رحمه الله يقول : سمعت أباسليمان الخواص رحمه الله يقول : كنت راكباً حماراً لى يوماً ، وكان يؤذيه الذباب فيطاطئ رأسه فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت فى يدى ، فرفع الحمار رأسه إلى وقال : اضرب فإنك هو ذا تضرب على رأسك ، فقال أبو عبد الله : فقلت لأبى سليمان : يا أبا سليمان وقع لك
=

= ذلك أو سمعته ! فقال : سمعته يقول كما تسمعنى .
وسمعت أحمدبن عطاء الروذبارى يقول : كان لى مذهب فى أمر الطهارة فكنت ليلة من الليالى أستنجى – أو قال : كنت أتوضأ – إلى أن مضى من الليل ربعه ولم يطب قلبى فضجرت ، وبكيت ، وقلت : يارب العفو ، فسمعت صوتاً ولم أر أحداً يقول : يا أبا عبد الله العفو فى العلم ، وكان عند جعفر الخلدى رحمه الله فص ، وكان يوماً من الأيام راكباً فى سمارية فى الدجلة ، فاراد أن يعطى الملاح قطعته ، فحل الشبكة ، وكان الفص فيها ، فوقع الفص فى الدجلة ، وكان عنده دعاء للضالة مجرب فكان يدعو به فوجد الفص فى وسط أوراق كان يصفحها ، والدعاء (اللهم يا جامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع على ضالتى ، قال : ثم أرانى أبو الطيب العكى جزءاً قد جمع فيه ذكر كل ضالة رد الله إلى من دعا بهذا الدعاء فى مدة قليلة ، فنظرت فيه وكان أوراقاً كثيرة .
وسمعت حمزة بن عبد الله العلوى يقول : دخلت على أبى الخير التينانى وكنت قد اعتقدت فى سرى فيما بينى وبين الله تعالى أن أسلم عليه وأخرج، ولا أتناول عنده طعاماً ، ثم دخل فسلمت عليه وودعته وخرجت من عنده، فلما تباعدت من القرية فإذا به وقد حمل معه طعاماً فقال لى : يا أخى ، كل هذا ، فقد خرجت الساعة من اعتقادك ، أو كلاما هذا معناه وهؤلاء القوم مشهورون بالصدق والديانة ، وكل واحد منهم إمام مشار إليه فى ناحيته ، ومقتدى به فى أحكام الدين ، فقد صدقهم المسلمون فى أحكام دينهم ، وقبلوا شهادتهم على رسول الله ﷺ فيما رووا عنه وأسندوا إليه من الأخبار والآثار ، ولايجوز أن يكذبهم أحد ويتهمهم فى هذه الحكايات وما يشبه ذلك ، وإذا كانوا صادقين فى واحد ، ففى الجميع كذلك .
باب فى حجة من أنكر كون ذلك من أهل الظاهر والحجة عليهم فى جواز ذلك للأولياء والفرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام فى ذلك :
قال الشيخ رحمه الله : قال أهل الظاهر : لا يجوز كون هذه الكرامات لغير الأنبياء عليهم السلام لأن الأنبياء مخصوصون بذلك ، والآيات والمعجزات والكرامات واحدة ، وإنما سميت معجزات لإعجازالخلق عن الإتيان بمثلها ، فمن أثبت من ذلك شيئا لغير الأنبياء عليهم السلام فقد ساوى بينهم ولم يفرق بين الأنبياء وبينهم .
قال الشيخ رحمه الله : من أنكر ذلك فإنما أنكرها احترازاً من أن يقع وهن فى معجزات الأنبياء عليهم السلام ، وقد غلط قائل هذا القول لأن بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام فى ذلك فرقاً من جهات شتى !
فوجه منها أن الأنبياء عليهم السلام مستعبدون بإظهار ذلك للخلق ، والإحتجاج بها على من يدعونهم إلى الله تعالى ، فمتى ما كتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى فى كتمانها ، والأولياء مستعبدون بكتمان ذلك عن الخلق ، وإذا أظهروا من ذلك شيئاً للخلق لاتخاذ الجاه عندهم فقد خالفوا الله وعصوه بإظهار ذلك .
والوجه الآخر فى الفرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام : أن الأنبياء عليهم السلام يحتجون بمعجزاتهم على المشركين لأن قلوبهم قاسية لا يؤمنون بالله عز وجل والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوت الرزق لأنها أمارة بالسوء ، جاحدة مشركة ، مجبولة على الشك ، ليس عندها يقين بما ضمن لها خالقها من الرزق وذكر القسم عليها .
وقد سألت ابن سالم عن ذلك قلت له : ما معنى الكرامات وهم قد أكرموا حتى تركوا الدنيا اختيار ! فكيف أكرموا بأن يجعل لهم الحجارة ذهباً ، فما وجه ذلك ! فقال : لايعطيهم ذلك لقدرها ، ولكن يعطيهم ذلك حتى يحتجوا بكون ذلك على أنفسهم عند اضرابها وجزعها من فوت الرزق الذى قسم الله لهم فيقولوا الذى يقدر على أن تصير لك الحجارة ذهباً كما هو ذا ننظر إليه ، أليس بقادر أن يسوق رزقك إليك ومن حيث لا تحسبه فيحتجوا بذلك على ضجيج نفوسهم عند فوت الرزق ، ويقطعوا بذلك حجج أنفسهم ، فيكون ذلك سببا لرياضة نفوسهم وتأديباً لها .
وقد حكى لنا ابن سالم فى معنى ذلك حكاية عن سهل بن عبد الله رحمه الله أنه قال : كان رجل بالبصرة يقال له إسحاق بن أحمد ، وكان من أبناء الدنيا ، فخرج من الدنيا – أعنى من جميع ما كان له – وتاب ، وصحب سهلا رحمه الله فقال يوماً لسهل رحمه الله : يا أبا محمد ، إن نفسى هذه ليس تترك الضجيج والصراح من خوف فوت القوت والقوام ، فقال له سهل رحمه الله : خذ ذلك الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاماً تأكله ، فقال له : ومن إمامى فى ذلك حتى أفعل ذلك ، فقال سهل : إمامك إبراهيم عليه السلام حيث قال : له : (رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن ! قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى) . =

= فالمعنى في ذلك أن النفس لا تطمئن إلا برؤية العين لأن من جبلتها الشك ، فقال إبراهيم عليه السلام : أرنى كيف تطمئن نفس ، فإني مؤمن بذلك ، والنفس لا تطمئن إلا برؤية العين .
فكذلك الأولياء يظهر الله تعالى لهم الكرامات تأديباً لنفوسهم ، وتهذيباً لها ، وزيادة لهم ، ويكون في ذلك فرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام ، لأنه يعطون المعجزة للاحتجاج بها في الدعوة ، والدلالة على الله تعالى ، والإقرار بوحدانيته تعالى .
والوجه الثالث : فى الفرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام لأن الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم ، وكثرت ، يكون أتم لمعانيهم وأثبت لقلوبهم كما كان نبياً ﷺ قد أعطى جميع ما أعطى الأنبياء عليهم السلام من المعجزات ثم زيادة أشياء لم يعط أحد غيره مثل : المعراج ، وانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه .
وشرح ذلك يطول ، ومقصودنا من ذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلما زيدت لهم من المعجزات يكون أتم لمعانيهم وفضلهم ، وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الأولياء كلما زيدت في كراماتهم يكون وجلهم أكثر حذراً أن يكون ذلك من المكر الخفى لهم والإستدراج وأن يكون ذلك نصيبهم من الله عز وجل ، وسبباً لسقوط منزلتهم عند الله عز وجل .
باب في الأدلة على إثبات الكرامات للأولياء ، وعلة قول من قال لا يكون ذلك إلا للأنبياء عليهم السلام قال الشيخ رحمه الله : والدليل على جواز ذلك من الكتاب والأثر ، قال الله تعالى (وهزى إليك بجذع النخلة . تساقط عليك رطباً جنيا) ومريم لم تكن نبية .
وحديث النبى ﷺ فى قصة جريج الراهب ، وكلام الصبى ، وجريج لم يكن نبياً .
وقال النبى ﷺ فى قصة الغار : (بينما ثلاثة يمشون إذ آواهم الليل إلى غار) الحديث .
وما روى عنه ﷺ (بينما رجل يمشي ومعه بقرة فركبها فقالت : يا عبد الله ما خلقنا لهذا إنما خلقنا للحرث فقال القوم : سبحان الله فقال النبى ﷺ : آمنت به أنا وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما وليس هما فى القوم ، ولم يذكر أن الراكب للبقرة كان نبياً ، وكذلك حديث الذئب الذى كلم الراعى ولم يذكر أنه كان نبياً .
وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : (إن فى أمتى مكلمون ومحدثون وإن عمر رضى الله منهم) والمكلم والمحدث أتم فى معناه من جميع الكرامات التى ذكر الله عز وجل على البدلاء والأولياء والصالحين ، وحديث عمر رضى الله عنه أنه قال فى خطبته : (ياسارية الجبل) فسمع صوته بالعسكر على باب نهاوند .
وقد روى فى الحديث لعلى بن أبى طالب ولفاطمة رضى الله عنهما كرامات وإجابات كثيرة .
وقد روى عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فى مثل ذلك أشياء مثل حديث أسيد بن حضير وعتاب بن بشير أنهما خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة فأضاء لهما رأس عصا أحدهما كالسراج ، على حسب ما روى في الخبر .
وحديث أبى الدرداء وسلمان الفارسى رضى الله عنهما أنه كان بنيهما قصعة فسبحت حتى سمعا تسبيحها ، وقصة العلاء بن الحضرمى حيث بعثه رسول الله ﷺ فى غزاة فحال بينهما وبين الموضع قطعة من البحر فدعا الله تعالى بإسمه الأعظم ومشوا على الماء كما جاء فى الخبر ، وكذلك دعاؤه لمااستقبله السبع .
وحديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه حين لقى الجماعة الذين وقفوا على الطريق من خوف السبع فرد السبع من طريقهم ثم قال : إنما يسلط على ابن آدام من يخافه ولو أن ابن آدم لم يخف شيئاً غير الله لم يسلط الله عليه شيئاً يخافه غيره ، ومثله فى الأخبار كثير .
والصحيح عن رسول الله ﷺ ماقال : (رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبر قسمه وإن البراء بن مالك منهم : ولايكون فى الكرامات شيء أتم من أن يقسم العبد على الله تعالى فيبر قسمه وقد قال الله عز وجل (ادعونى أستجب لكم) ولم يقل فى شيء دون شيء .
وقد روى أيضاً لجماعة من التابعين بالأسانيد الصحيحة كرامات وإجابات يطول ذكرها إن ذكرنا بعضها فكيف كلها !! وقد صنف العلماء فى ذكرها وروايتها عنهم مصنفات .
وقد روى أشياء فى الحديث من الكرامات كثيرة من ذاك لعامرين عبد القيس وللحسن بن أبى الحسن البصرى ولمسلم بن يسار ولثابت البنانى ولصالح المرى ولبكر بن عبد الله المزنى ولأويس القرنى ولهرم بن حيان ولأبى =

ومن أخلاقهم : أنهم يكرهون من يقبل يدهم أو يقوم لهم أو يمشى معهم من غير غرض شرعى

كما أنهم يحبون من لم يقبل يدهم : ولم يقم لهم ، ولم يعتقدهم أكثر ممن كان بالضد من ذلك ، وهذا خلق غريب فى هذا الزمان لا يوجد إلا فى أفراد من الناس .

وكان هذا الخلق من أخلاق سيدى على الخواص وأخى الشيخ أفضل الدين رحمهما الله تعالى ، ولا يقدر على المشى عليه إلا من غلبت عليه مراقبة الله تعالى ، وكان فى حضرته على الدوام كشفاً وشهوداً لا ظنا وغفلة ، فأشد ما على العبد من يعظمه بحضرة الله تعالى ، فيكاد يذوب من الحياء والخجل لاسيما إن كان ذلك الوقت مشهوده زلاته السابقة ، وهو يطلب من الله تعالى أن يعفو عنه ، ويسامحه ، فإنه يهلكه بالكلية كما جربنا ذلك وما يعقلها إلا العالمون والحمد لله رب العالمين .

= مسلم الخولانى ولصاة بن أشيم وللربيع ابن خثيم ولداود الطائى ولمطرف بن عبد الله بن الشخير ولسعيد بن المسيب ولعطاء السلمى ولغيرهم من التابعين ، وقد رووا عن كل واحد من هؤلاء وغير هؤلاء كرامات كثيرة وإجابات وأشياء قد ظهرت لهم ، لايتهيأ لأحد أن يدفع ذلك لصحتها عند أهل الرواية ، وكذلك لطبقة أخرى بعدهم، مثل مالك بن دينار وفرقد السخى وعتبة الغلام وحبيب العجمى ومحمد بن واسع ورابعة العدوية وعبد الواحد بن زيد وأيوب السختيانى وغير ذلك ممن كان فى عصرهم فإذا روى عنهم العلماء والأئمة الذين كانوا فى عصرهم وقد صح عنهم ذلك عندهم وقد حدثوا بها ، مثل أيوب السختيانى وحماد بن زيد وسفيان الثورى وغيرهم من الأئمة والثقات ولم ينكر ذلك واحد منهم ، وهم أئمتنا فى الدين ، وبرواياتهم صح عندنا علم الحدود والأحكام وعلم الحلال والحرام . فكيف نجوز أن نصدقهم فى بعض مايرون ولانصدقهم فى بعض ذلك !!

وقد رأيت جماعة من أهل العلم جمعوا مايشاكل هذا الذى ذكرنا من كرامات الأولياء والإجابات والذى ظهر لهم فى الوقت فى هذا المعنى ، فذكروا أنهم قد جمعوا فى ذلك أكثر من ألف حكاية وألف خبر ، فكيف يجوز أن يقال : ذلك كله كذب موضوع ؟

وإن صح من الجميع واحد فقط صح الكل فإن القليل والكثير فى ذلك سواء .

والذى يحتج بأن الذى كان قبل النبى ﷺ من ذلك كان إكراما لنبى ذلك الزمان الذى كان ذلك فى وقته والذى كان لأصحاب رسول الله ﷺ كان إكراماً للنبى ﷺ فيقال له : فالذى كان أيضاً للتابعين ولمن بعدهم وما يكون من مثل ذلك إلى يوم القيامة من الكرامات فكل ذلك إكراماً للنبى ﷺ لأنه أفضل الأنبياء عليه السلام وأمته خير الأمم .

وكما استحال أن يكون لنبى من الأنبياء عليهم السلام شىء من المعجزات إلا وقد كان النبى ﷺ من مثل ذلك أوأتم من ذلك أو أكثر ، فكذلك يستحيل أن يكون فى الأمم السالفة لقوم منهم شىء من الكرامات إكراماً لأنبيائهم إلا ويكون فى أمة محمد ﷺ أيضاً لطائفة منهم أكثر من ذلك إكراماً لمحمد ﷺ معا إن فى أمة محمداً من لايرى ذلك حالاً ولا رتبة ولا كرامة ولا ير ذلك إختباراً ومحنة موضوعة على طرق أصفيائه والمخصوصين من أوليائه فمنهم يخشون من ذلك إذا ظهر لهم سقوط منزلتهم عند الله تعالى ونكوصهم على عقبهم ونزولهم عن درجتهم ولايعدون من ركن إلى ذلك ورضى به حالاً أنه من أهل الخصوص ، ونحن نذكر فى ذلك باباً نبين فيه ذلك إن شاء الله . وإنما أردنا بذكر ذلك جواز كونه وبطلان قول من زعم أن كون ذلك غير جائر فى الأمة .

ومن أخلاقهم : إكرام أهل الحرف النافعة

كالقنواتى ، والفران ، والمعداوى ، والجزار ، والطباخ ، ونحوهم .

فإنهم من أهل الفضل علينا ، وإن قال العلماء بكراهة كسب بعضهم ، أو كانوا عواماً، ونحن علماء .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقوم للقنواتى ، والزبال الحمام ويقول :

إن هؤلاء لهم الفضل علينا فى نزحهم قاذوراتنا وتسخينهم الماء فى الشتاء لطهارتنا، والقيام لأهل الفضل محمود .

وهذا خلق غاب أصحاب الأنفس عنه ، ولو نظر أحدهم إلى نفسه هو فى الكون لوجده كلأنفع منه ، وأين هو من الطباخ الذى يقوم من نصف الليل يهىء الطعام للعزاب الذى ليس لهم أحد يخدمهم ، فكم يأكل من طعامه فقير ومسكين وعاجز بفلوس، وغير فلوس كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : تصبرهم على المرض

وعدم الضجيج من الألم فى حال بدايتهم ، وعدم الصبر ، وإظهار الضجيج أيام نهايتهم ، فإن الكمل من شدة لطافة أبدانهم بالرياضة والمجاهدة صاروا يتألمون من قرصة برغوث ، ولا هكذا حاله أيام بدايتهم لشدة كثافتهم ، وكثرة دعوى نفوسهم للقوة، كالفراعنة إذ النفس تريد بتصبرها مقاومة القهر الإلهى ، والكامل ظهر له ضعفه، وألقى سلاحه ، وما بقى معه قوة تقاوم بها القهر الإلهى .

فكان من فضل الله تعالى على العبد أنه يحبسه فى مقام الصبر والتجلد وتحمل المرارة ، ليحصل له أجر الصابرين ، ثم ينقله أواخر عمره إلى مقام الرضى ، ليجعل له أجر الراضين ليحوز الكمال فى المقامين .

وقد سئل أبو عبد الله الحكيم الترمذى عن صفه الخلق ؟ فقال : ضعف ظاهر ودعوى عريضة انتهى .

ولما علم العارفون ذلك من نفوسهم طلبوا من الله تعالى التخفيف عن مرضهم فإن مئالهم إلى ذلك السؤال كما وقع للسيد أيوب عليه الصلاة والسلام بقوله أواخر المرض (رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين)[١] والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أنهم لايقبلون هدية من لايتورع في مكسبه

ثم إن قبلوا هدية من يتورع كافؤه على هديته ، وإن علموا أنه لايقبل مكافأتهم ردوا هديته عليه هروبا من تحمل منن الخلق فى الدنيا والآخرة .

فعلم أن كل فقير قبل هدية من لايتورع كبعض الولاة ، والقضاة ، والتجار الذين يبيعون على الظلمة ، فهو لم يشم لطريق القوم رائحة .

وكان سيدى على الخواص لا يبتدئ أحدا بهدية إلا إن كان فقيرا ، فيهديها إليه ، ويسامحه بالمكافأة عليها ، وإن أهدى أحداً له ممن لايقبل مكافأة لغناه أو تكبره مثلا يردها عليه ويقول للرسول : قل له : أن يهديها إلى من هو أحوج إلى ذلك منى كما أوضحت ذلك فى كتاب العهود والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : هروبهم من تحمل منن من زارهم من الأكابر

لاسيما العلماء والأولياء فإن جميع رأس مال الفقير من أعمال لا يجيء حق طريق أحدهم هذا مع ازدرائهم نفوسهم ، وعدم رؤية استحقاقهم ليمشى أحد إليهم .

وكثيراً ما أسأل الله تعالى أن ينسى أخوانى من طلبة العلم أن يزورونى خوفاً أن ينقص أجر زيارتهم لى عن أجر اشتغالهم بالعلم الذى فوتوه بمجيئهم إلى .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٨٣.

وكثيراً ما أجعل ثواب عملى ذلك اليوم إن كان سبق فى علم الله تعالى أن فيه ثواباً فى صحايف من زارنى ذلك اليوم من العلماء والصالحين .

وهذا خلق لم أر له فاعلاً إلا القليل والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : الإكثار من الأعمال الصالحة

ثم لايرون أنهم قاموا بشىء من واجب حقوق الله عز وجل ، ولو صام أحدهم وصلى وتورع وزهد . حتى ، صار كالشن البالى .

وقد غاب عن مثل هذا غالب أولاد المشايخ ، فاكتفوا عن العمل بالاتكال على أعمال سلفهم ، وشهرتهم بالصلاح ، ففاتهم خير كثير .

وقد أخبرنى شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله تعالى : أن شريفا دخل على سيدى ياقوت العرشى ، فرأى الناس يقبلون رجل سيدى ياقوت ، ولايلتفت إليه أحد ، فتكدر الشريف فى نفسه .

فقال له سيدى ياقوت : ياشريف أنا كلى بأكارعى وجميع أحضاى الناشفة الهزيلة لو وضعونى فى السوق ما أقبل أحد على شرائى بعشرة دنانير ، ولكن لما تعبت أخلاق سلفك الطاهر اكتسبت الشرف والعز ، وأنت لما خالفت أخلاقهم ، واتبعت أخلاق الأرازل أكتسبت الذل ، فتنبه ذلك الشريف لنفسه ، وتاب إلى الله تعالى ، وأخذ الطريق عن سيدى ياقوت انتهى .

وتقدم بعض ذلك .

فعلم أن كمال مرؤة الفقير أن يكون فى حرز أعماله الزكية لا فى أعمال سلفه الذين ماتوا .

فعلم أن كمال مرؤة الفقير أن يكون فى حرز أعماله الزكية لا فى أعمال سلفه الذين ماتوا .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

أكثروا من الأعمال الصالحة على نية أن تعطوها لخصمائكم يوم القيامة ، ولا تطعموا نفوسكم منها بشيء إلا بعد استيفاء الخصوم منكم الحقوق ، ولعله لا يفضل عنهم شيء لكم ، وربما أعمالكم الكثيرة لاتكفيهم ، فيضع الملائكة من أوزارهم على ظهوركم انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : مراعاة حق الجار

حتى إن أحدهم يود أن يتحمل عن جاره كل بلاء نزل عليه ويود أن يدخل عليه كل شيء يسره ، وإذا كان ساكناً على الخليج ، وطلب جماعة الوالى منه أن ينزح ماء خرارته ، فمن المعروف أن يجعلها الفقير خرارته ، ويقول : هذه خرارتى وينزحها عنه لاسيما إن كان الجار فى كدر من ولد مات أو مال ضاع ، أو عنده مريض أو ضيوف يستحى منهم أو طلبوه للتفتيش ليعمل حسابه فى الوقف الذى تحت نظره أو جبايته فإنه يكون فى أعلا طبقات النكد .

وقد عملت ذلك مرة ، ونزلت بالمجاورين ، فنزحنا خرارة الحمام ، والجامع الذى بجوارنا ، ونزل معنا الشيخ رضى الدين قاضى قليوب نفع الله به المسلمين كل ذلك خوفاً من أعوان الوالى أن يرعبوا صاحب الحمام ، وناظر جامع الميدان من جماعة الوالى فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقه : اشتغالهم بتوديع الدقائق والدرج والساعات

وخروج أوقات الصلوات ، وتوديع الأيام والليالى ، والجمع والشهور ، والسنين ، بالأعمال الصالحة ، فلا يصير لهم وجهة ، لأحد من الخلق ، وكيف حال من تشهد عليه هذه الأوقات كلها بما عمل فيها من السيئات .

فإن حكم العبد حكم مجرم اجتمعت عليه شهود عدول عند ملك جبار يشهدون عليه بتعدى حدوده التى نصبها ، ونهاه عن تعديها وقالوا له : إنه استهان بنظرك إليه ، وخاف من نظر عبيدك ، وذكروا فيه العجر والبجر ، حتى اشتد غضب ذلك الملك عليه، ولله المثل الأعلى ، فإن نظر لعدد مفاصله التى تشهد عليه وجدها ثلاثمائه ، وستين شاهداً فى كل وقت عصى الله تعالى فيه ، وإن نظر للأيام والليالى وجدها عند قرب انسلاخ السنة ، كأنها سبعمائة وعشرون شاهداً ، وإن نظر إلى الكرام الكاتبين فى اليوم ، والليلة وجدهم ألفاً وأربعمائة وأربعين شاهداً ، وهكذا القول فى المفاصل والدقائق والثوانى والساعات وإذا ضربتها صارت كذا كذا ألفاً يشهدون عليك وهذا الخلق ا رأيته إلا فى أفراد قليلة ومن عرف عذر الفقير فى هروبه من الناس فى وقت من الأوقات من الدقايق إلى السنين ، فربما يكون مشغولاً بتوديع ما فارقه من الزمان فى ذلك الوقت ، لأن كل وقت ورد عليه رسول من عند الله عز وجل ، فإما يرجع شاكراً ، وإما كفوراً لاسيما أواخر السنة ، فإن الفقير يكاد يذوب من الخجل والحياء من الله تعالى ، حين تصعد رسل جميع الأوقات المذكورة إلى حضرة الله تعالى ذاته أفعاله ، وأقواله.

وقد دخل على أواخر سنة أحدى وستين وتسعمائة الأخ الصالح الورع الزاهد الشيخ بدر الدين الشهاوى الحنفى زايراً ، فما وجدت لى وجهة إليه ، فلو لا أنه يعرف أحوال الفقراء ، لخرج نادماً على زيارته لمن لا يلتفت إليه ولا أنصفه فى السلام .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأعملوا به والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : زيادة العمل للطاعات بحضرة مريدهم

لينهضوا همتهم ، حتى يصير المريد يجهد فى أثرهم فلا يلحقهم بحكم الإرث لرسول الله ﷺ فقد قام ، حتى تورمت قدماه .

ووالله إنى لأخرج إلى الزاوية فى الليل ليس لى حاجة إلا أن أعلم الفقراء إنى مستيقظ خوفاً أن يظنوا أننى نائم ، فيناموا .

فعلم أنه متى كان المريد أكثر عملاً من الشيخ ربما رأى نفسه على الشيخ ، فلا يفلح بعد ذلك على يديه .

قال الجنيد رضى الله عنه : ما رأيت أعبد من السرى السقطى أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعاً إلا فى علة الموت .

قال : وكان يقول لنا أعملوا يا أولادى قبل أن يصير أحدكم عاجزا مثلى .

قال الجنيد : وكنا نجهد أن نعمل مثل عمله فى ذلك السن ، فلا نلحقه انتهى .

وهذا الخلق قد أخل به مشايخ الزوايا ، فإنهم فى النهار مع الناس ، وفى الليل مع النساء ، والنوم ، ومع ذلك ، فربما يزعم أحدهم أنه فى مقام لايشغله الخلق عن الله تعالى ، وربما كان كاذباً كجلوسه للمشيخة بلا إذن من شيخه ، وقبل خمود نار بشريته، ورعوناته ، ويؤيد ذلك تكديره إذا سمع أحداً يذمه ، ويمدح أقرانه ، وتكدره إذا كان الباشا ، والدفتدار ، وقاضى السكر يزورونه ، ويعتقدونه ، ثم فارقوه إلى أحد من أقرانه، وصاروا ينكرون عليه ، ويذكرون نقائصه فى المجالس ، فإن علامة الصادق الذى لايشغله عن الله تعالى شىء أن ينشرح صدره إذا أنكر عليه الولاة ، وذموه ، وأعتقدوا أقرانه ، ومدحوهم ، وهذه ميزان تطيش على الذر ، فليمتحن المدعى نفسه ، ثم بعد ذلك يدعى أنه لاشغله عن الله تعالى شىء والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إكرامه لحملة القرآن والشريعة المطهرة

وإن لم يعملوا بماحملوا كما مر ، فيكفينا منهم كون الحق تعالى جعلهم عرشاً بكون القرآن العظيم ، والعلم الشريف فى قلوبهم ، وإن كان غير حال فى القلوب كما هو مقرر

فى كتب قواعد العقائد ولم يزل علم الناس فى كل عصر أكثر من عملهم ، ومن توقف فى إكرام عالم على عمله بكل ما يعلم ، فانه خير كثير .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

ينبغى للعبد أن يعظم حملة شريعة رسول الله ﷺ من حيث كون الحق تعالى أهلهم لحملها ، فمتى خرج للدين مبتدع قاموا عليه ، وقطعوه بالحجج .

وهذا القدر كاف لنا فى الحث على إكرامهم ، فعلم أن أهل الله تعالى لا يتوقفون فى محبتهم لعالم على إحسانه إليهم ، أومصاحبته لهم ، ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية بل يحبونه ، ولو لم يجالسهم قط محبة فى رسول الله ﷺ لا غير والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة سترتهم لطالب العلم إذا دخل عليهم وهم يقرؤون في كلام أهل الطريق

فلايعزمون عليه أنه يقرر إلا إذا علموا منه باصطلاح القوم خوفاً عليه أن يضحك عليه المريدون ، وهو يقرر الكلام على خلاف مراد القوم .

ثم إذا خفنا عليه ما ذكروا قررنا نحن .

فمن الأدب أن نصير نستشيره فى المعانى التى نبديها ، فإن قال : هى حسنة كان ، وإلا رجعنا إلى ما فهمه هو ، ثم إذا خرج من عندنا قررنا للفقراء الكلام على مصطلح القوم ، وذلك لأن بعض طلبة العلم الآن علمهم موضوع فى نفوسهم لا فى أرواحهم ، فلا يزداد أحدهم بكثرة العلم إلا تكبراً ودعوى ، فهو الشجر الحنظل كلما ازداد ريا من الماء كلما ا زداد مرارة بخلاف من كان علمه موضوعاً فى روحه ، فإنه يزداد تواضعاً ويدعى الجهل كما درج عليه السلف الصالح ، فكان من حسن سياسة الفقراء العمل

مـثل هولاء القـوم ، وإلا خـرج أحـدهم يمزق فى أعـراض أهل الطريـق ويدعى أنـهم خارجين عن الشريعة بحسب فهمه السقيم ، ولو أنه اهتدى لتلمذ لأهل الطريق ، حتى عرف مصطلحهم ، ثم بعد ذلك جالسهم وحضر دروسهم .

قال سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه ونفعنا به :

دع عنك تعنيفى وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

أى فإنك إذا ذقت طعم الهـوى لم تعنف أحـداً من أهل الطريق عن طريقـه ، وإنما يعنف من اعترض عليهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : شدة كراهتم للتقدم للإمامة في الفرايض والجنايز والاستسقاء ونحو ذلك

حياء من الله تعالى ، وأخذاً لأنفسهم بالاحتياط ، ويقولون : يكفى أحدنا وزر صلاة نفسه .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول :

لا ينبغى أن يتقدم للإمامة فى الفرائض والجنائز إلا من كان ظاهره مثل باطنه ، وليس له سريرة يفتضح بها فى الدنيا والآخرة أما من كان مرتكباً فى الباطن شيئاً بحيث لو اطلع عليه المأمومون لكرهوا الصلاة خلفه ، فلا ينبغى له التقدم .

فليعرض من يطلب التقدم على الناس فى الإمامة ذلك على نفسه ، ويقدر أنه لو أظهر المأمومين على جميع زلاته التى عملها طول عمره هل كانوا يصلون خلفه أو يمتنعون ؟ ويفعل بمقتضى ذلك .

وأظنه لو أطلعهم على جميع زلاته لم يكن أحد منهم يحب أن يصلى خلفه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

لا ينبغى أن يزاحم على الإمامة فى الجنايز إلا من لم يكن عليه ذنب ، حتى يقبل الله شفاعته ، فإن من عليه ذنب يحتاج عادة إلى من يشفع فيه ، فكيف يكون شافعاً لا سيما الصلاة على المكاس ، ومقدم الوالى ، وغيرهم من الظلمة ، فإنه يحتاج إلى جاه عريض عند الله تعالى ، حتى يرضى عنهم جميع خصمائهم .

فقلت له : فإن كان ذلك مشهد جميع الكافرين .

فقال : أيتقدم أحد المذنبين منهم ، ويدعوا لنفسه ، ولذلك الميت قياماً بحق الشرع وبفرض الكفاية ، وبحق أخيه المسلم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : مبادرتهم للشكر لله تعالي إذا قدر لهم طاعة ومبادرتهم للاستغفار إذا قدر عليهم معصية

ولايقولون : هذا قدره الله تعالى علينا إلا بعد الندم والاستغفار ، ومن أين لأمثالنا أن يأذن الحق تعالى له فى الوقوف بين يديه ، ولو لحظة ، فلذلك بادروا إلى الشكر ، وإن كانوا يستغفرون من طاعاتهم من حيث نقصها ، وعدم خشوعهم فيها ، ويرضون عن الله تعالى من حيث قضائه عليهم المعصية لا من حيث المقتضى الذى هو من كسبهم ، فافهم .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

ينبغى للعبد أن يشكر الله تعالى على يسير الطاعات ويحمده على يسير المعاصى التى لم تكن أكثر مما وقع له ، فيقول الحمد لله الذى قسم لى شيئاً من الطاعات ، ولم يحرمنى منها بالكلية ، الحمد لله الذى لم يقدر على من المعاصى أكثر مما وقعت فيه ، ويحتاج صاحب هذا المقام إلى منزع دقيق بحيث لايكون له رغبة فى المعاصى شئ من المعاصى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : المبادرة للشكر إذا غلا السعر

ويقولون : الحمد لله الذى لم يقدر علينا غلاء أعظم من هذا ، ثم بعد ذلك يكثرون من الاستغفار لأن الغلاء لا يقع بالعماد إلا بعد إغضاب خفى للحق جل وعلا وأقل ماهناك استعانة العباد بنعم الله تعالى على معاصيه ، وقلة الاعتراف بأنهم لايستحقون من تلك النعم ذرة واحد لكثرة عصيانهم ، ومخالفاتهم .

وقد وقع غلاء على عهد سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه ، فأتوه يسئلونه عن سبب ذلك فقال سببه الاستهانة بالقمح والدوس عليه بالإقدام انتهى .

وقد وقع فى زمن السلطان شعبان : أن الناس أكلوا الكلاب ، وحفروا على الأموات ، وأكلوهم ، وأكلوا أولادهم ، فصار الأب والأم يذبحون ولدهم ، ويأكلونه ، فقل غلاء لم يصل إلى مثل ذلك .

فنيبغى لنا الشكر عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أنهم لايخرجون من بيتهم إلا بعد أن يقول أحدهم بقلبه اللهم : إن كان أحد قد عزم علي زيارتي وخرج في الطريق عوقني له حتي يجيئ.

وإن لم يكن خرج ، فعوقه فى بيته أو فى الطريق ، حتى أرجع من حاجتى هذه ، وذلك شفقة على أخيهم خوفاً أن يتكلف أو يجىء إلى بيتهم فلايجدهم لاسيما إن جاء من موضع بعيد بنية خالصة .

وهذا خلق غريب قل من يفعله الآن فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : فعل الأمور التي أخبر الحق تعالى أنه يحبها

وتقديمها على مالم يرد فيه شيء بخصوصه فيأتونها من حيث كون الحق تعالى يحب ذلك الأمر لا لعلة أخرى .

فيحبون العفو عن عباده ولولا ذلك ما أحبوا العفو عنهم والعافية لأبدانهم . حيث كون الحق تعالى أخبر أنه يحب العفو عن عباده ، ولوا ذلك ما أحبو العفو عنهم .

وهذا خلق غريب لم أجد له ذائقا من أهل عصرى إلا قليلاً ، وأكثر الناس إنما يحب الطاعات لما فيها من الثواب ، أو لما فيها من مجالسه الحق جل وعلا ، وربما رجع ذلك لحظ النفس فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم مؤاخذة أحد بجنايته عليهم

بل يرجعون على نفوسهم باللوم ، ويقولون لو أننا وافقناه على طلبه منا من الأغراض المباحة ما أذانا ، ولا جنى علينا لاسيما إن كان من أذاهم يحضر إكرامه لله تعالى ، ثم لرسوله ﷺ ، لمجالسته لربه تعالى ، أو نبيه ﷺ .

وتأمل يا أخى لو أذاك شخص ممن يجالس السلطان ، لأكرمته غاية الإكرام ، وسامحته تعظيماً له فالله تعالى ورسوله أحق بذلك ، وربما غفر الله تعالى لذلك الشخص الذى جالسه فى ذكره جميع ذنوبه ، وأرضى عنه جميع خصمائه ، وأذن بالحرب كل من أذاه ، فإن الذكر منشور الولاية أى مرسوم من الله تعالى بها كما قاله أبو على الدقاق رضى الله تعالى عنه ، فمن وفق لمجالس الذكر فقد أعطى ذلك المرسوم .

فإياك يا أخى أن تؤذى ذاكراً ثم إياك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم دعائهم علي شريف أذاهم

بل يرون أذاه لهم من جملة المقادير الآتية إليهم من قبل الحق بلا واسطة فإما الرضى وإما الصبر لما أنزل من ذلك .

وكيف يدعوا مؤمن على بضعة من رسول الله ﷺ ، وإذا تخاصم الشرفاء مع بعضهم بعضاً لاينتصرون لأحد منهم على الآخر بل يتوجهون إلى رسول الله ﷺ ، ويقولون : يارسول الله نسألك أن تصلح بين أولادك ، فعلم أن من أذى الشريف أواشتكاه من بيوت الحكام ، فقد مرق من الأدب من رسول الله ﷺ .

وقد جاءنى شرفاء يسألونى أن أتوجه إلى الله تعالى فى ولد عمهم فقلت لهم : ليس لفقير توجه إلى الله تعالى إلا بواسطة المصطفى ﷺ .

وكيف يقول أحدنا يا رسول الله سل ربك أن يميت ولدك فلان لأجل ولدك فلان والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : فرحهم بنفرة أبناء الدنيا عنهم

من المباشرين ، والتجار ، والأمراء ، ومشايخ العرب ، والفلاحين ، وكل من لا يرجى منه خير أخروى .

ويحبون كل من نفر مثل هؤلاء عنهم .

ويكرهون من يرغب مثل هؤلاء فيهم عملا بالاحتياط لأنفسهم لعجزهم عن القيام بواجب حق المستقيم من إخوانهم ، فكيف بالمعوجين منهم .

وكل فقير لايعزم على تحمل بلاء كل من أراد التعرف به جميع عمره ، فلا ينبغى له التعرف به .

وفى الحديث « خص البلاء من عرفه الناس» يعنى من غير تعرف منه ، فكيف بمن يتعرف هو بهم .

فكل يوم لايرى الفقير الصادق فيه أحد من أبناء الدنيا ، فذلك عنده يوم عيد .

وقد رأيت من ادعى الإنقطاع إلى الله تعالى ، وصار يعتب على الناس فى عدم ترددهم إليه ، وصلاتهم الجمعة عنده .

فقلت له : عتابك هذا يخالف دعواك لمحبة العزلة ، والإنقطاع إلى الله تعالى ، فما درى ما يقول .

فليمتحن كل من ادعى الصدق فى التوجه إلى الله تعالى نفسه فإن رآها تفرح إذا نسيها الناس ، حتى كأنهم لم يعرفوها ، وصاروا ينسبونها إلى عمل الزغل مثلاً ، فليعلم أنه مخلص ، وأنه صادق فيه ، فليشكر الله تعالى وإلا ، فليعلم أنه كاذب مراء مخادع لله تعالى ولعباده .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول لنفسه :

كنت فاسقاً فى شبيبتك ، ثم صرت مرائياً فى كهولتك والله للمرائى شر من الفاسق انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم الإعتزاز بكثرة المعتقدين فيهم

من الأمراء والأكابر ، والفلاحين ، ومشايخ العرب ، وغيرهم ، ولو صاروا ، يحلفون بحياة أحدهم فإن غاية أحدهم حسن الظن بالفقراء ، فهم مأجورون بذلك .

وقد يكون الفقير على خلاف ما ظنوه فيه من الصفات ، وفى كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه : أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس انتهى .

لكى ينبغى لأحدهم الشكر لله تعالى إذ ستر عليهم نقايصهم بين الناس ، حتى صاروا يعتقدونهم ، ويحلفون بأسمائهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم اعتنائهم واهتمامهم بشيء من أمور الدنيا إلا بنية صالحة

وذلك كحضور مطبخ عرس أو وليمة أو إنشاء مركب أو غرس بستان أو بناء دار ونحو ذلك من ما هو من شأن الغافلين عن أمور الآخرة .

فإن الدنيا ليس لها حكم إلا على أبنائها وأما من كشف له عن أهوال يوم القيامة ، فهو فى غفلة عن الاهتمام بشيء من أمور الدنيا .

وقد نزلت درجة من غرف رسول الله ﷺ برجل رسول الله ﷺ ، فانفكت فأرادوا أن يلصقوها بالطين ، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك وقال : الأمر أسرع من ذلك انتهى وفى الحديث : « فإنى بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها » رواه البيهقى وغيره .

وهذا الخلق قد صار غريبا ، حتى بلغنى أن بعض من ينسب إلى المشيخة اشتغل بطعام عرس ولده ، حتى عدوا عليه تفويته لثلاث صلوات .

فإياك يا أخى من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا استوي طعام وليمة العرس أو غيره أن يأذنوا للناس في أكله

ولايتوقفون على نظام ، ولامد سماط ، ولايعدون أحداً من الأكابر بل كل من حضر أكل ، وحمل لعياله ماشاء إلى أن يفرغ الطعام .

وقد أغفل هذا الخلق غالب الفقراء ، فدعو الأكابر وحجروا على الفقراء ، وصار المسكين المعيل يحضر بإنائه يطلب لهم شيئاً ، فيمنعونه ، وربما دفعوه ، فوقع على وجهه ، وكسروا وعاءه ، وذلك خروج عن الطريق .

ورأيت شخصاً يدعى المشيخة هجر نقيبه ، الذى أعطى فقيراً مأمونية أو شيئاً من أطايب الطعام .

وقال : هؤلاء لا يستحقون ذلك ، وإنما عملناه لوجوه الناس .

فقال النقيب : أنا قصدت بذلك عظيم الأجر لكم .

فقال : أنا قلت لك إننى محتاج إلى أجر انتهى .

ونعوذ بالله تعالى من الوقوع فى مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كراهة من يرفعهم علي أقرانهم

وزجرهم له ، وعدم اتخاذه صاحباً فإن فى تقريبه مفاسد كثيرة منها تكدير الأقران الذين لم يفطموا على يد شيخ ، ومنها تعاطى أسباب شهرته بالصلاح ، حتى تكثر اتباعه ، فينفيه الولاة بحكم قانونهم ، ومنها ميل النفس سراً إلى ذلك ، ومنها عماه عن عيوب نفسه بكثرة مدح الناس له ، واعتقادهم فيه ، حتى يهلك ولايشعر ، وربما قال فى نفسه : لولا أننى عند الله من الصالحين ما أكب الناس على اعتقادى هذا الإنكباب، وهذا شىء من الله تعالى ما هو منك ، ولا أنت تعاطيت أسبابه ، وغير ذلك من المفاسد التى ذكرناها فى كتاب المنن الكبرى .

وهذا خلق غريب قل من يتنبه له من فقراء عصرنا .

وممن أدركته عليه أخى الشيخ أفضل الدين كان إذا ذمه أحد ، وأنكر عليه ونفر الناس عنه يقول :

والله إن قلب هذا نير الذى عرف حالى الذى أنا منوط عليه .

وسبقه إلى مثل ذلك مالك بن دينار ، والفضيل بن عياض كانايقولان :

والله لو علم الناس منا ما نفعله فى بيوتنا لرجمونا ، ولم يجالسونا كل ذلك سدا لباب الشهره عنهم ، وإلا فهم منزهون عن ما أشاروا إليه ، فافهم .

وقد قال شخص لمالك بن دينار :

رأيتك الليلة ، وأنت تتبختر فى الجنة .

فقال : أما وجد إبليس أحد يسخر به غيرى ، وغيرك .

وكان كثيراً ما يقول : والله لو أن الناس يشمون رائحة ذنوبى كما أشمها ما استطاع أحد أن يجلس إلى لنتن ريحى رضى الله عنه .

فاعلم ذلك واهضم نفسك ما استطعت والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كراهة سماعهم للغناء والآلات المطربة

خوفاً أن يتبعهم الناس على ذلك من غير ذوق مشاهدهم فى ذلك ، فيهلكون ، ويصير وزر ذلك عليهم ، كما عليه بعض جماعة ، ممن يدعى الفقر فى هذا الزمان .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين يقول :

من ادعى أن سماع الآلات المطربة لا تورث عنده غفلة عن الله تعالى ، فأغضبوه على غفلته ، فإن ملك نفسه عند الغضب ، فهو يملك نفسه عند سماع الآلات انتهى .

وبالجملة فلايسمع آلات اللهو والغناء فى هذا الزمان إلا كل مطموس القلب عن مصالح الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم المبادرة إلي الإنكار علي أحد من الفقراء بحكم العموم والإشاعة

فإنه ما من طائفة من طوائف الفقراء من الأحمدية ، والبرهانية والمطاوعة مثلاً إلا وفيهم الجيد ، والردىء ، فالحكم على الجميع بما تراه وقع من واحد منهم جور ، وتهور فى الدين ، وإن كان ولا بد لك يا أخى من الإنكار ، فخالط هذه الطوايف ومهما تراه منهم يخالف الشريعة فأنكره على فاعله ولاتقس بقية خرقته عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم عتابهم لأحد في عدم التردد إليهم

لأنه نوع من الكبر إلا لغرض شرعى ، وهذا يقع فيه كثير من المتمشيخين بغير إذن من أشياخهم ، فترى أحدهم لايتردد إلى أحد من إخوانه ويعتب عليهم إذا لم يترددوا إليه ، ولولا ما عنده من الكبر ما تجرأ على النطق بمثل ذلك ، كأنه يقول :

أنا كبير وأنتم صغار

فلينتبه الغافل لمثل ذلك ولا يعاتب أحداً فى وجهه ، ولا يقول : أوحشنا فلان ، ولنا زمان ما رأيناه ، فإنه إذا سمع بذلك ربما تكلف المجيئ وجاء ، وما كان فى عزمه أن يجىء ، وربما كان وراءه حاجة أهم من مجيئه إلى يد الشيخ الذى يأكل من قنة محاولة على إسم دينه وصلاحه .

فإياك يا أخى إذا عملت شيخاً أن تعتب على أحد فى عدم زيارته لك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن لايتكدروا من تلميذهم إذا تركهم

ومضى إلى الاشتغال بالعلم فى مثل جامع الأزهر بل يفرحون له لأنه مشى على قواعد الصوفية ، وهو تفقههم قبل طلب الطريق .

فمن أنكر على تلميذه الاشتغال بالعلم ، فهو مبتدع كذاب لم يشم رائحة الإخلاص ، ولو أن تلميذه رأى عنده من علم الشريعة ما يكفيه مافارقه ، واللوم عليه الذى عمل شيخاً من غير تبحر فى الشريعة ، وأحوج مريديه أن يذهبوا إلى غيره .

وكذلك ينبغى للفقيه إذا رأى صاحبه فى الفقه اجتمع بأحد من مشايخ الصوفية أن لاينكر عليه إلا إذا رآه وقع فى بدعة .

وهذا خلق غريب لأن غالب المتمشيخين يكرهون من ينتقل عنهم إلى غيرهم ، حتى ربما قالوا : إن فلاناً ارتد عن دينه ، وذلك يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى ؛ وكيف يكون مرتداً من يتعلم علوم الشريعة أو يجلس فى مجالس الذكر ، ويجالس ربه عز وجل .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لايجوز المبادرة إلى الإنكار على الصوفية إلا بعد أن يشاهد منهم أمراً يخالف ظاهر الشريعة .

قال : وما بلغنا عن أحد منهم أنه نهى أحداً عن الوضوء أو الصلاة مثلاً أبداً إنما يتكلمون فى أمور دقيقة عن الأفهام ، فأحسن أحوالهم فيها الوقف عنهم ، ووكول أمرهم إلى الله عز وجل انتهى .

فإياك يا أخى ثم إياك من الوقوع فى مثل ذلك ، وكل من جاء يجيئ ، وكل من راح يروح .

وقد ذكر النووى فى أدب العالم من مقدمة شرح المهذب ما نصه :

ومن أهم مـا يؤمر به المعلم أن لايتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره ، وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم ، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعلم وجه الله تعالى انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حفظهم لمن أكلوا عنده خبزاً

أو ذاقوا عنده ملحاً أو شربوا عنده ماءاً ، ولا يخونونه ، ولو بالغيب حفظا للخبز والملح .

وهذاالخلق من أغرب الغرايب فى الفقراء ، فربما أكل الواحد عند صاحبه أردب من العيش ، ثم إذا وقع بينهما تنافر يصير كل واحد يحط فى الآخر لا بكيل ولا بميزان ، وقد كان هذا من جملة أخلاق اللصوص من أيام السلطان قايتباى رحمه الله تعالى ، فحكى لى سيدى على الخواص :

أن الشاطر حمور كبير اللصوص دخل على تاجر كبير بمصر ، وهو نائم مع سريته على السرير ، ففتح عينيه فنظر فقال له حمور : لا تخف يا خواجا على نفسك فإن الصبيان إنما يطلبون منك الغذاء فقط فقال : كم أنتم فقال : عشرة أنفس ، فأخرج لهم ألف دينار لكل واحد منهم مائة دينار ، وزاد الشاطر من ورائهم أربعمائة دينار فقال له حمور : عداك العيب يا خواجا ما كان أملنا فيك هذا كله ، فوضع كل واحد نصيبه فى عبه ، ثم شرعوا فى الخروج فرأى واحد منهم حقا أبيض يضىء على رف البيت ، فأخذه ووضعه فى عبه ثم حدثته نفسه وهو خارج فى المجاز البيت أنه يفتحه وينظر ما فيه ، فرأى فيه شيئاً أبيض ناعماً فقال أن هذا ملح فسمع بذلك الشاطر حمور فقال : ردوا ما معكم حيث ماذاق صاحبنا الملح عند هذا الرجل ، فما بقى ينظر منا سوءاً مدة حياتنا ، فردوا المال كله ، فحلف عليهم أن يأخذوا منها مائة دينار ، فأبوا انتهى .

فانظر يا أخى أحوال زمانك ، ولا تقتد بأهله الخارجين عن الاستقامة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة زجرهم لمن ينقل إليهم نقائص الناس وما قاله الناس فيهم

فإنه رسول أبليس ، ولم يزل الناس يقعون فى حق بعضهم بعضاً من ورائهم ، حتى السلطان ، ثم إذا واجهوهم مدحوهم ، وعظموهم ، فشىء لا تصح سلامة السلطان منه من ورائه ، فكيف يطلبون منه .

وكان مالك بن دينار إذا قال له شخص إن فلاناً يذكرك بسوء .

يقول له : أما وجد أبليس أحداً أحقر فى عينيه منك ، حتى استعملك فى هذه القاذورة ، ثم يزجره ، ويقول :

لا تعد تأتينى أبدا بشىء من ذلك

وهذا الخلق غريب قل من يعمل به من الفقراء بل رأيت بعضهم يستجلب من الداخل عليه مثل ذلك ويقول:

إيش أخبار الناس اليوم ، فيقول : إنه وقع لفلان كذا مع قاضى العسكر ، ووقع لفلان كذا مع الدفتدار ، ووقع لفلان كذا مع أهل جامع الأزهر ، وكبسوا اليوم فلان وذكروا عن فلان أنه يعمل الزغل ، ليقول له شيخ الزاوية :

هيه ما أنت إلا حكيت لى ، ثم يصير يشخص نقائص الناس فى ذهنه ، ويزدريهم بقلبه ، ويقع فى أعظم الذنوب بعد الشرك بالله تعالى لأن فيه إضرار للناس ، حتى لو أراد أن يجعل من حكى عنه النقائص مثل ما كان قبل أن يحكى له لايقدر بل يحكم عليه الازدراء له وفى الحديث الصحيح : لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

فقال رجل : يارسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً .

فقال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى جميل يحب الجمال .

وفى رواية : (إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده إنما الكبر بطر الحق وغمط الناس) .

قال العلماء : بطر الحق رده وغمط الناس استحقارهم وازدراؤهم .

فيكفى شيخ الزاوية من الإثم أنه يصير بسماع نقائص الناس يرى نفسه أحسن حالاً منهم ، فيستحق بذلك اللعنة ، ودخول النار كما وقع لإبليس فى قوله : « أنا خير منه» .

فاعلم ذلك وإياك وتقريب من ينقل إليك أخبار الناس ، وتواريخهم ، فإنه عدو فى صورة صديق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم وتأليفهم بين المتشاحنين معاً

أو بين من وقع فى حق أحد من العلماء ، والصالحين ، فيقولون للعالم أو الصالح : أنتم بحمد الله تعالى ، كالبحر تحملون الرسم والجيف ، وإن لم تحملوا أنتم مثل ذلك ، فمن يحمله ، ويقولون للفاسق الذى وقع فى حق من ذكر : يا ولدى إن لحوم الأولياء والعلماء سم ، وإنا خائفون عليك من المقت ، ولا يقولون قط للعالم أو الصالح : مالك ولفلان تشاحنه أو اصطلح أنت وإياه ، فإن ذلك يؤذن بأنه مشاحن يقع فى عرض الناس كما يقع فيه الفاسق، وفيه ازدراء للعالم أو الصالح بين الناس ، وربما سمع بعض الساذجين كلام من أمره بالصلح مع الفاسق ، فيكشف رأسه له ، ويصالحه ، فيخالف قول الإمام الشافعى :

لاتبدأ بالصلح من خاصمك بغير حق ، فتذل نفسك فى غير محل ، وتكبر نفسه بغير حق انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم عدم موافقتهم لغرض صاحبهم فيما يضره

وصبرهم على جفاه لأجل ذلك فإن كان داؤه يحب القيام له ، ولو لم يقوموا له لمزق أعراضهم ، فيصبرون على تمزق أعراضهم ويسامحونه بما وقع فيه من عرضهم خوفاً عليه أن يتبوأ مقعده من النار ، اللهم إلا أن يترتب على عدم القيام له مفسدة هى أعظم من مفسدة قيامنا له ، فتقوم له مشيا على قواعد الشريعة ، ثم لنسأل الله عز وجل أن لا يؤاخذه بذلك ، وأن يكشف حجابه حتى يرى نفسه أحقر خلق الله تعالى ، وأنه لايستحق القيام له من أحد من العوام فضلاً عن غيرهم بل يصير يتكدر كلما دخل مجلساً وقام له منهم أحد .

فإياك يا أخى أن تبادر إلى الإنكارعلى أحد من العلماء إذ رأيته قد قام لظالم أو ذى لسان يتقى كالشعراء أو نحوهم فإن ذلك القيام إنما هو لغرض صحيح لاتعظيما له من حيث كونه من أبناء الدنيا ، وربما يقومون لذلك الظالم لكونهم رأوه من أهل الفضل عليهم فى الدين ، كما هو الغالب عليه ، فإنهم يرون نفوسهم من أفسق الناس ، وإن ذنوب الناس كلهم مغفورة بخلاف ذنوبهم ، فإنها باقية إلى يوم القيامة هضماً لنفوسهم لا سوء ظن بالله عز وجل كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

• • •



الباب السابع
فى جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : عدم المبادرة إلي تزكية الولاة بالكتابة في المحاضر إلا إن اضطروا إلي مثل ذلك بطريقة الشرعي

إذ لايبادر إلى الكتابة إلى مثل ذلك إلا من خبر الناس ، ونظر إلى عيوبهم ومساويهم ، والفقراء ليس لهم خلطة بالناس فى العادة ، ولا نظر لهم إلى مساويهم لأنهم يلحظونهم بعين الوداد والتعظيم ، فلا يكادون يرون فيهم عيبا ، ولا فعلا مفسقا ، وذلك يخالف الحال الغالب على الناس اليوم .

وقد صحب رجل سيدى إبراهيم بن أدهم فلما أراد فراقه قال له : إنك لم تنبهنى على شيء من عيوبى مدة صحبتك .

فقال : يا أخى إنى ألحظ إخوانى بعين التعظيم ، والوداد ، فلا أرى فيهم عيباً ، فاسأل عن ذلك غيرى انتهى .

فإن اضطرك الأمر يا أخى إلى تزكية أحد من الولاة أو غيرهم فاستخر ربك فى ذلك ثم زكه بطريقه الشرعى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إذا كان لهم خراج أن يوصوا الجابي أن يرفق بالفلاحين

ويطالبهم بسياسة من غير عنف ، فإن العنف إنما يكون من جماعة جبابرة العمال ، وأما الفقراء فلا يليق ذلك بهم .

وإذا عملوا للجابى ضيافه بطيب نفوسهم ، فليأكل منها ، وإلا تركها ، وأكل من غلة الوقف بالمعروف ، حتى يرجع ، ثم إن فى أكل جابى الفقراء من ضيافة الفلاح ، تضييع لمال الوقف غالباً ، فكل من أكل طعامه يستحى أن يطالبه بحكم الطبع ، فليحذر الجابى من مثل ذلك .

وكان عندى جابى اسمه الشيخ إبراهيم السنه وكان على قدم العفة عن طعام الفلاحين والولاة فكان يأخذ معه من مصر ما يأكله ، وإن فرغ اشترى له ما يأكله ، ولا يأكل لفلاح طعاماً أبداً ، وهو نادر فى جماعة الفقراء .

وقد بلغنى من شيخ من أولاد مشايخ مصر أنه كان ينزل معه بجنازير للفلاحين فينجزر كل فلاح عجز عن الخراج ، ويمشيه معه فى الحر حافياً اليومين ، والثلاثة ، وإذا جاء الفلاح بطعام قليل الدسم أو بعسل ردىء يصب الطعام أو العسل على وجهه ، ورأسه ، ويصير الذباب يعف عليه ، وهذا أمر لايجوز فعله ، فليحذر الفقير أو المسلم أن يفعل ذلك مع من له عليه خراج ، فإنه خروج من حدود الشريعة ولو أن جابى الفقراء كان عنده سياسة لهم لقامت سياسته مقام الزنجير والحبس ، وغير ذلك وحماه ذلك من الوقوع فى الإثم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لفقراء الزاوية إذا تركوا قراءة الأوراد والعبادات واتخذوها مقيلاً ومراجاً

وطالبوا ناظرهم بما يقوم بهم من الخبز والطعام ، فيسوسون الرجال بحسن الكلام والترغيب فى مجالسة الله عز وجل فى الأوراد ، والأطفال بقطع خبزهم ، وطعامهم ، حتى يجوعوا ، فيحضروا مجالس الأوراد ، ويشتغلوا بالعبادة لأجل أن يصرف لهم الطعام والخبز .

وذلك نظير من يعبد الله تعالى لأجل الثواب الأخروى على حد سواء ، وما أقبحها من خصلة تقع ممن طلعت لحيته من فقراء الزاوية فيحضر الحزب خوفاً من قطع خبزه لا محبة فى الخير ، ومجالسة الله عز وجل ، ومن فعل مثل ذلك ، فهو أغلظ حجاباً من الحمار ، حيث احتاج فى حزبه إلى مجالسة ربه لقطع خبزه[1] .

---

(١) عن الإمام الجنيد رضى الله عنه قال : من النذالة أن يأكل الرجل بدينه .

=

ثم إذا قطع الشيخ خبز كبير أو صغير للتأديب ، فليس لكبراء الزاوية أن يعترضوا على الشيخ فى ذلك ، فإنه سعى فى الفساد ، والله لا يحب المفسدين ، فإن خبزالزاوية ، وطعامها بالأصالة إنما جعل للمقبلين على عبادة ربهم جل وعلا ، فالمدير لاحق له فى خبز الزاوية ، وطعامها وما يأكله من ذلك حرام لكن ينبغى للشيخ أن يعطى ماتوفر من خبز المريدين للمقبلين فى الزاوية ، ويؤخره عنده على اسم من يحدث من المجاورين المقيمين .

فى الزاوية إلا أن يكون ذلك لجماعة معينين فى كتاب الوقف وذلك يكون واجب الناظر إن كان له الإدخال والإخراج والتغيير والتبديل .

فأعلموا ذلك أيها الأخوان ، وكونوا أعوناً لكم لإخوانكم على الأدب دون الغضب مع أحد بالباطل ، يرجع وبال ذلك عليكم فى دينكم ، وقد نصحتكم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا ضيق الله تعالي علي أحدهم الرزق الذي ينفق منه علي إخوانه أن يكتسب لهم بالحرفة والزراعة وسؤال السلطان

فإن الفقير كالأمير إن لم ينفق على غلمانه فروا منه إلى غيره ممن يقوم بمطاعمهم .

فعلم أنه لا اعتراض على من سافر إلى الروم مثلاً فى طلب رزقه أو جوالى ، لينفق على جماعته ، فإن فى الحديث (إن كان أحدكم ولابد سائلاً فليسل الصالحين أو ذا سلطان) انتهى .

= وكان رضى الله عنه يقول : بصفاء المطعم والملبس والمسكن يصلح الأمر كله .
وقال السرى السقطى رضى الله عنه : أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الفرقى .
وكان يقول : آه على لقمة ليس لله على فيها تبعة ، ولا لخلوق على فيها منة .

فأما الصالحون الآن فى العرب فقد تودع من صبرهم لإخوانهم غالباً أو مقاسمتهم فى ما بأيديهم بل كل واحد يقول : نفسى نفسى ، فلا هم يقاسمون إخوانهم ، ولا هم يسكتون عن الاعتراض عليهم ، فما بقى للفقراء ملجأ إلا باب السلطان نصره الله تعالى، لكونه يعطى ، ولا يمن بما يعطى كالصالحين الكرام على حد سواء ، ولا يقال الواجب على الفقير إنما هو الاشتغال بالعبادة ، والاقبال على الله تعالى ، حتى تصير الدنيا تتبعه ، فإن ذلك أمر قد تودع منه ما بقيت الدنيا لقلة صبر الناس اليوم ، وقلة صدقهم فى طلب الطريق بخلاف السلف الصالح كان أحدهم يشتغل بالله تعالى ، حتى تأتيه الدنيا ، وهى راغمة فإن شاء أخذ منها كفايته ، وإن شاء ردها .

فينبغى لكل من ليس عنده صبر الآن على ضيق المعيشة أن لا يسأل الناس إلا بعد عجزه عن عمل الحرف والصنايع ، فإن تحصيل القوت مقدم على نوافل العبادات فى كل زمان .

وإنما ذم أشياخنا من يسافر إلى الروم مثلاً فى طلب الرزق فتحاً لباب رفع الهمة لأصحابهم ، فإن علو الهمة من الإيمان .

وقد يكون الشيخ الذى سافر من مصر إلى الروم مثلاً إنما يسافر بعد اطلاعه من طريق كشفه على ما قسمه الله له من الرزق فى الروم ، فسافر إليه على كشف ، وبصيرة وفى الحديث (ومن يستعفف يعفه الله تعالى) .

فأرفعوا هممكم أيها الأخوان عن طلب ما زاد على ضروراتكم فإنكم لو ترفعتم . عن جمع المال للإستمتاع به فى المأكل والملبس وسعيتم لكسب الخيرات على وجه الإخلاص لا غير ولم تسيئوا فى حق أهل الحرف جهدكم ، فإنه لولا استغناؤكم بوقف أو قناعة لكنتم أشد سعياً فى الدنيا منهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن خلاقهم : إذا صحب أحد من أشياخ الطريق أحداً من الأمراء فمن الأدب عدم مزاحمتهم لذلك الشيخ في صحبة ذلك الأمير

بل يحسنوا إعتقاد الأمير فى ذلك الشيخ ، وإن دعاهم الأمير إلى صحبته تعللوا بالعلل المقبولة ، واستخفوا خوفاً من تكدير ذلك الجزء البشرى الذى فى الشيخ إذا نقص إقبال ذلك الأمير عليه ، وصار يقبل على أقرانه لاسيما إن كان الأقران حديثى عهد بالطريق ، وذلك الشيخ فى رتبة أشياخهم .

وقد فعلت أنا مثل ذلك لما عزم الباشاه اسكندر على زيارتى بعد زيار الشيخ سليمان الخضيرى ، حتى لا أشاركه فى نزول الباشاه له ، فوعدته بأنى أطلع له ، وأسلم عليه فى القلعة ، فرضى منى بذلك ، حتى تناسى العهد ، وكان ذلك الوعد منى صواباً من وجوه منها .

أن الواسطة لماسأله الباشاه المذكور عن الصلحاء والزهاد ليزورهم ذكرنى من جملتهم فما كان الباشاه يزورنى إلا لكونى صالحاً زاهداً ، وأنا أعلم من نفسى ضد ذلك الصلاح والزهد بخلاف الشيخ سليمان الخضيرى فسح الله تعالى فى أجله ، فإنه أسن منى بنحو خمسين سنة ، وأكثر عبادة منى بيقين ، وإن لم يكن هذا الشيخ صالحاً ، فما بقى فى مصر صالح .

ثم الذى ينبغى للفقير إذا آثر أصحابه بصحبة ذلك الأمير أن لا يكون عنده حزن ، ولا تأسف فى الباطن على ذلك بل يرى الفضل لله تعالى عليه الذى أبعده عنه ، ثم يسأل الله تعالى لذلك الشيخ الذى صحبه أن يحميه من الآفات ، ولم تكن المزاحمة على صحبة الأمراء فى أحد من أشياخ الطريق الذين أدركناهم فى النصف الأول من القرن العاشر إنما حدث ذلك فيمن بعدهم ، وهو عنوان على عدم فطامهم عن محبة الدنيا فصار الشيخ إذا اجتمع بأمير واعتقد فيه يود أنه لا يجتمع على غيره ، وإنما تليق المزاحمة على العلماء الذين يرشدون الطالب إلى ما يقربه إلى الله تعالى ، وأما الأمراء فإنهم يبعدون الفقير عن حضرة الله تعالى لاسيما إن أكل من طعامهم وأخذ من مالهم.

وقد كان الشيخ جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى يقول :

لولا علمى بسيدى رسول الله ﷺ يكره إجتماعى على الأمراء ، والملوك لا جتمعت بهم ، وقد اجتمعت به فى اليقظة خمساً وسبعين مرة انتهى .

وبلغنا عن سيدى محمد بن زين النحراوى رحمه الله أنه كان يرى النبى ﷺ كثيراً، فأخذه أهل النحارية فى شفاعة إلى حاكم البلد وأجلسه على بساطه فانقطعت عنه الرؤية ، ثم إنه رأى النبى ﷺ ، وهو يمر بعيداً عنه ، فتبعه ، وقال : يارسول الله ما ذنبى ؟ فقال : تجلس على بساط الظالمين ، وتطلب رؤيتى لا سبيل إلى ذلك ، فلم ير رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى أن مات انتهى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تميلوا إلى القرب من الأمراء ، فإنه سم قاتل والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يأمروا إخوانهم أن لا يجلس أحد منهم عند شيخ من أشياخ الطريق إلا على طهارة من الحدث الظاهر والباطن

فإن حضرة الفقراء هى حضرة الحق تعالى لغلبة مشاهدتهم للحق جل وعلا وربما نزلت على أهل المجلس الأمداد الآلهية ، فلا تجد محلاً يصلح لنزولها فيه ، فتصير واقفة بين السماء والأرض ، حتى تجد أحداً خالياً من الحدث الظاهر والباطن .

فإن حكم الأمداد كالمسك وحكم الحدث الظاهر والباطن كالقذر فإياكم أيها الإخوان من الجلوس عند الأشياخ على حدث ، وأصلحوا قلوبكم ، وطهورها كما تطهروا أجسامكم للصلاة ، فإن نفحات الحق جل وعلا لعباده لا تنقطع فى الليل والنهار .

وقد رأيت سيدى الشيخ على النبتينى رحمه الله تعالى لم تزل يده ممدودة إن جلس أو مشى أو ركب فقيل له فى ذلك :

فقال : إن أمداد الحق تعالى لم تزل نازلة فى الليل والنهار ، فأنا أتعرض لأن ينالنى منها شىء انتهى .

فعلم أن من جالس شيخاً على حدث ظاهر أو باطن حرم مدده والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يزجروا كل من رغب أحداً من الأمراء في زيارتهم

ويحبوا كل من نفرهم عنهم ، ثم إن وقع أن أحداً من الأمراء زارهم باستجلاب أحد من أصحابهم أو غيره .

قالوا له : يا أمير نحن لانستحق زيارة مثلك ولكن إن كان لك ولابد لك من زيارة الصالحين فزر فلاناً وفلاناً من الصالحين ، ويذكرون له من فى بلدهم أو إقليمهم من آقرانهم ، ويقولون له من دلك علينا قد غشك وغشنا فالله تعالى يغفر لنا وله .

وقد فعلت أنا مثل ذلك مع الدفاتر والصناجق الذين يزورونى ، فبحمد الله تعالى انقطعوا عنى ، وصاروا يزورون أقرانى إلى وقتى هذا .

ولم أجد لهذا الخلق فاعلاً فى مصر إلا القليل كسيدى على الخواص ، والشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شهاب الدين بن الشلبى رضى الله تعالى عنهم فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يتنزلوا لعقل نسائهم فإذا غارت زوجتهم من كلامهم لجاريتهم أو التبسم لها مثلاً فمن العقل ترك ذلك وإلا خربت الدار

وضاعت مصالحها وقد فعلت أنا مثل ذلك مع أمتى وزوجتى ، وذلك أنى شممت من فم الجارية لما طأطأت تصب على يدى الماء رائحة ثوم أو بصل فقلت لها : اغسلى فمك من ذلك فقالت زوجتى : لأى شيء تقول لها اغسلى فمك ، فمن ذلك الوقت ، وهى عندى كالحرة الأجنبيه مراعاة لخاطر زوجتى المذكورة ، ولو أننى لم أوافقها لربما غلبت عليها الغيرة ، حتى ظن الناس أنه لولا رأتنى أقبلها مثلاً ما غارت منى .

فاتبعنى يا أخى فى ذلك ولا تراع ناموسك وتقول أنا شيخ مشايخ وكيف يظن بى سوء ، فتخرب دارك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يرشدوا فقراء الزاوية إلي كمال الأدب في المشي وفتح الخزائن بلا صوت

فيفعلوا ذلك بالهوينا ولا يصوتوا بالدك على الأرض بأقدامهم ولا يلقلقوا الضبة بالمفتاح بالقوة ، فإن ذلك يشوش على قلوب الفقراء حال جمعية قلوبهم لاسيما فى وقت إحرامهم بالصلاة أو قراءة الأوراد .

وممن أدركته يزجر أصحابه عن التصويت بأقدامهم إذا مشوا فى الزاوية الشيخ تاج الدين الذاكر رحمه الله ، ثم إنه فرش الزاوية كلها بلبابيد سود ، حتى لا يسمع وقع الأقدام من أحد منهم ، وهذا من محاسن آداب الفقراء فإن أصعب ما على الفقير إذا كان فى جمعية قلب مع ربه تعالى أن يسمع صوتاً يفرقه عنه ، وكثيراً ما أحس بتعب فى كبدى وقلبى إذا دق أحد من الجهلة على الباب فاحذروا أيها الفقراء أن تفعلوا مثل ذلك مع أحد من الفقراء والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا جاءهم أحد يطلب علي يدهم الطريق أن يعلموه بما يستقبله فيهم من أنواع الإمتحان

فإن كل مدع ممتحن بخلاف من سبق له من الله تعالى المحبة ، فإنه لايحتاج إلى امتحان إذ لا يمتحن إلا المحب لا المحبوب .

وقد جاءنى أخونا الشيخ محمد الغوى يطلب طريق الخواص .

فقلت له : أنت الآن فى راحة وخير بتأديتك الفرض ، وفعلك ما تقدر عليه من الطاعات ، فإن طريق الخواص لابد لك فيها من الجذام والبرص ، وتحويل النعم مع قساوة قلوب العباد عليك ، ونحو ذلك .

فعرض ذلك على نفسه ، فرجع عما كان طلبه .

فإن قلت :إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد ابتلوا مع أنهم محبوبون بالاختصاص الالهى فلا يحتاجون إلى امتحان قلنا كل نبى محب من وجه ومحبوب من وجه ففيه جزء بشرى يطلب الحق تعالى ، ومنه ابتلى اختباراً له كما قال تعالى فى السيد أيوب عليه الصلاة والسلام بعد ابتلائه « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب(۱)» ففى قول الحق سبحانه إنا وجدناه صابراً رائحة من الاختبار بالنظر لمقام النبوة(۲) .

---

(۱) سورة ص آية : ٤٤ .

(۲) ومن ذلك المقام أيضاً سيدنا إبراهيم عليه السلام حيث ابتلى عدة مرات منها : يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الصافات : (وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاءربه بقلب سليم ، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكاً آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم ، فتولوا عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، مالكم لاتنطقون ، فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون ، قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وماتعملون ، قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الحجيم ، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) سورة الصافات الآيات ۸۳ – ۹۸ .

لقد استمر سيدنا إبراهيم عليه السلام ، يدعو قومه إلى عبادة الله ، ويقيم لهم الحجة تلو الحجة ، على فساد ما هم عليه من العبادة .

لقد أنكر عليهم عبادة الأوثان فقال :

(ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) أى معتكفون عندها وخاضعون لها ، فما كان ردهم عليه إلا أنهم فعلوا ذلك تقليدا لآبائهم وأجدادهم ، (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فقال لهم : (لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : فى ابتلاء الأنبياء أمور كثيرة : منها اختبار أحدهم من حيث الجزء البشرى المشار إليهم بحديث (إنما أنا بشر مثلكم أغضب كما يغضب البشر ، وأرضى كما يرضى البشر) لا الو هبى .

مبين) كما فى قوله تعالى : (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكاً آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين) .
قال قتادة : (فما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره) .
وسألهم سيدنا إبراهيم عليه السلام عن آلهتهم هل يسمعونهم إذا دعوهم أو ينفعونهم أو يضرونهم فكانت إجابتهم أنهم : وجدوا آبائهم كذلك يفعلون .
ويظهر لنا من هذا أنهم سلموا له ، أنها لاتسمع داعياً ولاتنفع ولاتضر ، وأن عبادتهم محض تقليد لاغير ، ولهذا قال لهم :
(أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وأباؤكم الأقدمون ،فإنهم عدو لى إلا رب العالمين) .
وهذا برهان قاطع على بطلان إلآهية ما ادعوه من الأصناف ، لأنه تبرأ منها فلو كانت تضر لضرته .
واستمروا فى عنادهم فقالوا :
(أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين!)
فرد عليهم قائلاً : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) يعنى بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً ، وإنما إلآهكم الله الذى لا إله إلا هو ربكم ورب كل شىء ، وخالق السموات والأرض ، فهو المستحق للعبادة وحده لاشريك له ، وأنا على ذلك من الشاهدين :
كل ذلك: أبان لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، أنه لا ينفع معهم حجة ولا برهان ، وأن عقلهم لايزن الأمور بميزان المنطق الصحيح ، فعمد عليه السلام ، إلى برهان عملى قام به فى جد جاد ، وتغلب غالب ، لايثنيه عنه سلطانهم ، فترك القوم ينصرفون إلى عيد من أعيادهم معتذراً عن الذهاب معهم بقوله : إنى سقيم .
وبعد أن خرجوا راغ إلى آلهتم أى ذهب إليها مسرعاً مستخفياً ، فقال لها على سبيل التهكم والإزدراء ، وقد وجد أن قومه قد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً لها فقال :
(ألا تأكلون مالكم لاتنطقون ؟ فراغ عليهم ضربا باليمين) .
لقد حطم سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام فجعلها أجذاذاً ، أى حطاماً كسرها كلها ، ولم يترك منها سوى كبير هذه الأصنام .
فلما رجع القوم من عيدهم ، ورأوا ما حل بآلهتهم قالوا :
(من فعل هذا بآلهتنا ، إنه لمن الضالين) .
قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم :
– أى يذكرها بالعيب والتنقص والازدراء بها ، فلابد أن يكون هو الفاعل لهذا – قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .
– نادوا بأن يأتوا به على أعين الناس ليشهدوا عليه بمقالته ، ويروا ما يحل به من شديد العقاب .
ولاشك أن اجتماع القوم فى صعيد واحد كانت أمنية لسيدنا إبراهيم عليه السلام ليقيم لهم الحجة جميعاً على بطلان مايعتقدون ويريهم البرهان على فساد ما هم عليه عاكفون .
المحاكمة : تقدم سيدنا إبراهيم عليه السلام للمحاكمة وهنا شخصت الأبصار لسماع الجواب والنقاش وعرضت عليه تلك الأسئلة! (أأنت فعلت هذا بآلهتنايا إبراهيم ؟؟) .
ولكن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان حكيماً ذكياً صاحب عقل ومنطق سار بهم فى الجدال إلى ناحية أخرى ليبلغ رسالته مهما كانت النتائج ، وبرهن بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه ، ليلزمهم الحجة لعلهم يرجعون إلى صوابهم فقال :

ومنها اقتداء قومهم بهم فى الصبر ، والتجلد .

ومنها رفع درجاتهم اللائقة بهم انتهى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ولا تدخلوا فى عهد شيخ إلا إن وطنتم نفوسكم على تحمل البلايا والمحن فإن الله تعالى يحب من عباده الراضى بما أعطاه ، حتى يكون الحق تعالى هو الذى يبتديه بالمقامات ، والأرزاق المحسوسة ، والمعنوية والحمد لله رب العالمين .

• • •

(بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون) .
صفعهم بهذه الحجة الدامغة ، التى نبهتهم من غفلتهم ، وأيقظتهم من غفوتهم فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وقالوا :
(إنكم أنتم الظالمون) .
لقد تركتموها لاحافظ لها ولا رقيب عندها ، فحطمها من لا يؤمن بها ، ثم أدركتهم الحيرة وعقدت ألسنتهم فأطرقوا مفكرين ، ثم توجهوا بالكلام مع إبراهيم :
(لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) .
لقد عرفت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لاترد سؤالا ولا تسمع كلاماً ، فكيف تأمرنا بسؤالها وهى حجارة صماء جامدة ؟
ولما أقروا بعجز الآلهة ، وقصورها عن معرفة ما يجرى حولها ، وجردوها من القدرة علي دفع العدوان ، ورد كيد المعتدين ، حينئذ ظهرت حجة سيدنا إبراهيم عليه السلام واضحة .
ورأي الفرصة سانحة لإلزامهم بالمنطق السوى السليم قال لهم : (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم! أفٍ لكم ولماتعبدون من دون الله أفلا تعقلون) .
فلما غلبوا علٰى أمرهم ، وخافوا افتضاح حالهم ، ولم تبق لهم حجة أو شبهة يكابرون بها ، عمدوا إلى القوة يسترون هزيمتهم ، ويخفون باطلهم، فقالوا : (حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) .
وشرع القوم يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم عليه السلام ، ووضعوا ما جمعوا من الحطب فى المكان المعد له ، وأشعلوا فيه النار فاضطربت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله ، ثم وضعوا الخليل فى كفة منجنيق وألقوه فى النار .
روى البخارى بسنده عن ابن عباس أنه قال عندما ألقى إبراهيم فى النار قال (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، واستجاب الله له ، فقد كان فى رعاية الله وكلئه فلم تحرق منه إلا الوثاق : (قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) .
وهكذا رد الله كيدهم فى نحورهم ، وأبان عن خسرانهم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين .

ومن أخلاقهم : الخروج عن محبة أولادهم بالطبع إلي المحبة الدينية حتي تصير أولادهم عندهم بمثابة الأجانب علي حد سواء

فكل من كان أكثر طاعة لله عز وجل قدموه فى المحبة .

وقد تحققت بذلك ولله الحمد ، فربما يترك ولدى الشيخ عبدالرحمن حضور درس أو مجلس ذكر ، فأقدم عليه فى المحبة جميع من كان حاضراً فى المجلس من الرجال ، والأطفال ، وأريد أن أرجحه بحكم الطبع فلا أقدر ، وهذا من أفضل نعم الله على العبد فإنه من أوثق الإيمان فيحب العبد أخاه لله تعالى لا لحاجة إليه ، ولا لكونه والدا له ، ويبغضه كذلك إذا عصى ربه حتى لو كان من المحسنين إليه ، وفى القرآن العظيم (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحيوة الدنيا[١]) .. الآية إذ الإعراض عادة لا يكون إلا عن مبغوض .

فأعلم ذلك يا أخى وكن دائراً مع مرضات الله تعالى لا تحب ، ولا تبغض إلا تبعاً لقواعد شرعه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا صار أحدهم مورداً للإخوان ومقصوداً في قضاء حوائجهم وأهلا لزيارة الناس له من الأكابر والأصاغر أن يقدم العكوف في بيته علي زيارة إخوانه أو عيادتهم

فلايذهب إلى زيارة أحد ، ولا إلى عيادته إلا إن كان فارغاً وغلب على ظنه أن أحداً لا يأتى إليه من الأكابر ، فيكون عمله الترجيح دائماً .

وقد خرجت مرة إلى عيادة شخص كان به وجع فى رأسه ، فجأنى الدفتردار ، وجماعة من الأمراء ، فلم يجدونى فلا تسأل يا أخى ماجرا لى من التشويش ، ثم خرجت إلى زيارتهم فى بيوتهم مكافأة لهم لبعض ما فعلوا معى ، ومن ذلك اليوم ما

(١) سورة النجم آية : ٢٩.

عزمت على خروج من الزاوية إلا بعد قولى (اللهم إن كان أحد خرج لزيارتى ، وهو فى الطريق فعوقنى له ، حتى يحضر ، أو كان عازما على الخروج لى ، فعوقه فى بيته ، حتى أرجع انتهى) ووجدت ببركة ذلك .

فاعملوا بمثلة أيها الإخوان إذا صار أحدكم موردة للإخوان ، والزوار ، وأعلموا إخوانكم بعذركم فى عدم زيارتهم ليقل عتبهم عليكم ولا يحملوكم على التكبر عليهم ، ويقولوا إنما يترك فلان زيارتنا استهانة بحقوقنا ، وربما قالوا إن فلاناً يقدم الأمراء على الفقراء فى الاعتناء ، والإقبال ، ولو كان من الصالحين ، لعظم الفقراء أكثر كما أوضحنا ذلك فى المنن الكبرى .

وقد كان الشيخ عبدالقادر الدشطوطى إذا سلم عليه فقير لا يعتنى به كل ذلك الإعتناء ، وإذا سلم عليه أمير أو جندى يعتنقه ، ويقبله فى عنقه ويظهر له المحبة ، فقيل له فى ذلك فقال إن الفقير لا يظلم أحداً ولا أشفع عنده فى مظلوم بخلاف هؤلاء الأمراء فنحن نحملهم على المحامل السيئة ثم إياك واتباع الهوى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : (   )[١] الذي أرسل لهما السلام ثم لا يرون أنهم كافؤه بالمشي إليه فإن خطورهم علي قلبه أكثر فضلاً من مشيهم إليه .

ومن هو ذلك الفقير حتى يخطر على قلب ذلك الأمير هذا ماعلمنا أشياخنا من الأدب مع الأكابر فى هذه الدار والحمد لله رب العالمين.

• • •

(١) مطموس من الأصل.

ومن أخلاقهم: إذا كان طعام زاويتهم لكل وارد عليهم بشرط الواقف أو بإشارة الناظر الذي له الإدخال والإخراج أن لا يردوا من جاء يطلب المجاورة عندهم.

توفيراً لطعام الزاوية عليهم بل يقروا كل من جاور عندهم على المجاورة إلى حد يبلغوا به إلى أوائل مرتبة الاضطرار ، فهناك يمنعون من يجاور خوف الإضرار به ، وبهم ، فلاهم يصبرون على الجوع الشديد ولا هو يرجع عن طلب الخبز والطعام هذا كله فيما إذا لم يكن للمجاورين عدد معلوم .

وقد كثر المجاورون عند سيدى الشيخ أبى الحسن الغمرى فعزم على إخراج بعضهم فقال له الشيخ يوسف الحريثى رحمه الله تعالى: أنظر فكل من رأيت رزقه عليك، فأخرجه إن شئت، وأما من رزقه على الله تعالى فدعه فى بيته يعبده ، فرجع الشيخ عما كان عزم عليه ، وبالجملة مرتبة الفقراء فى كل عصر الإيثار والقناعة ، فإذا فعل كل واحد منهم ذلك أسبغ الله تعالى عليهم النعمة ، ورزقهم من حيث لايحتسبون ، وحماهم من المخاصمة على الطعام ومن الشرور الواقعة بسبب ذلك عادة .

ومن تأمل وجد سدا الفقراء ولحمتهم تحمل شدائد وكروب ماداموا فى هذه الدار إلى من شاء الله تعالى ، كسيدى محمد الحنفى وسيدى على بن وفا ، وسيدى مدين ، وأضرابهم فإن هؤلاء رباهم الله تعالى على وصف الدلال .

وكان سيدى على بن وفا يقول : ما عرفنا ولا الفنا سوى الموافاة والوصال .

وكان سيدى محى الدين بن عربى رحمه الله يقول : ما تجلى الحق تعالى لقلبى بمظهر قهر قط ، وما سمعت بالقهر إلا من غيرى ، فما قهرنى تعالى قط انتهى .

وفى عصرنا هذا جماعة على هذا القدم الشريف فى سعة الرزق منهم سيدى محمد البكرى فسح الله فى أجله فإن ملبسه ومأكله ومسكنه ومنكحه كالملوك مع عدم حصول ذل فى طريق ذلك الغنى ، ومن أراد من فقراء العصر أن يتبعه فى ذلك هلك ولم ينله من ذلك إلا التعب ، والعناء والله ينفعنا ببركته ويمدنا بإمداده والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا هجر أحدهم مريداً بطريقة الشرعي أن لا يكون في باطنه له حقد ولا غل ولا مكر

وهو معنى قوله تعالى « واهجروهم هجراً جميلا[١] » أى هجراً لا حقد فيه ، وإيضاح ذلك :

أن الكمل لاينظرون من الخلق بالأصالة إلا حقائقهم ، وهو القدر المدبر لأرواحهم من سر الحق جل وعلا ، فهو خاص بمن غلب عليه شهود الحق قبل الخلق ، وهو مقام السيد أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه كان يقول :

ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله انتهى .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من شرط الكمال أن لايكون عنده حقد ولا مكر ولا استهزاء لأن عبوديته كشهوده له وأما وجه سيادته المعبر عنه برياسة الروح ، فهو مستور عنه لأنه يؤدى إلى الزهو والعجب ، والكبر ، وذلك ينافى الكمال وفى الحديث (من تواضع لله رفعه الله عز وجل انتهى) فجعل الحق تعالى رفعة عبده بذله ، وانكساره وملازمة عبوديته لا تكبره ، ودعواه ، ومن حقد على أخيه المسلم أيام هجره ، وقال : ما حقد منى عليه إلا سوء الخلق القائم بى فسر الحق حقد على سر الحق كما يقع فيه بعض أهل الشطح الخارجين عن الأدب .

قلنا له : هذا جهل منك بوجه الأدب ولو كنت كاملاً لشهدت ذلك وانكسارك يقينا بلا حجاب ، وشهدت كمالاتك إيمانا مع الحجاب هذا حكم هذه الدار ، وفى الدار الآخرة ينعكس هذا الحكم ، فيكون وجه سيادته مشهوداً ووجه عبوديته إيماناً ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب الجواهر والدرر والحمد لله رب العالمين .

• • •

(١) سورة المزمل آية : ١٠ .

ومن أخلاقهم : إذا دخلوا على سلطان أو وزير أن يسلموا عليه باللفظ الوارد في السنة

فيقول أحدهم السلام على مولانا السلطان مثلاً ورحمة الله وبركاته واليحذر من الخضوع له بالصدر أو العنق كما عليه جهلة المتصوفة من إدمانهم حب الدنيا وتعظيم أهلها فيكاد أحدهم يركع للوزير إذا رتب له جوالى أو رزقه ونحو ذلك ، وقد نقل الحافظ الجلال السيوطى رحمه الله (   )[١] فى كتاب التحيات له أنه كان يقول تحية العرب ( )[٢] وهى أشرف التحيات ، وتحية الأكاسرة السجود قدام الملك ، وتقبيل الأرض ، وتحية الفرس طرح اليد على الأرض قدام الملك ، وتحية الحبشة عقد اليدين على الصدر بين يدى الملك بسكون ، وتحية الروم كشف غطاء الرأس من بعد مع تنكيس الرأس ، وتحية النوبة إيماء الداخل بالدعا بالإصبع ، كأنه يقبله ، مع جعل يديه جميعاً على رأسه ، ووجهه ، وتحية حمير إيماء الداخل بالدعا بالأصبع . وتحية البحة وضع يد الداخل على كتف الملك فإن بالغ فى الخدمة رفعها ووضعها مراراً انتهى .

قال الجلال السيوطى رحمه الله . وقد تأملت فى هذه التحيات فرأيت غالبها مجموعا فى الصلاة التى هى خدمة ملك الملوك سبحانه وتعالى ، فلهذا ناسب أن يقال فى آخر جلوسها التحيات لله إشارة إلى أنه المستحق ، لجميع التحيات انتهى .

فاعلم يا أخى ذلك وسلم على الملوك ، فمن دونهم بسلام أهل الإسلام فإنه هو المشروع ، وإياك ، وفعل الأعاجم ، وغيرهم مما ابتدع أو خالف السنة ، فإنه لا يليق بمن يدعى طريق القوم أن يخالف السنة ، ولا يغتر بما يفعله مشايخ الروم والعجم مما يخالفها والحمد لله رب العالمين .

• • •

(١، ٢) مطموس من الأصل .

ومن أخلاقهم : كثرة الخوف من الله تعالى كلما دنى أجلهم

فإن ما قارب الشيء أعطى حكمه ، ومعلوم أن الدار الآخرة هى محل الخوف لأنها دار كشف السوءات على رؤس الاشهاد فيا فضيحة من كانت له سريرة سيئة بينه ، وبين الله تعالى ، وظهرت فى الآخرة بين يدى من كان يعتقد فيه الولاية والصلاح فى دار الدنيا .

وبلغنا أن من الناس من يسقط لحم وجهه هناك من الخجل من الله تعالى ومن الخلق.

وسمعت الأخ العزيز سيدى شرف الدين شيخ جامع أمير الجيوش بمصر يقول : مما يدل على شده كرب يوم القيامة ، وأنه أكثر من كرب الدنيا بدرجات أن الواحد منا فى هذه الدار كلما تأخر الزمان إزداد كربا فلو كان يوم القيامة يوم راحة لكنا كلما دنى أجل الواحد منا ازداد راحة انتهى ، فأعجبنى حذقه ، وإدراكه لهذا السر العظيم وهذا خلق قل من يتنبه له من الفقراء فضلا عن غيرهم بل المشهود منا أننا كلما دنى الأجل وقرب قل خوفنا وورعنا ، وزهدنا وتقوانا .

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : الخوف حقيقة إنما هو فى هذه الدار ، حتى إن كل عبد لا يمشى على الصراط يوم القيامة لا يحسب مشيه هنا على قواعد الشريعة ، ومن زاغ عن الشريعة هنا زاغ وزلق على الصراط هناك ، فزلقه هناك بعد زلقاته هنا فالعاقل من جاهد نفسه هناك ، حتى استقامت ولم يقل لكل شيء وقت ورحمة الله واسعة ، وإن كان ذلك صدقاً انتهى .

فاعلموا ذلك أيها الأخوان واعملوا به (١) والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ومما يساعد على دراسة نص الإمام الشعرانى هذه الدراسة عن البعث نبدأها بالتالى :
الحياة : (الحياة تعلق الروح بالبدن واتصاله به) تفسير فتح البيان حـ٤ ص٦٧.
أو هى : الصفة التى يكون الموصوف بها ذا علم وقدره ، تفسير الفخر الرازى حـ٢٠ ، ص٥٤ .
هذه هى الحياة فى تعاريف العلماء ، والواقع أن الله سبحانه وتعالى خلقنا فى هذه الحياة الدنيا لتعرف كمال قدرته ، وإحاطة علمه ، فنعبده وحده لاشريك له ، فإنه خلقنا من بطون أمهاتنا ، لا نعلم شيئاً ، ولا نقدر على شيء ، ولا نملك شيئاً ، ولا نقدر على منع ضر ، ولا دفع شر ، ثم مكننا الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الدنيا،
=

= وسخر لنا ما فى بحرها وبرها وجوها ، وجعل لنا السلطان على دواب الماء وعلمنا مالم نكن نعلم ، ومع ذلك كفرنا بنعم الله ، ولم نضع فى اعتبارنا : أنه لم يخلقنا لا لنعبده وحده لاشريك له ، بل اندفعنا وراء شهواتنا ، ووراء مصالحنا الدنيوية إندفاعاً انسانا كل ما يتعلق بحق الله سبحانه وتعالى ، وجعلنا الحياة الدنيا هى كل مطلبنا، وهى الأمل الذى تهفو إليه النفوس فى كل وقت وحين ، ونسينا الحياة الآخرة التى هى الحياة الحقيقية لو كنا نعلم .

روى الإمام أحمد فى مسنده – من حديث بشر بن جحاش القرشى – أن رسول الله ﷺ ، بصق يوماً فى كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : قال الله تعالى : (يا ابن آدم أنّى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنّى أوان الصدقة) مسند الإمام أحمد بن حنبل حـ٤ ص١٢٠ .

والواقع : إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، فينسى أصله ، ويكذب الحسنى ، ويجهل أنه راحل من هذه الدنيا إلى الحياة الأخرى ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه ، الفقر والمرض ، والموت ، وإنه مع ذلك لوثاب) أنظر تفسير القرطبى حـ١٨ ص٢٠٦ .

وفى شرح الصدور للسيوطى بسنده ، إلى ابن أبى شيبة فى مصنفه ، والإمام أحمد فى كتاب الزهد ، عن حبيب بن الشهيد ، عن الحسن قال : لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة :

إن الأرض لاتسعهم .

قال : إنى جاعل موتا .

قالوا : إذا لايهنأ لهم العيش .

قال : إنى جاعل أملا أخرجه ، الإمام أحمد وابن شيبه .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ :

قال : (يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان : الحرص ، وطول الأمل) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

وعن الإمام على كرم الله وجهه يرفعه : (إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل) فى الصحيحين والنسائي وأحمد .

فإن اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل يقرب الدنيا ويبعد الآخرة ، ولا يدرى الإنسان أن الموت أقرب إليه من حبل الوريد ، ويوضح لنا ذلك الإمام الحسن البصرى بقوله : (من أراد الدنيا على الآخرة عاقبه الله بست عقوبات : ثلاث فى الدنيا ، وثلاث فى الآخرة :

أما التى فى الدنيا : فأمل ليس له منتهى ، وحرص غالب ليس له حد ، وأخذ منه حلاوة العبادة .

وأما التى فى الآخرة : فهول يوم القيامة ، والحساب الشديد والحسرة الطويلة) من كتاب المنبهات لمؤلفه أحمد محمد الحجى .

وقد بين سيدنا رسول الله ﷺ ، أن طول الأمل فى الدنيا مذموم ، ويؤدى إلى أن ينسى الإنسان آخرته ويغتر بدنياه : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك فى أهل القبور) روى أوله البخارى ، وآخره الإمام أحمد والترمذى ، وابن ماجه ، وفى رواية : وعد نفسك من أهل القبور ، كما جاء فى مجمع الزوائد .

الموت : يقول الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) سورة الزمر آية : ٤٢ .

وقد بين لنا العلماء حقيقة الموت أخذا من النصوص الشرعية ، والبراهين العقلية ، فهو ليس بعدم محض ، ولافناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهراً وباطناً ، ومفارقة وحيلولة بينهما ، وتبدل من حال إلى حال ، وانتقال من دار إلى دار ، بخلاف النوم ، فإنه انقطاع الروح عن ظاهر البدن من بعض الوجه . (انظر شرح الصدور وبشرى الكئيب للإمام السيوطى ص ١ حـ١٢ .

يقول الإمام ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس ... الآية .

تلتقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات فى المنام فيتساءلون ما شاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجل مسمى ، لا يغلط شيء منها ، فذلك قوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) =

= أخرجه بن مردويه ، وعيد ابن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ فى العظمة .

حقيقة الروح :

إختلف العلماء في حقيقة الروح ، فريق أمسك عن الكلام والبحث فيها واعتبرها سراً من أسرار الله سبحانه وتعالى ، استأثرالله بعلمه ، ولم يؤته أحداً من البشر ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربى وما أؤتيتم من العلم إلا قليلا) سورة الإسراء آية : ٨٥ .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه وأرضاه قال : كنت مع النبى ﷺ فى قرب المدينة ، وهو متكىء على عسيب ، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، فقال بعضهم لاتسألوه ، فقالوا يا محمد ما الروح ؟ فمازال متكئا على العسيب فعلمت أنه يوحى إليه . فقال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أخرجه ابن أبى حاتم فى الصحيحين .

ومن هذه الطائفة أيضاً الإمام الجنيد رضى الله عنه يقول : الروح شىء استأثر الله تعالى بعلمه ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود .

وقد ثبت هذا الرأى عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه كان لايفسر الروح ، فعن عكرمة قال : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الروح قال : الروح من أمرربى لا تنالوا هذه المسألة ، فلاتزيدوا عليها ، قولوا كما قال الله تعالى وعلم نبيه : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أخرجه ابن أبى حاتم كما فى شرح الصدور .

أما الطائفة الثانية التى عرفت الروح فيعبر عنها الإمام ابن القيم فى كتابه الروح والصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية ، لهذا الجسم المحسوس وهو – أى الروح – جسم نورانى علوى خفيف ، حى متحرك شفاف ، ينفذ فى جوهر الأعضاء ، ويسرى فيها سريان الماء فى العود الأخضر ، وسريان الماء فى الورد ، والدهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم ، فمادامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ، بقى هذا الجسم اللطيف متشابكاً بهذه الاعضاء وأفادها هذه الأثار من الحس والحركة ، والإرادة وإذا فسدت هذه الاعضاء بسبب ينافى الروح كاستيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن قبول تلك الأثر فارق الروح البدن ، وانفصل إلى عالم الأرواح أ هـ .

والواقع أن الرأى الأول هو الرأى الراجح فى نظرنا وهو يشمل الجو الإسلامى العام فالله سبحانه وتعالى اعتبرها من أمره ، ولم يبين ماهيتها ، ولم يخبر بهذا رسوله ﷺ ، فلا ندرى حقيقتها ولاكنهها .

البعث : ادعى المشركون والملحدون على مر العصور أنه لا يوجد بعث بعد هذه الحياة الدنيا ، فكان قولهم دائماً (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) سورة التغابن آية : ٧ .

(أئذا كنا تراباً ائنا لفى خلق جديد) سورة الرعد آية : ٥ (من يحى العظام وهى رميم) سورة يس آية : ٧٨ .

(وقالوا أن هى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) سورة الجاثية آية : ٢٤ .

وكان رد الله سبحانه وتعالى مبطلاً لزعمهم وزيف ادعائهم : (قل بل وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) سورة غافر آية : ١٧ .

فالبعث كائن لا محالة ، وهو النشأة الآخرة ، التى يرجع فيها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ، فيحاسب على حياته التى أمضاها ، ففيه يكون سعادة الإنسان أو شقاؤه خالداً فى أحدهما ، وقد بين لنا القرآن الكريم كيفية البعث عند الموت ، و كيفيته عند قيام الساعة ، يقول الله سبحانه وتعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) سورة الروم آية : ٢٧ .

ويقول : (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) سورة المؤمنون آية : ١٦ .

ويقول : (فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون) سورة يس آية : ٥١ .

ويقول : (فسيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة) سورة الإسراء آية : ٥١ .

ويقول تعالى : (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بل قادرين على أن نسوى بنانه) سورة القيامة آية : ٣، ٤ .

ويقول تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين) سورة الأنبياء آية : ١٠٤ .

وقد ذكرت لنا لأحاديث النبوية الشريفة كثيراً مما يتعلق بهذا الشأن نذكر منها :

= عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ، ففته بيده فقال : يا محمد أيحى الله هذا بعد ما أرى ؟

قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت الآيات من آخر سورة يس : (أو لم ير الإنسان) إلى آخر السورة) أخرجه بن جرير وابن المنذر وأبو حاتم والإسماعيلى فى معجمه والحافظ بن مردويه والضياء فى المختار والبيهقى فى البعث كما فى اللوامع جـ٢ ص١٥٨ .

وعنه رضى الله عنهما قال

قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال :

« يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين» أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت :

فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟

قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك .

نفخة الصورة الأولى :

وهى نفخة الفزع ، والتى بها تنتهى أحوال العالم :

« ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله»

ويوضح لنا الحديث الشريف التالى : ما يحدث من هول ذلك اليوم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ :

أن الله لما فرغ من خلق السوات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصاً ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر .

قلت يارسول الله وما الصور؟

قال : القرن:

قلت أى شيء هو ؟

قال : عظيم أن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات :

الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين .

فيأمر الله اسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله، فيأمره فيمدها ويطيلها ولا يفتر وهى التى يقول الله تعالى :

« وماينظر هؤلاء إلاصيحة واحدة مالها من فواق» سورة ص آية : ١٥ .

فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب فتكون سراباً وترتج الأرض بأهلها رجاً فتكون كالسفينة الموقرة فى البحر تضر بها الأمواج وكالقنديل المعلق بالعرض تؤرجحه الأرواح ، وهى التى يقول الله عنها :

« يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة» .

سورة النازعات آية : ٦:٧ .

فتميل الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان وتطير الشياطين هارية من الفزع حتى تأتى الأقطار فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولى الناس مدبرين ، وينادى بعضهم بعضاً، وهو الذى يقول الله تعالى :

« يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم» سورة غافر آية ٣٢ : ٣٣ .

فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض ، فانصدعت من قطر إلى قطر ، فرأوا أمراً عظيماً ، ثم نظروا إلى السماء ، فإذا هى كالمهل ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها .

=

= قال رسول الله ﷺ : والأموات يومئذ لايعلمون بشيء من ذلك .
قلت يارسول الله من استثنى الله تعالى فى قوله « إلامن شاء الله»؟
قال أولئك الشهداء – إنما يتصل الفزع إلى الأحياء ، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وآمنهم منه ، وهو عذاب يبعثه الله على أشر خلقه ويقول الله :
« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد» سورة الحج آية ١–٢ .
فيمكثون فى ذلك ما شاء الله :
وفى حديث طويل وهو مخرج فى تفسير ابن جرير والطبرانى فى المطولات وفى مسند أبى يعلى وفى البعث للبيهقى وفى المطولات لأبى موسى المدنى وفى كتاب الطاعة والعصيان لعلى ابن معبد وعبد ابن حميد وأبى الشيخ فى العظمة كلهم عن أبى هريرة ، ينظر فى ذلك النهاية لابن كثير حـ١ ص١٧٢ واللوامع حـ٢ ص١٦١ .

النفخة الثانية :

وهى نفخة الصعق ، وهى المشارإليها فى قوله تعالى :
(ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) .
سورة الزمر آية: ٦٨ .
ويوضحها بقية الحديث المتقدم ذكره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله فيقول الله – وهو أعلم – فمن بقى ؟
فيقول أى رب بقيت أنت الحى القيوم ، الذى لايموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقى جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا فيقول الله تعالى :
فليمت جبريل وميكائيل فيموتان، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول : « رب قد مات حملة العرش فيقول : وهو أعلم فمن بقى ؟ فيقول :
أنت الحى القيوم الذى لايموت وبقيت أنا .
فيقول : أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار وطوى السماء والأرض كطى السجل للكتب ، وقال :
أنا الجبار ، لمن الملك اليوم ، ثلاث مرات ، فلم يجبه أحد ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويمدها مد الأديم لا نرى فيها عوجا ولا أمتا» أخرجه بنحوه مسلم بروايات أخرى ، وأخرجه بنحوه أيضا ابن ماجة وأبوداود ، باب الرؤية .
الحشر :
والحشر معناه الجمع أى جمع أجزاء الإنسان بعد التفرقة وإحياء الأبدان بعد موتها وحضورها للحساب .
يقول الله تعالى :
« يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً» سورة النبأ آية ١٨ .
أى زمراً تسوقهم الملائكة .
ومما يشرح ذلك قول رسول الله ﷺ :
يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم يتنظرون فصل القضاء .
أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى من عدة طرق أحدهما صحيح والحاكم وقال : صحيح الإسناد .
وعن أبى هريرة رضى الله عنه :
يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم العرق حتى يبلغ آذانهم» . ورد فى الصحيحين .
وعن المقداد رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين قال : =

= فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم منهم من يأخذه إلى عقبيه .
ومنهم من يأخذه إلى حقويه .
ومنهم من يلجمه إلجاماً .
مسلم ومثله عن أبى بكر بن أبى الدنيا من رواية المقداد بن الأسود كما فى النهاية لابن كثير حـ١ ص٢٢٣ .
ومن أوصاف بعض من يحشر يوم القيامة التى ذكرها سيدنا رسول الله ﷺ . وصف المتكبرين .
عن جابر رضى الله عنه مرفوعاً :
يبعث الله يوم القيامة ناساً فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم فيقال : ماهؤلاء فى صور الذر ؟
فيقال : هؤلاء المتكبرون فى الدنيا . رواه البزار .
وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً :
يجىء بالجبارين والمتكبرين يوم القيامة رجال فى صورة الذر ، يطؤهم الناس من هوانهم على الله ، حتى يقضى بين الناس ، قال :
ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار ، قيل يارسول الله وما نار الأنيار ؟
قال : عصارة أهل النار .
الإمام أحمد فى كتاب الزهد كما فى نهاية ابن كثير حـ١ ص٢٢٧ .

النفخة الثالثة :

وهى نفخة البعث والنشور ويقول عنها الله سبحانه وتعالى :
« ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون» . سورة يس آية : ٥١ .
ويقول الله تعالى :
« ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» الزمر آية ٦٨ .
« يوم يناد المناد» سورة ق آية ٤١ .
« يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج» سورة ق آية ٤٢ .
ولأبى هريرة حديث فى ذلك :
إن الله ينزل مطراً على الأرض ، فينزل عليها أربعين يوماً حتى يكون فوقهم اثنى عشر ذراعاً فيأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت .
قال الله تعالى :
« وليحى حملة العرش ، ليحيا جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ، ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً والأخرى ظلمة فيقبضها جميعاً، ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ثم يقول الله تعالى :
« وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها» .
فتدخل الأرواح من الخياشيم، ثم يتمشى مشى السم فى اللديع ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعاً فأما أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون ، أى تخرجون من الأجداث أحياء ، فيقول الكافرون والمنافقون حينئذ :
«يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا» سورة يس آية ٥٢.
ويقول المؤمنون:
«هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون».
للحديث شواهد مخرجه فى الصحيحين وغيرهما، كما تؤيده الآيات القرآنية الكثيرة.

الحساب:

الحساب هو تعريف الله عز وجل الخلائق، مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك. قاله الثقلى كما فى اللوامع جـ٢ ص١٧١. =

= وقد ثبت في القرآن الكريم بقول الله تعالى:
«فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون». سورة الحجر آية: ٩٣,٩٢ .
وقوله تعالى:
«أولئك لهم سوء الحساب» سورة الرعد آية ١٨ .
وقوله تعالى:
«ووجدوا ما عملوا حاضراً»، سورة الكهف آية ٤٩ .
وقوله تعالى:
«فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراًيره» الزلزلة آية٧، ٨ .
وأصح الأقوال أن الله تعالى يحاسب عباده في شأن أعمالهم وثوابها وعقابها.
عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«لا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال:
عن عمره فيما أفناه، وعن علمه وما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه».
رواه الإمام أحمد وابن أبي الدنيا.
وعن عبد الله بن أنيس رضى الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول:
يحشر الله العباد يوم القيامة، أو قال الناس: عراة غرلاً بهما، قال قلنا وما بهما؟
قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لاحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقضيه منه حتى اللطمة.
قال: وكيف وإنما نأتي عراة غرلاً بهما؟
قال: الحسنات والسيئات: رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو بكر.
وروى الحسن قال: سمعت أبا موسى الاشعرى رضى الله عنه يقول:
قال رسول الله ﷺ:
يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف: «فمن أوتى كتابه بيمينه وحوسب حسابا يسيراً دخل الجنة، ومن أوتى كتابه بشماله دخل النار.
الإمام أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا ولكنه ضعيف أنظر هامش العقيدة الطحاوية .

الميزان:

وإذا نقص الحساب كان بعده وزن الأعمال لان الوزن للجزاء، فإذا كان بعد المحاسبة إذ المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها».
العقيدة الطحاوية.
ويقول الله تعالى في ذلك:
«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» سورة الأنبياء، آية ٤٧ .
(والوزن يؤمئذ الحق) سورة الأعراف، آية: ٨ .
ويوضح ذلك ماروى عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما من حديث جبريل عليه السلام عن الإيمان قال:
أن تؤمن الله، وملائكته، وكتبه، ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر، خيره وشره.
قال: إذا فعلت ذلك فأنا مؤمن.
قال: نعم.
قال: صدقت.
رواه البيهقي في الشعب. =

= وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال:
قال رسول الله ﷺ:
«الطهور شطهر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان» فى صحيح مسلم.
وفى خاتمة صحيح البخارى رضى الله عنه قوله: ﷺ:
«كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان فى الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.
وعن أنس رضى الله عنه قال:
سألت النبى ﷺ أن يشفع فى يوم القيامة، فقال: أنا فاعل.
قلت: يارسول الله فأين أطلبك؟
قال: أطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط.
قلت: فإن لم ألقك على الصرط؟
قال: فاطلبنى عند الميزان.
قلت: فإن لم ألقك؟
قال: فاطلبنى عند الحوض قال: فإنى لا أخطئ هذه الثلاثة المواطن.
أخرجه الترمذى وحسنه والبيهقى.
وصح «أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطره بين الجنة والنار، فيقتصى لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة.
أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

حقيقة الجنة:

والجنة التى وعد المتقون هى دار الثواب أعدها الله لهم وهى فى الأصل مأخوذة من الجن بمعنى الستر وتطلق على البستان الذى سترت أشجاره أرضه وعلى الأرض التى بها شجر ونخل كما تلطق على نفس الشجر ثم صارت علما على دار الثواب التى فيها من أنواع النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وجمعت الجنة جمع قلة لقلتها عدداً مع اشتمال كل واحدة منها على درجات متفاوته بحسب تفاوت درجات الأعمال.

وقد ورد أنها سبع جنات هى الفردوس والمأوى والخلد والنعيم ودار السلام ودار الإجلال وهذا رأى ابن عباس.

وذهب آخرون إلى أنها أربع فقط بدليل قوله تعالى فى سورة الرحمن (ولمن خاف مقام ربه جنتان) هما النعيم والمأوى.

ثم قال تعالى: (ومن دونهما جنتان) عدن والفردوس وقيل الجنة واحدة والأسماء المتقدمة صادقة عليها والحق الذى يجب الإيمان به أن الجنة هى دار الثواب التى وعدها الله عباده الصالحين.

أما أنها واحدة أو أكثر فهذا بحث لا يترتب عليه كبير فائدة ولم يرد فى ذلك نص صريح أو مستند صحيح.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بقوله:
(تجرى من تحتها الأنهار).
ويتحدث عن النعيم الذى يلاقيه أهلها بقوله:
«على سرر موضوعة».
«متكئين عليها متقابلين».
«يطوف عليهم ولدان مخلدون».
«بأكواب وأباريق وكأس من معين»
«لا يصدعون عنها ولا ينزفون».
«وفاكهة مما يتخيرون».
«ولحم طير ممايشتهون».
«وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون».

=

= «جزاء بما كانوا يعملون»
«لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاما»
ويتحدث عنهم أيضا بقوله:
«في سرد مخضود»
«وطلح ممدود»
«وماء مسكوب»
«وفاكهة كثيرة»
«لا مقطوعة ولا ممنوعة»
«وفرش مرفوعة»
«إنا أنشأناهن إنشاء»
«فجعلناهن ابكاراً»
«عربا أترابا»
«لأصحاب اليمين»

حقيقة جهنم:

ولقد أخبر سبحانه أنه أعد للمنافقين والمشركين جهنم لتكون لهم دار عذاب مقيم خالدين فيها وساء هذا العقاب جزاء لهم لسوء صنيعهم وساءت جهنم لهم مصيراً.

وجهنم إسم من أسماء النار الأخروية وتسمى أيضا سعيرا وتسمى لظى وتسمى سقر، وتسمى الهاوية وتسمى الجحيم، وتسمى الحطمة.

وقيل أن هذه أسماء لطبقات متفاوته فى النار لكل طبقة طائفة خاصة، وليس لهذا القول مستند فى اختصاص كل اسم بطبقة معينة، ولا فى اختصاص كل طبقة بطائفة وكونها درجات متفاوتة فى أنواع العذاب لا يستلزم أن هذه أسماء لطبقات مختلفة.

فالواجب اعتقاده أن لله تعالى دار عقاب أعدها للمنافقين والمشركين ليخلدوا فيها وسيعذب بها من شاء من عصاة المؤمنين قبل أن يدخلهم الجنة.

وقد صرح القرآن الكريم أن للنار سبعة أبواب لكل باب طائفة خاصة من العصاه (وأن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم).

وقد عين قوم لكل باب فريقا من العصاه يدخلون منه؛ ولا سبيل إلى القطع فما مثل ذلك.

وجود الجنة والنار:

وقد ذهب الجمهور إلى أن الجنة والنار موجودتان الآن لأن هذا هو المتبادر من قوله تعالى فى صفة النار:
«وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا»
«واتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين».
وقوله تعالى فى صفة الجنة:
«وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين».
«سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله».
حيث عبر فى جميعها بالماضى وهو «أعدت» وقوله تعالى:
«النار يعرضون عليها غدوا وعشيا، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب»
وقوله تعالى عن الرسول ﷺ:
«ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى».

ولا مقتضى للعدول عن هذا الظاهر ويرى بعض المعتزلة أن الجنة والنار سيوجدان يوم الجزاء ولا وجود لهما الآن وقد افترقت مسالك هذا الفريق فى الاستدلال فمنهم سلك مسلكا عقليا محتجا بأن الجنة والنار دارا جزاء والجزاء إنما يكون فى الدار الآخره بعد البعث فالحكمة تقتضى إيجادهما يومئذ، أما إيجادهما الآن فهو خال عن الحكمة فيكون عبثا والله تعالى منزه عن العبث فى أفعاله والجواب أن الحكمة فى إيجادهما الآن لاتنحصر فى =

ومن أخلاقهم: اتخاذ المؤذن في سفرهم كإقامتهم ولو كان عبداً حبشياً

بل هو مستحب فإن بلال مؤذن رسول الله ﷺ كان حبشياً[1] ، وبلغنا أنه كان يقول:

= الجزاء فيجوز أن يكون لإيجادهما الآن حكمة لانعلمها كما هو الشائن فى كثير من أفعاله تعالى يعجز العقل عن إدراك حكمته وعدم الإطلاع على الحكمة لا يقتضى عدمها فيجب التسليم بما ورد فى الآثار ومن هذا الفريق من سلك طريق النقل محتجا بقوله تعالى:

«كل شيء هالك إلا وجهه».

فلو كانت الجنة والنار موجودتين الآن للحقهما الهلاك وقد ضمن لها عز وجل البقاء والخلود وقال فى وصف الجنة:

«أكلها دائم وظلها» وهذا الدوام ينافى طرء العدم عليها فوجب ألا توجد الجنة والنار إلا بعد البعث حتى لا يعتريها الفناء ويجاب بأن المراد بالهلاك فى قوله تعالى:

«كل شيء هالك إلا وجهه».

الهلاك الحكمى بمعنى أن الممكن لما كان وجوده ضعيفا بالنسبة إلى واجب الوجود جل شأنه لاستفادة وجود الممكن من غيره كان فى حكم الهالك المعدوم وهذا أولى من الأجوبة الأخرى مثل: المراد بالهلاك، الهلاك الصورى الذى هو تفرق الأجزاء لحظة وهو لا ينافى دوام الذات ومثل قولهم:

المراد بدوام أكل الجنة الدوام البدلى لإستحالة دوام مأكول بعينه.

ولا أدرى كيف تمسك هذا الفريق من المعتزلة بهذه الآية مع إمكان تأويلها وتمشيها مع الآيات الأخرى والأحاديث الكثيرة.

ولو تأمل المنكرون وجود الجنة والنار قليلا وأنصفوا فى حكمهم وقرأوا السنة بإمعان لوجدوا فى كثير من الأحاديث الصحيحة التصريح بوجودهما الآن، ولا عترفوا بانه ليس هناك ما ينافيه عقلا، أو لم يسمعوا قوله ﷺ فى حديث الإسراء الذى أخرجه البخارى وغيره:

«ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك».

(١) ومما يروى فى جهاد سيدنا بلال بن رباح رضى الله عنه فى سبيل الدعوة الآتى:

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد -رضى الله عنهم.

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه فى الله وهان على قومه، فاخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد -أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبى صحيح وأخرجه أبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى الإستيعاب من حديث ابن مسعود بمثله.

وأخرج الزبير بن بكار عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما قال: كان بلال لجارية من بنى جمح وكانوا يعذبونه برمضاء مكة يلصقون ظهره بالرمضاء لكى يشرك، فيقول: أحد أحد، فيمر به ورقة -وهو على تلك الحال- فيقول: أحد أحد يا بلال! والله! لئن قتلتموه لا تخذنه حنانا.

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن هشام ابن عروة عن أبيه قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال وهو يعذب، وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد أحد، الله يا بلال! ثم يقبل ورقة بن نوفل على أمية بن خلف وهو يصنع ذلك ببلال فيقول: أحلف بالله عز وجل! لئن قتلتموه على هذا لاتخذته حناناً، حتى مر به أبو بكر الصديق يوماً وهم يصنعون ذلك فقال لأمية: ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ حتى متى قال: أنت أفسدته فانقذه مما ترى. فقال أبو بكر: أفعل، =

أشـهـد أن لا إله إلا الله بالسين المهـملة فـقـال لـه رسـول الله ﷺ : (سـينك عند الله شين[١]) .

وفى حديث الطبرانى مرفوعاً (اتخذوا السودان فإن فيهم ثلاثة من سادات أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشى[٢] وبلال المؤذن) انتهى .

= عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به، قال: قد قبلت، قال: هو لك. فاعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأخذ بلالا فأعتقه: ثم أعتق معه على الإسلام -قبل أن يهاجر من مكة- ست رقاب، بلال سابعهم.

وذكر أبو نعيم فى الحلية عن ابن إسحاق: كان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يامر بالصخرة العظيمة فنوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، وهو يقول -فى ذلك البلاء- أحد، أحد. قال عمار بن ياسر -وهو يذكر بلال وأصحابه وما كانوا فيه من البلاء وإعتاق أبى بكر إياه، وكان إسم أبى بكر عتيقا رضى الله عنه:-

جزى الله خيرا عن بلال وصحبه *** عتيقًا وأخزى فاكها وأبا جهل
عشية هما فى بلال بسوءة *** ولم يحذرا ما يحذر المرء ذو العقل
بتوحيده رب الأنام وقوله *** شهدت بأن الله ربى على مهل
فإن يقتلونى يقتلونى فلم الحمد *** لأشرك بالرحمن من خيفة القتل
فيارب إبراهيم والعبد يونس *** وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبتل
لمن ظل يهوى الغى من آل غالب *** على غير بركان منه ولا عدل

(١) وقد ورد ذكر لقمان فى القرآن الكريم يقول الله تعالى: (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد. وإذ قال لقمان لإبنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم...) إلى آخر الآيات التى وردت عنه فى سورة لقمان.

أما قول الله تعالى: ولقد آتينا لقمان الحكمة) ففيها قولان: أحدهما: الفهم والعقل، قاله الجمهور والثانى: النبوة. وقد اختلف فى نبوته على قولين: أحدهما: أنه كان حكيما ولم يكن نبيا، قاله سعيد بن المسيب ومجاهد وقتادة.

والثانى:

والثانى: أنه كان نبياً، قاله الشعبى، وعكرمة، والسدى، هكذا حكاه عنهم الواحد، والقول الأول أصح.

وفى صناعته ثلاثة أقوال:

أحدهما: عن سعيد بن المسيب أنه كان خياطاً.

والثانى: عن ابن زيد أنه كان راعياً.

والثالث: عن خالد الربعى أنه كان نجاراً:

وأما صفته: فقد قال بن عباس أنه كان عبداً حبشياً. وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر.

وقال مجاهد: كان غليظ الشفتين مشقق القدمين، وكان قاضياً على بنى إسرائيل.

(٢) ويمكن تلخيص قصة النجاشى مع الرسول ﷺ من الرسالة التى بعث بها إليه رسول الله ﷺ وإجابة النجاشى عليها نقول:

اخرج البيهقى عن إبن إسحاق قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى رضى الله عنه إلى النجاشى فى شأن جعفر ابن أبى طالب وأصحابه رضى الله عنهم وكتب معه كتاباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة! سلام عليك! فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة.

=

قال الطبرانى المراد بالسودان الحبش .

وفى حديث أبى هريرة من رواية الترمذى ، ورفعه بعضهم (الملك فى قريش ، والقضاء فى الأنصار ، والأذان فى الحبشة) انتهى .

واستدل به الشيخ أبو اسحاق الشيرازى فى المهذب على استحباب كون المؤذن حبشياً ، وأقره النووى فى شرحه .

وفى رواية لعبد الله بن الإمام أحمد رضى الله عنه مرفوعاً (الخلافة فى قريش ، والحكم فى الأنصار ، والدعوة فى الحبشة) والدعوة هى الأذان .

فإن قيل كيف نقضتم هذا الحديث ، فقلتم بوجوب كون الإمام قرشياً ، وباستحباب كونه مؤذناً ، فهلا قلتم بوجوب كل منهما أو ندبه فالجواب من عشرة أوجه أحسنها : أن النبى ﷺ أقام فى الأذان غير الحبشة ، فدل على أن الحديث فى الندب ، وأما الخليفة ، فإنه قائم ، مقام رسول الله ﷺ فى تدبير أمور المسلمين، فوجب أن يكون من أقاربه، وماروى من قوله ﷺ لأبى ذر أسمع وأطع ولو لعبد حبشى كأن رأسه (   )[1] المراد منه أن الإمام يكون عبداً حبشياً ، وإنما المراد منه مبعوثه من عبيدة قال الرافعى هو من باب المبالغة .

وأخرج ابن أبى حاتم وغيره عن على فى قول الله تعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك[2]) قال : فمما لم يقصص الله على نبيه ﷺ أن الله تعالى

= فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر فانى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى. والسلام على من اتبع الهدى»:

فكتب النجاشى إلى رسول الله ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم ابن أبجن! سلام عليك يا نبى الله من الله! ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام. فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقربنا ابن عمك وأصحابه فاشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعث إليك يانبى الله بانحا بن الأصم بن أبجر، فإنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت آتيك فعلت يارسول الله، فإنى أشهد أن ماتقول حق.

(١) مطموس من الأصل.

(٢) سورة غافر آية: ٧٨.

بعث عبداً حبشياً نبياً أبداً ، وفى رواية أخرى لابن أبى حاتم (بعث الله تعالى نبياً من الحبش ، فهو ممن لم يقصصه على نبينا ﷺ) قال أبو عبيد : وجد الحبشة إسمه أرفده بفتح الهمزة ، وسكون الراء ، وفتح الفاء وكسرها أشهر ، ولما لعب الحبشة بين يدى رسول الله ﷺ فى المسجد ، فزجرهم عمر قال رسول الله ﷺ : (دعهم أمنا بنى أرفده منا) يعنى من الأمن أى العبوا عليكم الأمان منا .

فاعلم ذلك ياأخى واتبع سنة نبيك ﷺ فى سائر الأحوال تفلح والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم : إرشادهم إخوانهم من الولاة إلي العمل بشروط الولاية

لينصلح حالهم فيما إذا كان أحدهم معوجاً أو يدوم فيها إذا كان مستقيماً ، وهى شروط عزيزة قل أن يعلم بها أحد من فقراء الزمان فضلاً عن غيرهم ، ومن عمل بها صارت ميزان ولايته معتدلة كالميزان التى تكون بيد البهلوان إذا مشى على الحبل .

وقد تلقيت هذه الشروط عن سيدى على الخواص عن سيد إبراهيم المتبولى رضى الله عنه عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ من طريق كشفه ، روحانيته ، وقد علمها سيدى إبراهيم للسلطان قايتباى فدامت ولايته تسعاً وعشرين سنة ، وكذلك علمتها أنا لبعض الولاة من الوزراء ، والأمراء ، فدامت ولايته ، حتى مات ، فإن أدعى أحد أنه عمل بها ، وعزل من ولايته ، فهو غير صادق لأن من عمل بها صار عدلاً مرضياً ، والعدل لا يعزل ، وإنما يعزل بالموت مثل ما وقع لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى .

وقد قال بعض المحققين : إنه لايلزم من السبق لولاية أحد من الأئمة أن يكون أفضل ممن تأخر قطعاً ، لأن رسول الله ﷺ أفضل من سائر المرسلين ، وقد تأخرت رسالته ، حتى كان خاتم النبيين ، ولكن لما سبق فى علم الله تعالى أنه لابد لكل من

الخلفاء الأربعة أن يلى الخلافة بعد رسول الله كانت ولايتهم على حسب أعمارهم ، فإن كل واحد منهم عدل مرضى بالإجماع ، وإذا تولى لا يصح عزله ، فلو قدمت ولاية عمر مثلاً على أبى بكر لكان لا يعزل إلا بالموت وكان أبو بكر يخرج من الدنيا من غير ولاية وكذلك القول فى عثمان وعلى فإن كلا منهما لزم أن يخرج الآخر من الدنيا من غير ولاية ، ويتبدل ما سبق به العلم الإلهى وذلك محال ، ولم يأت نص صريح لنا بالترتيب فى الفضل .

قال : وإنما أخذ العلماء ذلك من ظواهر الأدلة وقرائن الأحوال ، فالمقلد للأئمة يلزمه اعتقاد تفضيلهم على الترتيب ، وغير المقلد يفوض الأمر إلى الله تعالى العالم بمراتبهم، فكل له عنده فضل وحرمة انتهى .

قلت : وهذا القول وإن مال إلى الأدب فى نفس الأمر لكان اعتقاد بما عليه الأئمة فى ترتيبهم فى الفضل أولى لئلا يتمسك بذلك الروافض بغير علم والله سبحانه أعلم .

إذا علمت ذلك فأقول وبالله تعالى التوفيق شروط دوام الولاية :

أن يحرر صاحبها نيته ، ويقوم فيها بنية نفع العباد لا بنية نفع نفسه ، وهو بالثواب الأخروى أو الدنيوى، فيقف فى ولايته بنية نفع العباد أولاً ، ويجعل نفع نفسه بحكم التبعية لا بالقصد الأول فإن كل من قام فى نفع العباد كان الوجود كله يمده بالقوة والنصر والدوام .

ومنها أن لايخون من ولاه ، وهو الله تعالى بحكم الأصالة ، ثم السلطان أو الوزير مثلاً ، فلا يعصى ربه لا سراً ولا جهراً ، ولا يعصى إمامه كذلك سراً ، ولا جهراً ، فإن من عصى إمامه انقطعت وصلته به ، وانقطع استمداده من الله تعالى لأنه سند متصل إلى حضر الله تعالى ، فما دام لم يخن فحبل استمداده متصلاً يمده بالتأييد .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : متى خان الأمير من ولاه بأخذ مال من رعيته مثلاً بغير حق بحيث لو عرضه على السلطان لتكدر منه ، ولم يسمح له به

وعزله ، فقد استحق العزل ، وصار كالعمود الذى تزلزلت قاعدته ، وصار يرتج ، فلابد أن يقع ، ولو على طول .

ومنها أن لا ينفذ غضبه في عدوه إذا قدر عليه بل يعفوا عنه ، ويصفح ، فإن كل من نفذ غضبه فى عدوه ذهبت حماية الحق تعالى له واستحق أن يسلط عليه من هو أقوى منه فيعزله له ويشومه شوم الهوان .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول : حكم من نفذ غضبه فى عدوه حكم من أخذ فأساً ، وصار يهد بها جدار نفسه ، حتى يرميه إلى الأرض وأصلح حكم من صار يلطخ جدار نفسه كل قليل بالجبس ، حتى يصير متين بنيان نفسه ومنها أن يحسن إلى حاشيته وحاشية من كان قبله فى بلده فإنه إذا أحسن إليهم صاروا من جنده ولا يباطنوا عليه فإن غالب الخلق الآن عبيد من أحسن إليهم فإذا لم يكرم حاشية من كان قبله عملوا له المكايد ، والحيل عند من ولاه ، وكشفوا له أموراً فى الولاية تضر المتولى حين أيسوا من إحسانه إليهم كما جرب فإذا أحسن إليهم ، ولو بلقمة كانوا كالدعائم لجداره إمال وإذا أسى عليهم كانوا لجداره كالفأس التى يعرقبون بها جداره .

ومنها أن لا يغفل عن كف الظالم من رعيته عن المظلوم ، فلا يدع أحداً يسعى عنده إلى أخذه وظيفة أخيه ، ولا يقبل على ذلك رشوة ، وهذا الشرط من أعظم الشروط ، فإن به درءالفساد عن العالم ، وذلك هو المقصود الأعظم بالولايات ، ومتى ترك الأمير الناس يسعى بعضهم على وظائف بعض ، فقد تسبب فى وقوع الفساد فى العالم ، واستحق من الله تعالى المقت ، والعزل ، وخراب الديار ، كما هو مشاهد فيمن أدركناهم من المفتشين ، والقضاه .

ومنها أن يكون تائباً إلى الله تعالى من سائر الذنوب ، فلا يقع فى شرب خمر ، ولا لواط ، ولا زنا ، ولا غير ذلك من الفواحش ، ومتى وقع فى شيء من ذلك فهو عدو لله تعالى وعدو الله تعالى لا يكون إماماً على المسلمين ، ولا حاكما بينهم ، وقد بلغنى عن

شخص أنه يأتى الفواحش فى الموضع الذى يحكم فيه ، فمشيت إليه ، وعرضت ببعض ماهو مرتكبه ، فلم يسمع ، فحصل له جنون ، وطلع عليه الحب الفرنجى ، حتى أرمى ذكره ، وأنفه ، وعزل ، وصار عبره للناس ، فأنزلوه البيمارستان ، فكان يقول : إحملونى إلى فلان ، فكان يسألنى الخلاص مما هو فيه ، فأقول له سهم الله نفذ فى العبد فما بقى فيه رجوع ، ثم مات على سوء حال وكذلك وقع لى مع بعض الدفاتر ، فالعاقل من اعتبر بغيره والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن لا يتكدروا من الولاة إذا أخذوا أحداً من زاويتهم ممن لهم عليه تبعة واحتمي بهم

لأن الفقراء، ولو ارتفعت درجة أحدهم ، فهو معدود من جملة الرعية لولاة الأمور وعليه السمع والطاعة لهم سواء ولاة السياسة ، أو ولاة الشريعة ، وليس للفقير أن يتكدر من مثل ذلك ولا يظن أن فى هذا بهدله للفقراء وخرقاً لناموس الخرقة ، فإن ناموس (   )[1] الدار أعظم من ناموس الفقير فيها ولكن إن كان ولابد له من التكدر فليتخذ طريقة الطاعة لله تعالى ظاهراً وباطناً بحيث لا يبقى له حال فى باطنه فضلاً عن ظاهره إلا ويوجهه لحماية ذلك الفقير وربه يحميه إن شاء إما بواسطة الحال المؤثر فى الولاة من عزل ومرض وحبس بول ، ونفخ ونحو ذلك وإما بكفهم عنه وعن جماعته ، فلا شىء من ذلك فإن من أطاع الله تعالى أطاع له الخلق من الإنس والجن والوحوش ، ومن يطلب الحماية من الله تعالى ، وعليه ذنب من الذنوب ، فقد رام المحال .

وقد خطف تمساح صبياً فى بلد سيدى إبراهيم الدسوقى ، فجاءته أمه وقالت : يا سيدى إبراهيم أخذ التمساح ولدى ، فأرسل معها النقيب ينادى على شاطئ البحر بأعلى صوته معاشر التماسيح حسب ما رسم سيدى إبراهيم أن كل تمساح ابتلع صبياً ، فليطلع

---
(١) مطموس من الأصل.

به ، فطلع تمساح عظيم ، ومشى مع النقيب إلى باب مقام سيدى إبرهيم ، فأمره الشيخ بأن يلفظه من بطنه ، فأخرجه حياً سليماً .

ثم قال للتمساح : مت بإذن الله تعالى ، فمات ودفنوه تحت عتبة مقام سيدى إبراهيم.

وكذلك حكى لى خادم الفرغلى بن أحمد أن التمساح أخذ أخته ، فأتى إلى الفرغل ، وأخبره بذلك ، فقال ناد فى الموردة معاشر التماسيح كل تمساح أخذ أخت نقيب الفرغل، فليأت بها فطلع تمساح أبيض كبير فهاجت الناس والأطفال منه ، ومشى ، حتى وقف على باب زاوية الفرغل ولفظ الصبية سالمة ، فأمر الشيخ بقلع أنيابه ، فقطعها الحداد كلها ، وهو صابر له ، ودموعه تفرفر من عينيه ، ثم قال له : امض إلى البحر ولا توذ أحداً ، ففعل .

فانظر يا أخى كيف أطاع الحق تعالى لأوليائه وحوش البحر لما أطاعوه ، وطهروا سرائرهم وأعلم يا أخى أن لله عباداً اعطاهم التصريف فى الولاة وغيرهم ، وتركوا التصريف فيهم لما جبلهم الله تعالى عليه من الرحمة ، وبعضهم تصرف فى الظلمة بالإذن ، فلا يلزم من مسك الولاة أحداً من زاوية الشيخ نقص مقام ذلك الشيخ بل الواجب عليه تقديم ناموس السلطنة على ناموس نفسه .

وقد كان سيدى محمد بن عنان من أكابر الأولياء ، ورأيت السلطان الغورى أرسل الوالى فحبس زاويته وأخذ منها بعض فقراء الشيخ .

وممن كان يتصرف فى الولاة بالحال سيدى إبراهيم الجعبرى(١) وسيدى إبراهيم المتبولى ، وسيدى محمد الحنفى ، فقتل كل واحد بالحال بإذن الله ما لا يحصى من

---

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى: ومنهم الشيخ إبراهيم الجعبرى رضى الله عنه بن معضاد بن شداد الزاهد العابد ذو الأحوال الغريبة والمكاشفات العجيبة وكان مجلس وعظه يطرب السامعين ويستجلب العاصين أخبر بموته قبل وفاته ونظر إلى موضع قبره وقال ياقبير جاءك دبير وكان يضحك أهل مجلسه اذا شاء فى حال بكائهم ويبكيهم اذا شاء فى وسط ضحكهم وكان يعظ وهو يمشى بين أهل مجلسه يسدى وينير وكان رضى الله عنه ناراً موقدة على الظلمة والولاة أماراً بالمعروف وله نظم وسجع كثير وتصوف مات سنة سبع وثمانين وستمائة ودفن بزاويته خارج باب النصر.

الظلمة ، فكانوا آلة لموت الظلمة عند انتهاء آجالهم لا أنهم قتلوهم قبل انتهاء آجالهم بغير إرادة الله تعالى ، فافهم .

وممن كان يحبس بول لظالم ، حتى يقاسى الشدة العظيمة ، ثم يفرج عنه سيدى محمد الحنفى ، وحبس بول السلطان شعبان ابن السلطان حسن كذا كذا مرة ، ثم يرسل له رغيفاً بزيت ويأمره بأكله ، فيفرج عنه .

وكان سيدى إبراهيم الجعبرى يفعل بالأمراء والملوك كذلك ولكن يرسل لأحدهم إبريقاً يستنجى منه ، فينطلق بوله .

فالولاة عند كمل الفقراء ، كالأطفال فى يد مربيهم يؤدبونهم كما يرونه يردعهم عن أذى الناس .

ولما عمر سيد أحمد الزاهد جامعه بخط المقسم أخذ الجمالى حمير التراب الذى عند سيدى أحمد ينقل له التراب الذى بمدرسته التى برأس الركن المخلق أرسل له سيدى أحمد ، فقال كلاهما مسجد الله تعالى ، ولم يرسل له حمير التراب ، فتوجه سيدى أحمد إلى الله تعالى ، فنقم السلطان على الجمالى فى ذلك اليوم ، وحبسه ، وبطلت العمارة مدة تسعة أشهر ، حتى فرغ سيدى أحمد من نقل التراب ، وقال قد استحق جمال الدين الاطلاق ، فأطلقه السلطان ذلك اليوم .

فإن كان لك يا أخى حال فاحم نفسك ، وإخوانك ، وإلا فاسكت فإن اللسان والتوسل بأمير آخر فى الحماية لا يكفى عند الفقراء إنما ذلك من شأن العوام .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول الفقير لا يعمل إلا بقلبه وأما يده ، ولسانه فأمرهما سهل .

وقد ذكرنا فى كتاب العهود المحمدية عدد من سلبهم الفرغل من العلماء ، ومن عزلهم من الأمراء ، فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا ولي السلطان علي بلدهم ناساً من أمير أوقاض أن يتوجهوا إلي الله تعالي في هضم نفسه ولين كلمته للرعية رحمة به وبالرعية

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لابد لكل أمير أوقاض ولى من بلاد الروم على مصر أن يخرج إليه أصحاب التصريف بمصر إلى ناحية العريش فى طريق الشام لأنه أول درك فقراء مصر ، فإن جاء من البحر تلقوه من اسكندريه ، فيهضموا نفسه ، ويميلوا قلبه إلى الرحمة بالخلق والرعية قياساً على ما ذكره أهل الكشف من أن الأمر الإلهى إذا نزل بالهلاك يمكث نازلا ثلاث سنين فلا يصل إلى أهل الأرض إلا بعد انسحاق صولته فى السموات وما بينهما إلى الأرض .

قالوا : ولولا ذلك ما أطاق أحد من الخلق حمله لشدة قبوله الخطاب بالأمر الالهى انتهى .

وكذلك القول فيما خرج من حضرة السلطان سليمان ابن عثمان مثلاً له صولة عظيمة لأنه برز من حضرة من حكمه الحق تعالى فى بعض أقاليم الأرض ، فيتوجه أولياء مصر فى بطو ذلك الباشاه أو ذلك القاضى أو ذلك الدفتردار فى الطريق ، فلا يصل إلا بعد شهرين أو أكثر ، ويير العوام يستبطونه ، ولا يعلمون أن ذلك رحمة لهم .

فاعلموا ذلك أيها الأخوان ولوذوا بأولياء عصركم إذا خفتم من ظلمة ولاتكم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يرشدوا من يطلب منهم قضاء حاجة من الولاة والقضاه وغيرهم

ويقولوا لهم لا نعرف قضا الحاجة الفلانية إلا منكم إلى صحة الالتجاء بهم ، وعدم الإشراك بهم فلا يشرك أحداً من الخلق الفقراء الأحياء أو الأموات لأن الأمر مبنى على التوحيد لو كان فيهما الهة إلا الله لفسدتا كما هو مبسوط فى كتب أصول الدين فى

برهان التمانع ، وقد حققت أنا هذا الباب ، وخبرته كل الخبر مع الولاة الذين يترددون إلى من الكشاف ومشايخ العرب ، فلم أقدر أخذ بيد أحد منهم فى شدة ، وهو يشرك معى غيرى .

وكذلك الحكم فى غيرى من الفقراء لو استند أحد إليه مع استناده إلى لا يقدر يأخذ بيده كذلك ، وما رأيت فى الولاة الذين يترددون على حد راعى هذا الأمر معى مثل مراعاة شيخ العرب عيسى أمير الحاج فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة ، فإنه إذ اعتقد شيخاً لايكاد يشرك معه أحداً ، ويصير يتخيله بين عينيه إذا مشى ، وإذا جلس ، وإذا نام، ولما دعاه الباشا اسكندر ، وجاء إلى مصر من بلاده سمعه شخص من الناس وهو يقول عند ركوبه من المعدية : يابركتك يافلان ، وأنا غايب وبينى وبينه نحو فرسخ ، ثم إن هذا الأمر الاعتقاد فى الولى الصالح فى نفس الأمر بل هو عام فى كل من اعتقد ذلك المكروب ولو ( )[1] يعتقد فاعلموا ذلك واعملوا عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يسوسوا الولاة بالترغيب تارة والترهيب أخري بحكم الإقتداء بالرسول ﷺ

فإنه كان يدعوا أمته تارة بالترغيب وتارة بالترهيب .

فإن رأى الفقير الأمير مثلاً متخوفاً من العزل وشرع فى خراب البلاد ، وقال لا أعمرها لغيرى وعده بدوام الولاية وقال بكذب من قال إنك معزول ، وإذا رآه آمنا من العزل ، ومديده فى الظلم هدده بالعزل .

وقد وقع لى ذلك مع بعض الولاه ، فشرع فى خراب البلاد لما أشاع الناس أن الباشاه وعد غيره بالولاية بعد عزله هو ، فقلت له : إن بعض الفقراء قال لى : إنه كشف له عن دوام ولايتك ثلاث سنين ، لأنه الحد الذى يكشف لأولياء الدائره

(١) مطموس من الأصل.

الصغرى عنه ، وإذا مضت الثلاث سنين إن شاء الله تعالى نرى آخر ولايتك ثلاث سنين أخرى ، وهكذا ، فرجع عن ظلمه ، فلما ركن واطمأن رجع إلى الظلم ثانياً ، فقلت له : إن ذلك الفقير قال لى : أنا كنت أكلت تلك ا لليلة طعاماً حجبنى عن الكشف الصحيح ، فشك وتردد ، ووقف عن الظلم ، وبالجملة فالفقير مع الولاة الآن كالحاوى مع الحيات لايكاد الأمير يسمع نصح الفقير ابداً ، والفقير قد كلف بالنصح للأمير ، فيحتاج إلى سياسة تامة ، وعفة زائدة عن هداياه ، وطعامه .

فالعاقل من أتى البيوت من أبوابها والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم إظهار الكرامات إلا لغرض شرعي

كما جرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم ، وكم أعطى الحق سبحانه الكمل من الكرامات ، وكتموها ، وذلك لضيق هذه الدار عن أن تسع كراماتهم فادخروا ذلك للدار الآخرة لوسعها وبقائها .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول : لو أظهر العارف كراماته لخيف عليه أن يعبد من دون الله تعالى .

وسمعت سيدى محمد المنير بن عنان رحمه الله يقول : إنما يكتمون كراماتهم غالباً لأنهم يدعون الناس إلى شرع مقرر واضح كالشمس بخلاف الأنبياء يؤمرون بإظهار العجزات لأنهم يدعون إلى شرع جديد ناسخ لشريعة من تقدم ، فاحتاج أحدهم إلى إظهار المعجزة لينقاد له من فى قلبه مرض لما جبل الله تعالى الأنبياء عليه من كثرة الشفقة ، والرحمة على قومهم فهم يودون لكل واحد من قومهم الهداية بأى وجه كان كما سأل السيد صالح عليه الصلاة والسلام ربه أن يخرج الناقة من الجبل حين طلب قومه معجزة ، ووعدوه بالطاعة إن أخر لهم ناقة بالوصف الذى طلبوه ، انتهى .

وكان الشيخ محى الدين بن عربى رضى الله عنه يقول : نحن لا نشترط المعجزة فى حق النبى لأن من أجاب للدعوة إنما أجاب لما كان متوفراً عنده من الإيمان ، ولولا ذلك التوفر لم يستجب لرسوله بالمعجزات ، ولا غيرها كما وقع لأبى جهل ، وأبى لهب وغيرهما ، انتهى .

فاكتم يا أخى ما أعطاك الله تعالى من الكرامات جهدك فإن عند الحنفية قول بأن إظهار الكرامات لايجوز للأولياء والحمد لله رب العاالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : تحرير النية الصالحة في سفر الحج أو زيارة الأولياء الذين في بلدهم أو في الريف أو البراري ونحوها

وذلك بأن يكون الباعث للعبد على السفر ، والزيارة إمتثال أمر الله تعالى ، والاشتياق إلى شعائر الله من رؤية البيت الحرام ، والمقام أو رؤية قبر النبى ﷺ ، أو رؤية ذلك الولى من حيث خصوص النسبة الخاصة إلى الله لا من حيث رؤية الأماكن على سبيل التفرج عليها ، وعلى حسن صنعتها أو بنائها ، ولا من حيث رؤية الجبال والبرارى والقفار كما عليه طائفة السواح .

وقد وقع أن عابداً من عباد بنى إسرائيل مر فى سياحته على مرج أخضر ، فأعجبه فقال فى نفسه : أصلى فى هذا الموضع ركعتين فصلاهما فأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود قل لفلان العابد إنى لم أتقبل منك هاتين الركعتين اللتين صليتهما فى المرج الأخضر لأنك أشركت معى نزهة نفسك حين مكثت فى المرج وأنا أغنى الشركاء عن الشرك ، انتهى .

ثم مما يخفى على العبد خفة سفر الحج أو الزيارة مثلاً عليه لاجل سفر صديق معه تلك السنة ، وإذا رجع عن سفره معه تلك السنة ثقل عليه ذلك ، فمثل ذلك كالشرك الخفى فى العبادة ولا يشعر به كل أحد .

ولما حججت أنا وصديق سيدى محمد الحنفى الشاذلى نفعنا الله ببركاته قلت له لما قرب السفر إيش حالك في همة السفر فقال : أنا معك إن حججت حججت معك ، وإن تركت السفر تركته ، فنظرت أنا الآخر فى نفسى فوجدت نفسى كذلك ، فقلت له :يا سيدى إن حجنا شبه حج الأطفال وربما أطلع الحق تعالى على نيتنا فوجد الباعث لنا على الحج هو صحبة كل منا بالآخر ، فلم يقبل لنا حجاً لأننا لم نخلص النية له مما خلصت النية فى حج السنة لأجل الله تعالى إلا بعد مجاهدة طويلة فإن من شرط الذهاب للحج أن يصير كل واحد يخف عليه الحج ولو ترك صاحبه الحج ، فليتنبه الفقير لمثل ذلك .

ونظيره المواظبة على صلاة الجماعة فى صلاة الصبح ، والعصر وغيرهما لأجل التحدث مع الأصحاب الذين يحضرون فى المسجد قبل الصلاة .

وكذلك زيارة مثل قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه ، فقد يكون الباعث عليها تدرج النفس على الناس المجتمعين ، أو على الأنس الذى يجدونه فى قبته ، ولولا ذلك لثقل عليه الزيارة ، فليفرض الزاير أن لو هدمت قبة ذلك الولى . وصار فى خرابه ولا أحد يزوره هل كانت نفسه تخف عليها الزيارة مثل ماهو الآن أم لايعرف حال نفسه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة تعظيمهم لإخوانهم المسلمين

لاسيما العلماء والصلحاء فلا يمر أحدهم راكباً على إخوانه إلا لعذر، وإذا سافر إلى بلاد الريف، ومر على بلد ينزل عن دابته، ويسوقها أمامه، حتى يجاوز البلد، وإن لم يكن أحد من أهل البلد جالساً فى ناديها، كما يفعل أهل الذمة إذا مروا على المسلمين كل ذلك أدباً مع أهل البلد، وإكرامًا لهم، فقل بلد من بلاد المسلمين تسلم من ولى أو أولياء فيها.

وقد كان الشبلى رحمه الله يقول: ذلى عطل ذل اليهود -يعنى- أنه بلغ من الذلة فى نفسه أكثر من الذل الواقع من اليهود، لأن ذل الذليل يكون على قدر معرفته بعظمة من ذل له، ولا شك أن الشبلى أعرف بعظمة الله تعالى، وبعظمة المسلمين من معرفة اليهود.

قلت: وما رأيت فى عصرى أحداً يراعى هذا الأمر كمراعات سيدى على البحيرى رحمه الله تعالى كان ينزل عن دابته، ويسوقها أمامه، كلما مر على ناس يتحدثون، وكان إذا سافر، ومر على رعاة الغنم، والبقر، والجاموس، ولو أطفالا ينزل لهم، وإن كانوا لا يهتدون لما يفعل ولا يعرفون تعظيماً.

ويقول: نراعيهم من حيث أرواحهم الشريفة التى لم تتدنس بالمعاصى، انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا به يرفع الله قدركم فى الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن يكون مطمح بصرهم ببادي الرأي إلي أن الحق تعالي هو الذي يولي ويعزل بواسطة خلقه وبلا واسطة

وإذا سألوا السلطان فمن دونه فى حاجة ولم يقضها لم يتكدروا منه بل يراعون قضاء الله ويلتزمون الحكمة فى تفسيرها أو عدم قضائها أصلا.

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن أصحاب المراتب يجب عليهم مراعاة خاطر بعضهم ورد الأمور إلى بعضهم بعضا كما نرى نحن المراسيم التى تبرز من باب السلطان ابن عثمان إلى نحو مصر والشام مثلا فإنهم يولون الإنسان فى الوظيفة، أو يعطوه جوالى، ويردون الأمر بعد ذلك إلى نائبهم فى تلك المدينة، أو ذلك الأقليم.

وكذلك أصحاب التصريف من الأولياء بالروم يردون الأمر إلى أصحاب التصريف

بمصر، فإن الحاضر يرى مالا يرى الغائب، ولو كان الغائب من أهل الكشف، فافهم فالعاقل من طلب حاجته قضا من باب الولاه وأصحاب التصريف معاًدون أحدهما.

وقد أرسلت أنا أصحاب التصريف بالروم في شمول الأمير جانو الحمزاوى بمصر بنظرهم حين نقم عليه السلطان، وظن بنفسه الهلاك بكتابة ورقة بخط لا يعرفه إلا أهل الكشف فأرسل الشيخ محيسن البرلسي يقول لى؟ وكان من أصحاب النوبة: أما كان من الأدب أن تشاوروا أصحاب النوبة بمصر قبل أن ترسل السؤال إلى أولياء الروم، فمن ذلك اليوم ما كتبت أولياء الروم، حتى استأذن أولياء مصر، وببركة استئذان أولياء مصر قضيت حاجته ورجع إلى مصر، سالما، ووصلت تلك الورقة إلى السلطان سليمان ، فقبلها، ووضعها فى عمامته فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن لا يزاحموا علي صحبة الولاة إلا لأجل منافع الناس مع العفة عن أموالهم جملة واحدة

وما نهى السلف الصالح عن المزاحمة على صحبة الولاة إلا إذا كانت الاغراض فاسدة فاتنة يتولد من المزاحمة البغضاء، والشحناء ضرورة، ويود كل واحد أن تكون هدايا ذلك الامير، وعطاياه له وحده دون غيره.

وأما من يصحب الامير لله تعالى، فلا حرج عليه بل ربما كان ذلك واجبا على الفقراء فى بعض الأوقات لأن القاعدة أن كلما يتوصل به إلى الواجب، فهو واجب، وكلما يتوصل به إلى المستحب فهو مستحب، فإياك يا أخى أن تعتقد فى فقراء بلدك إذا زاحموا على الامراء أنهم يفعلون ذلك لحظ نفس بل إحملهم على محامل صحيحة وفوض الأمر فى ذلك الذى رأيته إلى الله تعالى إلا إذا ظهرت منهم أفعال تفصح عما فى بواطنهم كأن يخوض أحدهم فى عرض أحد ويذكره بالنقائص عند الامير أو عند من يبلغه ذلك فإن مثل ذلك يوجب على الفقير الخالى من صحبة ذلك الامير أن ينكر

على أولئك الفقراء الذين يمزقون عرض بعضهم بعضا لأجل ذلك الامير تقبيحا لفعلهم.

وهذه ميزان تطيش بالذر فإذا رأيت يا أخى طائفة العلماء أو الصلحاء مزدحمين على صحبة أمير، وكل واحد يعظم الآخر فى غيبه، وحضورا فاعلم بأنهم صحبوا لله تعالى أو للدار الآخرة، فلا يجوز لك الطعن عليهم، وحكم الضد بالضد.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول: إذا رأيتم أحدا من أخوانكم صحب أميرا، وهو يعتقد فيه الصلاح جزما، فلا يزاحموه علنه لانه يكفيه فى صحة إستفادة النية في قضاء حوائجه عند الله تعالى.

وإن رأيتموه غير جازم فيه بالصلاح، فلكم صحبته، لأنه لايكفيه، ولا يقدر على تمشية الشفاعات فى الناس عنده.

ولما صحبت محمد بن الأمير حجازى بن بغداد بلغنى أنه يقول: إن كان لله تعالى قطب على وجه الأرض الآن، فهو للشيخ الفلانى، فحسنت اعتقاده فيه، وتركت الإكباب على صحبته، فلما وقع محمد فى شدة، ولم يجر الله تعالى على يديه تفريجا له ترك صحبته، ورجع إلى، فصحبته، وكذلك وقع لاخيه الامير عبد الله مع شخص آخر لما صحبه، فتركته له، فلما مسك عبد الله، وأودعوه فى البرج، وولوا غيره، ولم يجد من ذلك الشخص تفريجا رجع إلى، فصحبته.

وكذلك ينبغى لى إذا تغير اعتقاده فى واعتقد غيرى أن لا أتكدر، فإن تكدرت، فهو دليل صريح على أن صحبتى كانت لغير الله تعالى.

ثم من علامة الاعتقاد الجازم، للامير فى الفقير أن تصير كل شعرة فى الامير تعتقد أن الله تعالى لايرد لذلك الفقير دعاء فى شئ يسأل ربه فيه، ومتى كان عند الامير شك فى ذلك، فهو غير جازم، ولاتقضى له على يديه حاجة فاعلم ذلك واعمل به يا أخى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يتوجهوا إلي الله تعالي في صحبة الامراء

فلا يركنوا إلى الامراء ويعتقدوا دوام الصحبة وأنها تنفعهم فربما يتكالب الفقير على الأمير، ثم لا يزداد الأمير منه الا نفرة لاسيما إن جرحه أحد من الاعداء عند الأمير بخلاف من يهضم نفسه، ولا يزكيها، فإنه يزداد فيه اعتقادا.

ومن حين فوضت أمرى إلى الله تعالى وما جرحنى قط أحد عند أمير صحبته إلا، وألقى الله تعالى فى قلب ذلك الأمير النفرة منه، وقيض له من يجرحه عنده حتى كخرقه الحيض.

ومما جربته أنا أنه ماذكر أحد من أقرانى عند أمير صحبته إلا، وبجلت به، وعظمته عنده، فأخرج من صحبته سليما مستور العورة جزاء وفاقا.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأعملوا به، والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم أن لا يزور أحدهم أخاه إلا إذا وجد عنده داعيه لذلك

والداعية هى رؤيه الزائر نفسه بعين الحقارة، والذل، والنقص، وكثرة المعاصى الظاهرة، والباطنه، ورؤية المزور بعين الكمال، والعز، والطهارة من سائر المعاصى، وطلب الإمداد منه، ومن هنا قالوا:

إذا قل رأس مالك فزر أخوانك.

فإن لم ير الزائر نفسه كما ذكرنا، والمزور كذلك فالزيارة تكلف، ونفاق، ثم لا يقابله المزور الا على صورة نيته وما شاكلها.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول: ما بقى عند غالب الزائرين عقيده، فيمن يزوروه، ولا عند المزور مدد يفيض منه إلى غيره، فزيارة غالب الناس اليوم عناء، وتعب من غير ثمرة إذ الثمرة إنما تكون فى الأعمال الخالية من العلل فحرر يا أخى نيتك (وزر أخاك حبا تزدد حبا) كما ورد.

ثم لا فرق فى هذا الحكم بين زيارة الأحياء، والأموات، فإن الميت يقابل زائره كذلك بشاكله حاله، ونيته، فاخرج يا أخى من زيارة العادة إلى زيارة العبادة ولا تكن من الغافلين فإن لم يظهر لأخيك الحى أو الميت كمال عندك، فلا تزره وإن ظهرلك كماله، فإياك أن تحتقر غيره، فربما ذلك الأخ الخفى أعلا مقاما ومرتبه من ذلك المشهور بالصلاح والدين.

وقد بلغنا أن شخصاً نام عند قبر الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه، فطرقه البول، فبعد عن قبر الإمام الليث بن سعد إكراما له وجلس بجنب جدار يبول، فسمع صوتا من تحت الحائط يقول إن هذا الذى تبول عليه أعظم مقاما عند الله من الإمام الليث، فغشى على ذلك الشخص من ذلك الصوت، وقبض على فرجه، وصار حيارا محصورا فى غاية الضيق انتهى.

فخفف يا أخى الأكل والشرب إذا طلبت زيارة القرافه لئلا تحتاج إلى البول أو غيره، واعتقد فى إخوانك المسلمين الصلاح أحياء، وأمواتا، وكل سرائرهم إلى الله تعالى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن لا يشكروا أحدا بين الناس إلا إن كانت صفاته المحمودة تغلب على المذمومة

فإن تساوت صفاته المحمودة، والمذمومة وقفوا عن الشكر لئلا يدخل أحدهم فى تزكية من لم يزكه الشارع ﷺ، إذ لا يزكى إلا من فاضت صفاته المحموده، حتى لا يكاد يظهر للمذمومة عين.

وقد قال ائمتنا: إن العدل فى الشهادة هو من غلبت طاعاته على معاصيه.

وقالوا: لا نكره إمامة من تكرهه الناس إلا إن كان ممن يكرهه أكثر ممن يحبه هذا كان فى حق من كرهه الناس بغير حق أما من كرهوه بحق، فإمامته مكروهة على أن

كلامنا فى حق عامة الناس دون الولاه، فإن من يمدحهم إلى الإثم أقرب، وإذا كان الناس كلهم يذمونهم، ولايرجعون عن الظلم، فكيف فيمن مدح ظالما غش نفسه، وغش الأمير، وغش الناس.

وما أقبح فقيرا يقبل من مشايخ العرب، والكشاف الهدايا، والصدقات، ويصير يمدحهم فى المجالس، حتى ربما رفع مقامهم على مقام بعض العلماء، الصالحين كما سمعت ذلك عن بعضهم فى حق شيخ العرب عيسى، وفى حق محمد بن داود بن عمر، وفتشنا عن سبب ذلك، فوجدت سببه أنهما رتبا له كل سنه شيئا من القمح، والعسل، والأرز.

فالعاقل لا يمدح أحدا إلا إن قال الحق تعالى له: صدقت، وتعرف ذلك بموافقة المدح لقواعد الشريعة.

فاعلم ذلك يا أخى ونزه نفسك عن الإفراط فى المدح كما تنزهها عن الذم والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن لا يركنوا قط للولاة ولا يثقوا بدوام صحبة أحد منهم

فإنهم يظنون أن العقيدة فى الفقراء تقتضى البقاء على صحبتهم لا أنهم هم المحتاجون لهذه الصحبة بينهم وبين الفقراء وقد تلمذ على أمير منهم فى يوم آخر تركنى وأصبح يتلمذ لفقير آخر فى يوم انتقد على، فاعتقاده وانتقاده، لهوى.

وقد صحبنى شخص من الأكابر، وعرض على مالا جزيلا، فرددته، فأنكر على أشد الإنكار، وأصبح عند شخص جاهل بالشريعه لايعرف شروط الوضوء، ولايراه أحد يصلى، فاتخذه شيخا، وصار يتردد إليه، وتركنى، كأنه لم يعرفنى، وصار يقول عن ذلك الشخص: إنه يصلى بمكة، ولعمرى إن صحة العقيدة فى شخص إنما يكون متبعا للشارع ﷺ، فمن أظهر لنا اتباعه للشريعة اتبعناه، ومن تظاهر لنا بمخالفة أحكامها،

وآدابها أنكرنا عليه كل الأنكار غيرة على شريعة سيدنا ومولانا محمد ﷺ أن ينصر من خالقها، أو يعتقد ولم ينقل لنا عن أحد من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم أنه كان يتظاهر بترك الصلاة، ويقول أنا أصلى بمكة أبداً.

فالعاقل من اتبع سلفه فى الدين، وأظهر عقيدته للعلماء والصالحين، ليردوه إلى طريق الصواب، ويخرجوه عن الخطأ.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل إمام السنة رضى الله عنه يقول: كل من رأيتموه يسارر الناس بأمر فاعلموا أن عقيدته فيها دغل وليست العقيدة الصحيحة إلا ما أعلن بها صاحبها على رؤس الأشهاد.

فاعلموا ذلك أيها الأخوان، وافرحوا إذا أنكر عليكم الأمراء، وتعاطوا أسباب التنفير عنكم، ولا تغتروا بمن يتزاحم عليهم من متصوفة زمانكم، فعن قريب يندموا والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن يحذروا أخوانهم الذين أقاموهم في جمع الدنيا وإنفاقها علي الفقراء من الطمع

ومن ترجيح نفوسهم بشىء على الإخوان إلا بقدر ما يعينه لهم الشيخ لاغير، ومتى تخصص أحد منهم بشىء عن إخوانه، فقد خان الله تعالى، ورسوله، والشيخ، والفقراء ونفسه.

ولولا أن للدنيا قدرا فى قلوب غالب الناس ما حذر رسول الله ﷺ، منها، وقد أقمت عندى فى الزاوية شخصا لشئون الدنيا فلم يتورع حتى عزلته ووليت غيره فاحذروا أيها الإخوان، ولاتخونوا، فترتفع البركة، واحذروا من التخصيص بشىء لو عرضتموه على الشيخ، والفقراء لم يسمحوا لكم به، وإياكم والاعتذار بأن لكم أولادا وعيالا، فإن ذلك عذر غير مقبول عند الله تعالى ولم يأمركم الله تعالى أن تطعموا عيالكم حراما،

فخذوا ما حل لكم، وأعملوا لكم حرفة، أو خيروهم بين الإقامة معكم على الضيق، أو الفراق كما خير رسول الله ﷺ نساءه، حين ضاقت عليهم الدنيا، ثم إن فى تخصيص النقيب غاية الفضيحة له إذا تخاصم مع أحد من الفقراء، وقاموا عليه، وقالوا له: احلف لنا بالطلاق أنك ما تخصصت عنا قط بشىء كما وقع ذلك، لخدام بعض المشايخ حين قام عليهم أهل الزاوية، وأخرجوهم، وعزلوهم فما قدر أحد يحلف منهم، فافتضحوا فى الدنيا قبل الآخرة أكبر فضيحة، لكونها على رؤس الأولين والآخرين.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان النقباء ولا تغتروا بحكم الله تعالى عليكم، وتخونوا فإن الله تعالى قال: (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين[١]) والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن يعاملوا أخوانهم بكثره الإيثار إذا سافروا إلي الحجاز

زيادة على إيثارهم الذى كانوا عليه فى الحضر أدبا مع الله تعالى، فإنه مصاحبهم فى السفر صحبة خاصة قال ﷺ (اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل).

وليحذر الفقير كل الحذر من أن يكون عنده فى طريق الحج عجب بشىء من أحواله، أو كبر على أحد من أخوانه خوفا أن يرجع من الحج ممقوتا وقد يطرق الإنسان من استحسان حاله إذا حج، وظن أن الله تعالى غفر له ذنوبه، فإن ذنب العجب والكبر هما الذين أخرج لأجلهما إبليس من الحضرة، ولعن، وطرد حين قال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين[٢]).

ومن علامات عدم الكبر:

أن تفرض على نفسك أنها تتلمذ لأقرانها من مشايخ العصر الذين يحجون تلك السنة وتلقن عليهم الذكر، وتصير تخدم أحدهم، وتوضيه، وتمشى فى ركابه إن استطعت

(١) سورة الأنبياء آية: ٤٧. (٢) سورة الأعراف آية: ١٢.

حتى تنسلخ من إسم المشيخة، وتصير معدودا من جملة خدام ذلك الشيخ لايرفعك الناس عن ذلك، فإن انشرحت نفسك، لذلك، فأنت متواضع تستحق نزول الرحمة عليك، وإلا فأنت متكبر تستحق نزول المقت عليك هذا فى حق المشايخ الذين يربون الناس، ويأخذون عليهم العهود، فما بالك بأخذ المريدين.

وقد طلب شخص من إخوانى الحج فى سنة كان شيخ العرب عيسى أمير الحاج فقلت له: إنى أخاف عليك المقت برؤيتك نفسك على أحد من عباد الله تعالى فى تلك المواقف الشريفه فقال: أنا بحمد الله تعالى نفسى تراب فقلت له: لا تكون نفسك ترابا، حتى تخدم الشيخ الفلانى، وعينت له شخصا من المشايخ الذين حجوا فى تلك السنه، وتبالغ فى خدمته بحيث تنسلخ عن كونك من أصحابى، ويصير الناس يقولون عنك: إنك من أصحاب ذلك الشيخ، فقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هذا أمر لا يقدر على فعله أشياخ الطريق الذين يسافرون فى هذه السنه، فكيف أقدر أنا على ذلك، فقلت له: إن حضرة الحق تعالى محرم دخولها على من فى قلبه كبر على أحد من المسلمين فقال لا أقدر على نفسى تنكبس لخدمة ذلك الشيخ، فقلت له: أمكث فى مصر فإنه أولى بك خوفا من حصول المقت، فإنك إذا كانت نفسك تنفر من خدمة من أشهرهم الله بالصلاح، واعتقدهم الأمراء، وترى نفسك عليهم، فكيف بالعوام الذين لايؤبه لهم.

وهذه مصيبة يبتلى بها غالب المتصوفة، وطلبة العلم فضلا عن غيرهم، فلا تكاد تجد شيخا يرى نفسه دون شيخ آخر الا نادرا بل كل واحد يقول: أنا صاحب المقام وفلان هو المتفعل فى المشيخة وإن شككت فى قولى فاعرض ما قلته لك على مشايخ عصرك تعرف صدقى.

وقد كان الفضيل بن عياض مع سفيان الثورى يعرفه.

فقال له سفيان الثورى كيف ترى الموقف فقال له الفضيل: ما أجمله لو لم يكن مثلى ومثلك فيه وأخذ يبكيان حتى بلا الثرى.

فإن كنت يا أخى وإخوانك الذين حجوا على هذا القدم، فهى سنة مباركة بحجكم فيها، وإلا فربما كان سببا لنزول البلا على الناس، وما رأيت فى العلماء بمصر فى هذا العصر أكثر تواضعا من الشيخ ناصر الدين الطبلاوى، والخطيب الشربينى، وبقى جماعة لم يتمكنوا فى مقام التواضع، فخفت عليهم العجب إذا عنفتهم.

وقد طلعت مرة مع الشيخ ناصر الدين الطبلاوى للباشاه اسكندر، حين كان بمصر فعمل نقيبا، وأمرنى بالسكوت، وصار ينصح الباشاه، ويعظه،ويخوفه ويقول: سيدى الشيخ هذا يقول لك: كذا وكذا، وعجزت أنى أظهر مقامه للباشاه، فأقسم على بالله تعالى أن لا أفعل، وكان سبب طلوعى معه للباشاه المذكور أنه أرسل يستأذن فى أن ينزل للزيارة، فخفت أن ينزل فيترتب على ذلك حقوقا لا نقدر على القيام بها، فرأينا طلوعنا له أخف من نزوله، ومع ذلك لاث الناس بنا، وقطعوا فى عرضنا، وقالوا: هؤلاء يتحشرون فى الولاة، فالله تعالى يغفر لهم ماجنوه آمين.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول: لا يبلغ العبد مقام التواضع الكامل، حتى يرى أن جميع إخوانه العصاه أحسن حالا منه، فيرى أن الله تعالى يؤاخذه، ويغفر لهم جميع ذنوبهم.

فأعلم ذلك يا أخى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن لايبادر أحدهم إلي الأكل من طعام إخوانه المشهورين بالصلاح فى عصره حتي يفتش ذلك الطعام ينظر من أى طريق وصل إلي ذلك الصالح

هل هو من كسبه الشرعى، أو من غيره أمن هدايا الولاه، أو غيرهم، فإن رآه من الكسب المذموم امتنع، وإن رآه من الكسب المحمود أكل.

ولا ينبغى لفقير فى هذا الزمان أن يأكل من طعام أحد من أهل زمانه من غير تفتيش، فربما كان يأكل بدينه، وزهده، وصلاحه، أو ربما كان يقبل هدايا العمال، وولاة الجور، أو ربما كان يبيع على المكاسين، وأكلة الرشا، ويقول: هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا كما عليه بعض المتصوفة فى هذا الزمان.

وقد دخلت على شخص منهم له عمامة صوف وعذبة وله شهرة بالصلاح عند الأمراء فقدم لى دجاجة فأكلت منها، فرأيت أمارة الحرام فألقيتها من بطنى على باب ذلك الشخص، فقد تقدم إلى أنه لايرد شيئا يأتيه من الولاة يقول: إنه قد أتى من عند الله تعالى فعلمت أنه لم يشم من طريق الشريعة شمة، فإن المالك الحقيقى سبحانه هو الذى حرم عليه ذلك الطعام ، فنعوذ بالله من هذا المذهب الذى يهدم أركان الشريعة.

وقد ذكرنا للأصحاب مرارا أن من علامات الحرام إذا أكله العبد أن تلعب نفسه فيلقيه من ساعته كما هو شأن من طهرهم الله تعالى من أن يستقر فى بطنهم طعام حرام.

ومن علاماته أيضًا حصول الثقل فى المعدة والظلمة فى البصيرة والقساوة فى القلب، حتى لا يكاد تدمع له عين ولايحن إلى موعظة.

ومن علاماته أيضًا أن يقوم من النوم كالمدهوش مخبط العقل، فلا يصحوا إلا بعد ساعة.

فإن أخطأك يا أخى معرفه الحرام بالميزان الشرعى قبل أكله فلا تخطئك العلامات بعد أكله، فعلم أن من الواجب على الفقير فى هذا الزمان أن لا يأكل إلا عند الاضطرار إن أراد أن يستبرى لدينه لأنه إذا كان صلحاء الزمان لا يتورعون فكيف بغيرهم، وهذا أمر قد يخفى على كثير ممن يعتقد الفقرا بحسن الظن من غير دليل، وربما يشبع من طعامهم الحرام أو الشبهات، ويقول: طعام الفقرا شفاء، وغاب عنه أنه سم قاتل.

وقد كان الإمام سفيان الثورى إذا دعاه من لا يتورع إلى طعامه يأخذ معه رغيفا فى كمه، ويأكل منه فليحذر العبد من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كتمان أحوالهم وكما لاتهم إلا لمصلحة شرعيه

فلا ينبغى لأحدهم أن يقول: دخل علينا البارحة فلان بعد أن فرغنا مجلس الذكر أو ونحن ننقى مع الفقراء القمح، أو ونحن نفلى، للعميان ثيابهم أو ونحن نجمع للفقراء الوقيد، ونحو ذلك، لأن فى مثل ذلك إظهار أنه يخدم الفقراء أو أنه له مجلس الذكر، فيخبر بذلك من لايعرفه بل يذكر الحكاية التى يحكيها من غير ذكر أمارة الذكر أو تنقية الطحين، ونحو ذلك.

وهذا الخلق يقع فى خيانته كثير من الفقراء الذين يحبون الظهور فى هذه الدار، فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا سافروا إلي الحجاز للحاج فدوا أمير الحاج بأرواحهم

فيحوطوه ويحوطوا ركبه ويحرسونه ويحافظون عليه من كل سوء فإنه إذا هلك هلك الركب كله:

فلا أحد أتعب فيه القلب من الفقير الصادق إذا سافر إلى الحجاز لأنه يرى كل آفة نزلت فى الحج بسبب ذنوبه أو تفريطه فى تحويطهم بالآيات والأذكار التى وردت فى مثل ذلك، ويرى أنه مؤاخذ يوم القيامة بكل من سرق جمله أو متاعه أو رقد من التعب وكذلك يرى أنه مؤاخذ بكل من سأله شيئاً من الطعام أو الماء أو المال الذى هو فى غنى عنه حال ذلك السؤال، ويرى أنه لا يجوز له ادخار شيء عن المحتاج إليه، ولو احتاج هو إليه فى المستقبل، ويرى أيضًا أن من الواجب عليه إيثار الإخوان على نفسه فى إركابهم دابته ويمشى هو.

وهذه الأمور قليل من الفقراء من يقوم بها فى طريق الحج ، وما رأيت ولا سمعت أحدا من أمراء الحاج قام بهذه الأمور إلا الأمير عيسى بالبحيرة، حين سافر أميرا بالركب المصرى، والرومى، فكان لا يتقدم الركب ليلا ولا نهارا. بل هو مقيم بالساقة يحمل العميان، ويسقى العطشان، ويحمل العجوز على بغلته، ويمشى، وما يأتى للمنزلة التى يحط بها الحجاج إلى نصف الليل بعد أن نزل الناس، واستراحوا وأكلوا وشربوا، وربما وصل إلى المحطة فقالوا له: إن فى ذروة الجبل الفلانى أو الشجرة الفلانية جماعة منقطعين فيأخذ الجمال والماء، ويرجع إليهم ثانياً فلا يصل إلى المحطة إلا وقد سار الحج، فيدوم على السير من غير استراحه رضى الله تعالى عنه، وذلك فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة .

وقد كنت بحمد الله تعالى أحوطه وأحوط الركب فى كل مرحلة أول ما يسير الركب بقولى ألف مرة وأنا أحلق بإصبعى على الركب كله: (بسم الله الرحمن الرحيم وآية الكرسى، ثم أقول: اللهم أنى أسألك بك أن تصلى وتسلم على سيدنا ومولانا محمد

وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين وأن تقوى هذه الجمال والدواب على حمل أثقالها، وأن تحفظها وأصحابها من الآفات، حتى تدخل إلى أوطانها إنك على كل شيء قدير) ألف مرة كذلك بتوجه تام بحسب المقام فلا أفرغ من الألف إلا وجسمى زايب من شدة التعب، فكنت أتعب بدنا من الماشى، وواسيت المحتاجين بجميع ما كان معى من الثياب، والعمايم، حتى لبست ثوب العيال بقلنسوة من غير عمامة، وقطعت الخيمة ، وفرقتها على المحتاجين، ليستدفوا بها حين فين ما كان معى من المال، والثياب، ثم لما كسانى الله تعالى العمامة والثياب فى الطريق ثانيا، وثالثاً أعطيتها للسائل، فبذلتها ثلاث مرات فى الطريق، وكان آخر عمامة أعطيتها للسائل من حين، ودعت رسول الله ﷺ، فسألنى فقير شيئًا يتقوت به وأنا خارج من باب السلام، فأعطيته العمامة كلها دون أن أقطع له منها قطعة كما هو شأنى دائماً تعظيما لجناب سيدى رسول الله ﷺ وقربى منه فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا دخلوا مضيقا أو نزلوا في المحطة أن يقدموا جمال جارهم علي جمالهم

ويتخلفوا إلى ساقته ويدخلوا جمال جارهم وأمتعته إلى داخل الركب ويجعلوا جمالهم وأمتعتهم إلى خارج جمال الجار، وأمتعته كالسورعليه، والوقاية له، ولا يقولون: إبدأ بنفسك فى الحفظ على الوجه الذى يتبادر إلى الفهم بل يرون أن بدأتهم بحفظ نفوسهم، وأمتعتهم هى بإيثارهم للغير على أنفسهم من حيث أن الله تعالى يجازيهم على حفظهم لأمتعة جارهم، ويحفظهم كذلك، ويرسل لهم ملائكة يحفظون من سائر الآفات كما شاهدنا ذلك فى منزلة بندر الازلم، فخرجت بجمالى، وجعلت جمال جارى سيدى محمد الحنفى داخل جمالى، فرأيت تلك الليلة الملائكة، وهى محيطة بجمالى تحفظها من السارق، وجاء شخص من العرب، ليسرق من جوارنا، فقطعت رأسه.

وهذا الخلق قل من يتخلق به من الفقراء بل رأيت بعضهم يدفع جمال جاره إلى الوقوع فى الوادى، ويحمى جمال نفسه ويزاحم جاره الداخل ليجعله خارجا وجمال نفسه داخلا، وربما تخاصما، وذلك مخالف لأخلاق الفقراء، فليحذو الفقير المتشبه بالفقراء من سئل ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن يخففوا عن الجمال أثقالها

سواء أكانت الجمال ملكا لهم أم كانت عارية، وذلك بأن نجعل ركوة الماء التى يشرب منها ويعلقها فى رجل الجمل نحو رطل أو رطلين من الماء ولايحمل فى الأسقية من الماء إلا بقدر الحاجة الشرعية، وإذا أشرف على منهل الماء، ورآه بالعين، فمن المعروف أن يسقى ذلك الماء الذى فى الأسقية للحيوانات أو يصبه فى الأرض تخفيفا عن الجمال إن لم يجد من يشربه، ولاينبغى أن يحمل الجمال فوق مايحتاج من المنهل الأول إلى الثالث إذا ما كان منهل الثانى مالحا بل يخفف عن الجمال، ويشرب من المالح كما يفعله المترفهون، فيحملون ماء بحر النيل من مصر إلى العقبة أو من العقبة إلى بركة الحاج لأجل ملوحة ماء عجرود، ونخل، وكان الأولى لهم أن يحملوا الجمال من الماء بقدر مايكفيهم إلى الماء المالح فقط، ووالله إنى كنت أطعم الجمل الذى كنت راكبه السكر، والكعك، وأوثره على نفسى، وكنت أقبل رجله كلما أردت ركوبه أو النزول عنه، وأقول له: جزاك الله عنى خيرا فى حملك لهذه الجثة القذرة، فإن الدواب تفهم مايقال لها، ولكنها عاجزة عن النطق كما يعرف ذلك أهل الكشف، وكان لى قمقمة أشرب منها وأعلقها فى قتب الجمل تسع نحول رطل من الماء فقط، وكان صاحب الجمل يقول لى: مع ،لآخ الإذن فى تعليق القلص الذى يسع عشرة أرطال، فلا أطيعه، فكنت أنا أشفق على الجمل من صاحبه، وكنت أرى أن السكر الذى أعطيته له فى الذهاب والإياب لا يجى كرا جملى مرحلة واحدة، وكثيرا ما كنت أقول له: ذلك

فيفرح ويصير يخدمنى أشد الخدمة عكس من كان يقول له: يا أخى ما حملتنا بلاشىء وإنما حملتنا بأجرتك وليس لك علينا جميلة، فإنه يقسى قلبه عليه، أو يصير يخدمه كرها عليه.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واعملوا به تجنوا ثمرته ، ولا تخالفوا تتعبوا وتندموا والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن يتفقدوا إخوانهم في بندر الأزلم والعقبة إذا وصلت إليهم هدية من مصر من جبن وعسل وفول وغير ذلك

فإن نفوس الاخوان الذين لم يرسل أحد إليهم شيئا يستند إلى التطلع، لمثل ذلك أكثر مما تتطلع إليه فى الحضر إذ الحلاوة، أو البطيخ مثلا مفقود فى غالب طريق الحجاز، وهذا من محاسن الأخلاق، فليتنبه الفقير له ولايأكل الهدية وحده، فيسقط من عين رعاية الاخوان، والجيران ومن شك فليجرب، ولما وصل إلى ملاقاة الأزلم فرقها على الاخوان، والجيران من دراهم، ودقيق، وفول، وبصل، وجبن، وغير ذلك، فصرت بينهم كالأمير، وكأنى ألبستهم خلعة سابلة بعد أن كنت مكشوف العورة حافيا مكشوف الرأس، وصار الاخوان يفدون إلى بالود زيادة على ما كنت عليه قبل ذلك.

وقد شاهدت شخصًا يدفع جملى إلى المضيق قبل ذلك، فلما أطعمته، صار يقدم جمل فى المضيق، ويؤخر جمله هذا أمر شهدته أنا منه.

فاعمل يا أخى بهذا الخلق تفلح والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا وصلوا إلي مكة المشرفة أن لا يغفلوا عن الدعاء في مواطن الإجابة لأنفسهم وإخوانهم

وهم فى تقديم نفوسهم، وإخوانهم على مشهدين أو مشاهد، فتارة يقدمون نفوسهم فى الدعاء إذا شهدوا أنهم أكثر خطايا من غيرهم، وتارة يؤخرونها إيثارا لاخوانهم بقطع النظر عن كثرة خطايا الناس، وتارة يقدمون الغير على نفوسهم رجاء الاجابة ويؤخرون نفوسهم ليغفر لهم بحكم التبعية لهم، وتارة يستحيون من الله تعالى أن يتلفظوا بسؤال المغفرة لاستلزامها استحضار تلك الذنوب القذرة فى تلك الحضرة الشريفة، وتارة يقولون: اللهم اغفر لجميع هذا الجمع، ولا تردهم من أجلنا، وتارة يقول أحدهم: اللهم إنى قد دنست هذا الجمع بدخولى بينهم، فاغفر لى، حتى لا يتدنسوا بى صدقة من صدقاتك على يا أرحم الراحمين، وكان هذا دعاى فى أكثر طوافى بعد الأذكار الواردة.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: كل من كان أكثر ذلا فى أيام الحج كان أكثر مغفرة، وربما شفعه الله تعالى تلك السنة فى جميع أهل الموقف انتهى.

قلت: وقد جمعنى بعض العارفين فى سنة ثلاث وستين وتسعمائة على الثلاثة الذين شفعهم الله تعالى تلك السنة فى أهل الموقف، وكانوا زمناء واحد منهم يمشى بعصاتين من تحت إبطه، والآخران يزحفان على الأرض، والثلاثة من أهل اليمين، وكسوت واحدا منهم قميصا فقبله منى ودعا لى الله تعالى فانظر يا أخى كيف شفع الله تعالى هؤلاء الزملاء الثلاثه فى أهل الموقف وفى المتكبرين، وأهل الدعاوى حين نزلوا بنفوسهم إلى العجز الشديد رضى الله عنهم.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا على تحصيله والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا سافروا إلي الحج وحفظ الركب تلك السنة من قطاع الطريق ومن الغلا وموت الجمال

بدعائهم، وتحويطهم، للركب أن لا يصغوا لقول بعض الناس، وكيف لا تكون هذه السنة مباركة، وفيها سيدى الشيخ فلان، فمن صغى لمثل ذلك بال الشيطان فى أذنه، وربما أدركه العجب، والكبر، فهلك مع الهالكين.

فيكون على علم الإخوان أن الله تعالى يقيم كل سنه رجالا عليهم درك الحج ذهابا وإيابا لايكاد أحد يعرفهم، وأما الفقراء الظاهرون فربما كان أحدهم عبد بطنه، وفرجه، ومثل ذلك لا يحفظ الله تعالى به الركب فإياكم والغلط.

واعلموا أن من شرط الفقراء الصادقين: أن يروا كل خير حصل للناس من الله تعالى لا بواسطتهم، ويروا كل بلاء نزل على الناس بواسطتهم.

ولو تأمل الفقير الصادق فى هذا الزمان لوجد نفسه قد استحقت الخسف بها لولا عفو الله تعالى، فكيف يكون مثله سببا لجلب خير إلى أحد من العباد هذا مادرج عليه الخاصة من أولياء الله تعالى، فالحاذق من تبعهم على ذلك ولو تقليدا والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: الاعتنا بمنتغير عليهم من الأصحاب وجفاهم بعد المحبة والقرب منهم ويجعلون اللوم علي أنفسهم في ذلك

ولا يقولون إن فلانا ليس له عندنا حق، حتى يتغير علينا لأجله إنما ذلك حسد منه، فإن ذلك ليس من أخلاق الفقراء، ومن سلك هذا المسلك كثر اعداؤه.

وقد كان ﷺ يتفقد من انقطع عن مجلسه من أصحابه، ويسل عن سبب تخلفه، وكثيرا ما كان يذهب إلى الرجل ويقول: يا أخى لعل أحدا أبلغك شيئا تكرهه) انتهى.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: من شرط الكامل أن يقدر على سياسة الوجود كله والأخذ بخواطر جميع الناس، ولا يتساهل فى قلة سياسة أحد منهم فتفوته هدايتهم وهو مطالب بهداية جميع العالم بحسب الإرث للمقام المحمدى.

قال بعضهم: ومما وقع لى أن بعض الأقران هجرنى نحو سبعة عشر سنة، وأنا غير مكترث به، وأقول ليس له عندى حق شرعى تصح له المطالبه به فى الدنيا والآخرة.

قال: ثم تأملت فإذا فى قلبى له نوع من البغضاء والشحناء وأردت أجعله كمن يحبنى، ويوادنى، فما قدرت.

قال: فلو أنى كنت سارعت لإزالة ما عنده منى أوائل الهجر لما تربى له فى قلبى بغضاء، ولا حقد قال تعالى (واهجرهم هجرا جميلا)[1]، والجميل هو الذى لا حقد فيه فإياك يا أخى، والتساهل فى سياسة الناس، فيتربى فى باطنك الحقد، والعداوة، وغالط الناس الذين يؤذونك، ويكرهونك، وإذا بلغك كراهة أحد منهم لك فقل للناس: أنا ما رأيت من فلان الاخيرا، ويظهر لى منه المحبة، فجزاه الله تعالى عنى خيرا، فإذا بلغه عنك ذلك ترك عداوتك، وأظهر المحبة، والسكوت عن ذكرك بالنقائص، ثم إذا سست من هجرك بغير حق، وتوقف الأمر على الذهاب إلى داره، وتقبيل يده، وأرجله، فأفعل، ولا نطلب منه أنه يذهب إليك أو يقبل يدك، فإنه فى حجاب عن ذلك لما هو عليه من الرعونة، وغلبة نفسه عليه[2].

فالله الله أيها الاخوان فى العمل بهذا الخلق العظيم والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة المزمل آية: ١٠.

(٢) يقول الإمام الطوسي فى كتابه اللمع: باب فى ذكر آدابهم فى الصداقة والمودة:
قال الشيخ رحمه الله تعالى: قال ذو النون رحمه الله تعالى:
ما بعد الطريق إلى صديق، ولا ضاق مكان من حبيب. وسمعت أبا عمر وإسماعيل بن نجيد يقول: سمعت أبا عثمان يقول: لا تثق بمودة من لا يحبك إلا معصوما.
وفيما حكى جعفر الخلدى عن ابن السماك رحمه الله تعالى، أنه قال له صديق: الميعاد بينى وبينك غداً نتعاتب، فقال له ابن السماك رحمه الله تعالى: بل بينى وبينك غداً نتغافر، ويقال: إن كل مودة يزداد فيها باللقاء فهى مدخولة فى المودات.
وسئل عن حقيقة المودة فقال: هى التى لا تزداد بالبر ولا تنقص بالجفاء. وهذه الحكاية عن يحى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى. وقال بعضهم: الإعراض عن الصديق إبقاء على المودة.

ومن أخلاقهم: أخلاص العمل لله عز وجل لا للثواب في الآخرة

كما عليه أصحاب الهمم المنحطه عن همم الرجال، ثم إن قصرت هممهم عن العمل لله تعالى، وعملوا لثواب الآخرة لا يكون مقصودهم بثواب الآخرة إلا مشاهدة الحق سبحانه، ومجالسته فى تلك الدار لا غير ذلك، ومتى كانت همتهم التمتع بالحور، والأكل، والشرب، وطيب الروايح، فليس هم من فحول الرجال أصحاب الهمم لقربهم من صفات النساء، وأصحاب الحجاب بمحبة الدنيا، وشهواتها، وإن كانت الآخرة ليست بدار حجاب كان من طلبها لغير مشاهدة الحق تعالى فيها محجوب عن الله تعالى بذلك الغير[1].

وكان سيدى على بن وفا رضى الله عنه يقول: من طلب الجنة لهوى النفس وشهوتها من الشرب والجماع، فهو امرأة وأما من عمل لغير الله تعالى فعمله جاحد من أصله لا يصل إلى الدار الآخرة منه شىء، ليثاب عليه أو يعطى منه أصحاب الحقوق التى للخلق عليه بل يفنى بفناء الدار الدنيا.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول مرارا: من عمل عملا من الأعمال، وأراد به صرف وجوه الناس إليه، والاصغاء إلى محمدتهم له عليه، فعمله حابط يفنى

= قال أبو العباس بن مسروق رحمه الله تعالى، فيما بلغني: وفى هذا سنة عن الرسول ﷺ قوله لأبى هريرة رضى الله عنه: زرغبا تزدد حبا وقيل ليحي بن معاذ رحمه الله تعالى: كيف حالك فقال: كيف حالك من يكون عدوه داؤه وصديقه بلاؤه؟

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: لقد كنت أرى أقواما تجرين منهم النظرة فهي زادى من الجمعة إلى الجمعة.

وقال بعض المشايخ: إذا صح لى مودة أخ فلا أبالى متى لقيته.

وعن النورى، رحمه الله تعالى، أنه قال: الصديق لا يحاسب بشىء، والعدو لا يحسب له شىء.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إذا كان لك صديق فلا تسؤه فيك بما يكرهه.

وعن جعفر الخلدى قال: سمعت أبا محمد المغازلى رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن تدوم له المودة فليحفظ مودة إخوانه القدماء.

(١) وأنشد الشبلى ليلة أن مات قائلا:

كل بيت أنت سكانه *** غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا *** يوم يأتى الناس بالحجج

وروى أبا على الروذبارى رحمه الله: دخلت مصر، فرأيت الناس مجتمعين، فقالوا: كنا فى جنازة فتى سمع قائلا يقول:

كبرت همة عبد.. طمعت فى أن يراكا

فشهق شهقة فمات.

تبعا للدار التى عمل فيهاعكس من عمل للدار الآخرة، فإن من لازمه البقاء، والاخلاص والوصول إلى الدار الآخرة، ليثاب عليه، ويعطى منه أصحاب الحقوق انتهى.

فياخسارة من عمل عملا لغير وجه الله تعالى لأنه إما يحبط عمله بالكلية، وإما ينقص ثوابه.

فعلم أن كل عمل دخله الرياء، فليس هو من أعمال أهل الله تعالى، ولا الدار الآخرة، وإنما ذلك من أعمال أبناء الدنيا الذين قصروا بصرهم عليها، وحجبوا عن معاملة الله عز وجل، والدارالآخرة.

وسمعت سيدى محمد المغربى الشاذلى رضى الله عنه يقول: لا يصح للعبد الاخلاص فى العمل إلا بعد زهده فى نعيم الدارين، وهنا يعمل لوجه الله تعالى خالصا، وهناك يصطفيه الله تعالى، ويحبه لأنه خرج عن العلل انتهى.

وبالجملة، فالكامل من يقلب الأعمال الدنيوية عادة بالنية إلى العمل لوجه الله تعالى، ويعطى كل ذى حق حقه على اشكف، والشهود، ولا يحجب بذلك عن الله تعالى كما أوضحناه فى كتاب العهود والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: العمل على تحصيل معرفة الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم

وهو قدر زائد على المعرفة عند علماء الكلام، فإن المعرفة عند هؤلاء تتزلزل بالأدلة المتجددة لهم مع الأنات، ولا هكذا معرفة العارفين بالله عز وجل، فإن ماعرفوه به فى دار الدنيا لا يتغير، ولا يتبدل فعين ما عرفوه به فى الدنيا هو عين ما يكون لهم فى الآخرة، فكما يكونون معه فى الدنيا كذلك يكونون معه فى الآخره كل ذلك بحسب الارث لرسول الله ﷺ، فإنه لما أسرى به ورأى من آيات ربه الآية الكبرى لم يزدد علما

عما كان عليه فى الأرض بل رأى عين ما كان يعرفه، وكذلك السيد موسى عليه الصلاة والسلام قيل له كيف رأيت ربك قال: رأيت فى التجلى ماكنت أراه قبل ذلك فكنت أراه ولا أعلم أنه هو، فلما تجلى على التجلى العام علمته فى كل شىء، ومع كل شىء، كالسلطان إذا خرج بين قومه متنكرا، ومشى بينهم، فقد رآوه، وما رأوه لأنهم لم يعلموا أنه هو السلطان انتهى.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: من علامة الكامل فى المعرفة أنه يفهم مشكلات الكتاب والسنة، ويحل معضلاتها، ويفتح مغاليقها، ولا يحتاج إلى نظر فى كلام أحد من العلماء، فمن أدعى كمال المعرفة، وهو يجهل شيئًا من فروع الشريعة، فهو مفتر كذاب فى دعواه، وربما يبدوا له آخر النهار دليلا خلاف ما كان عليه آخر أول النهار، فيحكم على نفسه بالخطأ فى الاعتقاد الأول وقد قال تعالى: (قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)[1] فلم يحكم بالبصيرة إلا لمن صح له قدم الاتباع، وكل من تزلزل بالأدلة، فما هو على بصيره من أمور ربه، فإن البصيرة لأهل الله تعالى، فالضروريات لأهل العقول فافهم، وأكثر من ذكر الله تعالى بشروطه على يد شيخ صادق، حتى يرق حجابك، وتتكشف لك الحجب وإلا خيف عليك أن تموت على شك فى الله تعالى نسأل الله العافيه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: فرحهم بالبلاء إذا نزل بهم وحزنهم إذا نزل بالعامة

خوفا عليهم من الوقوع فى السخط على مقدورات الله عز وجل عليهم، وإنما كانوا يفرحون بالبلا إذا نزل عليهم مسارعة إلى ما يكون به محبة الله عز وجل لهم عملا بحديث: (إذا أحب الله عبدا ابتلاه)، وإن وقع أن أحدا من العارفين حزن إذا نزل عليه بلاء، فإنما ذلك خوفا أن يقع منه ضجر أو سخط حين تتخلف عنه عناية الله عز وجل كما يقع للعامة.

(١) سورة يوسف آية: ١٠٨.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول: ماثم، ولى حق له قدم الولاية إلا بعد وقوع الابتلاء والامتحان.

فلا بد للولى من بلا فى جسده أو فى ماله أو أولاده أو أصحابه أو فى عرضه فإذا صبر ورضى فيه نقله الله تعالى إلى مقام المحبوبين ورجع عن أن ينزل بهم البلا إذ العبد يبتلى من حيث كونه محبا، وينعم من حيث كونه محبوبا كما أنه لابد له من التألم بالبلا، ثم التنعم به ليجوز الرضى كما هو شأن كمل العبيد.

وقد كان من سرة الشيخ أبى الحسن الشاذلى إلى ركبته سبعة عشر مرضا منها الفتاق، وحصر البول، والحصاه، والباسور، والناصور، والفولنج، وكان إذا داوى مرضا بشىء تحرك منه المرض الآخر، واشتد ألمه، وكان يقول: الحمد لله على ذلك فإن فيه عدم الغفلة عن الله عز وجل وبيان عجز العبد، وافتقاره إلى ربه، ولولا المرض لكنا كالبهائم الساذجة.

وقد قال ﷺ يوما لأصحابه: (أيكم يحب أن لايمرض).

فقالوا: يارسول الله كلنا نحب ذلك.

فقال: ﷺ: اتحبون أن تكونوا كالحمر انتهى.

وكان الشيخ عبد القادر الجيلى رضى الله عنه يقول : ما من ولى حق له قدم الولايه المحمدية إلا بعد أن ابتلاه الله فى جسمه وضنك فى معيشته ثم بأن يرضوا وبالبلاء وضيق المعيشة إلا حبا لله عز وجل، ومتى لم يزدد محبة بذلك، فقد عزل عن الولاية، فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا على تحصيله والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إرشاد الناس إلي طرق التصبر والصبر

فإن لم يتصبروا ولم يصبروا، وأرادوا دفع البلاء عنهم فليأمرهم بأن يرسلوا مناديا ينادى فى الناس: معاشر الناس إن أردتم أن لا ينزل عليكم بلا، فتوبوا إلى الله تعالى عن كل معصية ظاهرة، أو باطنه، والبلاء يرتفع عنكم لاسيما البلايا النازلة على أهل النصف الثانى من القرن العاشر، فإنها تترادف جدا على الناس، لا يهتدى غالبهم لسد الباب الذى وصل منه تلك البلايا.

وقد كان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله عنه يقول: من أراد رفع البلا عن أهل زمانه، فليناد فيهم أن توبوا إلى الله تعالى، ولا تتعدوا حدوده فإنهم إذا فعلوا ذلك ارتفع البلاء ضرورة قال الله تعالى: (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون[1]) وأما طلب رفع البلاء مع تمادى الخلق فى الذنوب والخطايا فإن ذلك لا يحدث رفعه على يد ولى، ولو كان القطب نفسه وكان ذلك كإتيان الأمور من غير أبوابها انتهى.

فإن من يذنب ومع ذلك يطلب رفع البلا عنه كمن زرع شوكا، ويريد أن يثمر له رطبا، أو كمن يزرع الحنظل، ويريد أن يثمر له عسلا، وفى ذلك طلب قلب الحكمة الالهية أيضاً وهو محال.

وسمعت سيدى عبد القادر الدشطوطى رحمه الله يقول: كيف يقدر ولى فى هذا الزمان على رفع البلاء عن الناس، وهو يرى كثرة المنكرات، وتعدى حدود الله تعالى فى زمان، صار فيه الإسلام غريبا، وذهبت فيه الأخيار، وغلبت فيه الأشرار، وصار المؤمن فيه كالشاة الضعيفه ، وقد تقادم عصر النبوة، واقتربت الساعة، وقد قال أرباب البصائر: لا ينقضى عصر إلا وينقضى إيمان أهل العصر الذى بعده ويقينهم وورعهم، وزهدهم وخوفهم من الله تعالى وخشيتهم منه بحكم الوعد السابق من رسول الله ﷺ فى نحو قوله: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس) فكيف يصح من ولى معارضة الشارع باطنا، فيما أخبر ، وإنما ينهى الناس باللسان قياما بحق الشريعة مع علمه بالأمر عليه.

(١) سورة الأنفال آية: ٣٣.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمة الله عليه يقول: ما ضل من ضل من أهل زماننا إلا بدعواهم العلم، والصلاح بغير حق، فعاقبهم الله تعالى بالجهل، وحرمان الوصول إلى شيء من مقامات الصادقين عقوبه لهم، وصارت أفعالهم تكذب دعاويهم، فيتكلم أحدهم فى الورع، وهو يأكل الحرام، ويتكلم فى الزهد، وهو يجمع الحطام، ويتكلم فى قيام الليل، وهو ينام، ولو أنه عكس الأمر، ولم يدع شيئا من المقامات، لربما ستره الله تعالى، ولم ينكشف عيبه للناس.

وسمعته مرة أخرى يقول: من علامة الولى كثرة ذكر الله تعالى بالغداة والعشى وخفة مؤقته على الناس، وشهود ثقل مؤنته هو عليهم، وحفظه حدود الله تعالى، والإخلاص فى العمل، وعدم رؤيته به عن الناس أو شهود أن له مقاما عند الله العظيم لعلمه بأن الله تعالى غنى عن عباده الأنبياء، والصالحين المخلصين ، فكيف لا يكون غنيا عن عباده المخلصين انتهى.

وسمعته أيضاً يقول لا يصدنكم عن الولى إنكار بعض الناس عليه فذلك حال الأولياء فى كل زمان غيره من من الحق تعالى عليهم أن يلحقهم عجب من تواضع الناس لهم، واعتقدوهم، فيكون الأنكار عليهم كالمدح فى حقهم وما بعث الله تعالى نبيا إلا وجعل له عدوا من الجن والإنس يبعد أتباعه عنه ويكرههم فيه، ويصد الناس عنه[١].

---

(١) وقد حدث ذلك لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ فكان من شبه المشركين عليه ﷺ ما أخبر به الله سبحانه وتعالى بقوله: (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرناعليها) تبين لنا هذه الآية مدى غرور المشركين واستكبارهم، فإن جميع الحجج التى ذكروها من قبل سقطت وتهافتت، ولكنهم أصروا على طغيانهم ، فاستعملوا طريقة الاستهزاء بشخص الرسول ﷺ وهذه الطريقة فى الجدل لا تستعمل إلا بعد فقدان الحجة، وضعف المنطق، وهذا يدل على مقدار المتاهات التى وقع فيها المشركون فهم يعلمون أن رسول الله ﷺ كان أحسنهم خلقًا وخلقا، وأوسطهم نسباً، ويعلمون مقدار عناية الله سبحانه وتعالى به، منذ مولده، حتى بدء دعوته، ومظاهر الخصوصية التى أحاطت به فى تلك الفترة، بل إن أكبرالمظاهر التى تدل على بطلان منطقهم قولهم: (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) فهذا القول يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن ماجاء به سيدنا رسول الله ﷺ هو الحق، الذى لا مراء فيه وأن ماهم عليه هو الباطل، وأنهم ما كان لهم قبل بمناقشة الحجج القوية، التى أتى بها الإسلام على لسان رسوله ﷺ، ونشارك فى ذلك رأى الفخر الرازى حيث يقول:

إنهم سموا ذلك إضلالا، وذلك يدل على أنهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم، وفى استعظام ضيقه ﷺ فى صرفهم عنه، وذلك يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق، فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف، =

وكذلك ما أظهر الله وليا بحجته فى عصر من الأعصار إلا وجعل له منافقا يكذبه فيما يدعيه ويؤذيه بغير حق(١).

= فى أنه لا يكفر إلا من يعرف الدلائل لأنهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى إلى الكفر والضلال، وقولهم لولا أن صبرنا عليها: يدل أيضا على ذلك، ويدل هذا القول منهم على جد رسول الله ﷺ، واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الأوثان ولولا ذلك لما قالوا: (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) وهكذا كان عليهم السلام، فإنه فى أول الأمر بالغ فى إيراد الدلائل، والجواب عن الشبهات، وتحمل ما كانوا يفعلونه: من أنواع السفاهة، وسوء الأدب.

والثالث: أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا البتة على دلائل نبوة الرسول ﷺ، وما عارضوها إلا بمحض الجحود والتقليد.

الرابع: الآية تدل على أن القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام، كالمجانين، لأنهم استهزؤا به أولا، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا، لولا أن قابلناه بالجحود والإصرار، فهذا الكلام الآخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة، وكمال العقل اهـ. وبما أن القوم وصل بهم الأمر إلى الاستهزاء بشخص الرسول ﷺ فلا ينفع معهم إلا الرد بأسلوب معاملة الأسافل من الناس وهو أسلوب القوة، لقد حاول الرسول ﷺ معهم بقوة العقل، وبإقناع الدليل فلم يجدى معهم، ذلك شيئا فكان الرد القرآنى فى هذا المجال هو أبلغ رد وأحسنه: (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا، أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا).

(١) ولعل من الأمثلة البارزة على ذلك ما حدث للإمام أبى الحسن الشاذلى يقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلى: لقد أمر أبو الحسن بالدعوة وبمجرد أن دخل تونس التف حوله مباشرة جماعة من الفضلاء منهم الشيخ أبو الحسن على ابن مخلوف الصقلى، وأبو عبد الله الصابونى، وأبو محمد عبد العزيز الزيتونى، وأبو عبد الله البجائى الخياط، وأبو عبد الله الجارحى كلهم أصحاب كرامات على حد تعبير صاحب درة الأسرار. وكان بينهم الشيخ الصالح أبو العزائم ماضى تلميذ الشيخ وخادمه.

ثم كثر المريدون، وأخذوا يزدادون يوما عن يوم «إلى أن اجتمع عليه خلق كثير».

ثم بدأت الغيرة تدب فى قلب ابن البراء، قاضى القضاة، وكلما ازداد إقبال الناس على أبى الحسن كلما اشتدت الغيرة فى قلب هذا الرجل إلى أن أصبحت تنهشه نهشا، فضعف أمامها، وأعلن الحرب على أبى الحسن.

كان ابن البراء فقيها وكان إذ ذاك «قاضى الجماعة» وكان يعد نفسه الزعيم غير منازع، وكان منصبه الرسمى يعلن أنه الزعيم الدينى الأكبر، وكان ينعم بهذه الزعامة التى أتته عن طريق الدين، والتى كانت فى حقيقة الأمر زعامة أشبه بالدنيوية منها بالدينية وكان ابن البراء يتخيل أو يتوهم أن له شعبية مع ماله من منصب رسمى، فلما رأى التفاف الناس بأبى الحسن صور له خياله أن الشاذلى انتزع منه الزعامة الشعبية، ولما كان الشاذلى من العلماء فى الفقه والتفسير والحديث، ولما كان يفتى ويشرح ويفسر فقد خيل إلى ابن البراء أن ليس هناك ما يمنع من ناحية الشخصية أو من ناحية العلم من أن يتولى ابو الحسن منصب «قاضى الجماعة». وما المانع؟ ومالذى يحول دون ذلك!

وأخذ الوسواس مأخذه، وسولت النفس الأمارة بالسوء ماسولت، فأعلن ابن البراء الحرب على أبى الحسن.

ولم تتخذ الحرب سبيلا شريفا فإن ابن البراء حينما رأى أنه لا يمكنه القضاء على أبى الحسن علميا أخذ يدس له عند السلطان! لقد صور للسلطان أنه فى طريقه إلى أن يصبح زعيما شعبيا خطيرا، والأمر ليس إلا أمر زمن فكلما مر الزمن ازداد تمكنا وشعبية!

«إنه يدعى الشرف، وقد اجتمع عليه خلق كثير، ويدعى أنه الفاطمى، ويشوش عليك بلادك».

ومعنى هذا أن الملك فى خطر.

وهذه الفكرة: «الملك فى خطر» تفعل فعل السحر فى نفوس الملوك، إنها تقيمهم وتقعدهم وتجعلهم لا يتورعون عن أى عمل.

بيد أن أبا زكريا،وهو السلطان إذ ذاك، يرد أن يتعجل وأراد أن يرى قبل أن يحكم وينفذ. =

وكذلك الحكم فى آحاد المؤمنين المتقين لابد، لأحدهم من مؤمن آخر يحسده وينقصه بين الناس ابتلاء له كما سبق فى علم الله تعالى.

فاعلموا ذلك والحمد لله رب العالمين.

= يقول صاحب درة الأسرار: وكان إذ ذاك السلطان أبو زكريا رحمه الله، فجمع ابن البراء جماعة من الفقهاء فى القصبة، وجلس السلطان خلف حجاب، وحضر الشيخ رضى الله عنه.

وسالوه عن نسبه مرارا، والشيخ يجيبهم عليه، والسلطان يسمع، وتحدثوا معه فى كل العلوم، فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها، وما استطاعوا أن يجاوبوه عليها من العلوم الموهوبة، والشيخ يتكلم معهم فى العلوم المكتسبة ويشاركهم فيها.

لقد سمع السلطان الشيخ يتكلم، لقد سمع هذا النوع من الحديث الذى يقول فيه -فيما بعد- إمام المسلمين فى مصر العز بن عبد السلام «اسمعوا هذا الكلام الغريب، القريب العهد من الله».

ورأى السلطان شيخا مهيبا، وإن كان مازال فى سن الفتوة، ورأى السلطان نضجا فى العلم، ونضجا فى التفكير، وروحانية فى الحديث، وشفافية فى البصيرة .

فقال لابن البراء:

هذ الرجل من أكابر الأولياء، ومالك به طاقة ولوح ابن البراء مرة أخرى بالملك، وأنه فى خطر، وأنه يعاديه لحبه للملك ولإخلاصه له ولحرصه على بقاء العرش، وقال للسلطان:

والله لأن خرج الشيخ فى هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس، ويخرجونك من بين أظهرهم: فإنهم مجمعون على بابك.

وأثر تلويح ابن البراء، أو تصريحه، تأثيره فى نفس السلطان، فأذن للفقهاء بالخروج، وأمر الشيخ بالجلوس والبقاء، وجلس الشيخ هادئاً، ساكن النفس، مطمئن القلب وطلب ماء وسجادة فتوضا وأخذ الصلاة.

وهم أن يدعو على السلطان فنودى فى سره:

إن الله لايرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق: وبدل الدعاء الهمة الله أن يقول:

«يامن وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤوده حفظهما وهو العلى العظيم، أسألك الإيمان بحفظك إيماناً يسكن به قلبى من هم الرزق، وخوف الخلق: وأقرب منى بقدرتك قربا تمحض به عنى كل حجاب محضته عن أبراهيم خليلك فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا لسؤاله منك وحجبته بذلك من نار عدوك، وكيف لايحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن متعة الأعباء، كلا، إنى أسالك أن تغبنى بقريك منى حتى لا أرى ولا أحس يقرب شىء ولا ببعده عن، إنك على كل شىء قدير...»اهـ

هذه الكلمات الإلهامية دخلت، فيما بعد، فى بعض أحزابه. هاهو الشيخ يصلى ويدعو، ويلجا إلى مولاه طالباً الرضا والقرب وأن يغبيه بالقرب فى القرب... وبينما هو مستغرق فى دعائه وتبتله إذا بالمقادير ترتب الأمورعلى وضع غير متوقع.

هل فى العالم مصادفات؟

أيحدث فى الكون أمر من الأمور اتفاقًا واعتباطاً؟ . لقد كان عند السلطان فى ذاك الحين جارية عزيزة عليه أحبها فملكت عليه جميع أقطاره، وفى لحظات مرت سراعاً أصابها وجع، فتألمت، واستغاثت، ولم تمهلها الأقدار، فماتت فى حينها، وما من شك فى أن أجلها كان قد انتهى وأن هذه اللحظة كانت مقدرة فى علم الله من الأزل؛ نعم لا ريب فى ذلك ولكنه لا ريب أيضًا فى أن المقادير رتبت ساعة أن منع الشيخ من الخروج، فجاء موتها وكأنه عقاب للسلطان على منعه الشيخ من الخروج.

أهى كرامة؟ وماذا تكون الكرامة غير ترتيب مقادير، أوتصرف مقادير، أو تدبير مقادير؟

«إنا كل شىء خلقناه بقدر» أترى للمصادفة دخل مع هذه الآية العامة.

لقد جاء أجل الجارية، فماتت فى حينها؛ فأصيب من أجلها، فغسلت فى بيت سكناه، واشتغلوا بغسلها وتكفينها؟ =

وأخرجوها للصلاة.
واغفلوا مجمراً فى البيت
لقد كان تدبيراً منذ الأزل أيضًا، حدث فى اللحظة التى قدرتها العناية الإلهية، وكانت هذه اللحظة هى التى يجلس فيها الشيخ مصلياً متبتلاً وكأنه، بحسب الظاهر فى سجن وإن كان فى قصر الملك.
يقول صاحب درة الأسرار:
«وأغفلوا مجمراً فى البيت: فالتهبت النار، فلم يشعروا حتى احترق كل مافى البيت من الفرش والثياب وغير ذلك من الذخائر.
فعلم السلطان أنه أصيب من قبل هذا الولى»اهـ
وكان للسلطان أخ عاقل صالح متدين يحب أولياء الله ويسعى إليهم؛ وكان يحب الشيخ، ويتبرك به، ويزوره مسترشداً، ومستنصحا، وكان فى هذا اليوم فى خارج المدينة: يتفقد بساتينه، ويتنزه فيها، فبلغه خبر ماجرى فى قصر السلطان من مناقشات ومن حوادث، فحضر مسرعا والتقى باخيه وقال له:
«ما هذا الأمر الذى أوقعك فيه أبن البراء، أوقعك والله فى الهلاك أنت وكل من معك»
ثم دخل على الشيخ وأخذ يعتذر إليه ويترضاه: فأعلن الشيخ موقفه من مثل هذه الأمور، وبين لأخى السلطان أن الكون وما فيه ومن فيه فى قبضة الله الكبير المتعال وقال له:
«والله مايملك أخوك لنفسه نفعا ولاضرا ولا موتا ولاحياة ولانشورا، فكيف يملكها للغير؛ كان ذلك فى الكتاب مسطورا».
وخرج الشيخ إلى داره فى اليوم نفسه، واستمر كعادته فى الإرشاد والنصح والتدريس.
ولكن ابن البراء لم يكف عن الإيذاء فكان الشيخ يقابله دائماً بما جبله الله عليه من التسامح.
وكان يلقى عليه السلام إذا صادفه فى مكان ما.
فلا يرد ابن البراء عليه السلام.
وعزم الشيخ على الحج فامر أصحابه بالنقلة إلى المشرق قبل موعد الحج بزمن طويل وذلك ليمكث بمصر فترة من الزمن قبل الذهاب إلى الديار المقدسة.
وبدء الركب يتحرك، ونهضت تونس مودعة، وكانت حركة، وكان ضجيجًا، وعلمت تونس كلها أن ابا الحسن راحل، وعلم السلطان فيمن علم، وظن أن أبا الحسن يريد الخروج نهائيا من تونس فوقع الرعب فى قلبه وأسرع بتوجيه وفد يرجوه فى العودة ، فقال الشيخ:
«ما خرجت إلا بنية الحج إن شاء الله تعالى ولكن إذا قضى الله حاجتى أعود إن شاء الله».
يقول صاحب درة الأسرار:
«فلما توجهنا إلى المشرق، ودخلنا الإسكندرية، عمل ابن البراء عقداً بالشهادة أن هذا الواصل إليكم شوش علينا بلادنا وكذلك بلادكم».
فأمر السلطان أن يعتقل بالإسكندرية.
فأقمنا بها أياما.
وكان السلطان رمى رمية على أشياخ فى البلاد يقال لهم القبائل: فلما سمعوا بالشيخ أتو إليه يطلبونه فى الدعاء فقال لهم:
غداً أن شاء الله نسافر إلى القاهرة ونتحدث مع السلطان فيكم.
قال: فسافرنا، وخرجنا من باب السدرة والجنادة فيه والوالى، ولا يدخل أحد ولايخرج حتى يفتش، فما كلمنا أحد ولا علم بنا .
فلما وصلنا للقاهرة أتينا القلعة فأستأذن على السلطان.
قال كيف وقد أمرنا أن يعتقل بالإسكندرية:
فأدخل على السلطان والقضاة والأمراء، فجلس معهم ونحن ننظر إليه.
قال له الملك:

من أخلاقهم: تجوعهم أوائل دخولهم الطريق مع وجود الطعام مجاهدة لنفوسهم

ثم جوعهم حال كمالهم إذا فقدوا الطعام، فلا يجوعون مع وجود الطعام أبدا لأنهم مطالبون بإعطاء كل ذى حق حقه من جوارحهم ويؤاخذون على ظلمهم لنفوسهم فى مرضاة الله تعالى عكس ما كانوا عليه فى بداية أمرهم.

ومن هنا قالوا: جوع الأكابر اضطرار لا اختيار بخلافهم فى بدايتهم يجوعون اختيارا مع وجود الطعام تعذيبا، لنفوسهم، لتنقاد لهم إذا دعوها، لمرضاة الله عز وجل لأنها قبل الرياضة تشبه الدابه الحرون أو كالعجل الذى يعلمونه الطحين فى الطاحون، فتراهم يجوعونه، ويغمون عينيه بخرقه، ويدورونه بالضرب فى الطاحون أو غيرهما على الفارغ، فلا يزال كذلك، حتى يظهر لهم منه كمال الانقياد، فهناك يطعمونه، ويفكون الغما عن عينيه، ويدورونه على الطحين، ثم يصبرون عليه مدة، وهو يدس القمح، وينثره يمينا، وشمالا، حتى يطمئن.

وقد قالوا فى المثل السائر لمن لا إخلاص: له: يا هذا إن عملك كطحين العجول لا بركة ولا زكاة، ولا نعومة انتهى.

= ما تقول أيها الشيخ:
فقال له:
جئت أشفع إليك فى القبائل.
فقال له:
أشفع فى نفسك، هذا عقد بالشهادة فيك، وجهه ابن البراء من تونس بعلامته فيه ثم ناوله إياه.
فقال له الشيخ:
أنا وأنت والقبائل فى قبضة الله.
وقام الشيخ.
فلما مشى قدر العشرين خطوة حركو السلطان فلم يتحرك ولم ينطق، فبادروا إلى الشيخ وجعلوا يقبلون يديه ويرغبونه فى الرجوع إليه، قال: نرجع إليه، وحركه بيده فتحرك، ونزل عن سريره، يستحله ويرغب منه فى الدعاء.
ثم كتب إلى الوالى بالإسكندرية أن يرفع الطلب عن القبائل ويرد جميع ما أخذه منهم وأقمنا عنده فى القلعة أياما.
واهتزت بنا الديار المصرية، إلى أن طلعنا إلى الحج ورجعنا إلى مدينة تونس.

وقد ورد أنالله تعالى لما خلق النفس أوقفها بين يديه وقال لها: من أنا؟ فقالت له: من أنا؟ فغمسها فى بحر الجوع خمسة آلاف سنه، ثم قال لها: من أنا؟ فقالت: أنت الله: الذى لا إله إلا هو.

وفى بعض الكتب: أبى الله عز وجل أن يعطى الفهم فى كتابه لمن شبع من الطعام أو أعطى النفس حظا انتهى.

فليس للنفس فى بداية أمرها شيء أسرع لانقيادها من الجوع أبدا لأنه يذل الملوك فكيف بالنفس وعن طريقه أعرف مراتب الكمل من الناقصين والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عملهم علي مناجاة ربهم فى كل وقت وحين

فالله عز وجل أقرب إلى الشخص من جاره وأخيه وصديقه فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وحينئذ يعطى الحق تعالى والخلق كلهم حقهم من الحياء، والأدب، والإيثار، والصدق، والتواضع، وغير ذلك عكس من غلظ حجابه، وكشف طبعه، فتراه يقل أدبه وحياه مع الحق تعالى ومع الخلق ويؤثر حظ نفسه على جناب الحق تعالى، وعلى أخيه المسلم، ويكذب عليه ويراعى للخلق غفلة عن الله عز وجل، ولو أنه عمل على رقة الحجاب لانقلبت صفاته السيئة حسنه، وكان يجد الحق تعالى أقرب إليه من الخلق، فكان يراعى له، ويثاب على ذلك، لأنه امتثل أمر الشارع فى حديث (أروا الله من أنفسكم خيرا) انتهى.

وصاحب هذا المشهد يناجى الحق تعالى فى هياكل الخلق من حيث أن سره تعالى هو القائم بهم، ولولا إمداده لهم بالقوة والبقاء لاضمحلوا فى لمح البصر.

وقد كان سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله يقول: لى منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالى، والناس يظنون أنى أكلمهم.

فأعمل يا أخى بهذا الخلق تفز بخير الدارين والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن لا يأكلوا من هدايا الفلاحين الزراعين في طين تحت نظرهم إذا قدموا من سفر الحجاز مثلا

لأن هدايا الفلاحين المذكورين من هدايا العمال، فهى حرام، ولو طابت بها نفس المهدى بدليل أن أحدهم لو عزل من النظر على ذلك الوقف لم يهد أحد من أولئك الفلاحين إليه شيئا، (وقد قال بعض العمال: يا رسول الله: إن بعض الناس يهد إلينا شيئا بطيبة نفس أفنأكل منه فقال: لا فقال: يارسول الله: إن نفسه بذلك طيبة فقال: إن ذلك غلول، فردد عليه الكلام ثالثا فقال ﷺ: هلا جلس أحدكم فى بيته بلا عماله لينظر من يهدى إليه، فرجع ذلك الصحابى، وقال: استغفر لى يارسول الله، فقال غفر الله لك) انتهى.

وقد أوضحنا الكلام على مثل ذلك فى خلق شياخة الأوقاف، فإن قال لنا ناظر: إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية قلنا له: كان يقبلها، وكان يكافى عليها فكاف يا أخى على الهدية، ثم خذها إن شئت.

فحافظ يا أخى على هذا الخلق، فإنه خلق غريب لا أظن أحدا تخلق به فى هذا الزمان إلا الكامل من الرجال والحمد الله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: العمل علي تحصيل الصفا وزوال الجفا حتي لا يصير أحدهم يكره أحدا من خلق الله تعالى بحظ نفس

بل يذهب الحقد والشحناء من العبد جملة واحدة ما عدا الجزء البشرى، وهناك يكتفى أحدهم بالاجتماع القلبى بأخيه، فربما لم يجتمع أحدهم بأخيه بالجسم السنة وأكثرة وربما مرق تحت زاويته، ولا يطلع له، فيظن بعضهم أن بينهما عداوة، فيقع فى حقهما، والحال أنهما متحابان وروح أحدهما ملتفة بالأخرى، وربما زار أحدهما أخاه فى الأسحار، وربما اكتفى أحدهم فى زيارة أخيه كلما اجتمع هو، وإياه فى

حضرة الله تعالى فى الصلوات الخمس، وغيرها فإياك والمبادرة إلى الطعن فى فقراء عصرك إذا لم تر أحدهم يجتمع بالآخر ظاهرا للناس فتقع فى الاثم والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يفرحوا إذا ولد لهم مولود من حيث كونه رحمه من الله تعالي عليهم

لكن ينبغى أن كما يفرحوا به كذلك يحزنوا من حيث كونه فتنة، ويكون حزنهم أشد وذلك لأن عصيان الولد أكثر من طاعته لله تعالى عادة، وقد حذرنا الله تعالى من فتنة الأولاد فى عدة آيات، وكذلك الشارع ﷺ فى عدة أحاديث نحو حديث (الولد مبخلة مجبنة).

ومن فتنتة أيضًا الميل إليه بالطبع دون تحبيب الله تعالى له فيه، ومما يحزن الوالد العاقل أيضًا وجوب مراعاة الولد، ليمشى على الصراط المستقيم، ثم لأخذ بيده فى أهوال يوم القيامة، حتى يجاوز الصراط كما يلاحظ الشيخ المريد ، وكذلك إلى دخول الجنة بل الولد بذلك أولى، وكما يلاحظ الأمير، أو القاضى نائبه إذا ولاه نائبا عنه، حتى لا يزيغ عن الشريعة، فيلاحظ فى أهوال يوم القيامة إلى أن يجاوز الصراط.

وذلك لأن جميع ما يقع من الفرع أصله من الأصل، فهو ممتد منه، ومعدود من جملة كسبه، حتى كان بعضهم يقول: الولد حسنه من حسنات والده، أو سيئة من سيئاته انتهى.

فمن فهم ما ذكرناه هرب من الأولاد، ومن تولية أحد من النواب ومن أخذ العهد على مريد، وحزن، لذلك لما فى ذلك من شدة التعب، ومن فعل ما ذكرناه، وقال: ليس على من وزرهم شيء فخرج عن طريق أهل المروآت، وقد جاءنى قاض يطلب نيابه عند قاضى الخانقاه فأبيت أن أكانب القاضى عليه، فساق على وجوه الناس، فكتبت للقاضى كتابا من جملته إن كان مولانا يعرف من نفسه القدرة يأخذ بيده فى الدنيا

والآخرة إذا زاغ عن الشريعة أو تحمل عنه أوزاره، والا فالأمر راجع إلى الله، ثم إلى مولانا، وقلت له: لا تفتح الكتاب، فخالف،وقرأ ما فيه، وجاء به لى بعض فقراء الزاويه، وقال له: قل لعبد الوهاب: ما لفلان خلاص بهذا الكتاب انتهى، ولعمرى أن فيه خلاصه، ولكن لا يشعر.

فهذا كان شأن الأولياء، والأمراء، والقضاة، الذين مضوا كانوا لا يتولون على أحد أو يولونه إلا إن رأوا طريق الخلاص لهم، وله فى ذلك رضى الله عنهم أجمعين والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: العمل علي تحصيل مقام الحضور مع الله تعالي في كل عبادة

حتى لا يكون عند أحدهم ترجيح للاشتغال بعباده دون أخرى بل كل عبادة يفعلونها يدخلون بها حضرة الله تعالى، ومن تحقق بهذا المقام تساوى عنده الاشتغال بالعلم والذكر، وتلاوة القرآن، والاشتغال بقراءة النحو والمنطق على حد سواء، لأن صاحب هذا المقام يشهد الحق تعالى غير متحيز فى جهة ذاتا، وصفة، ويعلم أنه بين يدى الله تعالى فى كل مكان، وعند كل فعل، أو قول، أو خاطر بخلاف من لم يتحقق بهذا المقام، فإنه يلحقه ضيق، وحصر فى قراءة علم النحو مثلا لا سيما إن كان ذلك عقب مجلس ذكر حصل فيه حضور، وسكر، فليسع صاحب هذا الحال وجوبا فى الترقى إلى التحقق بالمقام، حتى يصير يحضر مع الله تعالى فى كل شئ قرأه من علوم الشريعة، وآلاتها وتوابعها، فإنها كلها مطلوبة شرعا.

وقد كان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله تعالى عنه يدرس فى علوم الشريعة من فقه، وحديث، وأصول، ونحو، ومعانى، والقراءات السبع، وهو قطب الوجود إلى يوم وفاته رضى الله تعالى عنه، وتبعه على ذلك الكمل من أهل الطريق.

فإن من شرط الشيخ أن يكفى تلامذته فى كل علم قرأوا عليه فيه ولو صاروا من مشايخ الإسلام، وأما من يقول لمريده: إقرأ على غيرى مالى فراغ إلى الاشتغال بما تقرؤه على، فهو ناقص لا يصلح للتعبد.

فاعلم ذلك واعمل على تحصيله والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن يتوقفوا أن يجيبوا أحدا إلي خطبه كريمتهم إلا بعد أن أطلعهم الله أن الله تعالي قد قسم تزويجها لذلك الخاطب

فإن لم يطلعهم الله تعالى على ذلك توقفوا فى إجابتهم للخاطب، حتى تحتاج كريمتهم إلى التزويج بالطريق الشرعى كل ذلك خوفا منهم أن يخطبها أحد، ولم تقسم له، ثم يخطبها آخر، فتقسم له، فتحكم الشريعة بالإثم على من خطب ثانيا، وعلى من زوج بعد خطبة الأول.

وهذا الأمر يقع كثيراً من بعض الناس والأخذ بالاحتياط فى الدين أولى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: شدة حذرهم من سحر الدنيا لقلوبهم

كما يحذرون من ضرر سحر من جربوا صحة سحره بل أشد لأن غاية سحر الساحر إن يفرق بين الإنسان، وأشكاله، بخلاف سحر الدنيا للقلوب، فإنها نفرق بين العبد وبين شهود ربه.

وقد قال الفضيل بن عياض، لسفيان الثورى: ياسفيان إياك أن تميل إلى الدنيا فإنها تميل تسحر قلوب العلماء، وانظر يا سفيان إلى النسر عزيز فى مطاره لا يصل إليه أكبر ملوك الدنيا، فإذا أراد الله أن يذله نصب الناس له رمة فى الأرض من لحم الميتة،

فانقض إليها من جو السماء، فيصل إليه أصغر الأطفال، ويقبض عليه، وينتف ريشه، وتصير الأطفال يلعبون به لا يقدر على الطيران إلى المحل الذى كان فيه، ولا يقدر يمنع نفسه منهم بالعدو، فكذلك حكم العالم إذا مال بقلبه إلى الدنيا إن فى ذلك، لعبرة لأولى الأبصار.

وهذا الخلق صار غالب الناس لا يقدر على التخلق به، وربما فعل للدنيا كل مرصد، وجمع من المال ما لا حاجة له به، ثم يبسط فى مأكل وملبسه، وإذا لامه إنسان على ذلك قال: إنما فعلت ذلك إظهارا لنعمة الله تعالى، وينسى أن ذلك المال حرام من حيث النصب على الناس لأنه، لو كان حلالا من أصله، فهو حرام من جهة إظهاره النسك، والعبادة، والزهد، حتى أعطوه له، ولو أنه كتم عباداته، لربما كان الناس لا يعطونه شيئاً من ذلك.

وقد كان الفضيل بن عياض رضى الله عنه يقول: لأن آكل الدنيا بالطبل، والمزمار أحب إلى من أن آكلها بدينى، فاعلم ذلك يا أخى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: شدة تواضعهم لأقرانهم بطريقه الشرعي

فلا يبالغ أحدهم فى التواضع لهم، ويرفعهم إلى مقام ليس هو لهم فيفترون بذلك ويترفعون عليه، ويضر نفسه بل يحتاط فى تواضعه غاية الاحتياط لاسيما إذا نالهم شيء من الإعجاب، والكبر بسبب ذلك، كما هو الغالب على بعض فقراء هذا الزمان، فإنه يهلكه.

وقد دخلت مرة على نيه زيارة شيخ منهم، فدخل عليه أمير كان يزورنى، ويعتقدنى غاية الاعتقاد فقلت فى نفسى: أقبل رجل هذا الشيخ، لأقوى اعتقاد الأمير فيه، فقبلتها فسقطت من عين ذلك الأمير من لك الوقت، وانقطع عن زيارتى، وصار يرد شفاعاتى، فلا ذلك الشيخ قام مقامى فى الشفاعة عنده، ولا أنا دامت لى شفاعة،

فكان عدم تقبيلى رجله أولى، لما ترتب على ذلك من فوات زوال تلك المظالم، وتفريج الكروب، ولا ينبغى لأمثالنا أن يتشبه بأرباب الأحوال الذين يقبلون نعال أقرانهم، وحرمتهم وتعظيمهم باق فى القلوب، لضعف مثلنا عن حفظ حرمتنا فى القلوب إذا قبل رجل أحد من أقرانهم والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا كثرت تبعات الخلايق عليهم يقينا أو شكوا في ذلك أن يتوجهوا إلي الله تعالي في تمكين أصحاب الحقوق منهم في الدنيا ليصلوا إلي نظير حقوقهم في المال والعرض

أما المال فبالمسامحة لهم أو الغضب أو السرقة، كما هو مقرر فى مسئلة الظفر.

وأما العرض، فبتسليط صاحب الحق أو غيره عليهم، فيقطع فى أعراضهم فى المجالس.

ومن علامة صدقهم أن لا يقتصر لهم أحد، ولا يرد عن عرضهم، وأن يتكدروا ممن يرد عنهم، لأن من رد عنهم، كأنه يقول: دعوا التبعات عليهم من غير وفاء، أو من غير مقابلة إلى يوم القيامة، حتى يصلوا إلى محل تشح فيه النفوس على والديها، وولدها وتعز أصحابها، وهذا يقع فيه بعض من لاقدم له فى كمال الإيمان بيوم الحساب وربما يفرح أحدهم بمن يرد عنه، ويجد لذلك راحة.

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول: كل من لم ينشرح صدره بكلام الأعداء فيه، ويحصل له السرور الكامل بذلك، فهو ناقص الإيمان، والواجب عليه العمل على تحصيل مقام كمال الإيمان بأهوال يوم القيامة، حتى يشاهدها رأى عين فإن الدين كله مبنى على كمال الإيمان فإن دخل إيمان العبد ضعف أن ثلمه دخل له الشك فى أحوال يوم القيامة.

وقد كان السلف الصالح يتهمون أنفسهم فى كمال إيمانهم وينفون عن أنفسهم الإيمان الكامل لهم، حتى كان الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه يقول: لمن قال عنه: إن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب.

فقلت له: صدقت لا تكفر عن يمينك انتهى.

وأحسن ما قالوا فى كمال الإيمان: أن يكون الغايب عنده، كالشاهد على حد سواء من غير فرق فى جزاء المأمورات، والمنهيات، حتى لا يتخلف عن مأمور، ولا يقع فى محظور إلا من حيث عدم القسمة ، فهو يود أن ذلك يقسم له، حتى يفعله، ومثل هذا يرجى بخلاف من ترك ذلك لعدم الداعية الإيمانية.

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول: من تهاون بهدم مقدار لبنة واحدة من بناء إيمانه تبعها لبنة بعد لبنة، حتى يتهدم إيمانه كله، ولو على طول.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان، واصبروا على من يؤذيكم إن لم تنشرحوا لذلك، ولا تقابلوه قط بنظير فعله، تصيروا مثله فى البذاءة، والفحش، فإن من يؤذيكم لا يخلوا إما أن يكون له حق عليكم، فيستو فيه منكم، أو لا حق له، فيكفر عنكم من سيئاتكم، ويعطيكم حسناته يوم القيامة، وما تكدر من كلام قيل فيه إلا جاهل أحمق قليل الايمان بيوم الجزاء، فإياكم ثم إياكم والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا طلب أحد من العلماء أن ينظر في رسائلهم أن لا يجيبوه إلي ذلك حتي يتوجهوا إلي الله تعالي بأن يزيل ما في قلب ذلك العالم من الحسد والكبر والدعاوي والعجب

فإن من أعطى فقيها من أقرانه شيئًا من كلام القوم عرضه للمقت إلا أن يثق برياضة نفسه بالمجاهدة أو بالفطرة، فإن من لازم أصحاب الرعونات عدم الانتفاع بكلام أحد من أهل الطريق لما عندهم من الكبر، ومن شك من الفقراء فى ذلك، فليأمر

الفقيه الذى طلب أن يطالع فى رسالته مثلا أن يتصدق بعمامته، أو ينزل لفقير عن وظيفته فإن أجابه بانشراح صدر إلى ذلك، فهو ينتفع بكلامه.

فإن آداب الفقراء كلها ترجع إلى الزهد فى الدنيا، ومخالفة هوى النفوس، فاعلموا ذلك أيها الاخوان، ولا تعطوا رسالة شيخكم بعد موته لأحد من أصحاب الدعاوى إلا بعد الإمتحان والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: العمل على زوال الظن من قلب أحدهم وذلك إذا لاحظ الشرفية

فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن أدنى المؤمنين من خلط فى أعماله فعمل صالحاً تارة وعمل سوءاً تارة أخرى.

وقد رأيت فى كلام بعض العلماء أن مذهب أهل السنة والجماعة أن من يجتمع فيه الخير والشر فى وقت واحد، فيكون وليا لله تعالى من وجه كما أنه عدو لله تعالى من وجه آخر.

قال: وهذا هو الحق الواضح الذى شواهده كثيرة من الكتاب والسنة بخلاف من قال بالإحباط، وكفر المؤمنين بالمعاصى، والذنوب كما فعلت الخوارج، وغيرهم من أهل الأهواء.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: الانسان جامع لصفات الملائكة، وصفات الشياطين، وصفات البهائم، وصفات الجمادات، فإذا كان فى أعمال خالصة، فهو فى حضرة الملائكة وإذا كان فى أعمال طالحة فهو فى حضرة الشياطين، وإذا كان غافلا فى أعمال الدنيا، فهو فى حضرة البهائم وإذا كان فارغا من أعمال الدارين، فهو فى حضرة الجمادات انتهى.

فاعلم ذلك يا أخى واعمل على تحصيل أعمال الملائكة فقط، أو صفة الجمادات فقط من حيث ترك التدبير مع الله تعالى، والتسليم له والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: العمل علي تحصيل مقام الصبر والتقوي معا

ولا يقنعون بحصول أحدهما دون الآخر، وذلك لأن الله تعالى جمعهما فى القرآن فى آيات كثيرة نحو قوله (بلى إن تصبروا وتتقوا[١]) (وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً)[٢] (وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) وقال السيد يوسف عليه الصلاة والسلام (إنه من يتق ويصبر[٣]... الآية.

فالتقوى والصبر ملاك الأمر كله لأن الصابر إذا لم يلزم طريق التقوى، فقد يكون حاله مثل حال كثير من جهال أهل الجبال والقرى الذين يصبرون على المصايب والعقوبات، ويسلخ الوالى جلد أحدهم فى غير طاعة الله تعالى، فلا يقول أه اظهاراً، للشجاعة والتجلد، والتفاخر لا رضى بقضاء الله تعالى، ونظير هؤلاء فى الصبر المذكور الرهبان، وعباد أهل الملل كالخوارج الذين قال فيهم رسول الله ﷺ أن أحدهم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، وقرأته مع قراتهم وأنهم يتلون القران، لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم، فاقتلوهم، فإن فى قتلهم أجرا عند الله تعالى لمن قتلهم يوم القيامة لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد، وثمود، فقتلهم الامام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بأمر رسول الله ﷺ، وكانوا أربعة آلاف فى غداة واحدة.

فعلم أن الصبر إذا وجد بلا تقوى كان حال صاحبه كحال هؤلاء الخوارج، والرهبان، وأما التقوى بلا صبر، فتوجد كثيراً فى ضعاف الناس، كالذى له صبر على

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٢٥.
(٢) سورة آل عمران آية : ١٢٠.
(٣) سورة يوسف آية: ٩٠.

العلم، وليس له صبر على العمل به مع أنه لا يستقيم أحدهما إلا بالآخر، فاعلم يا أخى ذلك واعمل على تحصيله والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: شدة التباعد عن الوقوع في مظالم العباد مطلقا فإن للمظالم ثلاثة دواوين:

ديوان لا يغفره الله تعالى، وهو الشرك، ثم هو قد يرجع إلى ظلم النفس التى هى من جملة العباد.

وديوان لا يتركه الله تعالى، وهو مظالم العباد من مال، وعرض.

وديوان لا يعبأ الحق به شيئًا وهو ظلم العبد لنفسه بارتكاب المعاصى دون الشرك بالله تعالى الذى يغفره الله تعالى بالتوبة.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: مظالم العباد ثلاثة قسم يتعلق بالنفوس، وقسم يتعلق بالأموال وقسم يتعلق بالأعراض:

فأما النفوس فلها أحكام عديدة فى مثل قتل العمد، والخطاء ووجوب العقود، والدية والكفارة، وغير ذلك، مما هو مذكور فى كتب الفقه.

وأما الأموال، فإنه لا بد من ردها إلى المظلوم، أو وارثه، وإن تعذر ذلك لم يبق غير التصدق بها عن صاحبها على مذهب من يرى ذلك، فإن عجز عن رد المظالم، فليستكثر من الحسنات التى يوفى منها الغرما عند الميزان، وإلا فليتأهب لتحمل أثقال المظلوم وأوزاره يوم القيامة كما ورد فى الصحيح إن من كانت له حسنات أخذ من حسناته، وأعطى المظلوم، ومن لم يكن له حسنات طرح عليه من سيئات المظلوم، وكتب له كتاب إلى النار.

وأما الأعراض فقد ذكر بعض محققى الأئمة فيها تفصيلا حسنا لعله أحوط الوجوه فى هذا الباب وهو أن تلك المظلمة وإن كانت غيبة أو نميمة أو نحوهما فلا يخلوا الأمر

من حالين إما أن يكون قد بلغت المظلوم أو لم تبلغه فإن تكن قد بلغت فإن الطريق هو التحلل منها وإن لم تبلغه كان تبليغها له إذا جد جديد ويؤدى إلى الخصام، وانقطاع المودة ونحو ذلك ما هو أصعب من تلك المظلمة، فالطريق فى ذلك كثره الاستغفار له دون تبليغه، وطلب التحلل منه.

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن من الذنوب ما يشتبه أمره على صاحبه من جهة كونه من مظالم النفس ومظالم العباد، كالزنا والتلوط مثلا، فإن الأمر فى ذلك يحتاج إلى تفصيل، ليظهر بواسطته وجه الصواب، وهو أن يقال: إن كان المفعول به مبذولا كانت تلك المعصية من مظالم النفس، وإن كان الفاعل قد راوده، وعاوده، واستنزله كان ذلك من مظالم العباد الصعبة، لأنه أذى تلك الصورة، وقهرها، وجرأها على المعصية، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، وأيضًا فإنه هتك عرضها وأذى أهلها وحملهم العار؛ وأوجب لهم الحرص على استيفاء النار بقتله، ولو بعد مدة طويلة مع ما فى ذلك من تورث الأحقاد، والضغائن فى النفوس بسبب ذلك الفعل، ولو بالإشاعة، وقد وقع فى الوجود من أمثال ذلك مالا يحصى كثرة، وهو من أعظم المظالم المؤثرة فى النفوس، فيجب إخراج فاعل ذلك من الحارة، والمكان الذى هو مسكنه خوفا أن يقتله أهل ذلك المفعول به من إمرأة أو غلام، لأن غالب الناس لا يملك نفسه أن يردها عن قتل من رآه يفسق فى ولده أو كريمته أو زوجته -بل بعضهم قتل من يراه نزل داره فقط من غير فسق فى أحد بل ينبغى لصاحب تلك الفعلة أن يرحل هو حياء من أهل حارته، ولايرجع إليهم، فإن قلت: فهل يغفر الحج مظالم العباد؟ فالجواب لا تغفر مظالم العباد بذلك بل، ولا يغفرها الجهاد الذى هو أعظم من الحج، وقد ثبت فى الصحيح (أن رجلا قال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله هل يغفر لى كل شىء فقال له: إن قتلت فى سبيل الله مقبلا غير مدبر وأنت صابر محتسب غفر لك كل شىء ثم ذهب الرجل، ونزل الوحى، فلما سرى عنه ﷺ قال ﷺ: غفر لك كل شىء إلا الدين بهذا جاءنى جبريل وهذا يعلم به فضل جنس الجهاد على جنس

الحج قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستون عند الله . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون)[1].

وقد تمسك طائفة من الناس فى هذا الباب بحديث لم تثبت صحته عند الحفاظ

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: حقوق الله تعالى تغفر بالتوبة بحكم الوعد منه تعالى إن الله لايخلف الميعاد، وأما حقوق العباد، فإن فيها حقا للحق وحقا للخلق، فبالتوبه يغفر حق الحق منها ويبقى حق المظلوم إلى أن يستوفى، أو يزول بطريقة الشرعى انتهى.

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول: الوصول إلى مقامات اليقين التسعة واجبة على المكلفين إلا الرضى، فإنه مستحب عند أكثر العلماء، وليس بواجب.

فقلت: وما هيّ التسعة؟

فقال: الصبر والتوبة والشكر والرجاء، والخوف، والزهد، والرضى، والتوكل، والمحبة.

فقلت له: أن الرضى أفضل من الصبر، وأعلا وأشرف، فكيف يكون الفاضل مستحبا، والمفضول واجبا مع أن فى الحديث الصحيح (ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم).

فقال رحمه الله تعالى: إن الله خفف عن عوام هذه الأمة أمورا منها الرضى فجعله مستحبا، لعجز أكثر من الخلق عن الوصول إلى مقامه إذ هو موهبة من الله تعالى يقذفه فى قلب من يشاء من عباده بخلاف الصبر، فإنه يجب على النفوس التصبر، ثم الصبر مع الكراهة فى مقامات الصبر الثلاثة، وهو الصبر على الطاعات، حتى تؤدى، وعن المعاصى، حتى تترك، وعلى المصايب عند نزولها، ثم إن النفس إذا اطمأنت، فإن

---

(١) سورة التوبة آية: ١٩.

الحال يتغير عليها فى ذلك، حتى كان بعضهم يقول: مازلت أسوق نفسى إلى الله تعالى، وهى تبكى، حتى صارت، لتسوقنى، وهى تضحك، ومن هنا يتمكن العبد فى مقام الرضى المشار إليه بحديث أنس بن مالك: (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف يومًا قط، ولا قال، لشيء لم أفعله هل لا فعلته، وكان إذا سمع بعض أهله يعاتبنى يقول: ذروه ما قدر شيء لكان انتهى فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أنهم لا يشعرون أن لهم فضلا مع أحدهم إذا أحسنوا إليه

بأن يفعلون الخير له ولا يطلبون عليه جزاء، ولاشكورا، وميزانالتحقيق بذلك أن لا يكون لهم إذلال على من أحسنوا إليه، ومتى كان عندهم إذلال عليه، فإحسانهم معلول، وصاحب العمل المعلول لا حرمة. له به عند الله تعالى لإحباطه بتلك العلة، وربما رأى له بذلك منة على الفقير، فعطيه الفقير بعزل أو مرض.

وقد وقع أن الشيخ عبد القادر المغازلى بنى لشيخ شيخنا زاوية، وعمل له فيها ضريحاً، ودفن الشيخ فيه، ثم إن ولده العزيز عنده مات، فدفنه، بجنب الشيخ، فما فرغ من دفنه، حتى جاءت لمن ألحده لطمة غاب عقله منها، فاطلعوه من قبر الشيخ محمولا، فبقى تسعه أشهر ضعيفا يبول، ويتغوط على نفسه، حتى قذرته نفوس أهله، فأرموه فى محل المزابل، فأتاه الشيخ، وقال: تب إلى الله تعالى إنك ما عدت تدخل أحدا على فقير فى القبر، وأنت تطيب من هذا المرض، فتاب إلى الله تعالى، وطاب من وقته انتهى.

فينبغى لمن بنى لشيخ ضريحا أن يوصى أهله بأن لا يدفنوه إذا مات إلا بعيدا عنه مع استئذان الشيخ أيضاً، فيقولون له: دستور ياسيدى ندفن بجنبك فلانا، فإنه يسمع فى القبر، وقد أوصيت أنا أصحابى إذا أنا مت أن لا يدفنونى بجانب قبر الشيخ نور الدين

الشونى إلا بعد استئذانه، ولو كنت أنا الذى دفنته عندى ابتداء، لأنى لم أرى فضلا عليه بذلك بل الفضل له الذى أجاب للدفن عندى لما سألته فى مرض موته.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه والحمد لله رب العالمين.

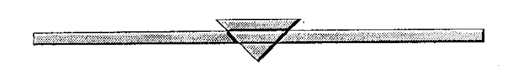
• • •

ومن أخلاقهم تعظيم حرمات الله تعالى والتباعد عن تعدى حدوده

ثم إن أحدهم إذا وقع فى أصغر الذنوب عادة فى رأى العين رأى ذلك الذنب من الكبائر بجامع المخالفة، والعلم بأن الله تعالى نهى عن ذلك، وقد يسامح الحق تعالى فى الذنب الكبير، ويؤاخذ بالصغير عند فاعله كل ذلك إجلالا لله تعالى، فلا يزال أحدهم كذلك، حتى يرى الغفلة عن الله لحظة أشد عليه من كل بلاء ويقع له من الخوف بسبب ذلك أشد من الخوف الواقع عليه من أكبر البلايا، وذلك من علامات الكمال فى مقام الإجلال وقد تخلفت بذلك ولله الحمد، ثم رجعت إلى الكمل من ذلك وهو تعظيم حدود الله تعالى على حسب ماوردت بحكم التبعية للشارع فى ذلك، فأعظم الكبيره على الصغيرة، والصغيرة على المكروه، والمكروه على خلاف الأولى، فإن العبد تابع ماهو مشروع، وما بين الشارع مراتب الحدود إلا ليعلمنا بتفاوتها لنعظمها بحسب مراتبها، وكذلك القول فى قسم المأمورات فنعظم فعل الواجب أكثر من المندوب، ونعظم المندوب أكثر من الأدب، ونندم على ترك كل واحد بحسب تأكيد الشارع عليه، فرجع حال السالك فى حال نهايته إلى صورة بدايته.

والقصد مختلف من حيث تفاوت المأمورات، والمنهيات فى الدرجة، وكانت مساواة الأوامر والنواهى فى التوسط للسالك من شدة تعظيمه لله تعالى، فاستعظم مأموراته، ومنهياته جملة خوفا من الله تعالى، وسدا لباب المخالفة بقطع النظر عن مشاهدة حكمة تفاوتها كما ورد عن الشارع.

وثم مقام رفيع ومقام أرفع وعلى ماقررناه يحمل قول الجنيد (ما ثم عندى ذنبا أعظم من الغفلة عن الله عز وجل)، وأنه قال ذلك حال توسطه فى الطريق، فإن الشرك، وقتل النفس أعظم من الغفلة عن الله عز وجل، كما قال المسيح عليه الصلاة والسلام فى حب الدنيا (إنه رأس كل خطيئة) انتهى أى محبة شهواتها مع الغفلة عن الله عز وجل، فإنه لولا شهوة القتل للنفس مع الغفلة عن الله تعالى ما قتل، ولولا شهوة الزنا مازنى، ولولا شهوة شرب الخمر ما شرب وهكذا، فاعلم ذلك، وتقيد بالشريعة فى كل فعل وترك واعتقاد والحمد لله رب العالمين.





الباب الثامن

فى جملة أخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم : عدم حكايتهم للناس أعمالهم الصالحة التي وقعت منهم في أزمان مضت ولم يشعر بها أحد إلا لغرض شرعي

فإن حكايتها بغير غرض شرعى تردها إلى صورة الرياء بها حال عملها وهذا من دسايس إبليس على المتعبدين الذين لم يسلكوا على يد شيخ ، فيعملون الأعمال الصالحة سراً ، فلايزال إبليس يزين فى عينهم ذكرها للناس حتى يخرجها من عمل السر الذى يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً ويردها إلى حكم الربا بها ، ويصير كأنها راياً بها .

ومن وصية سيدى على الخواص لأصحابه : إحذروا من التسميع بأعمالكم فإنه يبطلها كالرياء على حد سواء ، ولهذا أتت هذه الكلمة مقرونة بالريا فى نحو قوله ﷺ « ويبقى الذى كان يسجد ريا وسمعه » إذا الرياء له اشتقاق من الرويه والتسميع من السمع ، ومن المعلوم أن التسميع الآجل كالريا العاجل حيث أراد نظر المخلوقين وتعظيم نفسه عندهم بأعماله ، والإخلاص مغاير لهذا كله .

وقد سمعته رضى الله عنه ينهى عبداً عن صلاته بجنب أمير فى صلاة الجمعة حين قال له :

يا سيدى مقصودى أصلى بجنب الأمير لأسأله عن حاجة كذا وكذا .

فقال له : يا ولدى أخاف عليك الريا بخلطك أعمال الدنيا مع أعمال الآخرة ، ولكن صل حيث شيئت ، فإذا فرغ الأمير فسله فى أى مكان كان .

وسمعته أيضاً يقول : قد يخلص العبد فى أعماله ، ويرفع ذلك العمل خالصاً مخلصاً من شوائب الرياء ، فلا تزال النفس تضطرب بطبعها ، والشيطان يوسوس لها ، ويحتال على إفساد ذلك العمل الصالح على عادته مع العبد ، وإبطاله بالكلية إلى أن يتحدث به العبد ، ويخبر به الناس وحينئذ تسكن نفسه عن ذلك الاضطراب لأنها وصلت إلى حظها من الريا ، وقنعت بثناء الناس عليها ، حتى أنها لم تخف من سخط الله تعالى

عليها ، حيث أخرجت عبادتها عنه تعالى إلى عبد من عبيده لا يضر ولا ينفع فى دين ، ولا دنيا ، وذلك هو الخسران المبين .

وكثيراً ما يخبر المغفل بأعماله الصالحة من لا يحتفل بالثناء عليه بسبب تلك العبادة، ولا يرفع قدره بها ، فهذا خسر حظه العاجل أيضاً ، فنعذ بالله من ذلك .

فإذا : قلت إذا من الله تعالى على عبد بأعمال صالحة من عدة سنين ، وطويت صحايفها على ذلك ، ثم إنه سمع بها الناس ، حتى حبطت كما صرح بذلك فى الحديث ، فهل لذلك من دواء ، فالجواب نعم لذلك دواء، وهو أن يندم العبد على ذلك ، ويتوب من مثله توبة صادقة جازمة بأنه لايعود يسمع أحداً من الناس ، بعمل من أعماله إذ التوبة الصادقة تمحو تلك الزلة فإذا تاب كذلك رجع العمل صحيحاً بمشيئة الله تعالى وحسن توفيقه .

ومثل ذلك ، كمثل رجل كان صحيحاً ، ثم طرأ عليه مرض أفسد صحته ، فاستعمل دواء نافعاً ، فأزال الله به ذلك المرض ، وعاد المريض بفضل الله ورحمته إلى حال صحته ، فعلم أن التسميع له دواء بخلاف الرياء لأنه يفسد العمل من أصله ، فأعمل ذلك يا أخى واعمل على تحصيل الإخلاص فى أعمالك الظاهرة والباطنة .

وقد دخلت مرة على سيدى الشيخ عبد القادر الدشطوطى رحمه الله فقلت له : أوصنى .

فقال : عليك بإخلاص القصد لله عز جل ، ولاتتهاون فى ذلك ، وترضى بتلبيس نفسك تهلك .

فقلت له : ما مثل ذلك ؟

فقال : أن يكون الباعث لك على فعل العبادة أمران فانى أو باقى .

فقلت له : فإن غلب الباقى على الفانى ؟

فقال : هو رياء .

فقلت : إن بعضهم يقول : إذا غلب الباعث الباقى كان الحكم له .

فقال : هذا فى حق العوام الذين لايقدرون على سلوك طريق العلماء العاملين أما من يقدر على سلوك الطريق فلا يسامح بمثل ذلك .

ثم قال لى : إن العلم من أصعب طرق الرياء على المبتدئين فى الطريق أن يكون عمل أحدهم لله تعالى ، ولشىء آخر ، فإن مثل هذا يشتبه على المريدين ، ويعسر عليهم الخلاص منه بخلاف الرياء المجرد ، فإنه قد يفهم بأدنى تأمل .

وأطال فى بيان طرق الريا بما لم يخطر على بالى قبل ذ لك .

ثم قال : ومن غريب ما يقع لبعض الناس أن يكون للواحد منهم حاجة عن حاكم أو أمير أو كبير وذلك المعظم يصلى الجمعة أو غيرها فى الصف الأول أو فى مكان معروف به، فهو مجتهد فى الصلاة إلى جانبه ، ليحصل مراده منه لا ليؤدى فريضة الحق تعالى فى ذلك المكان على تلك الصفة ، ومن المعلوم أن الباعث على ذلك العمل هو ذاك القصد الأول لا قصد إتقان أمور الصلاة .

قال : وهذه علة دقيقة يجب التفطن لها خوفاً من ضياع الأجور وظلمة القلب لأجل فساد المقصود ، فإن بلى العبد بمثل هذه الأمور ، ولابد كان له فى التخلص منها عدة طرق منها :

أن يعقد تلك الصلاة نفلاً ، ثم يجهد على أداء الفرض بطريقه الشرعى فى مكان آخر أو جماعة أخرى . وقصده مخلص ، واجتهاده على الخير كامل .

ومنها أن يمسك أنفه موهما للرعاف ، ثم ينصرف موهما لتجديد الوضوء ثم يصلى فى مكان ليس فيه شائبة الربا ويعود إلى الأمير يحدثه من أمر دنياه التى يؤملها لا يحول بينه وبينه شىء ولو فعل غير ذلك إذا قسم له منها لا يتهيأ له حصوله ولو ضيع فى تحصيله أمور دينه ، والغفلة فى هذا الباب شاملة جداً لأكثر الناس ، فيقدمون طلب تحصيل الدنيا على طلب الأجور فى الآخرة .

ومن طرق الخلاص أيضاً : أن يحاسب نفسه بصدق إن خشى خروج الوقت أو فوات الجماعة ، ونحو ذلك من الأمور العارضة ، فيفكر فى نفسه ، فإن أمكنه الإنصراف إنصرف بحيث لا يوهم نفسه ما ليس له حقيقة من رعاف . ونحوه وإن أمكنه أن يقعدها نافله فعل ، فيجدد النية بطريقه الشرعى ويصلى فى ذلك الموضع على وجه شديد ، هذا كله فى الأمور المقطوع بها من النوافل .

أما كون العبد يجعل الفريضة التى هى أفضل عبادات البدن ترسا بين يدى حظوظه، ووسيلة إلى تحصيل مقاصد دنياه الفانية ، فإن ضرر ذلك لا يخفى على أدنى أهل الإسلام ، وإن وقع أن أحد ألبس على نفسه ، ورضى بدوام التدليس فلا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، ولما حضرت الوفاة الإمام ابن عمر رضى الله عنه أثنى الصحابة عليه وقالوا : أبشر بخير فقد سهلت طريق مكة ، وبنيت المصانع ، وفعلت ، وفعلت ، وعبد الله بن عمر ساكت فقالوا له : ماذا تقول ؟

فقال : أقول كما قلتم ، ولكن إذا صحت النية ، وطابت النفقة انتهى .

ثم قال سيدى عبد القادر : هكذا سمعت ذلك من لفظ سيدى إبراهيم المتبولى .

فقلت له وسمعت نحو ذلك من سيدى على الخواص .

فقال : مكان حاضراً معى فى ذلك المجلس ، فقويت الزاوية بذلك فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : في كل عصر الحذر من الاغترار بأعمال أهل عصرهم والاكتفاء بالعمل علي صورتها من غير تفتيش فيها

فإن الغالب عليهم قلة التحشم والإخلاص وعدم التخليص من دقايق الريا .

وقد كان الفضيل بن عياض رضى الله عنه يقول : إقتد بالأموات من السلف الصالح ، وإياكم ، والاقتدا بأهل زمانكم ، ثم يقول : وما أشدها من خصلة فى العيش مع الأحياء والإقتداء بالأموات .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : عليك بحس الاتباع للسنة الثابتة ، فإن ذلك ثمرة عظيمة لا تحيط العقول بفضلها وبعظمة درجتها فالعاقل من وزن أفعاله وأقواله وأحواله فإذا سار على هذا المنوال فهو المقبول ، وما خالفها ، فهو المردود .

قال : وقد دخل على بعض ممن يدعى السلوك دواخل عظيمة من اتباع البدع : ذهب توحيد بعضهم ، فأوجبت لهم الشرك ، والإلحاد والخروج عن حقائق دين الإسلام بالكلية .

فإياك يا أخى ، ومعاشرة هؤلاء وعليك بمطالعة كتب الحديث ، كالبخارى ومسلم ، والسيرة النبوية ، والآثار السلفية تخلص من الضلال ، وإن كنت قاصر الفهم عن استخراج الأحكام من الأحاديث فجالس الفقهاء ، ولو كانوا غير عاملين بعلمهم ، لتستفيد منهم الآداب ، والأخلاق ، والسنة مستمرة الوجود فى الوجود إلى مقدمات الساعة ، فاطلب ذلك ، وعلق قلبك بمعانى النصوص الشرعية المتعلقة بالتوحيد الصحيح الخالص عن الشوب ، فإن فروع التوحيد الغالبة والحالية حقيقة هى المستندة إلى طريق السلف من الصحاب ، والتابعين ، وتابعيهم ، والأئمة المشهورين ، كالإمام أبى حنيفة ، وسفيان ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد ، ومن تبعهم من المشايخ كالفضيل بن عياض ، وابراهيم بن أدهم ، وذو النون المصرى ، وأبى سليمان الدارانى ، ومعروف والجنيد ونحوهم من أهل الاهتدا والاقتدا.

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول : إلزموا طريق السلف الصالحين ، واحذروا من طريق المتأخرين ، فإنهم قلبوا كثيراً من القواعد الشرعية ، وغيروا كثيراً من المقاصد الصحابية ، واكتفى أحدهم بالقال عن الحال ، وتركوا المجاهدات لنفوسهم بالكلية ، وصارت لهم مسالك ، وعبارات ورياضات ، وعبادات كثيرة التعب قليلة المنفعة جلعوها بجهلهم نهاية التحقيق ، وغاية التدقيق ، فهى فى نفس الأمر ، كسراب بقيعه يحسبه الظمآن ماءاً .. الآية ومن تصفح السنة عرف صدق ما أقول انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقول : قد أعرض أهل هذا الزمان عن اتباع سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ فى أكثر الأعمال ، والأقوال ، والأحوال ، واشتغلوا بعلم القال ، والخوض فى علم الكلام وقد ذم جمهور الأئمة علم الكلام ، فإن بعضه ينقض بعضاً ، وكل طائفة تدعى أن الحجج القطعية العقلية معها دون جميع المخلوقات.

وقد كان الإمام مالك رضى الله عنه يقول : ليت شعرى بأى عقل نترك اتباع السنة كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تبعناه لتركنا العمل بما أتى به جبريل إلى النبى ﷺ .

وقد ألف بعض السلف كتابا فى هذا الموضوع يبين فيه أن العقل لا يعارض النص الصريح أبداً ، وأنه إن فرض دليلين قطعيين متعارضين ، فهو من فرض المحال .

وربما يقول بعضهم : أن رسول الله ﷺ مات ولم يبين لأصحابه حقائق التوحيد ، وذلك كذب به وافتراء فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال :

ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتك به ، ولا من شىء يباعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به .

وقال أبو ذر رضى الله عنه : لقد توفى رسول الله ﷺ وما طاير فى الجو يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علماً .

وكان الإمام الشافعى ، وغيره يقولون : الصحابة رضى الله تعالى عنهم فوقنا فى كل شىء ، وكيف يصح قول من قال أن رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم يبين لأصحابه حقائق التوحيد الذى عليه أساس الدين ، مع أنه يبين لهم الخراة ، وكيفية الاستنجا هذا كالمحال .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول : إنما ترك بعض الخلف هدى السلف حين عجزوا عن اتباعهم فى حقائق الورع ، والزهد والعبادة ، فصاروا يطعنون فى سلفهم ترويجاً لأحوالهم ، ولو عرفوا مقدار علم سلفهم ودقته لرؤا أن أحوالهم أشرف الأحوال ، وعلمهم أشرف العلوم .

وكان الإمام عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : كان أصحاب رسول الله أبرأ الناس قلوبا واعمقها علماً ، وأقلها تكلفا .

وكان محمد بن سيرين يقول : والله لو أردنا فقه الصحابة لما أطاقته عقولنا .

فاعلم ذلك يا أخى ، واقتد بالسلف الصالح فى الأقوال ، والأفعال ، والعقائد تفز بخير الدنيا ، والآخرة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يرشدوا إخوانهم أن لايبادروا إلي الإنكار علي من يرونه قليل الأعمال الصالحة من النوافل

بل يتربص أحدهم ، حتى يخالطه ، وينظر حاله ، فإن رأى لسانه مكفوفاً عن أعراض الخلق ، ويده ، وفمه مكفوفان عن الحرام والإساءة ، فلا حرج عليه فى ترك النوافل ، لعدم تبعات الخلايق عليهم ولكن إن رآه مطلق اللسان واليد والفم فى أعراض الناس ومكثرا من النوافل فإن هذه النوافل ليعطى منها أصحاب التبعات يوم القيامة ولكن إن لم يكن عليه شىء من تبعات الخلايق من الأعمال الصالحة ، فذلك خير على خير .

فاعلم ذلك ، وعليك بنفسك أولاً فإذا رأيتها نجت ، فعليك بالإقبال على غيرك ، وإن كان كل منهما واجباً فى الأصل والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا رأوا فقيها قد برع في علم الفقه ونفع الناس بافتائه وتدريسه أن يرغبوه فيما هو فيه

ولايفتحوا له باب علاج الأمراض الباطنية التى فيه خوفاً أن تفتر همته عن الاشتغال بعلم الشريعة لاسيما إن كان قد انفرد فى اقليم بالعلم ، وصار مرجع أهله كلهم إليه ، فإن الخير المتعدى نفعه إلى الأمة مقدم على الأمور القاصرة على نفس العبد شرعاً مع أن فى ضمن علاج الأخلاق الباطنة ، ورياضة النفوس نفع الناس أيضاً فتأمل.

اللهم إلا أن يعلم من ذلك العالم ثبوت قدمه فى الأعمال الصالحة بحيث لاتفتر همته عن الإشتغال بالشريعة إذا اشتغل بعلاج أمراضه الباطنه ، فهذا لا بأس بفتح باب العلاج للنفس ، ورياضتها له ليجمع بين طريق الشريعة ، والحقيقة كما كان عليه الأئمة المجتهدون ، والوارثون لهم فى أحوالهم .

وكذلك إذا علمنا من فقير براعته فى أحوال الطريق ، ومعرفته بدسايسها أن نرغبه فى ذلك مادام العلماء قائمون بأمور علم الشريعة حفظاً وتدريساً ، والعامة مستغنون عن مثل هذا الفقه ، فإن رأينا الشريعة قد مات علماؤها ، واحتاج الناس إلى العلماء ، فمن المعروف أن نرغب للفقير فى الاشتغال بعلم الشريعة حفظاً ، وتدريساً ، وافتاء ويترك كل ما هو فيه .

وقد كان السلف الصالح لا يشتغلون بالطريق إلا بعد تبحرهم فى علوم الشريعة كما مر بيانه أوائل الكتاب ، فلما تقاصرت الهمم قل الجامع بين الشريعة والحقيقة ، وكثر المنفرد بعلم أحدهما دون الآخر .

ولما خفت على أخى العبد الصالح سيدى على بن الشيخ محمد المنير أن تفتر همته عن علم الشريعة ، ويقل نفع أهل بلاده به إذا اشتغل بعلم الحقيقة لم اكشف له عن قناع شيء من علم الحقائق لأن نفع الناس بالشريعة أعظم من نفعهم بعلم الحقيقة لقلة من يعرف علم الحقيقة فضلاً عن حاجة الأمة إليه ، ولكن سألت الله تعالى أن ينور قلبه ، حتى يعرف جميع أمور الحقيقة بالرياضة لأن المجاهدة والرياضة والعبادة مع الاشتغال بالفقه أنور قلباً من متصوفة هذا الزمان الذين هم طول عمرهم فى الاشتغال بالرياضة فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن لايبادر أحدهم إلي جواب من سأله عن شيء من أحوال الطريق من الفقهاء والمتكلمين والأصوليين

بل يتربص ، أحدهم وينظر فى أمر ذلك السائل ، فإن رآه مسترشداً قاصداً بعلمه وجه الله تعالى أجابه بعبارة يقبلها عقله ، وإن رآه متعنتاً فى سؤاله غى مخلص فيه سكت عنه ، ولم يجبه سواء أعلم تعنته بطريق الكشف أو بالقرائن كأن يعرف من ثقته به أن نفسه لا تطيب بأن يتلمذ للقوم ، ولايراهم أعلم منه .

وقد كان سيدى على بن وفا يقول لأصحابه : إذا سألكم فقيه عن مسألة تتعلق بطريق القوم ، فخذوا عليه العهد بأنه يعتقد فيكم أنكم أعلم منه ، ثم أجيبوه عن تلك المسألة ، ثم إذا خالفكم بعد ذلك ، فقد خان العهد ، واستحق التأديب ، فأعرضوا عنه ، أو لاتطلبوا رجوعه إليكم بإقامة الأدلة ، والبراهين عليه ، فإنكم فى طريق ، وهو فى طريق .

وكان يقول : إذا جادلكم أهل الطروس ، فأجيبوهم بالنقول الصحيحة المعزوة إلى أصحابها ، وإياكم أن تجيبوهم بالأمور الذوقية من وجدانياتكم ، فإنهم يردون ذلك عليكم ، فإن بين علم الذوق ، والعلم المجرد عن الذوق فى البعد كما بين السماء والأرض انتهى .

ولما ورد ملا أفضل العجمى مصر فى سنة أربع وستين وتسعمائة أرسل إلى علماء مصر عدة أسئلة يسلهم فيها عن قول الشيخ محيى الدين فى أول الفتوحات المكية وعلمت بقراين أحواله الحمد لله الذى خلق العالم من عدم وعدمه ما معنى ذلك ، وعلمت بقراين أحواله : أنه متعنت ، فلم أجبه عن ذلك .

وقلت له : إن أردت علم ذلك ذوقاً فتلمذ لأحد من أهل الطريق يخليك خلوة صالحة، فيطلعك على أحوال القوم ، فإن من خصائص الصادق فى طلب الطريق أنه يصير يطلب شيخاً يضعه فى طريقهم من غير أن يقف على اصطلاحهم أولاً ثم بعد ذلك يطلعه على مصطلحهم ، فلم يرد على جواباً ، ثم إنه أخذ ينقص كلام جميع من كتب على ذلك من العلماء على ما بلغنى فما أخطأت فراستى بحمد الله فيه .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأعزوا الطريق يعزكم الله والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذ كانوا من مشايخ الخرق التي لا ينضبط أهلها علي القانون الشرعي

أن يأمر الشيخ بجمع الفقرا فى كل ثلاثة أيام أو أسبوع مثلاً وينادى فيهم من له حق على أخيه فيأت هو وإياه ، فيقومان بين يدى الشيخ كما يقفان بين يدى القاضى ، فإما يطلب أحدهما أو كلاهما حقه وإما يقع الصفح ، والمساحة .

وكان على هذا القدم سيدى محمد الغمرى بالمحلة الكبرى ومشايخ السادة الأحمدية والبرهانية والقادرية والرفاعية إلى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، فمات الأشياخ الذين كانوا يحكمون بالعدل ، ومات المريدون الصادقون الذين كانوا يرضون بحكم الشيخ فيهم .

وكان خليفة سيدى أحمد البدوى يجمع الفقراء فى زاوية سيد مبارك خارج باب النصر ، ويجلس خلف ستارة بحيث لا يرى أحد وجهه ، والنقيب يحكى له ، ويبلغهم

ما قضى به من صلح ، أو هجر أو قصاص ، وكان الخصمان يجلسان منكسين الرأس لا يشير أحدهما بيد ، ولا رأس ، ومتى أشار أحدهما بيده ، صار تحت الطريق ، وسبق فى هذا الكتاب ذكر أدلة الفقراء فى كشف رأسهم ، ووقوفهم عند النعال ورضاهم بحكم شيخهم فراجعه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : اتباع أخلاق شيخهم في أقواله وأفعاله وجميع أحواله

وإن كان له رسالة فليطالعوها ويتفهموا ما فيها ، ويشاورونه على كيفية العمل بذلك ، وإن كتبوها أو واستكتبوها ، فهو أولى لأنه ربما احتاج الناس إلى سؤالهم عن معنى كلمة منها ، أو ربما دس الاعداء فى كلام شيخهم ما يخالف الشريعة ، لينفروا أتباعه عنه كما وقع لى ذلك فى كتاب العهود الوسطى ، وغيره ، ولا يتعلل الفقيربعدم قدرته على أجرة الكتابة وله جوخه أو صوف أو ملبوس غال فإن بيع ذلك ، وصرفه فى أجرة كتابة الرسالة أولى عند أهل الطريق ، ومن قدم ثوبه الصوف مثلاً على تربيته ونصحه فما عرف طريق ربه ، فهو ممن باع آخرته بدنياه ، فلا يرجى له فلاح وهذا واقع فى مريدى مشايخ هذا الزمان ، فليحزر الناصح لنفسه من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : توطين نفوسهم علي كثرة التعب والعلاج في المريد الذي تقدمت له صحبة بالفقراء الذين لا قدم لهم في الطريق

كالذين جلسوا بأنفسهم من غير إذن من شيخ صادق ، وكمشايخ الأحمدية والرفاعية والبرهانية ممن اعتمادهم فى طريقهم على لبس الزى ، والمراسم الظاهرة ، وأحدهم جاهل بالكتاب والسنة وآداب أهل الطريق ، فإن الحكم غالبا للداع الأول ، والداع الثانى طارىء ، فهو كالعارض الذى لا نبات له .

وقد صحبت من مريد هؤلاء الأشياخ جماعة بعد جماعة ، فذاب قلبى من التعب فيهم لاسيما من رياه فقراءالمطاوعة ، فإن عداوة الفقها والصوفية قد تشربت قلبه على حكم ما وسوس به إليهم إبليس ، وقال لهم : أنتم الفقرا حقاً والفقها والصوفيه وما هم على حق ، ولذلك أنكروا عليكم ، وهذه من أكبر ما ضلهم به إبليس ، فألقى بينهم وبين حملة الشريعة العداوة ، حتى لايسمعون منهم ما ينصحونهم به ، فلاهم يسمعون من علماء الشريعة ، ولا معهم شرع يستضيئن بنوره فضلوا ، وأضلوا ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان وانصحوا المطاوعة برحمه وشفقة إن أردتم هدايتهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا كان أحدهم ناظر على وقف زاويته

ولم يجد أحداً يصلح لإسناد النظر إليه بعده بأن خاف منه بأن يخص نفسه وأولاده بشيء من وقف الفقراء باليد العادية ، فمن المعروف أن يوصى الذى أسند إليه النظر من ولد أو تلميذ بأن يتقى الله تعالى فى ذلك ، ويحذر جباة الوقف الذى يخاف البالوعات والكاتومات وألا يمكنوا ولدهم أو تلميذهم من أخذ شيء لا يخصهم من وقف الفقراء فإن الدنيا حلوة خضرة وربما وسوس الشيطان وعظم لأحد أبناءالشيخ أو خليفته كل التعظيم ويقول له : كل ما يأكله من مالى الوقف يكون له حلال لأنه لولا جاهه ما وصل الفقراء إلى خراجهم ولاحصلوا على أى حق لهم فى الأوقاف ، فإذا مهد الشيطان لهم هذه الأكاذيب سرت فى الشيخ أو خليفته العداوة فى أسرع من لمح البصر ، وتصير الجباه يأكلون مال الوقف جهاراً ،و إن تكلم ولد الشيخ أو خليفته قالوا له أخرج أنت الآخر مما أخذته منا بغير حق لترده على الفقراء فلا يقدر على إعطائه ، لعجزه عنه ، فلا يسعه إلا السكوت ، فتخرب الزاوية ، ويضيق رزقها ، وترتفع البركة من الزاوية ، ويكتب خرابها فى صحايف الجباة والناظر ، ويصفق إبليس ، ويفرح لذلك .

فإياكم أيها الإخوان من مطاوعة إبليس فى مثل ذلك فإنه عدو مبين ، وقد نصحتكم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: شدة اعتنائهم بأمر الصلاة أكثر من سائر أعمالهم

وذلك لأنها جامعة ، لسائر المعاريج المتفرقة فى عبادة أهل السموات وأهل الأرض فى الأجر والثواب(١) .

(١) وذلك لأن الصلاة عماد الدين من أقامها أقام الدين ومن تركها فقد ترك الدين، وهم فى ذلك يحاولون التأسى برسول الله ﷺ فقد كانت للصلاة أهمية كبرى عنده يوضحها بقوله:
«إن بين الرجل وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة».
وكان صلوات الله وسلامه عليه يتوضا لكل صلاة.
عن أنس رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة؛ قيل له: كيف كنتم تصنعون؟ قال: يجزى أحدنا الوضوء مالم يحدث»
وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها: «أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه».
فقلت له: لماذا تصنع هذا يارسول الله، وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟
قال: أفلا أحب أن أكون عبداً شكورا!
ويحدثنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن صلاته مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول: صليت مع النبى ﷺ ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء.
قيل: وماهممت به؟
قال أجلس «وأدعه»
ولعل السبب الذى يعذر فيه أبن مسعود، أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان يقرأ فى الركعة الأولى مثلا: سورة البقرة وفى الثانية آل عمران، وفى الثالثة سورة النساء، وكان يطيل القيام والركوع والسجود، وكل ذلك عندما يكون منفرد أما مع الناس فإنه يخفف.
وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة، فإذا اطلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجىء المؤذن فيؤذنه؟
ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: «أتيت النبى ﷺ، وهو يصلى ولجوفه أزير كأزيز المرجل يعنى يبكى».
والأحاديث التالية تبين بعض أحوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الصلاة:
كان عند الإقامة يقول: «أقامها الله وأدامها».
وكان صلى الله عليه وسلم : «إذا قام إلى الصلاة طأما رأسه».
قالت السيدة عائشة رضوان الله عليها: (لم يكن ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتى الفجر).
عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال نعم كثيرا، كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام).
(وكان ﷺ يدخل فى الصلاة، فيريد إطالتها فيسمع بكاء الصبى فيتجوز فى صلاته مخافة أن يشق على أمه).
(وكان ﷺ يقرأ بسورة «الجمعة» فى الركعة الأولى؛ ويردد إذا جاءك المنافقون» فى الثانية).
عن جبير بن مطعم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بسورة «الطور».
وكان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ فى المغرب بسورة «المرسلات عرفا»
وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت. (ما أخذت «ق والقرآن المجيد» إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس).
وكان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ فى صبح لجمعة «الم. تنزيل....» السجدة و «هل أتى على الإنسان حين من الدهر» رواه الشيخان.
من حديث أبى هريرة، وإنما كان يقرأهما كاملتين، وقراءة بعضهما خلاف السنه.

فمن صلى الصلاة كاملة بحضور شارك أهل السموات وأهل الأرض فى الأجر والثواب .

فهو فى حال طهارته موافق للملائكة والاصفيا المتطهرين من الذنوب .

وفى حال قراءته أذكار الوضوء التى فيه ، والتى بعد الفراغ منه وافقاً لأهل تلك الأذكار من الملائكة المستشهدين ، والداعين والمسبحين ، والحامدين والموحدين ، والمستغفرين ، والتوابين .

وفى حال الصلاة موافقاً للملائكة القائمين القانتين الناوين للخيرات المكبرين لله تعالى الحامدين له المسبحين له بكرة وأصيلا الذاكرين الله ببسم الله الرحمن الرحيم الحامدين الله رب العالمين المحمدين الله المخلصين له العبادة السائلين الله تعالى الاستعانة فى جميع أحوالهم ؛ والهداية للصراط الذى عليه الأنبياء والاصفيا كما أوضحنا ذلك مراراً والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا دخل أحدهم محفلاً فيه أحد من رءوس العلماء والصوفيه

كالاجتماع فى وليمة أو انتظار جنازة أن لايدخل أحدهم ذلك المحفل إلا إذا علم أن أهل ذلك المحفل لا يرفعون رتبته فى التعظيم والاجلال فوق من كان حاضراً هناك من العلماء والصالحين .

= «كان ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة . بسورة «سبح اسم ربك الأعلى» وسورة « هل أتاك حديث الغاشية» .
وكان يكثر فى ركوعه وسجوده من قول . «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك الهم أغفر لى» .
«وكان صلوات الله وسلامة عليه، يقول بين التشهد والتسليم . اللهم أغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به فى أنت المقدم وأنت المؤمن، لا إله إلا أنت» .
وفى السجود يقول صلوات الله وسلامه عليه إلهم إن أعوذ برضالك من سخطك؛ وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى. ثناءا عليك أنت كما أثنيت على نفسك.
«وعن حديفة ، كان يقول ﷺ في ركوعه. سبحان ربى العظيم، وفى سجوده، سبحان ربى الأعلى» .
«وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها: كان ﷺ يكثر أن يقول، فى ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم أغفر لى) يتأول القرآن» رواه مسلم. ومعنى يتأول القرآن: يعمل بما أمر به كما فى قوله تعالى: «فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» .

فمتى علموا ذلك أو غلب على ظنهم فمن الأدب عدم الدخول لما قد يترتب على ذلك مفسدة أعظم من مفسدة الدخول ولا يجوز للممتنع من الدخول بشرطه أن يظن بذلك العالم أنه قد يتأثر من ترجيح غيره عليه فى تقبيل اليد والاجلال ، ويقول : أنه فعل ذلك مراعاة لخاطره ، فإن ذلك سوء ظن به ، فإنما يفعل ذلك قياما بواجب حقه ، وإيثاره على نفسه ، ولو رضى هو بذلك .

وربما ظن بعض الناس بالممتنع أنه ما امتنع من الدخول إلا لغلبة ظنه أنه لا يقوم له ناموس مع وجود ذلك العالم أو الصالح الذى هناك وهو ظن فاسد .

فليكن الفقير فى هذا الزمان يلحق بلاحق اللاحق يخلص نفسه أول وأخاه ثانياً ، والحاضرين فى ذلك المحفل ثالثاً ولا أراه ناجياً والحمد ﷺ رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن لا يشتغلوا بسب من وقع في شيء مما أخبر به الشارع ﷺ أنه يكون بين يدي الساعة

بل يشتغلوا بالصلاة والتسليم على سيدنا ومولانارسول الله ﷺ الصادق المصدوق ، ويزدادوا بذلك محبة له ، وإيمانا به .

ثم يشكرون الله عز وجل الذى لم يجعل تلك المعصية مثلا على يدهم .

ثم يدعون لمن وقعت على يديه ويستغفرون له .

هذا أدب الفقراءالصادقين فى هذا الزمان .

فليحذر الشيخ الجاهل فى أواخر القرن العاشر من أن يشتغل بازدراء من وقع فى شيء من علامات الساعة ، أو احتقاره ، ويترك ما أمرناه به من الصلاة والتسليم على سيدنا رسول الله ﷺ وغيرها .

ولو أمعن النظر فى حال نفسه لوجد نفسه أسوأ حالا من ازدراه ، وأكثر معاصى ، فأعلم ذلك يا أخى وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يتمثل أحدهم بقول رسول الله ﷺ بنحو قوله ﷺ أرحنا بها يابلال وكرايم أموالهم أو زادك الله حرصاً ولاتعد ونحو ذلك إلا بالحضور والتعظيم

مع ملاحظة المعنى الذى أراده رسول الله ﷺ ، وقصده من مراعاة امتثال أمر الحق والقيام بواجب حقه ، ويكون ذلك لله تعالى خالصاً مخلصاً لارياء فيه ولاسمعة فلا ينبغى لعبد أن يقول ذلك وهو غافل عما ذكرناه فيكون كالمتلاعب بكلام رسول الله ﷺ .

وقد قلت مرة للشيخ حسن الطرينى : لما تمثلت مرة بقول رسول الله ﷺ (أرحنا بها يا بلال) ، فنوديت فى سرى أما تستحى من الله تعالى . وأنت تقول مثل ذلك ، فإنه لايرتاح بالصلاة وبمناجاتنا فيها إلا حضر فيها محمد ﷺ ، فبالله عليك هل أنت كذلك ؟، فكدت أن يغشى على ومن ذلك اليوم ما قلت مثل ذلك إلا بإذن ونية صالحة ، وإن لم أجدهما سكت .

فعلم أن من كان صادقا فى قوله أرحنا بها يابلال ، فهو مأجور وله ثواب من أثنى على الله تعالى ، ومدحه بين عباده ، فإن حصول الراحة بالصلاة نعمة عظيمة أعظم من حدوث ولد أو زوجة صالحة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن لا يمد أحدهم رجله في ساعة من ليل أو نهار مع قوله دستور يا الله إلا بعد أن نوي بضمها تعظيم جناب الحق جل وعلا ولم يزل منه التعب

وقد وقع لى أننى مددت رجلى فى مجلس الصلاة على سيدى رسول الله ﷺ مرة مع قولى : دستور يا الله فرأيت تلك الليلة شيخى الشيخ نور الدين الشونى رحمه الله وهو يقول لى : إذا أحسست بوجع فى رجليك إذا اضممتهما ؛ فانوبذلك الضم تعظيم جناب

الحق تعالى ؛ فإن لم يزل التعب ؛ فاستأذن حينئذ ربك ؛ ومد رجلك فإن الأدب مع الله تعالى شفاء من كل داء ؛ فإن ضمت رجلك على نية التعظيم والإجلال لله تعالى ؛ ولم يزل التعب ؛ فذلك من خلل فى الإخلاص ، أو عدم صدق فى الكلال أو شروط الرخصة انتهى ؛ فشكرت الشيخ على ذلك . وقلت : رحم الله الشيخ يؤدبنا ، ويربينا حيا وميتاً ؛ وذلك بعد موت الشيخ بنحو عشرين سنة ، فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يخادعوا من خادعهم بحيث لا يشعر بذلك مخادعهم

وذلك من كمال الرجل .

وقد كان الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من خدعنا فى الله انخدعنا له انتهى .

مثال ذلك : أن يقول لك عدوك : أنا أحبك ؛ فمن كمال العبد أن يقبل ذلك منه ظاهراً بحيث لايلحق بك أنك تظن كذبه فى ذلك بل تظن فى نفسك أنه ما نصحك إلا خوفا عليك وتقول له جزاك الله خيراً وتعامله معاملة الناصح الأمين الذى يخاف على دينك .

وإن توفرت القراين على ضد ذلك من شدة عداواته ([1]) أحدا من أهل عصرى إلا القليل كالأمير جانم ، والأمير محمد الدفتردار ، والأمير محيى الدين بن أبى أصبع ، وتقول الناس فى حق صاحب هذا المقام فلان يقتل القتيل ، ويمشى فى جنازته وليس ذلك من قسم اللوم ، والخيانة وإنما ذلك من وسع داير العقل .

فاعلم ذلك وأعمل به فإنه لابد من ذلك لكل من خالط الناس فى هذا الزمان .

---

(١) مطموس من الأصل.

وسمعت أى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول : من كمال عقل الرجل إذا رأى من يخدعه فى الله تعالى أن ينخدع له ، ولايعرفه بفهمه أنه عرف خداعه بل يتباله له ؛ حتى يغلب على ظنه أن خداعه قد أثر فيه ، ويسمى ذلك معاملة الصفات التى ظهر بها أخوك ؛ ومعلوم أن الإنسان لا يعامل الناس إلا من حيث صفاتهم لا من حيث أعمالهم .

فلا تفضح يا أخى من خدعك فى خداعه ، وتجاهل ، وانصبغ له ، كاللون الذى أراد منك أن تنصبغ له به ، وادع له ، وارحمه عسى الله أن يتوب الله عليه من نفاقه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : الإستقامة في التوبة لأنها أسس لكل مقام يرقي إليه العبد حتي يموت(١)

ومتى كان فى التوبة أعوجاج انسحب حكمه إلى الإعوجاج فى كل مقام بعده ، فيصير بناؤه متهلهلا كمن يبنى حائطه من اللبن اليابس بغير طين .

(١) ولعلهم فى ذلك يحاولونالتأسى برسول الله ﷺ يقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه دلائل النبوة ومعجزات الرسول صلوات الله وسلامه عليه.
وتبدأ قصة الإسراء والمعراج -فى بعض روايات البخارى، وفى بعض روايات غيره- بشق الصدر.
من ذلك ما يرويه الأمام أحمد -بسنده- عن أنس بن مالك قال:
«كان أبى بن كعب يحدث أن رسول الله ﷺ -قال «فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا، فأفرغها فى صدرى، ثم أطبقه».
هذا الحادث هو - بالنسبة لنا- التوبة، فإن تطهير القلب الذى حدث لرسول الله ﷺ -عدة مرات فى حياته؛ إنما هو بالنسبة لأتباعه بمثابة التوبة.
والواقع أن حياة المسلم -فى طريقه إلى الله- إنما تبدأ بالتوبه.. وليس قبل التوبة من درجة تسبقها. والتوبة التى نتحدث عنها، إنما هى التوبة الخالصة النصوح، فإن الله تعالى يقول:
«يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا» سورة التحريم آية: ٨ فأرشد -سبحانه- إلى أن التوبة المطلوبة، إنما فى التوبة النصوح.. ولأجل أن تكون التوبة خالصة نصوحا، فإنه لابد من توفر شروط ..
ويتحدث الإمام النووى عن شروطها -فى كتابه المبارك- «رياض الصالحين» -فيقول: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمى، فلها ثلاثة شروط:
أحدهما: أن يقلع عن المعصية.
=

وقد أمرنا الله تعالى بالتوبة النصوح ، وهى المراد بالاستقامة فى التوبة . وذلك ليتولد منها نتايجها من الزهد فى الدنيا ، والإقبال على الأعمال الصالحة ليلاً ونهاراً .

= والثاني: أن يندم على فعلها.
والثالث: أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدا.
فإن فقد أحد الثلاثة، فلاتصح التوبة.
وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة، هذه ، الثلاثة؛ وأن يبرأ من حق صاحبها.. فإن كانت مالا أو نحوه، رده إليه. وإن كان حد قذف، أو نحوه، مكنه منه، أو طالب عفوه. وإن كانت غيبة، استحله منها.
ولأن التوبة أول سلم فى معراج السالكين إلى الله؛ ولأنها واجبة من ذنب، ولأنها تحجب ما قبلها، ولأنها تضع الإنسان -فور تحققه بها فى مرتبة البراءة والطهارة والنقاء- فإن الاسلام حث عليها كثيرا.
يقول الله تعالى آمرا بها: «وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» وقد فتح الله بابها -خالصة نصوحاً- على مصراعيه.. فقال فى كتابه العزيز يسيل رحمة ورأفة:
«قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعها إنه هو الغفور الرحيم».
إنه سبحانه -يغفرها بالتوبة؛ لأنه سبحانه- يقول بعد ذلك موجها المسلمين إلى الطريق؛
«وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون.
وأتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون».
ويتابع القرآن فى التوجيه إلى التوبة -فى أسلوب كله رحمة ورأفة- ماجاء فى حديث قدسى طويل رائع. يقول الله تعالى فيه:
«يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفرونى أغفر لكم».
ويتابع ذلك كله الأحاديث النبوية:
«إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل».
رسول الله -ﷺ يعترف بالخطيئة كأمر واقع لايتأتى إنكاره، فيقول:
«كل ابن أدم خطاء».
ولكنه يرشد إلى الوسيلة التى تفضل بعض الخطائين، وتجعل لهم منزلة فى الخير فيقول:
«وخير الخطائين التوابون».
يقول الإمام القشيرى:
ومن لطائف المعراج: ماخص به أول حالة فى تلك الليلة بالطهارة على ما ذكرنا.
وقد شق قلب النبى -ﷺ- مرتين: مره فى حالة صباه، وهو بعد فى حجر حليمة والمرة الثانية ليلة المعراج.
وفى تخصيص قلبه بالغسل دون غيره من البدن -إشارات:
منها: أن القلب محل العرفان، وهو المضغة التى يصلاحها صلاح البدن، وهو محل المشاهد.. ومركز الشعور، ومصدر الاشعاع.
ولكى لايكون لغير الحق نصيب فى قلبه.
ولتنبيه الأمة على طهارة القلب.
وإذا كان شق الصدر؛ الذى سبق هذا الحادث الخطير -حادث الاسراء والمعرج- هو بالنسبة لنا -التوبة.. فإنه أيضاً: توجيه واضح لنا إلى أن نلجأ إلى الله تعالى تائبين، عند الشروع فى أى أمر له قيمته.
إنه توجيه لنا أن نلجأ إلى الله تعالى، تائبين: عند الشروع فى شراء وفى بيع.. فى أرتباط بزواج فى بناء بيت، فى الشروع فى سفر.
وليست التوبة فى مثل هذا توبة من ذنب، وإنما هى التجاء إلى الله وتشفع إليه -سبحانه- بتأكيد صفاء النفس، وطهارة القلب؛ من أجل أن يسدد الخطاء ، ويمنح التوفيق، ويحفظه من الأخطاء.
إنها توسل إلى الله بعمل صالح، هو التوبة.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من استقام فى توبته وزهد فى الدنيا، فقد انطوى فيه سائر المقامات ، والأحوال الصالحة .

قلت له : وماعلامة الاستقامة فى التوبة .

فقال : ألا يجد كاتب الشمال شيئاً يكتبه أربعين سنة ، ولايكون فى باطنه شيء يكرهه الله أبداً مدة حياته .

فقلت له : وما علامة الزهد فى الدنيا .

فقال : أن لا يلقى بالا إلى الدنيا من مؤمن وكافر وعدو وحاسد وكلما حقره أحد من الناس يزداد فرحاً وسروراً .

وسمعته رحمه الله يقول : إذا ظن المريد أن ترك الدنيا والزهد فيها شيئاً كبيراً عند القوم فإن غايته أن العبد يزهد فيما لايزيد عند الله عن أقل من جناح بعوضة .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول : من علامة الاستقامة فى التوبة كثرة المراقبة لله عز وجل فإن كل توبة لا مراقبة فيها للحق جل وعلا ، فهى خداع .

وسمعت سيد محمد بن عنان رحمه الله يقول : من استقام فى توبته عن المعاصى أرتقى إلى التوبة من كل ولا يعنى ومن لم يستقم فيها لايشم من التوبة عن الفضول رائحة ، ولا يقدر على رعاية خاطره أبداً بل يغلب عثيه خواطر المعاصى ، حتى فى صلاته ، وتأمل قوله تعالى للمعصوم الأكبر ﷺ (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) ، فأمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة ، ومن تاب معه من جميع أتباعه وأمته .

وسألت سيدى عليا المرصفى رحمه الله تعالى : عن معنى قولهم لا يكون المريد صادقاً ، حتى لايكتب عليه ملك الشمال ذنبا عشرين سنة هل المراد أنه لايقع فى معصية أصلا أم المراد أنه لا يصر على الذنب بل يتوب ، ويستغفر على الفور ؟

فقال : المراد الثانى فإن المريد الصادق إذا وقع فى ذنب بادر إلى التوبة ، وندم ، فانمحى عنه ذلك الذنب على الأثر ، فلا يجد الملك شيئا يكتبه لأنه يمكث ساعة

وساعتين ينتظر لعل العبد يتوب ، ويستغفر ، فإذا ندم العبد، واستغفر ترك كتابة الذنب انتهى .

وقد قررنا مراراً أن الملكين لايكتبان إلا المعاصى القولية أو الفعلية إذا تلفظ بها صاحبها وقال : فعلت كذا وكذا لقوله تعالى : يعلمون ما تفعلون ولم يقل يكتبون فافهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : صدق التوبة

وهو أن يتوب من رؤية نفسه صدق فيها .

وهو معنى قول رابعة : استغفر الله تعالى من قلة صدقى فى استغفارى .

وقد كان رويم رضى الله عنه يقول : حقيقة التوبة هو التوبة من رؤية لتوبة .

وكان سهل بن عبد الله رضى الله عنه يقول : لاينبغى للفقير أن يقف فى مقام توبته على مادون المقام الأعلى الذى هو مقام الاستجابة وذلك بأن يتوب من كل خاطر يخطر له فى غير مرضاة الله تعالى سواء أكان (   )[1] فى غيرها كما هو شأن أهل القرب من حضرة الله تعالى فهم يتوبون من كل خاطر خطر لهم مع الغفلة عن الله وسبيله رضى الله تعالى عن الشخص يتوب من الشىء ويتركه ثم يخطر ذلك الشىء بقلبه أو يراه أو يسمع به ، فيجد حلاوة فى نفسه هل يقدح ذلك فى كمال توبته ؟

فقال رضى الله عنه : وجود الحلاوة لازم لطبع البشرية ، ولابد من الطبع ، وليس للعب دحيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى ، ويلزم نفسه الأذكار ، ويسأل الله أن ينسيه ذلك ، ويشغله بذكره ، وطاعته قال : ومتى غفل عن الأذكار خيف عليه العطب

(١) مطموس من الأصل.

أن تسكن الحلاوة قلبه ، وأعظم دوائه إذا وجد الحلاوة أن يلزم قلبه الأذكار ، والحزن فإذا فعل ذلك لم يضره وجود تلك الحلاوة إن شاء الله تعالى .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : إذا تمكن العارف لم يسكن فى قلبه حلاوة شيء تاب عنه بل تزول منه الحلاوة بمجرد التوبة ، وإنما كلام سهل فى حق المريدين ، فإن حب الله تعالى فى قلب العارف يمنع أن يسكن فيه محبة لغيره تعالى، وكل من وجد فى نفسه حلاوة الذنب الذى تاب منه ، فهو لم يتمكن من قلبه حب الحق، فليبك على نفسه انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من كمال التوبة أن لايكون فى جوارحك الظاهرة ، والباطنة شيء يكرهه الله أبداً إنتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : العمل علي تحصيل مقام الورع الكامل والزهد الكامل

وذلك بأن يتورع أحدهم عن كل شيء يشتت قلبه عن ربه تعالى طرفة عين ، ويزهد كذلك فى كل ما يشغله عن ربه عز وجل .

وقد توضأ ﷺ من إناء على طرف نهر ثم صب ماء الإناء فى النهر ، وقال : ينفع الله تعالى به قوماً آخرين ، فكان صبه ﷺ ما فى الإناء فى النهر من الورع .

وكان الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من إدعى الورع ، ومال بقلبه إلى أحد من أبناء الدنيا فقد خرج عن الحد .

وكان الإمام سهل رضى الله عنه يقول : من لم يحفظ لسانه من فى حق عباد الله من الذم فليس له فى مقام الورع نصيب .

وسئل الشبلى عن الزهد فقال : لازهد فى الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له ، وليس ذلك بزهد ، وإما أن يزهد فيما هو له ، فكيف يصح الزهد فيما هو فيه ، وعنده انتهى .

قلت : وفيه نظر لأن ذلك لو اطرد لهدم قاعدة الاجتهاد ، والكسب ولعل مراد الشبلى أن يقل الزهد فى عين الزاهد لأن لا يغتر بالزهد ، وفى الحديث « إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهداً فى الدنيا ، ومنطقاً ، فاقربوا منه ، فإنه يلقى الحكمة» ؛ وقد سمى الله تعالى الزهد علماً فى قصة قارون فى قوله :

وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير قيل : هم الزاهدون : وفى الحديث «العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا فى الدنيا ؛ فإذا دخلوا فاحذروهم على دينكم» .

وسئل الشبلى أيضاً عن الزهد ، فقال : الزهد غفلة لأن الدنيا لا شىء ، والزهد فى لاشىء غفلة .

وقال بعضهم لما رأو حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدينا لهوانها عندهم.

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول : ثم مقام فى زهد الزاهد اعلا من هذا ؛ وهو أن يأخذ العبد الدنيا بإذن من الله تعالى كما تركها بإذن؛ فيستوى عنده الأخذ والترك لفناء اختياره مع الله تعالى، وثم مقام أعلا من هذا أيضا وهو من اختار أن لايكون له اختيار، فرد الحق تعالى عليه اختياره لطهارة نفسه ، وسعة علمه ، فيزهد زهدا بالغاء وترك الدنيا بعد أن تمكن من أخذها ، وأعبدت له موهبه من الله تعالى ، فيكون ترك هذا المقام باختياره ، واختياره من اختيار الحق تعالى ، فقد يختار تركها حسا تأسياً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبالسلف الصالح ؛ ويرى أخذها فى هذا المقام الذى هو مقام الزهد فى الزهد رفقاً أدخل عليه من الله تعالى لموضع ضعفه عن درك مقام الأقوياء من الأنبياء ، والصديقين ، فدرك من بالحق للحق وقد يتناوله باختياره رفقاً على وجه تدبير يسوسه فيه صريح العلم، ولا يمكث فيه إلا الأقوياء العارفين والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة محبتهم لمن أحسوا فيهم زوال رعوناتهم واغراضهم النفسانية

ومن أدركته على هذا الخلق سيدى محمد بن عنان والشيخ محمد المنير ، والشيخ أبو بكر الحديدى ، والشيخ عبد الحليم ابن مصلح وسيدى محمد الشناوى ، فكان كل واحد منهم يبجل أخاه ، ويرفع مقامه غيبة وحضوراً ، فلا تكاد تسمع من أحدهم فى حق أخيه كلمة يستحى أن يواجه أخاه بها عكس ما الناس عليه اليوم ، وذلك من أعظم دليل على بقاء رعونات نفوسهم ، وعدم زهدهم فى الدنيا ، ومناصبها ، وشهواتها ولو صدقوا فى محبة الله لأحبوا كل عبد لله تعالى .

وقد ظفرت من العلماء والصالحين طول عمرى بعشرة أنفس على أخلاق السلف الصالح فلا تكاد تسمع من أحدهم كلمة فيها تعريض بنقض لأحد من أقرانهم ، وهم الشيخ سليمان الخضيرى والشيخ إبراهيم الذاكر والشيخ شهاب الدين خليفة الشيخ شاهين والشيح بهاى الدين الوفاء والشيخ صالح خليفة سيدى ابراهيم الدسوقى ، والشيخ شمس الدين الخطيب الشربينى ، والشيخ سراج الدين الحانوتى والشيح نور الدين الطندتاى ، والشيخ أحمد الهيندى رضى الله عنهم أجمعين ، فهؤلاء الذين رأيتهم محفوظين من الرعونات من أصحابى وأما من لم يقع بيننا ، وبينهم صحبة فلا كلام لنا فيهم :

فابحث يا أخى على مثل هؤلاء ، واصحبهم ولا تصحب من كان بالضد ومن ذلك، فإن صحبته تغم وتكدر فى الغالب ، وتصير أنت وإياهم فى علاج ونفاق وملق فهى إلى الإثم أقرب والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم :إذا رأوا فقيراً يتكرم علي الناس بماله وثيابه وطعامه وكل شيء دخل يده أن يمدحوه علي ذلك

ولايأخذوا فى معارضة الناس فى مدحه ورد خصوصيته عليهم ، ويقولون : إن فلانا يفعل ذلك بخط نفسه لا لله تعالى كانوا على الضد من صفاته وكان على هذا القدم سيدى محمد بن عنان والشيخ عبدالحليم بن مصلح كانوا يتكرمون بكل شيء دخل فى بيوتهم وجيوبهم على الفقراء والأغنياء ، وإذا سمعوا بأحد من إخوانهم يذم فيه الناس جعلوا درجته فوق درجتهم ، ويقولون : إن تكرمنا لا يجيء عشر ما يحصل من كرم فلان ، ولكنه يعطى الناس سراً ، ويقصدون بذلك ستر أهل الخرقة ؛ ومن تزيا بزيهم .

وقد ذكرونى بالكرم عند بعض مشايخ العصر ممن ليس هو مشهور بالكرم فقال : هذا كله لحظ نفس ليقال ؛ فقال له قائل فى المجلس هذا أمر لا يطلع عليه إلا الله تعالى؛ ونحن مأمورون بحسن الظن بالمسلمين ، ورضينا منك أن تتبعه فى مثل فعله ، فما درى ما يقول ، وافتضح ؛ وكان الأولى به أن يحسن الظن بى ؛ فإن هذا هو الذى كلفنا به ، وأما البواطن ، فهى إلى الله تعالى قال ﷺ :

أمرت أن أقاتل الناس الحديث إلى أن قال وحسابهم على الله تعالى

فإياك يا أخى أن تسلك مسلك هذا الشيخ فتقع فى الإثم بل اتبعه فى الكرم ، وكثر سواد القوم الذين تزعم أنك منهم ، وعلى طريقهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : محبة القرب من العلماء العاملين ولو وقع منهم بعض إنكار عليهم

إذ لابد للمتشرع من بعض إنكار على أهل الطريق لقلة علم الحقيقة عندهم على علم الشريعة ، فلا يزالون كذلك ، حتى يحصل للفقراء الكمال ، فهناك ، يكتم علوم الحقيقة لأن سلطانها إنما هو فى الدار الآخرة ، وأما دار الدنيا ، فهى محل سلطان الشريعة أو كل من تعداها أخطأ ، وربما ضربت عنقه ؛ وتتخلف الحقيقة عن نصرته ، وعن كف الولاة عنه ، وإن وقع أن وليا خرق سورالشريعة ، وحفظ من القتل ، والحبس، والتعزير ، فذلك نادر .

وقد روى بن حبان ، والبيهقى مرفوعاً ، خمس من العبادة : قلة الطعمة ؛ والقعود فى المساجد ، والنظر إلى الكعبة ، والنظر إلى المصحف ، والنظر إلى وجه العالم انتهى.

وبلغنا أن امرأة وقفت تجاه وجه بشر الحافى تنظر إليه فقال لها : ما حاجتك :

فقالت : حديث بلغنى .

فقال لها : وما هو .

فقالت : النظر إلى وجه العالم عبادة ، فخر بشر مغشيا عليه .

وقال : أولئك العلماء الذين درجوا فى محبة الله عز وجل اذهبى إلى مقبرة بغداد فأنظرى إلى ألواح الموتى خير لك من رؤية وجه بشر انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : المواظبة على صلاة الجماعة

فربما مكث أحدهم أربعين سنة – لم يصل صلاة واحدة منفردا[١] والسر فى ذلك صدق اليقين لديهم فى صلاة الجماعة ، فقد أجمع أهل الكشف أنه ما اجتمع ثلاث قط

إلا ومنهم ولى الله تعالى يحب الله ويسعفه فى رفقته فى الدارين وفى الحديث « الواحد شيطان والاثنان شيطانان والثلاثة ركب » يعنى فى السفر ، فانظر كيف جعل الإثنين شيطانين أى مبعودين عن حضرة مجالسة الله عز وجل .

فعلم أنه من كشف الله عن بصيرته لا يقيده عن حضور الجماعة مفند من شياطين الإنس والجن ولذلك قالوا :

إذا رأيتم المريد يتهاون فى الحضور لصلاة الجماعة حتى تفوته تكبيرة الإحرام فاعلموا أنه لا يجى منه شيء فى الطريق أى فإن من لم ينهضه للحضور مجالسة الله عز وجل التى هى اعز ما يطلب فى الدارين ؛ فما بقى شيء ينهضه إلا علل النفوس وحظوظها ، وتلك عادة لا عبادة .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان وإياكم والصلاة فرادى ، فإنه الخسران العظيم فى الدارين والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يمدحوا كل من أحسن إلى غيره مع حرمانهم من إحسانه

عكس ما عليه غالب الناس اليوم ، فلا يكاد أحدهم يشكر إلا من أحسن إليه هو ولو أحسن إلى غيره دونه لايقدر ينطق بمدحه .

وقد جاء فى شخص من طلبة العلم يشكر فى شخص يبيع الورق ؛ ويطنب فى مدحه فوق ما يستحق ، ثم بعد مدة جائنى يذم فه ففتشت عن سبب ذلك ، فوجدته كان يحسن إليه بالورق الذى يكتب فيه كتب العلم فأرشده شخص إلى شخص آخر من طلبة العلم وقال : إنه أفقر من فلان فحول الورق الذى كان يعطيه له إلى الثانى ، فقلت : يا أخى ما هكذا المؤمنون إنما المؤمن من يدور مع الحق حيث دار ، فإذا رأيت من يحسن إليك حول إحسانه إلى من هو أولى منك ، فمن الواجب أن تحب له ذلك لكونه أكثر حاجة منك إذ من الواجب عليك أن تفتش أنت على من هو أحوج إلى إحسانه

وتسعى به إليه لأن لا تكون سبباً فى نقص أجره وهذا الخلق عزيز هذا الزمان وقليل من يقدر على تحصيله والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يكون فيهم مقام الاتحاد بينهم وبين أخوانهم في المال :

فيكون ماله مال أخيه وحاجته حاجة صاحبه ، وإذا أرسله صاحبه يشترى له حاجة فوجد الثمن الذى معه دون حق نصفها مثلاً فمن حق الإخوة أن يزن نصف ذلك الثمن من مال نفسه ، ولا يعلم أخاه بذلك بل لو حدث نفسه بإعلامه إذا استحلى ذلك فى نفسه خرج عن الأخوة .

وقد ربيت شخصاً اسمه محمد السند بسطى فكان على هذا القدم ، فما أخبرنى قط بما وزنه من عنده بالغاً مابلغ ، وكان يحمل أولادى ويخرج السوق فيشترى لهم كل شيء اشتهوه ، ولا يعلمنى بذلك ، وإنما يخبرنى به الأولاد فقلت لهم فى ذلك فقال : الفضل لأولاد سيدى الشيخ الذين يقبلون منى ما أهديه لهم من مالهم الذى تفضلوا على به ، ومن بعده ما صح لى ذلك مع أحد ممن ربيتهم إلى الآن .

وكان كثيراً ما يرهن عمامته ورداءه فى السوق إذا لم يكن معه شيء ويشترى للأولاد شهوتهم ، ثم يخلص رهنه بعد ذلك فأسأل الله أن يعامله بفضله فى قبره ؛ ويوم القيامة آمين اللهم آمين والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يرشدوا النقيب إلي أن يلقي باله إلي الشفقة علي الفقراء في أمر قوتهم

فلا يجيب أحدا منهم إلى تخصيص نفسه على إخوانه بشيء

وإذا سافر أحد من الفقراء لمصلحة الفقراء فمن المعروف أن يعطيه الزاد ذهاباً وإياباً، وإن سافر لمصلحة نفسه ، وكان فقيراً أعطاه كذلك وإن كان معه ما يشترى به زاده لا يعطيه شيئاً إذ لا حق لمثله فى طعام فقرا الزاوية ، وما يأخذه من ذلك يورثه الأمراض، والأسقام فى جسمه كما جرب والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يقيموا نقيباً يدروز للفقراء العاجزين عن الكسب في الزاوية

ويعلموهم الإخلاص فى ذلك ليحل بحسن نيته عقد البخل التى فى نفوس البخلاء؛ ويسحب للفقراء ما قسمه الله تعالى لهم بسهولة ؛ فإن النية الصالحة تحل العقد ، والنية الفاسدة تعقد المحلولات كما جرب ، وإن كان النقيب غير جابى لوقف الزاوية ، فهو أولى .

ويجب عليه أن يعلم الفقراء أنهم إذا أخذوا شيئاً أخذوه من الناس بعزة نفس ، بحيث لا يصير المعطى يرى له منة عليه ، ولا على بل يرى الفضل لنا الذى قبلنا ذلك منه ، وقل من النقبا من يقدر على ذلك بل يحملوا شيخهم وأنفسهم منن الخلق ، ويكونوا سبباً لتقصير كلمتهم عندهم لاسيما الأكابر ، والأمراء ، فأسأل الله تعالى من فضله أن يرحم الشيخ ابراهيم[1] رحمة واسعة وأن يجزيه عن الفقراء خيراً .

وقد كان من أخلاقه أنه إذا دروز للفقراء ألا يلحس مما يأخذه لهم من الفقراء شيئاً لنفسه ؛ ولا يحدث نفسه بذلك ؛ بل يأكل منه أسوة بغيره ممن لم يتعب فيه ، وكان لا

(١) كان نقيب زاوية الأمام عبد الوهاب الشعرانى.

يأكل لمن له عليه خراج طعاماً بل يأخذ معه زوادته ، ويقول : إن أكلت لمن لى عليه حق طعاماً ضيعت المال الذى عنده للوقف حياءاً منه ؛ وبعت الشيخ بلقمة لاسيما الولاة ، وكان إن رأى الأمير متعززاً بالباشاه مثلا يقول لذلك الأمير : إن الباشاه يعتقد الشيخ إعتقاداً عظيماً ؛ وطلب أن ينزل من القلعة لزيارته فما رضى الشيخ ؛ وإن رآه متعززاً بشيخ استند إليه قال له عن ذلك الشيخ : إنه يعتقد سيدى قوى ويقول : إنه يود أن لو كان من فقرائه فى الزاوية ، فيبجل بى ، حتى لايصير لذلك الأمير توجه للباشاه، ولا لذلك الشيخ ، ثم يقضى ما شاء من الحوائج عند ذلك الأمير فليعلم ذلك كل من عمل نقيباً ، ويعمل به بشرط الإخلاص وأنا أضمن له أن جميع العقد التى بين يديه يحلها الله تعالى له مع محبة الفقرا له ، وعدم سبهم لكونه يصطاد لهم دون نفسه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا كان طعامهم في الزاوية واحداً ومهما دخل الزاوية فهو بينهم أن لا يتعاطوا أسباب التخصيص للزراعة والتجارة

ثم يشاركوا الفقراء فى الطعام ، وغيره ، فإن ذلك ظلم وحوف بل الواجب إذا وسع الله تعالى عليهم جعلوا ذلك القمح مثلا فى حال الفقراء لتكون لهم المنه على بأن أحدهم يأكل حلالاً ، فإن طعام الزاوية إنما هو موضوع لمن هو عاجز عن الكسب ، أو قادراً عليه لكنه مشتغل بتحصيل ما يتعدى نفعه إلى غيره من الناس فى مصالح دينهم (كالمتفقه ، والمتصوف) وكل شيخ أقر جماعته على النقيب وجمع ما يحصلونه ، ثم يشاركون الفقراء فى طعامهم الموقوف عليهم ، (فهو غاش لنفسه) وللفقرا .

وقد سلمك شخص من جماعتى هذا المسلك قهراً على الأعذار يطول شرحها فهلك عن مال جزيل فحضره إبليس وقت طلوع روحه فما كان إلا فتنه عن دينه ، وصرنا نقول له : قل لا إله إلا الله ، فصار يقول : يا مالى ياروحى كيف تأخذون المال والروح

معاً ، وخلف بعده جماعة فلم يعتبروا به ، وطلبوا أن يسلكوا مسلكه ، وأنا بحجزهم ليلاً ونهار عن ذلك ، وهم يتفلتون من يدى إلى اتباع هذا الشخص ، فالله تعالى يأخذ بيدنا، ويدهم آمين .

فليحذر فقراء الزاوية من سلوك طريق الزراعة والتجارة إلا إن امتنعوا من مشاركة فقراء الزاوية فى طعامهم وأكلوا من تجارتهم ، وزراعتهم فإن ذلك يورث قلوبهم الظلمه والحجاب لاسيما إن جمع كل واحد فى بيته من العيال ، وكثر ما استفاده ، ومنع نفسه وغيره ، فإنه يضيق على الفقراء ضرورة ويعثر طريق أرزاقهم لعدم استحقاقه لتسخير الوجود له .

وقد سلك جماعة فى بعض الزوايا ذلك ، وصار أحدهم يعامل ويقارض الألف دينار ، وأكثر فمحى الله بركة رزق الزاوية ، وصاروا يأخذون الخراج عن السنة الآتية فإياكم أيها الإخوان من مثل ذلك ، ثم إياكم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة إمتحانهم لنفوسهم إذا إدعت الإخلاص ومحبة الخمول

ومن أعظم إمتحان يكون لها أن يعرض الفقير عليها مالوذمها إنسان عند الأكابر الذين يعتقدونه ، ويحسنون إليه فإن إنشرحت بذلك ، فهى صادقة فى دعوى الإخلاص ، ومحبة الخمول ، وإن تكدر منها شعره ، فهى منافقه مراءية مشركة بالله تعالى الشرك الخفى عندها الجلى عند الله تعالى ، فيجب عليها المبادرة إلى التوبة من مثل ذلك على الفور خوفاً من دوام سخط الله عليها فإن لم ينشرح الفقير بتنقيصه عند من يعتقده فلا أقل من التسوية بين الذم والمدح عنده الذى هو موقف السوا .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

أقل علامات أوايل دركة أن يتساوى عنده مدحه ، أو تنقيصه عند من يعتقده ، ولايفرق بين سماع الأمير ذلك ، وبين سماع الحمار أو حائط ، ومجنون ، ومتى وجد ترجيحاً لتنقيصه أو مدحه عند الأمير دون الحائط والحمار ، فهو مرائى خالص إنتهى.

فليعرض سيدى الشيخ فى هذا الزمان ذلك على نفسه يعرف إخلاصها أو رياءها ، ولو أن الواحد منا فتش نفسه عند دخول الباشاه أو قاضى العسكر أو الدفتردار مثلا لوجد نفسه مرايا دق المطرقه ، ومن هنا كان الناصحون لأنفسهم من الفقراء لايتعاطون قط أسباباً تميل نفوس الولاة إليهم ، ولايرون نفوسهم أهلا لأن يمشى إليهم زيال الحمام فضلاً عن أحد من الولاة .

وقد أوصانى سيدى على الخواص مراراً وقال لى : إياك أن تمكن أحداً من الولاة أن يأتى إلى زيارتك ، فإنك لا تقدر على الوفا بحق طريقه ، ولكن إذا علمت منه أنه عازم على زيارتك ، ولابد فأرسل أستأذنه فى الزياره ، وأمض أنت إليه ، فإن الملك فى هذا الزمان يحتاج إلى قيام ناموس ، ومجيئه إلى مثل ذلك إخلال بناموسه إنتهى .

ولما صار الباشاه إسكندر بمصر يزور الفقراء بالليل فى سنة ثلاث وستين وتسعمائه صحب ولد شيخنا أبى اللطف أرسلت أقول له : زيارة الفقرا إنما تكون بالقلب ، وتعظيمهم إنما هو بالقلب ، فأرسل السلام كل قليل ، وإذا ورد أحد منهم فى شفاعة ، فاقبلها ، فإن ذلك فيه قلة ناموس الفقرا للملك ، وناموس الفقرا ، فأجابنى إلى ذلك ، ثم أرسل لى صرة دراهم مع خازنداره ، وطلب الدعا له ، فقلت له : نحن لاندعو لولاتنا بفلوس فلما رد خازنداره ، وأخبره بما قلت له طلب منى الإذن له فى الزيارة مثل غيرى ، فأبيت ، ورددت الدراهم على الخازندار ، وقلت له : أنا لا آخذ الدراهم إلا بحضرة مولانا الباشاه لما أطلع له ، ثم أرسلت أستأذنه فى طلوع القلعة ، فأذن لى بالطلوع .

قلت له : يامولانا إنا لا نصحب مثلكم إلا للمصالح الأخروية ولا نصحب أحد من أجل هدية ، ولا نأكل له طعاماً رحمة به ورجاء لقبول عناية الله إذا نزلت فإن من يأكل طعام الولاة يتوقف دعاؤه لهم عن القبول لما فيه من المجاملة ، فإذا وقع له مصيبة ، وتوجهنا إلى الله تعالى لا نقدر على صحة التوجه ، فارتضى منى بذلك ، فقال : فأعط هذه الدراهم للفقراء الذين عندك ، ولا تأكل أنت منها شيئاً ، فقلت له :

الفقراء أجنحتى يؤمنون على دعائى لكم ، فإذا أكلوا من ذلك وقف تأمينهم ، فقال : قد خرجت للفقراء عن هذه الدراهم للصلحا والزهاد فى مصر فقلت له : فإذا ليس لى أخذها لأنى لست صالح ولا زاهد ، فهز رأسه فقلت له : إن من مقام الفقراء أن يساعدوا الولاة بأموالهم ، ودعائهم لأنهم يأكلون أموالهم ، وينسون الدعاء لهم فقال : الترجمان قل له : هذا أمر عجيب ما ورد علينا مثله فقلت الحمد لله رب العالمين ، وإنصرفت فى عز وإكرام وحمانى الله تعالى من وقوع التزين له ، وما قصدت بالكلام الذى قلته له إلا إعلامه بمقام الفقراء والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم العمل علي تحصيل مقام كون أحدهم يصير صابراً لا صابراً ولا متصبراً

والفرق أن من شرط الصبار أن لو إجتمعت عليه بلايا الدنيا كلها يتحملها ، ولا يشتكى ، ولا يجزع ، ولا يشمئز بخلاف أهل القسمين الآخرين .

وقد كان أبو القاسم الجنيد رحمه الله يقول : المتصبر هو من صبر فى مرضاة الله تعالى لكن يجزع تارة ، ويصبر أخرى ، والصابر هو من تصبر فى الله تعالى ، ولله تعالى ، ولا يجزع ، ولكن يتوقع منه الشكوى والجزع ، وما خلص فى قصده إلا من كان صباراً ، لأنه يصبر فى الله ولله وبالله ، وهو مقام سيدنا رسول الله ﷺ المشار إليه بقوله :

(وأصبر وما صبرك إلا بالله)[1] فجعل تعالى صبره بالله تعالى لا بنفسه ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان ، وإعملوا على تحصيله والحمد لله رب العالمين .

• • •

(١) سورة النحل آية: ١٢٢ .

ومن أخلاقهم أن يكنوا عما يستقبح عرفًا تخلقاً بأخلاق الله تعالي

كما كنى عن الجماع بالمس ، والمباشرة ، وكما كنى عن قبلة الأجنبية ، والزنا بها ، أو اللواط فى آية « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم»[1] فما قال إن الله خبير بتقبيلهم الأجانب وأنا أنظر وإنما قال « والله بما تعملون خبير» وإن المراد إنما هو النظر إلى ما حرم الله والزنا بالفرج فإعلموا ذلك أيها الإخوان وإعملوا عليه فإنه نفيس والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم إذا ثقل عليهم قيام الليل وترادف عليهم الكسل

أن يفتشوا أنفسهم فربما يكون ذلك من وقوعهم فى المعاصى الخفيه ، كريا والحقد والعجب وكبر ونحو ذلك ، فيبادر أحدهم إلى التوبة من ذلك وفعل الأمور المكفرة للذنوب ، كسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، وكثرة الإستغفار والصلاة والتسليم على سيدنا رسول الله ﷺ ، فإن الذنوب إذا كفرت عن العبد ، فقد طهرت ذاته ، وما بقى لها منع من الوقوف بين يدى ربها فى تلك المواكب الشريفه إلا عدم القسمة ومن أعظم مكفرات الذنوب صلاة التسبيح الواردة فى السنة فإن رسول الله ﷺ قال لعمه العباس رضى الله عنه : (إنك إن فعلتها غفر الله تعالى لك ذنوبك أولها وآخرها دقها وجلها سرها وعلانيتها) فإطلبوا أيها الأخوان معرفة كيفيتها ، وإعملوا بها كلما تجدوا فى قلوبكم قسوة تمنعكم من دخول حضرة ربكم مع الأنبياء ، والملائكة ، والأولياء .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله إذا وجد فى قلبه شيئاً من الأمراض الباطنه يترك قيام الليل ويقول : أستحى أن أقف بذاتى المتلطخة بالقذر بين الأنبياء والملائكة والأولياء ، وربما دخلت متلصصاً فأخرجنى خدام الحضرة ، وجرونى برجلى ، وقالوا :

---

(١) سورة النورة الآية: ٣٠.

إيش دخلك بين اصفياء الله تعالى فى حضرته أما تخشى من مقت الله تعالى بك ، انتهى .

فاعملوا ذلك أيها لأخوان وإعملوا به والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم أن يسوسوا كل عدو يكون لهم عند الأمير الذي يشفعون عنده في المظلومين

فتارة يسوسونه بالهدية ، وتارة بإرسال السلام له ، وإظهار المحبة له ، وتارة بمدحه فى المجالس ، وتارة بوصفه بأنه واسطة خير عند الأمير ، ويغالطونه ، وهذا خلق يحتاج إليه الفقير فى هذه الأيام حيث فقد الحال التى كانوا يدخلون على الحكام ، وبيوت الحكام فى قديم الزمان لاتخلوا من واسطة إلا فى حالة الفقير ، فصارت الآن بالضد من ذلك لا يوجد فيها إلا من ينفر الأمير من الفقير إما لعدم إستحقاق الفقير لذلك الأمر وإما لعدم إستحقاق المشفوع فيه ذلك .

وكان سيد أحمد الزاهد رحمه الله يقول : من لم يكن له حال يحميه من المعارضين له فى بيوت الحكام فشفاعاته ناقصة لأن ذلك العدو الذى عند ذلك الأمير يعارضه فى كل شفاعة ويحمله على المحامل السيئة انتهى .

ثم لا يخفى أن العدو الذى لا يتظاهر بعداوته أشد من العدو الظاهر ، لكونه يلبس على الأمير الأمر فى صورة النصح ، حتى ينفره من ذلك الفقير ، ويعتقد الأمير أن ذلك إنما هو نصح له بخلاف العدو الظاهر ، فربما يظهر للأمير عدوانه للفقير فيصير لا يصغى له فى حق الفقير أبداً .

وقد إبتليت أنا بعدو خفى فى بيوت الحكام لم يزل عند القضاة ، والدفاتر ومشايخ العرب ، فلا أرسل للأمير شفاعة إلا ويأخذ فى معارضتها بالقلب والتعريض بتنقيص، وتكميل أقرانى ، ورفع درجتهم على ، ويقول : أجمعت الناس أنه ليس فى مصر الآن

أحد أعلا مقاماً فى الطريق من فلان الفلانى ليحول قلب الأمير عن الإعتقاد فى ورد شفاعاتى ، فأسأل الله تعالى أن يتوب عليه من ذلك ، وأن يجزيه عنى خيراً من حيث كونه سعى فى صرف قلوب الأمراء عنى ، لكون ضررهم على الفقير يغلب على نفعهم له ، ولما تمادى فى المعارضة فى الشفاعات التى أشفعها أرسلت أغالطه ، وأقول له : يا أخى لاتتعب نفسك فى المساعدة لى عند الأمير فى الشافعات إلا إن ظهر لك أن ذلك مصلحة للأمير ، وكل شىء رأيت مصلحته وعلى دن الأمير ، فإنى أذنت لكل معارض أن يعارض فى ذلك ، وأشكره عليه ، وليس لى على الأخ إلا المساعدة فى كل أمر ترجع مصلحته للأمير فى الآخرة ، فإن ذلك لايجوز لمحب الأمير أن يعارض فيه إنتهى.

فمن ذلك اليوم أخفى معارضته بالكلية وصار أن يستحى أن يخالف أن يظن فيه من المساعدة لى ، ولو أنى قلت له : بلغنى ، أنك تعارضنى وتحرك الأمير ضدى تحركت نفسه عليه وصار يحقق الأمر فى المعارضة .

فعلى الفقير أن يسوس الذى عند الأمير ، ليصير على ما شفع فيه ، وللأمير والمشفوع فيه ويصير صديقاً لكم لو إحتجت لصديق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يرشدوا إخوانهم إلي علي أن يجعلوا كلمتهم متوجهة إليهم وذلك ليسهل علي الفقراء قضاء حوايجهم علي يدهم

فإن الفقراء فى كثرة الإقبال عليهم والإدبار عنهم حكم طريق أهل الله تعالى إذا أعطاه العبد كليته اعطته بعضها ، وإن أعطاها العبد بعضه لم تعطه شيئاً ، فاعط يا أخى كليتك لشيخك إن طلبت أن يكون لك فى الشدائد ، ويرد عنك الأقدار المعلقة على شفاعته فيك عند الله تعالى ، أو عند الخلق ، وإلا فلا يقدر شيخك ينفعك بشىء لأن

العمدة على صحته توجهك إلى شيخك لا على شيخك ، فإن ظننت فيه أن الله تعالى لا يرد له شفاعة صحت شفاعته فيك ، وإن شككت في ذلك توقف قبول شفاعته فيك .

وقد جهدت كل الجهد أن أواصل إلى من هو مستند إلى غيرى من الفقراء منفعة فلم أقدر ، ولما مرضت أم سيد محمد العبادى وطلبت منى النجدة لم أقدر على إيصال شيء إليها بدعائى ، وكذلك ولدها سيدى يحيى ، لكونهما كانا مستندين إلى شخص من الفقراء غيرى ، فلما ألحوا فى كتابة ورقة لهما كتبت لهما (اللهم ببركة فلان ، وبركة اعتقادهما فيه عافهما ، واشفهما إن كان ذلك معلقاً ، وإن كان مبرماً ، فاغفر لهما ، وارحمهما) .

فاعلموا ذلك أيها الأخوان ، وأعطوا شيخكم كليتكم ، ثم طالبوه بالوفاء بجميع مهماتكم فى الدنيا والآخرة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم : أن يذكروا إخوانهم كل قليل بنعمة الله تعالى التي أسبغها عليهم

ويعلموهم بأنهم لا يستحقون تلك النعمة ، ولا يقدرون على القيام بشكرها ، وإن كان لأحدهم عيال زايد على عيال أقرانه ، ويأكلون من طعام الفقراء بأمره بالخدمة فى الزاوية أكثر من غيره إذ النفوس تكره شفوف غيرها فإذا أكثر من تميز عنهم بكثرة للطعام مثلاً الخدمة لم يستكثروا عليه ذلك ( )[1] فى خدمة الفقراء .

وإن رأى شيخ الزاوية كفر المجاورين لما عندهم من الخير وكونهم واسطته وأمرهم بشكره ليقوموا بشكر الله تعالى على النعمة بخلاف ما إذا كفروا نعمة الواسطة فكما يكون الواسطة وهو الشيخ سبباً للنعمة يكون سبباً لزوالها بتوجهه إلى الله تعالى فى ذلك .

---

(١) مطموس من الأصل.

وليحذر الفقرا أن يظنوا بالشيخ أنه إنما يذكرهم بنعمة الله تعالى التى كان واسطة فيها على سبيل المن عليهم . فإن ذلك بعيد عن الأشياخ ، إنما يحذرون إخوانهم من الوقوع فى كفران نعمة الوسايط من حيث هى وسايط ؛ ولايقصدون تخصيص أنفسهم بذلك الشكر ، وهذا يقع فيه كثير من جهلة المريدين . ويظنون أن الشيخ يمن عليهم بتذكيرهم الشكر له من حيث كونه واسطة فى جر أرزاق الفقرا إليهم ؛ وليس هناك أحد يجر لهم أرزاقهم غيره ، والأشياخ منزهون عن طلب الشكر لهم لحظ نفس ، فاعلموا ذلك أيها الإخوان وقوموا بواجب حق نعمة الله التى عليكم بواسطة شيخكم بحكم العادة فى ذلك ونزهوا الشيخ عن قصد المنة بذلك عليكم ، وإن كانت صورة لفظه صورة لفظ من يمن والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا حجوا إن لايخصوا نفوسهم عن أخوانهم بشيء من المنافع إلا لعذر شرعي

وهذا ، وإن كان من شرط الفقرا فى كل وقت لكنه فى الحج آكد منه فى غيره .

فليخذر الفقير كل الحذر أن يحج فى محفه ، أو محارة أو يصير يأكل الطعام اللذيذ ، ويرى الفقرا والمساكين مشاة حفاه يعرجون أو مرضى ، فلا ينزل من محفته أو محارته ، ويركبهم مكانه ، ويمشى أو يركب على الراحلة بلا محاورة ، أو يصير يأكل اللحم القديد ، والسمن ، والعسل النحل ، ويقف عليه السائل ، فلا يدعوه يأكل معه ، أو لا يعطيه كسرة يابسة : فإن ذلك خروج عن طريق الفقرا ، وما رأت عينى فى الحج أكثر فتوة من الأخ الصالح الشيخ أحمد الهنيدى المقيم بناحية منبوبه كان يعطى غداه للسائل ، ويطوى ، ويركب الفقرا جماله ذهابا وإياباً ، ولقد رأيته فى صباح ليلة باردة لما ماتت جماله ، وبقى معه حمار واحد فصار يركب عليه العجوز ، أو الرجل العاجز ، ويؤثر على فسه مع أنه لا يقدر على المشى ، فكان يقبض على مقود الحمار بفمه

ويحبوا على يديه ورجليه فلما رأيته على هذا الحال بكيت عليه ، وعرفت مقامه فى الفتوة ، وكان قد قال لحماره : أنه عندما يدعو العجزة ثم لأركبهم على ظهرك وهم غير صادقين فمن رأيته غير صادق منهم فابرك به ، وإن كان صادقا فاحمله فكان الحمار يطيع هذا الحكم حتى وصل إلى مصر ، فمثل هذا هو الذى يجوز بكلتا يديه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من أدب الفقير إذا حج إن لا يرى نفسه بماله وزاده من أخوانه المسلمين ، وإذا وقع عطش أن يشرب كأحدهم من غير زيادة ، ومتى شرب أكثر منهم ، فقد خان الصحبة انتهى .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول : ليس الفقير إذا وقع موت الجمال ، وغلت الأسعار أن يخص نفسه عن إخوانه بركوب أو طعام أو شراب زيادة على إخوانه المسلمين من عرفه ، ومن لم يعرفه ، حتى إنه لايرجع من سفر الحج ، وعليه أوقية لحم .

وكان أخى الشيح أفضل الدين رحمه الله يقول : من أدب الفقير إذا حج أن يؤثر إخوانه المسلمين عليه فى المناهل ، والمضايق ، فلا يسابق على ملىء الماء والخروج من المضايق ، ويؤخر أخاه ، حتى يفنى الماء ، ويصير يملأ من الوحل ، أو يؤخر جماله فى الزحمة ، حتى يقع أحمالها ، وتنعصر أضلاعها ، ومن فعل ذلك فهو لم يشم من فتوه الفقرا رائحة انتهى .

ولما حججت سنة ثلاث وستين وتسعمائة شرطت على إخوانى المجاورين الذين يسافرون معى فى تلك السنة أن لا يتخصص أحد منهم عن أخيه بطعام ، ولا نقد ولا ركوب إلا لعذر يعذره فيه صاحبه وقلت لهم : إن لم تحجوا على هذه الصفة ؛ وإلا لم أسافر بصحبتكم فبايعونى على ذلك ، ووفوا بذلك ذهاباً وإياباً فاسأل الله تعالى أن يزيدهم من فضله فى الدنيا والآخرة انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : كل فقير لا يوطن نفسه فى سفر الحج على مشاركة جميع من فى الركب من أمير الحاج إلى آحاد المشاة من الفقرا فى

همومهم ، فعدم حجة النفل أولى له صيانة لخرقة الفقراء عن الطعن فى أهلها انتهى .

ولما حججت سنة ثلاث وستين مع عيسى أمير الحاج شرطت على نفسى أن لا أتهنا بنوم ولا بأكل ؛ ولاشرب ، حتى يرجع أمير الحاج والناس كلهم له شاكرون ؛ فإن من عيب الفقير أن لا ينظر إلا إلى نفسه ، وهو من هموم أميره غافلاً عن سؤال الله تعالى أن يبيض وجهه عند السلطان وعند سائر الحجاج لاسيما إن كان أمير الحج محسناً ، وإن كانت عليه نوبة الغفارة فعليه أن يرد الغارة ومما ينبغى لكل فقير أن يعوذ الركب صباحاً ومساءاً بالآيات والأذكار الواردة فى القرآن الكريم والسنة الشريفة وأوراد المشايخ وإذا رأى جملاً قد تعب يتوجه إلى الله تعالى أن يمد ذلك الجمل بالقوة ، حتى يرجع إلى بلاده .

وبالجملة فمن شرط الفقير أن يكون فى جهد وتحمل هموم من حين يخرج من داره إلى أن يرجع إليها ، وإذا كان يوم عرفة لا يأكل ، ولا يشرب إلا أن ألقى الله تعالى فى قلبه أنه تعالى غفر لجميع أهل الموقف ، وإذا كان بمكة ، فليجعل معظم دعائه لإخوانه ويؤخر نفسه ، وكذلك يشرب من ماء زمزم على نية الشفا لأبدانهم من جميع العلل ، والأمراض ، وعلى نية الرى يوم العطش الأكبر ، ونحو ذلك فقد لا يقسم الله للفقير العود ثانياً إلى تلك الأماكن الشريفة المستجاب فيها الدعاء ، فكان من فتوته إيثار غيره عليه فى الدعاء وغيره وأجره على الله تعالى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : يخلع على الحاج خلعتان أحدهما عند الحجر الأسود وقت الطواف من طواف الوداع والثانية تجاه وجه سيدنا رسول الله ﷺ لتقر عينه ﷺ بأمته .

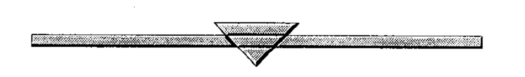
وعلامة صحة الخلعة الأولى : أن يزداد العبد إيماناً بأحوال يوم القيامة حتى كأنها رأى عين .

وعلامة العلة الثانية : أن يصير العبد متخلقا بالفضائل والأخلاق المحمدية حتى لا

يكاد يخل بشيء منها إلا من عدم قسمتها له لا غير ، ويود لو أنها قسمت له ، فتخلق بها ، وما احتاج فقير إلى شيخ يسلكه بعد أن حج إلا لاخلاله بآداب الحج ، وعدم كمال خلعته ، ولو كانت خلعته كاملة لاستغنى عن الاستاذ .

فعلم أن من حج مع شيخه وخالفه فيما يأمره به من الإيثار والمواساة ، والآداب ، فقد تعرض للمقت ، وغاية حجه بذل الدراهم من حلال أو حرام وشبهة ، والتفرج على الأودية والجبال مع حرمانه من المواهب .

فاحذروا من مثل ذلك أيها الإخوان والحمد لله رب العالمين .





الباب التاسع

فى جملة أخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم : إذا كان في ركب الحج شخص من أقرانهم أن يعظموه في عين أمير الحاج

ويظهروا ترددهم إليه المرة بعد المرة حتى يقول أمير الحج وجميع أهل الركب ألا إن فلانا أعظم مقاماً من فلان ، وكان فلان وجماعته يترددون فى ذلك فأكلم أحدا منهم ثم أناصح الناس تعظيم ذلك الشخص الذى ناصحتهم عليه ، وصار الناس يسلونه الدعا وقت خوف أوعطش مثلاً فكنت أتوجه إلى الله تعالى أن يستره مع أمير الحج وغيره فما كان لهم حاجة إلا قضيت حماية للخرقة .

وليحذر المفضول كل الحذر أن يشمت بذلك الشيخ المدعى الولاية إذا سأله أمير الحج أو غيره فى حاجة ، ولم تقض ، وفروا عنه ، وقل اعتقادهم فيه ، فإن الشماتة بالمسلم ليست من شأن الفقرا، وإنما هى من شأن الفسقة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من شرط الفقير إذا حج أن يخفى نفسه ، ولا يدعى قط أنه من الفقرا خوفاً أن يفتضح إذا عطش الناس مثلا ، وسألوه المطر ، وإن علم أن الله تعالى يجيبه إلى سؤاله ، وينزل المطر بدعائه ، فليرسل الناس إلى أحد من الفقرا الذين فى الركب يسألونه الماء من المطر ، ثم يتوجه هو إلى الله تعالى التوجه الكامل ، بحيث لايشعر به أحد ، فإذا أنزل المطر بدعائه أظهر أن ذلك من دعا ذلك الفقير الذى أرسل الناس إليه ، ثم يأخذ أصحابه ، ويذهب إليه يشكر من فضله ، ويقبل يديه بحضرة الناس ، حتى يتحققوا أن نزول المطر إنما كان بدعائه انتهى .

ولما حج سيدى على بن وفا رضى الله عنه عطش الحاج ، حتى أشرفوا على الهلاك، فأتوا إليه ، فأنشد موشحه الذى أوله :

إسق العطاش تكرما   فالعقل طاش من الظماه

فنزل المطر فى الحال ، كأفواه القرب ، فإن كنت يا أخى مثل سيدى على هذا فلك أن تظهر أنك من الصالحين فى الحج ، وإلا فأخف نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا مات لأحدهم والد أو ولد أن لا يكثروا من ذكر صفاته الحسنة وكشوفاته الصحيحة

فإن أحدهم متهم فى ذلك مع ما فيه من تزكية النفس ، فكأن لسان حاله يقول : نحن كلنا من بيت صلاح ، وليس الصلاح طارئ علينا ، وهذا الأمر يقع فيه كثير من المتمشيخين بأنفسهم الذين لاسلف لهم فى المشيخة ، ولا ضريح لوالدهم ، ولا لجدهم ، فليحذر الفقير من مثل ذلك ، فإنه من علامات الريا ، وقد قالوا من أكمل كمالات الصوفية كتمان كمالاتهم عن الناس إلا إن أمروا بإظهار ذلك فى بواطنهم فإنهم فى هذه الحالة لهم أن يظهروا الإلهام الصحيح وقد مر السيد على ابن أبى طالب يوماً على الناس بغير أمر دعاه إلى ذلك فقال السيد على : إعرفونى أنا فلان العالم انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا اعتقدهم الباشاه أو غيره من الأكابر

وأرسل يستأذنهم فى زيارته لهم أن يكتموا ذلك عن الأجانب ولا يذكروا ذلك إلا لإخوانهم بغرض صحيح ، وهذا الخلق يخل به كثير من المتمشيخين ، فيصير أحدهم حكويا يذكر ذلك لكل من دخل عليه ، وذلك دليل على الإفلاس من أحوال الفقراء ، ولو أن أحدا من الأشراف أو الفقرا الذين لا يؤبه لهم ممن لو أقسم على الله لأبر قسمه زاره لم يحك ذلك لأحد ، ولا افتخر به .

وقد تقدم عن سيدى على الخواص أنه كان يقول : إذا علم أحدكم أن أحداً من الأكابر عازم على زيارته ، ولابد ، فليأت هو إلى ذلك الأمير ، ويقول له : أنا فلان الذى بلغنى أنكم كنتم عازمين على زيارتى ، ثم إن أعطاكم شيئا من الدنيا ، فردوه عليه، وقولوا له : قد أخذ علينا مشايخنا العهد أن لا نقبل من أحد شيئاً من الدنيا إلا عند

الجوع الشديد ، فإن قال لكم : فرقوه فقولوا له : من جمعها ، فهو أحق بتفرقتها ، ولو كانت من كسبنا لفرقناها إنتهى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يمتحنوا من أراد صحبتهم من الولاة قبل أن يدخلوا في صحبتهم ويتبعوا نفوسهم معهم

وذلك كأن يحسنوا فى عينه حال أحد من أقرانهم فإن مال بقلبه إليه ، فقد أراحهم من التعب ، وإن لم يمل عنهم بقلبه ، فهو صادق فى محبة الفقراء وصحبتهم ، وهذا الأمر يخفى على كثير من الولاة ، وهو يبين صدقهم فى محبة الفقير من كذبهم .

وقد بلغنا أن شخصاً من العباد نزل من صومعته إلى عين ماء ليتوضأ منها فرأى هناك إمرأة شابة من أجمل النساء ، فشخص ببصره إليها .

فقالت له : ألا تتوضأ .

فقال : حبك قد اشغلنى عن الوضوء .

فقالت له : فلو رأيت اختى هاتيك لرأيتنى لا أصلح خادمة لها ، فالتفت فصفعته وأسقطت عمامته .

وقالت : آه يا كذاب ، ثم اختفت عنه فى الحال فلم يدر أين ذهبت انتهى .

هذا الامتحان يتعين على الفقير الصادق الذى يشارك الولاة فى همومهم ومصايبهم .

فأعلموا ذلك أيها الإخوان إن عملتم مشايخ والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إظهار التقشف والرضي باليسير من الدنيا في الأمور الدنيوية والأخروية

تعرضنا لمحبة الله ومحبة خلقه لهم .

بخلاف من كان بالضد من ذلك من الشراهة ، فإن القلوب تمقته ، ومقت قلوب المؤمنين ، لعبد عنوان على حصول المقت له من الله تعالى .

وفى بعض الكتب الإلهية : إن الله يحب من عبيده الحامدين له على اليسير .

وفى مناجات السيد موسى عليه الصلاة والسلام : إذا جاءتك باقلاية مسوسة فاشكرنى عليها ، فإني مهديها إليك انتهى .

وقد ذكرنا فى كتاب منهج الصدق والتحقيق أن من عباد الله تعالى من لو أعطى الدنيا بأسرها لم يقنع بها إظهاراً للفقير والفاقه ، ولا يقنع إلا برؤية الله عز وجل ، وإن من الرجال من يزداد محبة فى الحق تعالى كلما اتسعت عليه الدنيا ، وإن منهم من يزداد فقراً إلى الله تعالى كلما وسع عليه الدنيا ، وإن من قنع باليسير من الدنيا ، فهو دنى الهمة قليل المرؤة ، فلكل رجال مشهد ، وحدود ، وشروط كما يعرف ذلك أهل السلوك ، إذا لوجود كامل وكماله إنما يكون بتقرير مراتبه كلها فى يد أهلها ومتى نقص الوجود مرتبة واحدة فى مشهد ولى ، فهو علامة على نقصه أى الولى .

وسمعت سيد عليا الخواص رحمه الله يقول :

لأهل البدايات أحكام ، ولأهل التوسط أحكام ، ولأهل النهايات أحكام ، فلا يكلف الأدنى بشروط الأعلى ، ولا يؤمر الأعلى بالنزول إلى مقام البداية إلا لتعليم ، ونحوه .

وكان رضى الله عنه يقول:

أكره للمريدين سؤال الأكابر شيئاً من الدنيا ، ومن فتح هذا الباب عليه لم يفلح انتهى .

وقد أدركنا بحمد الله تعالى نحو مائة وخمسين شيخاً فما رأينا أحداً منهم سأل أميراً، ولا غيره شيئاً من الدنيا لاقمحاً، ولا عدساً ، ولا عسلاً ، ولا دراهم إنما كان أحدهم يشد على بطنه بالمنطقة ، ويقنع كل يوم بزبيبة أو ثمرة منهم الشيخ مرشد القادرى والشيخ تاج الدين الذاكر والشيخ يوسف الحريثى وولده سيدى أبو العباس ، وبطن الشيخ عبدالحليم ابن مصلح لاجوف لها ملتصق البطن بالظهر وهذا بخلاف حال هؤلاء الذين نراهم فى النصف الثانى فى القرن العاشر فإن بطونهم منتفخة مع السمن مع أن لحسبهم من سؤال الاغنيا ، ومشايخ العرب ، وغيرهم من الولاة ، فصار للشيخ منهم كرش ككرش الظلمه ، حتى صارالحمار لا يحمل أحدهم ، كما أخبرنى به بعضهم حين رأيته راكباً فرسا ، فقلت : الفرس يحتاج إلى عليق وخدمه فقال : الحمار لا يقدر يحمل جثتى فقلت له : خفف الأكل وأنا أضمن لك أن جسمك يخف حتى يصير الحمار الهزيل يحملك ، فلم يدر ما يجيبنى به .

وطلع شخص من هؤلاء فى شفاعة عند الوزير على فرد شفاعته فقال الناس لاتردوا شفاعة الشيخ فقال : ليس هذا بشيخ إنماهو ممن يكرهه الله تعالى . فقالوا له : كيف ؟ فقال : إن فى الحديث (إن الله تعالى يكره الحبر السمين[1]) ، والحبر هو العالم ، وإنما كرهه الله تعالى ، لأنه لم يعمل بعلمه فى الورع ولو أنه تورع لم يجد من الطعام ما يسمنه انتهى .

فانظر يا أخى فراسة الولاه ، وإياك أن تجمع عندك فقرا وتصير تسأل الناس من الأمراء وغيرهم مع قدرة أحدكم على الكسب بالحرف والصنايع ، فإن ذلك ممحقة للدين ، ولا تغتر بمن كان على هذا القدم من السلف الصالح ، كسيدى يوسف العجمى، وسيدى عثمان الحطاب ، فإن أولئك كانوا أصحاب كشف ، فكان يكشف لكل واحد عما عند الناس من رزقه ، ورزق جماعته حتى ربما قال : كشف لى الليلة أن عند فلان

(١) هو جزء من حديث حيث أتى بعض الأحبار إلى رسول ﷺ يجادلونه فكان منهم حبر سمين فقال له الرسول ﷺ (أليس فى التوراة إن الله تعالى يكره الحبر السمين) فكان ذلك إعجازا من الرسول ﷺ.

للفقرا كذا وكذا يأتى به فى وقت كذا وكذا ، فيأتى به فلان فى ذلك الوقت ، وكانوا يحمون نفوسهم وأصحابهم من ذل السؤال بل يزداد أحدهم عزا عند الناس كلما سألهم ويصير ذلك الأمير يفرح بسؤالهم ، ويقول : أرسل لى سيدى الشيخ يطلب كذا وكذا ، وجبر بخاطرى ، فالله ينفعنا ببركاته ، فأين أنت منهم يا من هو أعمى القلب وبطنه ، كالمرحاض الذى فاض ، وتنقبض وجوه الناس من كثرة سؤاله ، ويحتقرونه ولا يصير له جاه عندهم ليشفع عندهم به فى مظلوم ، وقد أرسل لى واحد من هؤلاء المدعين يقول لى فى ورقة : حصل عندى طارئ ورجائى أن ترسل لى عشرة أرادب قمح ، فقلت له : وأنا حصل عندى ما دعانى أن لا أعطيك ، فتكدر ، ثم قال : إنما سألتك لأنى رأيتك بابا من أبواب الخير ، فقلت له : لو كنت صادقا لم تتكدر لأنى إذا منعتك فأنا أيضا باب من أبواب الحق ففارقنى ، وأرسل لعيسى شيخ العرب يطلب منه قمحاً ، فأمر له بشىء من الدنيا ، فقال الحاضرون له : أنت عازم على سفر الحج فى هذه السنة ، وتحتاج إلى زيادة النفقة ، فقال : فماذا أصنع هؤلاء ذهب ماء الحيا من وجوههم ، وأنا أستحى أن أردهم انتهى .

فقد علمت أن أكل الفقير مما يعطيه هؤلاء الولاة له يستحيل نارا يوم القيامة من جهة عدم حله فى أصله ، ومن جهة كونه يؤخذ ذلك بسيف الحيا ، وقد أشار إلى ذلك الحديث أن رسول الله ﷺ كان يعطى العطا ، ويقول : يذهب أحدهم بعطيته من عندى يتأبطها ناراً ، فقال له عمر : يارسول الله ، فلم تعطيهم ناراً قال : فما أصنع يا عمر ، يأبون إلا أن يسئلوني ، ويأبى الله لى البخل انتهى .

فاعلم يا أخى ذلك ، واحم خرقة الفقرا الذين تزعم أنك على طريقهم بالعفة ، والقناعة ، ولو أتوك به من غير سؤال لأجل توقع قبول شفاعتك عندهم فى مظلوم ، ونحو ذلك ، فإن كل من يشفع عندهم يجب عليه الرد إلا لضرورة شرعية مرجح نفعها على قبول تلك الشفاعة .

وقد كان الشيخ نورالدين الخضرى بجامع يرد كل ما يعطيه له الولاة ، ويقول : قبولى ذلك ولو بقصد تفرقته على غيرى من المحتاجين يسقط جاهى عندهم ، فلا يصير أحدهم يقبل لى شفاعة ، ووالله إن كل شفاعة قبلت أرجح عندى من أن أتصدق بألف قنطار ذهباً من مال هؤلاء انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : معرفة زمانهم ولا يطلبون أن يبرز فيه إلا ما يشاكله

عملاً بحديث (إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة) انتهى ولابد من وقوع كل ما أخبر به ﷺ .

فإذا ارتفع تلميذ أحدهم وعظم شأنه وعظمه وزاره الأمرا ، وقدموه على شيخه لا يتكدر شيخه بل يعول على حديث الصادق الصادوق ﷺ ، ولا يشغل بسبب ذلك المريد ولا بإظهار نقصه بين الناس إلا لغرض صحيح ، وكذلك لا يتلفظ بنحو قوله فلان من تلامذتنا ، لأن فى ضمن ذلك إظهار مقامه على ذلك التلميذ من غير فايدة لأن الله تعالى لو كان أراد ارتفاع الأكابر ما رفع الناس التلامذة على أشياخهم ، ولو أن الشيخ فى هذا الزمان أقام البرهان على أفضليته على مريده الذى رفعوا مقامه عليه لم يقبل الناس منه ذلك .

ومما وقع لى أنا : أننى أعرف من بعض أصحابى الآن رفعهم مقامى على مقام أشياخى ، كالشيخ سليمان الخضيرى ، وسيدى الشيخ شهاب الدين الوفاى ، والشيخ جمال الدين بن الشيخ شاهين ، وأضرابهم ، مع أنى لا أصلح تلميذ الواحد منهم كما يعلم الله ذلك ، فكلما أرى ذلك من أصحابى استغفر الله تعالى ، وأصلى على سيدنا رسول الله ﷺ الذى أخبر بذلك ، وأود أن الأرض تبتلعنى ، وأصل ذلك كله بعد الناس عن طريق الفقرا ، واعتمادهم على الزى ، والمنطق ولو أنهم شموا رائحة الطريق ، لرفعوا مرتبة الأشياخ على مريدهم ، ولم يغتروا بلبس الصوف ، ولا إرخاء العذبه ، ولا

بطول شعر الرأس ، ووالله إن كل ذرة من أعمال سيدى الشيخ سليمان الخضيرى ، أو الشيخ شهاب الدين الوفاى أرجح من القناطير من أعمالى ، وما أعد ترجيح أصحابى لو على أحد من الأكابر إلا فتنة لى ، ورفعا لمقام الأشياخ فى الآخرة فالله يلطف بنا فى هذا الزمان .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

من علامة الولى البرأة من الدعاوى للاحوال ، فلا يرون النجاة من النار إلا بفضل الله تعالى ورحمته .

وسمعته يقول أيضاً : من علامة الولى مراعاته للأنفاس ، والخطوات والتسليم لمجارى الأقدار ، وسلامته من البدع ، والأهواء المضلة ، والكسل ، والفشل .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول :

ما خلق الله تعالى وليا إلا ووفقه لإصابة السنة بالإتباع ، وحماه من الركون إلى الدنيا ، والهمه الصبر عند البلا ، ومنعه من الشهوات التى تحجبه عنه تعالى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان وزنوا هؤلاء التلاميذ الذين راج أمرهم عند العوام فرفعوهم على أشياخهم بهذه الميزان يظهر لكم نقصهم عن أشياخهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : العمل علي تحصيل مقام التباعد عن الشيطان في حال صلاتهم وغيرها من سائر العبادات

وقد رأى سيدى محمد المنير رحمه الله تعالى شخصاً يتثاءب فى صلاته فقال له :

إذا كان الشيطان ينفخ فى وجهك يا أخى فى صلاتك وأنت تناجى الله عز وجل ، فكيف حالك فى غيرها من العبادات ، أو العادات انتهى .

وقد صلى خلفى مرة صف طويل ، فرأيتهم تثاءبوا كلهم .

فقلت : هذا من شؤم حالى أنا فلو كنت محفوظا من الشيطان ، لسرى الحفظ منى إلى سائر من اقتدى بى لوجود الإرتباط الذى بين الإمام ، والمأموم ، حتى ورد فى السنة ما يؤيد ذلك ، حين توقف على سيدنا رسول الله ﷺ القراءة فى الصلاة فقال :

إذا صلى أحدكم ، فليحسن طهارته ، فإنى إنما لبس على القراءة لعدم إحسانكم الطهارة .. الحديث بمعناه عن مذهب من يرى رواية الحديث بالمعنى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأكثروا من ذكر الله تعالى ، حتى يصير الشيطان يفر من ظلكم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: التربص وعدم المبادرة إلي الانكار علي من سمعوه يقرأ القرآن بالروايات المغربية.

التى لا يعرفها غالب الناس ممن لا يقرأوه إلا برواية واحدة مثلا لاسيما إن كان أحدهم فى وليمة فيها جمع كثيرا من العلماء فإن من أنكر على ذلك القارئ قراءته الجائزة، فكأنه نادى على نفسه بالجهل فى ذلك الجمع العظيم فيفتضح، فعلم أنه لا ينبغى أن ينكر على قارئ قراءته إلا من أحاط علما بالقراءات.

وقد حضرت مرة فى وليمة كان القارىء بها العالم العلامة الشيخ أبو البقا البساتينى نفعنا الله ببركاته فقرأ عليهم إليهم بضم الهاء، فأنكر عليه شيخ كان هناك من المتصوفه، فافتضح، وقالوا له: هذه قراءة من السبع، وخجل خجلاً شديداً.

فإياك يا أخى أن تنكر شيئا إلا بعد تبحرك فى العلم والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا كانوا في وليمة وفقد أحدهم نعله النفيس أن يخرج ساكتا ولا يعلم صاحب الوليمة بذلك

خوفا أن يكدر عليه وقته وإن لم يجد من يعيره نعله.

خرج حافيا لا سيما إن كان نعلا عتيقا أو حلفاية، فإن مثل ذلك مما يتجاوز عنه لأن الفقير ما حضر إلا جبر الخاطر صاحب الوليمة، فإذا أخبره بذهاب نعله، فربما جرح قلبه ورجح ذلك الجرح على جبران الخاطر، فكان عدم حضوره أولى.

بل الذى ينغبى لصاحب المروءة أن يسكت إذا ضاعت جوختە النفيسة ولا يتكلم، فإن إدخال الغم على صاحب الوليمة يرجح على ذهاب الجوخة إذا الدنيا كلها لا تزن عند العاقل جناح بعوضة.

فاعلموا ذلك أيها الاخوان وأعملوا به والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم قبول شيء من مال الولاة في مساعدتهم في سفر الحج

لأن مال الولاة لا يسلم غالبا من الشبهة ولا ينغى للفقير إلا التحرر من مثل ذلك، لأن الحق تعالى يؤاخده بما لم يؤاخذ به غيره لكن يكون عدم القبول بسياسة، وتقديم مقدمات، لأن ذلك غريب فى فقراء الزمان، وغالب الولاة ربما يعتقد حل ملكه على قاعدته هو، ويظن أن رد الفقير عليه المال إنما هو عدم محبته، لصاحبه، فينبغى للفقير أن يكون له نقيب شرب من مسقاته «ليصير يبين لذلك الأمير مقام الشيخ، وإلا فالنقيب الذى ليس بينه، وبين الشيخ، إتحاد بالباطن فساده أكثر من صلاحه، وإذا لم يكن للفقير نقيب كذلك احتاج الفقير ضرورة إلى ذكر الألفاظ التى فيها تزكية للنفس، ليطيب خاطر ذلك الأمير، ويقم العذر للفقير، ولو أنه كان يعرف مصطلح الفقير، وذكر للأمير زهد الفقير، وورعه، وتعففه عن جميع مال الولاة من غير تخصص، لكان لذلك حلاوة عظيمة، ويزداد الأمير فيه اعتقادا، ويصير يقبل شفاعاته لا يكاد يرد منها شيئا.

وكان لى نقيب اسمه الشيخ إبراهيم السند يصطى رزقه الله الاتحاد بى، فكان يمهد للأمير عذرى، حتى يصير الأمير يقيم العذر لى فى رد هداياه، ولا يتكدر منه شعره على إذا رددت عطاءه، فرحمة الله رحمة واسعة، ولم أظفر بعده بمثله إلى وقتى هذا، ولما أردت الحج سنة ثلاث وستين، تسعمائة عرض على الأمير عيسى أمير الحج أن يزن عنى أجرة أحمالى كلها، وقدروا ذلك بعشرة آلاف فرددتها عليه، فأبى أن يأخذها.

فقلت له: معنى قولك خذ هذه الفلوس أى اجعل نفسك عبدا لى، وأنا سيدك مادمت أعيش، فإن المعطى له السيادة، والأخذ منك له العبودية، ولا أرضى أن أكون عبدا لك. فتكدر غاية التكدر، لكونه من العرب، وكرماتهم، وعادة الناس يسئلونه فى مثل ذلك، فاحتجت انى ذكرت له شروطى فى الحج، وأن ماله الذى يعتقد حله على قاعدته هو ليس بحلال عند الفقراء على قاعدتهم، فتطور كل التطور، وخرج يعثر فى أذياله من غير دستور، ولا استئذان فلا تسأل يا أخى ما حصل على بسبب تكديره لعدم معرفته بمصطلح الفقراء، فلو أنه كان لى نقيب متحد بى لعرفه بمصطلحى من غيرعلمى، ولم يحوجنى إلى تزكية نفسى.

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن الفقير إذا رد على الولاة المال دون أقرانه تميز عند الولاة عن أقرانه بشدة الاعتقاد فيه، وصار عدوا لجميع أقرانه من النصابين، ولا يقدر أحد منهم ينطق فى حقه بكلمة مدح أبدا بل يأخذون فى تجريحه، وتنقيصه طلبا لقبول الناس ذلك منهم، وأن يحملوه على أنه مارد المال الارياء وسمعة لاخوفا من الله تعالى، وكان الواجب عليهم مدحه على ذلك حفظا لخرقة الفقر.

ولما ردت على مولانا الباشاه اسكندر وعلى عيسى أمير الحاج مالهما، فلا يعلم عدد من استغانبى من أقرانى إلا الله تعالى على ما بلغنى، فا الله تعالى يغفر لنا، ولهم آمين.

وبالجملة فقد صار التعفف عن مال الولاة اليوم عزيزا فى هذا الزمان بل بعضهم

صار يسأل الولاة م غير حاجة إنما ذلك للتنعم بالمطعم، والملبس والمنح، وكان الأولى لهم رده، ولو اعطوه بغير سؤال، فكأن الذى يرد الآن مال الولاة ماش فى أرض قفر لا رفيق له فيها، فأسأل الله تعالى أن يمد كل متعفف بالقوة على التعفف، حتى يلقى الله تعالى فان الماشى على آثار الشريعة اليوم كالماشى بقبقاب على حبل، أو كالقابض على الجمر، فيوشك أن يقع من الحبل، أو يرمى دينه من يده، ومن هنا تمنى العقلا الموت خوفا من الفتنة فى الدين.

فاعلموا ذلك أيها الاخوان واعملوا على تحصيل التعفف جهدكم والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم أكلهم من فراخ الحمام الذي في أبراج الريف

أو شربهم من لبن الجاموس لعدم طيبة خاطر الناس بأكل الحمام من زرعهم، وعدم انضباط الجاموس على الأكل من زرع صاحبه غالبا، وكان على هذا القدم جدى الشيخ على، والشيخ نور الدين الخضرى، وجماعة ذكرناهم فى الطبقات، فمنهم من حماه الله من الأكل من ذلك، ومنهم من حماه فى ممكثه فى بطنه.

وكان جدى محمد حماه الله تعالى من الأكل من ذلك دخوله جوفه.

وكان رضى الله عنه لا يأكل لأحد يمسك الميزان طعاماً إلا أن يعلم منه أنه يرجح الميزان لكل من اشترى منه.

وكان لا يأكل طعاماً لشيخ بلد، ولا لمباشر، ولا لقاضى، ولا لجندى ولا طعام من يصلى، ولا طعام فقير لا حرفة له.

ولا يأكل من هدايا الناس، وإذا وصل إليه هدية من بعض الأمراء أو المباشرين وتعذر ردها عليه يفرقها على أيتام بلده وفقرائها ولم يتناول هو ولا أهل بيته منها شيئا.

وكان إذا زرع قمحا جعل بينه، وبين الجار خطاً من قمح، وهكذا فى سائر الحبوب خوفاً من اختلاط شيء من زرع الجار بزرعه.

وكان إذا طحن يقلب الحجر ويكنس الدقيق الذى تحته من دقيق الناس فيضعه فى وعاء في الطاحون، ثم يطحن قمحه، ويخلى بقية دقيق لمن بعده ويسامحه به.

وبالغ فى الورع، حتى كان لا يأكل من عسل نحل بلده حين أخبره بعض أهل البلاد التى فيها الفواكه أن نحل بلده يعدى البحر، ويأكل زهر فواكههم وأتاه والده بفتاوى العلماء فى الحل فقال: ولو كان حلالا فلى تركه:

وكان يقول من أحكم الحلال لا تأكل الأرض له لحما، فدفنوا والدى بجانبه بعد إحدى وعشرين سنة، فوجدوه، كما وضعوه طرياً لم يتغير منه شيء، كما أخبرنى بذلك الشيخ على بن خطاب أحد جماعته، وهو الذى ألحد الجد رحمه الله تعالى وألحد الوالد.

وكان يقول: جميع ما يؤاخذ الله تعالى عليه العبد من الأفعال، والأقوال والخواطر، إنما هو متولد من الأكل:

فإن أكل حراما حدث منه أقوال، وأفعال، وخواطر حرام.

وإن أكل مكروها حدث منه أقوال وأفعال وخواطر مكروهة.

وإن أكل خلاف الأولى حدث منه كذلك أفعال وأقوال وخواطر كان الأولى تركها انتهى.

فاعلموا ذلك أيها الأخوان وأعملوا على تحصيل مقام الورع والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم الفتور عن طلب العلم ليلا ونهاراً

فيستفيدون العلم أولا من الصدور والسطور، ثم من واردات الحق تعالى على قلوبهم بواسطة الالهام كما هو عليه. الصلاة والسلام، ومن تأمل فى قوله تعالى لسيدنا ومولانا محمد ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1] يجد أن طلب العلم واجب على العبد ، حتى يلقى الله تعالى ، فليس للعلم قرار يقف العبد عليه سواء أكان مستمد العبد من الصدور أوالسطور أومن الالهام، فلم يزل يبدوا للعبد فى كل وقت علم جديد لم يخطر له قبل على بال.

فعلم أن من قنع بماعلم، فهو جاهل كما ورد من قال: أنا عالم، فهو جاهل.

فأول مراتب العلم: حفظ نقول الناس.

ثم استخراج الأحكام من الكتاب، والسنة، وأقوال المجتهدين.

ثم علم رياضة النفس، وتطهيرها من سائر الرذائل.

ثم ورود المواهب عليه من الحضرة الإلهية، فغاية علم التصوف تطيب القلب، حتى يصلح لنزول الواردات الإلهية عليه، حتى فلاح الأرض للزراعة.

ومثال من يطلب العلم مع رعونة النفس والريا والسمعه، ونشر الصيت والفرح بالتقدم على الأقران مثال الفلاح الذى يبدر الحب على الأرض الغلتة اليابسه من غيرحرث ولاسقى، ولاطراوة فيها، فلا ينبت منه حبة، وإن وقع شيئا من ذلك نبت، فهو بقدر ما فى الأرض القلب من الطهارة، فكأن كالأرض الندية التى لا تكفى الحب شربا ولا نمو، فينبت نباتا ضعيفاً لا ثمرة له أوله ثمرة مبصوصه لا يسمن ولا يغنى من جوع.

فإياك أن تقول إن علوم الصوفيه لا يحتاج إليها فى طريق تحصيل ثمرة العلم فى الدنيا والآخرة فإن الحسن يكذبك فى ذلك كما هو مشاهد فى بعض المجادلين الذين

---

(١) سورة طه آية: ١١٤.

يتعلمون لغير العمل ، فترى أحدهم لم يزل طالباً يقرأ على غيره إلى أن يموت، ولا يصل إلى درجة إفادة غيره.

وأعلم يا أخى أن علوم الأسرار غريبة لم يزل الناس ينكرونها فى كل عصر لغرابة طريقها، ولا يعهدون إلى التعلم من أفواه الرجال وبطون الكتب، أو يكون نبيا يوحى إليه بالعلم أما حصول العلم من غير هذه الطريق، فينكره غالب الناس وغاب عنهم أن العلماء ورثة الانبياء فى العلم من طريق الألهام لامن الوحى إليهم على لسان ملك فعلمهم يشبه وحى الأنبياء لعجز العقول عن الوصول إليه ويسمى أيضا علم الفتح الإلهى، وعلم الكشف، فيخلع على العارف العلوم الربانيه من غير طريق البحث والفكر، فيتحير الفقيه فى مثل ذلك، وربما قال هذه العلوم من الزندقه، ولو أنه جلى مرآة قلبه من الصدأ أو الغبار لقرب قلبه من الحضرة الإلهيه، ورأى علومها، وهى مفاضة على قلوب الأصفياء.

فعلم أن من الفرق بين علوم الكشف، والفهم أن علوم الكشف تأتى بلا واسطة الفكر بل تخلع على العارف حالة تلاوته، فتكون عين التلاوة تلك العلوم بخلاف علوم الفكر لا تأتى إلا بعد النطق ، والتفكر، ولذلك كان غايتها الظن لا اليقين.

وقد روى الترمذى وغيره فى نوادر الأصول مرفوعاً «أن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله عز وجل فإذا أنطقوا به لاينكره إلا أهل[1] بالله عز وجل انتهى.

وفى كلام بعض المحققين علامة العلم اللدنى أن تمجه العقول من حيث أفكارها ولا تقبله إلا بالتسليم دون الذوق وإنما كانت العقول تمجه لأنه أتاها من غير الطريق المعروف لها.

وقد سمعت سيدى عليا لخواص رحمه الله يقول مرارا فى تقرير منام الإمام أحمد بن حنبل حين قال: يارب بم يتقرب إليك المتقربون فقال: يا أحمد بكلامى فقال: يارب بفهم أم بغير فهم فقال: بفهم وبغير فهم.

(١) مطموس من الأصل.

إن المراد بغير فهم حصول العلم من طريق الكشف؛ فهو علم يرتقى عن مرتبه الفهم لأنه المراد به الجهل إذ الجهل لا يتقرب به إلى الله تعالى، وإن حصل للتالى أجر من حيث التلاوة انتهى.

وهو كلام نفيس لا تكاد تجده فى كتاب، وقد جمعت كتابا فى علوم أهل الكشف التى استخرجوها من القرآن من طريق الكشف ذكرت فيه نحو ثلاثة آلاف علم، وكتب عليه علماء مصر على وجه التسليم لأهل الله عز وجل، وعبارة الشيخ ناصر الدين اللقانى رحمه الله تعالى:

وبعد فقد أطلعت على هذا الكتاب الغريب والأسلوب العجيب الذى لم ينسج على منواله، ولم تسمح قريحة بمثاله، فرأيت كنزا مملوء بالجواهر، والاسرار، وبحرا يضيق نطاق النظر عن وصفه، ويكل لسان الشكر عن إدراك كنهه، وكشفه، ولا غرو، فإن المغيض كريم جواد وهاب أفاض على عبد منيب أواب أيدنا الله بمدده، وجعلنا من جملة حزبه، وجنده إلى آخر ما قال وذكرت فى خطبه هذا الكتاب المشتمل على علوم القرآن أن من مقام العارف عدم الرسوخ فى العلم، فلا يثبت على علم أكثر من ان واحد، فهو راسخ فى السير فى العلوم لا واقف مع ما علم، كأهل النقول، وأن الكامل لا يبلغ مقام الكمال التام، حتى يقدره الله تعالى على استخراج جميع علوم الشريعة من سورة الفاتحة، ثم يستخرج من الفاتحة جميع أقوال المجتهدين، ومقلديهم ثم يستخرج جميع ذلك من أى حرف شاء من حروف الهجاء، وإن أخى الشيخ أفضل الدين استخرج من سورة الفاتحة مائتين ألف علم وسبعة وأربعين ألف علم وتسعمائة تسعة وتسعين علما فراجعه، وطالع الكتاب تسمع علوما لم تخطر أسماؤها قط على بالك فضلا عن الخوض فيها.

وكان السهروردى رحمه الله تعالى يقول:

قلدوا الصوفية كما تقلدوا لأئمتكم المجتهدين، فإنهم أحكموا أساس التقوى، وعملوا بما علموا فأورثهم الله تعالى علم ما لم يعلموا من غرائب العلوم، ودقائق الاشارات لاسيما

استنباطاتهم من الكتاب، والسنة، فإنهم استنبطوا منها عجائب الأسرار، التى لا تكاد تخطر على قلوب العلماء.

وكان أبو سعيد الخراز رحمه الله يقول:

أول الفهم لكلام الحق تعالى العمل به لأن فيه العلم، والفهم، والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1]

وكان أبو بكر الواسطى رحمه الله يقول:

العلماء بالله هم الذين رسخت أرواحهم فى غيب الغيب، وفى سر السر، فعرفهم الله تعالى علوما لم يعرفها، لغيرهم، وأراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرده من غيرهم، فخاضوا بحرالعلم بالفهم، ثم بالكشف الذى كشف لهم عن مدخول الخزائن، والمخزون، حتى شهدوا مانحت كل حرف، وكلمة، وآية من عجايب النصوص، واستخرجوا من بحارها الدرر والجواهر. ونطقوا بالحكمة.

وكان أبو عبد الله القرشى رحمه الله يقول:

هى أسرار الله تعالى يبديها إلى أمناً أوليائها من غير سماع، ولادراسة فهى خاصة بخواص الخواص.

وكان أبو سعيد الخراز رحمه الله يقول إن الأولياء خزاين أودعوها علوماً غريبة وأشياء عجيبة يتكلمون فيها بالعلوم الأزلية أى أنهم ينطقون بالله تعالى كما قال فى الحديث القدسى: ( )[2].

ينطق وهو العلم اللدنى الذى أوتيه الخضر عليه الصلاة والسلام.

قال السهرى وردى رحمه الله تعالى:

---

(١) سورة ق آية: ٧٣.
(٢) مطموس من الأصل.

وهى العلوم التى سموها بأسماء غريبة اصطلحوا عليها نحو الجمع أو التفرقة والبواده، والهجوم والتجلى والاستتار. والتجريد، والسكر، والصحو، والمحو والإثبات، والفناء والبقاء، ونحو ذلك مما هو مذكور فى رسالة القشيرى، وغيرها، وحاصلها أنها إشارة إلى أحوال يجدونها، ومعاملات قلبيه يعرفونها لا يعرفها إلا من ذاق فافهم، وكان من الحزم رمزها لأنها من أسرار الله تعالى، ومن خصائص أهل الطريق التى لاتوجد فى غيرها وأعلم أن المريد الصادق من أول قدم يضعه فى الطريق يعرف إشارات القوم التى رمزوها، وإشادتهم، ومراداتهم بها، حتى كأنه الواضع لها، فإن ادعى دخول الطريق، ولم يفهم المراد بها إلا يتفهيم أحد لها أو مطالعته فى كتاب فهو غير صادق فى طلب الطريق.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان وتأملوا فى هذا الخلق فإنه نافع جداً والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: العمل علي تحصيل الجمع ثم جمع الجمع

وذلك أن الإنسان قد فتح عينه على التفرقة بعد أن كان مجموعاً ، فأمر بالرجوع إلى الجمع من طريق التكسب ، لينال أجر الاكتساب أو الأعمال فإذا رجع إلى حالة الجمع أمر بالانتقال إلى جمع الجمع ، وذلك تميز الفقرا عن أبناء الزمان ، فإنهم ما برحوا فى التفرقة ، حتى يأتيهم الموت كما هو مشاهد فى العوام .

وكان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول :

رؤية الكون تفرقه أو رؤية الصفات جمع ورؤية الذات بالقلب جمع الجمع ما دام العبد لم يبلغ إلى مقام الكمال المراد عند القوم ؛ فإذابلغ ذلك أصار الوجود كله جمعاً لا يفرقه شيء منه عن ربه عز وجل انتهى .

وكان الجنيد رحمه الله يقول :

الجمع أصل والتفرقة فرع ، وكل جمع بلا تفرقة زندقة ، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل .

وكان أخى الشيخ : أفضل الدين رحمه الله يقول :

مراد القوم بالجمع تجريد التوحيد ، ومرادهم بالتفرقة الاكتساب فعلى هذا الا جمع إلا بتفرقة ، ولذلك يقولون (   )[1] عين الجمع ، ويعنون بذلك استيلاء مراقبة الحق تعالى على قلبه ؛ فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة ، فصحة الجمع بالتفرقة صحة التفرقة بالجمع ، ومن فهم من الجمع أنه صار عين الحق تعالى ومن أدعى أنه قائم بنفسه ، فهو مشرك انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم أخذ العهد على مريد عاق لوالديه

سواء فى حياتهما أو بعد موتهما ، فإن العاق لوالديه أو أحدهما الله غضبان عليه ، ومن كان الحق تعالى غضبانا عليه ، فلا ينفعه عمل ، فيجب على الشيخ أن يقول للعاق لوالديه : إذهب ، فارضهما ، ثم تعال ، وإن كانا ميتين ، فليتوجه الشيخ إلى الله تعالى فى إرضاهما عنه ، وهما فى البرزخ ، فلعل الله تعالى يرضيهما عنه .

وقد وقع أن فقيراً كان عند سيد إبراهيم المتبولى على أعمال كالجبال ، فدعاه الشيخ يوماً فقال :

يا ولدى مالى أراك كثير الأعمال ناقص الدرجة لعل والدك غضبان عليك .

فقال : نعم قد مات ، وهو غضبان على .

فقال : أمشى معى إلى قبره ، فلما وقف سيدى إبراهيم على قبره .

(١) مطموس من الأصل.

قال : ياحاج أحمد قم بإذن الله تعالى ، فأنشق القبر ؛ وخرج منه وجلس على شفيره .

فقال : هذا ولدك .

فقال : نعم .

فقا ل: أرض عنه .

فقال : أشهدك يا سيدى أنى قد رضيت عنه .

فقال له : إرجع إلى لحدك بإذن الله فرجع إليه انتهى .

هكذا حكى لى سيدى على الخواص والشيخ يوسف الكردى عن سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنهم .

فاعلم ذلك وإياك أيها الشيخ أن تأخذ العهد على عاق إلا إن كان لك قوة وجاء عند الله تعالى ترضى به أرباب الحقوق على المريد والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا طلب أحدهم علو المقام عند الله تعالى أو عند خلقه

أن يبالغ فى الخدمة لله تعالى ؛ أو لذلك الأمير مثلاً ؛ فإن الله تعالى أو ذلك الأمير يقدمه ويقربه من حضرته ويرفع قدره على ساير أقرانه ويعطيه أفضل مما سأله كما جرب .

فعلم أن من تخلف عن الخدمة ورا الناس كلهم ، وطلب التقدم عليهم ، فهو قليل العقل ، ولا يؤهله الله تعالى ، لمقام الرياسة على عباده ، ولو رفع مقامه من ناحية أو نواحى لطلب الرياسة من غير طريقها المعتاد ، وكذلك حال ولد الشيخ إذا طلب أن يكون شيخاً على فقراء زاوية والده بعده أن يكون أكثر الفقرا كله فى العبادة ، والزهد والورع ، فلا يقوم أحد من الفقرا لصلاة الليل إلا ويجده سبقه ، ولا يزهد ولا يتورع إلا ويجده قد سبقه ، وهكذا فى سائر العبادات والأخلاق الحسنة ، وهناك يرجى له انقياد فقرا الزاوية كما كانوا مع والده .

وأما نومه أو غفلته عن الأدوار ، وعدم زهده وورعه ، فلا يصح معه رياسة على أحد ، فينبه ولد الشيخ لمثل ذلك ، وإلا جرم رياسته والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن لا يقبل أحدهم من الأمرا أو غيرهم شيئاً من المال إلا لمصلحة ترجح على مصلحة الرد

لاسيما إن صرح الأمير لوكيله فى التفرقة بأن يفرق ذلك على الصلحاء والزهاد أو علم ذلك بالقراين ، فإنه يتعين الرد لأنه ليس لفقير أن يرى نفسه من الصلحاء ، والزهاد ، حتى يقبل ذلك أو شهادة الناس فيه الصلاح ، والزهد لايكفى ، لأنه ربما يعلم من نفسه أموراً لو ظهرت للناس لشهدوا فيه بالفسق .

وقد قالوا : أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس انتهى .

فإياك يا أخى أن ترخص فى قبول عال لنفسك ، أو غيرك إلا عند وجود الضرورة التى تبيح لك أكل الميتة بل ربما كان أكل الميتة أخف من تبعات الآدميين .

وقد رأيت بعينى شخصاً من أرباب الأحوال ينهش فى دجاجة ميته ، وهو مار فى الخليج ، فخاف من إنكارى عليه ، فسابقنى بقوله : كيف يطلب المؤمن الحياة فى زمان صار الفقراء يقدمون فيه أكل الميتة على ما بأيدى الناس انتهى .

وقد تقدم قريباً أن من يرد الآن مايأتيه من الولاة قد صار كالكبريت الأحمر يتحدث به ، ولا يرى ، وإن جميع أقرانه الذين يأخذون ما يعطونه من الأمرا ، لو أمكنهم أن يسعوا فى قتله فعلوا . كما وقع لى ذلك مراراً ، وإن لم يقدر أحد منهم على القتل أخذ فى الغيبه ، والتنقيص جهده ، وكان الواجب عليهم أن يحمدوا من يرد ، ويشكروه على حماية الخرقة من أن يرمى أهلها بأكل الحرام ، والشبهات ، فتقتدى الناس بهم فى ذلك، ويقولون إذا كان سيدى الشيخ يقبل من الأمرا ، ولايرد ، فإيش قدرنا نحن .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

يجب على الفقير عدم الاعتراض على كل من يرد الشبهات ، لأنه قام بركن من أركان الدين ، وهو تورع ، ومن اعترض عليه ، كأنه يريد هدم ذلك الركن .

وسمعته أيضاً يقول :

يجب على كل فقير الخوف فى هذا الزمان من الوقوع فى الحرام والشبهات أكثر من غيره لأن طينته وطينتهم واحد .

لخوف الفتنة فى الدين ، وكثيراً ما يقول الجهال من أصحاب الفقير ، وغيرهم لو أن فلانا قبل ذلك وفرقه على الفقرا لكان أولى ، وذلك لما فى قلوبهم من محبتها ، ونسيانهم يوم الحساب .

وقد أرسل الإمام عثمان بن عفان مالاً جزيلاً إلى الإمام أبى ذر رضى الله عنهما ، وقال لعبده :

إن قبل ذلك منك ، فأنت حر .

فرده أبو ذر .

فقال : إقبله لأن فيه عتقى .

فقال : إن كان فيه عتقك فإن فيه رقى انتهى .

فليحذر شيخ الزاوية مثلاً أن يصغى إلى قولهم ، فيهلك فى دينه ، ويهلك غيره ، ويقال لهؤلاء الجهلة لايعترض على الأشياخ إلا من هو فوقهم فى الدين ، والورع ، فهل أنتم فوقهم ، وهم فى حجر تربيتكم أم الأمر بالعكس ، ولم يزل هذا الأمر يقع لى كلما أرد شيئاً من مال الولاه ، فيكثرو على القول ولولا حماية الله تعالى لى لرجعت إلى قولهم .

فالله يحفظ الإخوان من فتنة الرد والقبول آمين اللهم آمين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يشكروا الله تعالي علي ما يرونه لأنفسهم من المنامات الردية

فإن ذلك من جملة نعم الله تعالى عليهم ، فإنه تعالى إنما أراهم ذلك ليتبهم على أحوالهم الناقصة التى جهلوها فى اليقظة ، ليجدوا فى العبادة ، ويكثروا من الإستغفار على ذنوبهم السالفة .

ثم مما يخفى على كثير من الفقرا علمهم بأن أحدهم لا يرى أنه مع قوم أوحيوان إلا وهو متخلق بأخلاق ما رأى سواء أكانت محمودة أو مذمومة ، ثم إن رؤيته لهم يكون على حسب ما تخلق به من أخلاقهم كثرة وقله، عمياً ، وإبصاراً فمن رأى نفسه مصاحباً لمن يعمل عمل قوم لوط فهو على شاكلته ومن رأى نفسه مع من يفعل لشىء من البهائم فهو على شاكلته أو أحداً من العميان فهو على شاكلته فى العمى الظاهر ، وقد يكون الأعمى فى الظاهر منور البصيرة فى الباطن كالولى فإن هذه لايلزم منها النقص فى الدين فافهم .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله تعالى يقول لشخص رأى أن ثوبه عف عليه الذباب .

فقال : هذا يدل على إنك يا أخى تقع على الشهوات ، ولا تقدر على منع نفسك منها كما لا يقدر الذباب على رد نفسه عن العسل .

فقال له : وكثيراً ما أرى نفسى معانقا حماراً .

فقال : هذا يدل على غلظ حجابك انتهى .

وقس يا أخى على ما ذكرناه سائر الحيوانات ، فلا ترى نفسك مصاحباً لشىء منها إلا وأنت متخلق بأخلاقه فاشكر الله تعالى فى المحمود ، واستغفر الله فى المذموم ، كما أوضحناه فى بيان الطبقة الأدبية وملخصها :

أن فى الإنسان مجموع أخلاق الحيوانات كلها من محمود ، ومذموم ، وماخرج عن هذا الحكم سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى طهر طينتهم من سائر الصفات المذمومة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : تدريج المريدين في مقامات الإخلاص شيئاً بعد شيء

ولا يأمرونهم بمقام إلا بعد إحكام المقام الذى قبله ، وقد قال تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١) والعمل الصالح هو مايشمله الإخلاص ، ولم يشرك العبد فيه مع الله تعالى أحداً ، ولا نفسه ، فيرى كشفاً ، ويقينا أن عمله خلق لله تعالى ، وليس للعبد فيه سوى نسبة التكليف والاسناد فقط ، فهذا هو الإخلاص المشهور بين العلماء .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

لايقدح فى إخلاص العلم لله رؤية العبد نسبة العمل إلى نفسه ، فإن الله تعالى أمره أن يقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢) فشركهم الله تعالى فى العمل معه ، فمن رد تلك النسبة ، فكأنه كذب الرسل فيما أضافوه إلينا على لسان الحق تعالى فى نحو قوله «والله خلقكم وماتعملون» « فذكر تعالى أنه خلقنا ، وخلق عملنا ، فنفى عنا العمل » وأثبته فى هذه الآية .

ومن الأدب أن نضيف إلى أنفسنا ما أضافه الحق تعالى إلينا مع علمنا بما تحته من السر المشار إليه بحديث « الإخلاص سر من أسرارى أودعته قلب من شئت من عبادى » أو كما قال . فلم يصرح الحق تعالى به لأنه من جملة الحقائق التى هى أحسن ما يعلم . وأقبح مايقال فافهم .

(١) سورة الكهف آية: ١١٠ .
(٢) سورة الفاتحة آية: ٥ .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول :

مراتب الإخلاص أن يخلص العبد عمله من شركة نفسه ، ويجعل نفسه لله خالصاً، ولا يطلب على ذلك أجرا ، وهو نقص بالنسبة للمقام الذى فوقه كمال بالنسبة لمن يرى له شركة فى الفعل مع الله تعالى ، وطلب على ذلك أجراً ثم إنه يترقى من هذا المقام الأوسط مقام أعلى وهو الدخول إلى الله تعالى من باب الفضل والمنة ، ليخرج من صفة الفنا التى أظهرها بعدم طلبه الأجر ويتخلق بالفقر والمسكنة كما عليه الأنبياء، وكمل ورثتهم من الأولياء ، وقد قالت الرسل ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾[1] ، فطلبوا الأجر الموعود به فى نظير الأعمال الجارية على يدهم من باب الفضل والمنة لا بحكم الاستحقاق .

فعلم أن صورة الكامل فى طلب الأجر على عمله صورة من يطلب الأجر من الله على عمله الذى أشرك فيه نفسه ، والقصد مختلف ، فإن من أشرك نفسه فى العمل يرى استحقاقه للأجر ، فلو منعه الحق تعالى من الأجر لتكدر بخلاف الكامل الذى يرى العمل لله تعالى خلقاً .

وقد أشار إلى القسم الأول حديث العابد الذى يقول له الحق تعالى : « أدخل الجنة برحمتى ، فيقول يارب بل بعملى» .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : محال أن يقبل الحق تعالى عملا ممن يرى نفسه فاعلاً كالمعتزلة ، لأنه تعالى لا يقبل من العبد إلا ما رآه فعلا لربه ، وأما رؤية العبد فعلا لنفسه ، فهو عدم ، والعدم لا وجود له ، حتى يقبل من صاحبه بحكم الوهم .

وسمعته يقول أيضاً : فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[2] أى المتقين نسبة العمل إلى نفوسهم إلا بقدر نسبة التكليف فقط ، ومن تخلق بهذه التقوى ، فهو الذى ينجوا من آفات الأعمال ، كالكبر والعجب ، والرياء ، ونحو ذلك .

---

(١) سورة يونس آية: ٧٢.

(٢) سورة المائدة آية: ٢٧،

وأما شهود العبد كونه فاعلاً مع الغفلة عن شهود العمل لله تعالى كشفاً ثم يريد أن يحفظ نفسه من الآفات ، فذلك محال لا يصح له بل يدخله الكبر والعجب والرياء وغير ذلك انتهى .

وبالجملة : فلا يصح لأحد الإخلاص إلا مادام مقيما فى حضرة الإحسان يعبد الله تعالى كأنه يراه ، ومتى حجب عن هذه الحضرة دخله الشرك فى العمل وفى القصد .

فاعكف يا أخى بقلبك فى حضرة الإحسان تحفظ من الآفات وترى الفعل لربك وحده لا ترى معه فاعلاً حقيقياً أبداً والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : العمل على تحصيل مقام التواضع الكامل النسبي بحيث يصل إلى حد لا يخطر في باله أن له قدراً في الناس

وإذا دخل محفلاً لا يخطر فى باله قط أن أحداً لا يقوم له لا سوء ظن بالناس ، ونسبتهم إلى الكبر ، وإنما هو لحقارته فى نفسه .

وقد دخل شخص من المتغفلين فى الفخامة ، ونحن فى وليمة عظيمة فقال : والله لا يقوم لى أحد منكم ، فقلت للحاضرين : هل عزم أحد منكم على القيام له ؟ فقالوا : لا ، وإنما حلف علينا لظنه أن مثله يقام له ، فقلت له فى أذنه : يا أخى إعمل على هضم نفسك ، حتى تصير بحيث لا تظن أن أحداً يقوم لك فتستريح من هذه الغلبة ، وتصير تتغير من القيام لك بالباطن وإنما تحليفك الناس أن لايقوموا لك فى الظاهر إظهاراً للكراهة ، فقد يكون الباطن بخلاف ذلك ، كما يشهد له القراين ، فاستغفر الله تعالى ، وشكرنى على ذلك فحمدت الله أنا الآخر على ذلك ، فإنه قل من يقبل النصح فى مثل ذلك .

وكثيراً ما تقوم القراين على محبة الإنسان له للقيام له ، ويظهر هو الكراهة ، فلا يقبلونها منه ، وربما ظهرت العبوسة على وجهه لما لم يقم له أحد وكلح ، فيفتضح فى

دعواه ، فاحذروا من مثل ذلك أيها الإخوان ، وكونوا متواضعين مع إخوانكم لا تروا أنكم تستحقون رد السلام عليكم فضلاً عن القيام لكم .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

مادام العبد يحظر له فى نفسه أن الناس يقومون له ، فهو متكبر ولا يبلغ أحد التواضع ، حتى يصير لا يخطر ذلك على باله ، كما لا يخطر على باله أن يكون سلطاناً ، أو يقوم له السلطان والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا خزنوا قوت أهل الزاوية علي عادتهم كل سنة ثم حصل غلا مثلاً فزادات الفقرا في الزاوية في العدد فمن الأدب أن يصغروا الخبز ليكثر العدد

فيفرق على عدد الرؤس ، فينقص كل واحد من رغيفه لقمه ، ثم لقيمة ، وهكذا ، حتى ينتهى الأمر بفقراء الزاوية إلى أوايل مرتبة الإضطرار ، وهو لذع الأمعاء المسمي كلب الجوع لكن لا يخفى أنه لايطالب بالجوع لأجل إخوانه إلا من رضى بذلك من الرجال إختياراً ، أما الأطفال ، والعميان ، ونحوهم فلا يكلف أحدهم بالجوع وتصغير الرغيف .

وقد كان الفقرا فى الزمن الماضى إذا كان فى حاصلهم قمح أو حصل غلا يفرقون ذلك القمح على المسلمين ببيع أو هدية أو هبة ، أو إباحة لأن لايتحيزوا عن غيرهم بالرفاهية أيام المخمصة ، ومن فعل ذلك من المشايخ سيدى إبراهيم التبولى ، وسيدى محمد بن داود ، وسيدى أحمد بن مصلح ، وسيدى محمد الغمرى ، والشيخ عبد الحليم ، وسيدى محمد الشناوى رضى الله عنهم ، فلما ضعف اليقين ، وقل بر الأغنياء للفقراء أمسك الأشياخ القوت فى الحاصل تقوية لقلب فقرائهم ، ليقبلوا على عبادة ربهم ، فإن العدم يشتت البال .

وقد كان الإمام الشافعى رحمه الله يقول : لا تشاور من ليس فى بيته دقيق انتهى .

وقد شاورت أنا فقراء الزاوية فى سنة ثلاث وستين أن أفرق حاصل قمحهم على المحتاجين ، ونصير نشترى القمح ، ونجوع مثل الناس ، فقالوا : لا طاقة لنا بذلك ، فتركته .

لكن لا يخفى أنه ينبغى لكل من قدر على الجوع الشرعى أن يوافق إخوانه المسلمين فى الجوع ، ويطعم الفاضل لمن لايصير على الجوع كما فعل الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه عام الرمادة .

وهذا الخلق من محاسن أخلاق القوم ، وفاعله الآن قليل بل رأيت بعضهم يأكل الخبز النخول ، واللحم الضانى ، والدجاج ، وجاره لا يجد النخالة ، يأكلها مع تظاهره بالصلاح ، وكان الأولى له محو إسمه بذلك من ديوان الفقراء صيانة للخرقة أن يظن بأهلها أن حالهم كحاله .

فعلم أن من أقبح القبيح رد الفقرا كل من طلب المجاورة عندهم زيادة عليهم مع قدرتهم على الجوع ، ثم إن كان ولابد لهم من الرد . فيكون ذلك برق ورحمة ، وبعد بلوغهم أوائل درجة الإضطرار لاسيما إن كان وقف زاويته ليس هو على أسماء معينة بل لكل وارد ، فليس لأحدهم أن يذكر من طلب المجاورة بالكلام الجافى طلباً لزيادة التوسع ، والترفه ، لأجل حظ نفسه .

ولما طلب سيدى أبو العباس الغمرى رحمه الله تعالى تخفيف الفقراء من جامعه بمصر أيام الغلا رأى سيدى يوسف الحريثى يقول له : أنظر فكل من وجدت رزقه عليك فأخرجه ومن وجدت رزقه على الله تعالى فليس لك إخراجه ، لأنه جالس فى بيت ربه إنتهى .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان ، وواسوا إخوانكم فى الغلا ، وغيره حسب طاقتكم ليعاملكم الله تعالى بنظر ذلك ، وبيعوا كل مازاد على ضرورتكم من ثيابكم ، وغيرها ، وأطعموا الناس بثمنه تفلحوا ، ولاتخالفوا تندموا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن يقدموا إقامتهم لخدمة الفقرا وتعليمهم الأدب

وتهيئة ما يأكلون ، ويشربون على السفر لحج النفل لكن بمشاورة سيدى رسول الله ﷺ فى ذلك إن كانوا من أهل هذا المقام ، أو يعرض سفرهم ، وإقامتهم على أدلة الشريعة ؛ فكل ما شهدت له بأنه أرجح قدموه ، فهم دائماً مع الأرجح فى الشريعة لا مع حظوظ نفوسهم .

وقد تهيأت لسفر الحج نفلاً فى سنة ثلاث وستين فشاورت بعض الفقرا فى ذلك ، فقال : حتى أشاور لك رسول الله ﷺ ، وأرد لك جوابه ، فرد على الجواب بأن التخلف لخدمة الفقرا ، وجمع شملهم ، والسعى فى جلوسهم فى مجلس ذكر الله تعالى ، والصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ أفضل لى ، وإن إشتقت إلى الطواف وزيارة رسول الله ﷺ ، فيكون ذلك بالقلب إنتهى .

فقلت : سمعاً وطاعة إلا أن يشاء الله تعالى غير ذلك ، وعلمت أن من كان بعيداً عن مكة والمدينة ، وهو فى خير يتعدى نفعه إلى الأمة فى دينهم ، ودنياهم الضرورية ، فهو أفضل ممن كان قريباً من الحرمين ، وخيره قاصر على نفسه ، ومثاله من أرسله رسول الله ﷺ أميراً فى الجهاد فبينما هو فى وسط الجهاد للكفار إذ ترك ذلك وجاء إلى رسول الله ﷺ ، وقال :

قد إشتقت إلى رؤيتك فاستأصل الكفار المسلمين وقتلوهم وسبوهم وساموهم سوم الهوان ، ولو أنه أتم الجهاد مع إشتياقه ، لرؤية رسول الله ﷺ ، لكان أفضل له ، وأحب إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ .

فافهموا ذلك أيها الإخوان ، وقدموا خدمتكم للفقراء مع البعد على السفر لحج النفل إلا أن تسحبكم القدرة الإلهية للسفر من غير إختيار نفوسكم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا حجوا وزاروا رسول الله ﷺ

أن يمشوا حفاة من مساجد عائشة رضى الله عنها ومن آبار الإمام على رضى الله عنه ، وعند رؤيتهم أشجار المدينة ، أو منارات مسجده ﷺ أدبا مع الله تعالى ، ومع رسوله ﷺ ، وقد فعل مثل ذلك من أشياخنا جماعة منهم الشيخ عبد القادر الدشطوطى، والشيخ محمد الشناوى ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ أبو بكر الحديدى رضى الله عنهم.

ولما نزل السلطان قايتباى إلى زيارة سيدى أحمد البدوى ، وإلى زيارة سيدى إبراهيم الدسوقى نزل عن فرسه حين رأى مقامهما ، ومش حافياً ، حتى دخل المقام قلعوا له من رجله كذا وكذا شوكه ، فأنظر يا أخى أدب الملوك مع أولياء الله تعالى فضلاً عن سيدنا رسول الله ﷺ سيد الخلق على الإطلاق .

ولما زار الشيخ عمر النبتيتى رحمه الله تعالى سيدى أحمد البدوى نزل عن دابته ومشى من ناحية نفيا ، فلما زار ، ورجع ركب من عتبة مقام سيدى أحمد البدوى فقالوا له : فى ذلك ، فقال : إن سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه خرج ، فتلقانا من نفيا ، وهو ماش ، فلم أكن أركب ، وهو ماش ، فلما زرناه خرج معنا إلى عتبة المقام ، وأقسم علينا بالركوب من العتبة ، فلم يسعنا مخالفته إنتهى .

وسمعت سيدى على الخواص يقول :

رسول الله ﷺ يرسل رسله كل سنة يتلقون القادمين من الحجاج من آبار الإمام على رضى الله عنه معهم الخلع ، فيخلعون على كل إنسان بحسب مقامه ، ويسر ﷺ غاية السرور ، فإذا وقفوا بين يديه أمدهم بالأمداد اللايقة بهم ، وربما هابه بعض الفقراء أن يقف بين يديه ﷺ ، فيرسل له رسول الله ﷺ الخلعة ، ويمده أكثر ممن يحضر عنده بلا كثير هيبة .

ولما حج سيدى عبد القادر الدشطوطى رحمه الله تعالى ماشيا حافياً لم يدخل حرم المدينة ، وإنما وضع خده على عتبة باب السلام مدة إقامة الحاج حتى رحلوا ، ولم يدخل المسجد هكذا أخبرنى به شيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى وكان قدحج معه فى تلك السنة .

وذكروا أن أحد أرباب القلب سمع شخصاً من خدام سيدنا رسول الله ﷺ يقول لرسول الله ﷺ أن الشيخ عبد القادر واضع خدع على باب السلام ، فأذن له يدخل فقال ﷺ : هو أقرب عندنا ممن وقف وهو مغطى بالذنوب .

فأعلموا ذلك والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أنهم لا يدعون أحداً من الأكابر العلماء والأمرا ليمشي في زفة ختان أو زواج

تعظيماً لخرقة العلماء عن مثل ذلك . وأدباً مع الأمرا ، فإن منصبهم يجل عن أن يمشى أحدهم مع الصغار ، والطبل والمزمار واللغط ، وخلطة من لايصلح من الزوالق ، والعياق وأهل السخريا .

ولم يكن يمشى فى الزفاف فى العصر الأول إلا النساء لكن لا بأس بتهنئة الرجال بعضهم بعضاً .

وأقبح مما ذكرناه دعاء شيخ الزاوية المنقطع عن الناس ، ليحضر ذلك وأقبح منه غضب صاحب الزفة عليه إن لم يحضر .

وقد دعى شخص من أصحابى من غير علمى سيدى محمد البكرى إلى زفة ختان ولده فحضر ، فلما رأيته كدت أن أذوب من الخجل ، فعلم أن كل فقير دعى أحد العلماء والصالحين ، والأمرا إلى زفة ختان ولده ، فهو قليل الأدب جاهل بمراتب الناس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم تصد أحد منهم للرد علي أحد من أهل الفرق الإسلامية إلا بنص أو إجماع

فإن كل ما لانص فيه عن الشارع ، ولا أجمع عليه الأمة الأمر فيه واسع ، ومرجعه إلى الفهم ، والأفهام مختلفة ، فليس لصاحب فهم أن يقول لمثله : إرجع عن فهمك إلى فهمى ، ولو أنه خاصمه لم يرجع إليه لاعتقاده الصواب فى فهمه دون فهم غيره .

فعلم أن من خالف نصوص الشريعة أو إجماع الأمة وقواعدها ، فلا لوم على من تصدر للرد عليه بل ذلك واجب ، وكلامنا إنما هو فى مثل انتصار الإنسان لمذهبه ، وادحاضه أدلة غيره من غير مخالفة القواعد كلها ، فيرد ذلك الكلام من حيث هو بقطع النظر عن نسبته إلى قائله إلا إن ثبت ذلك بطريق شرعى ، وإنما نبهنا على ذلك، لأننا رأينا من يتصدر للرد على من نسب إليه ذلك الكلام ويصرح بإسمه من غير ثبوت ذلك عنه .

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول كثيراً فى مثل ذلك :

كل من ثبت عنه هذا الكلام ، فهو مخطئ ، ولايقول فلان مخطيء بمجرد عزو ذلك الكلام إليه لقلة ورع الناس فى المنطق كما أوضحنا ذلك فى كتاب العهود المحمدية والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : منعهم أصحابهم من مطالعة كتب التوحيد المغلقة خوفاً عليهم أن يفهموا منها شيئاً مخطئا بالتقليد

فيضلوا ويضلوا غيرهم لاسيما كتب محيى الدين بن العربى ، وأتباعه ، وليس مراد القوم من المريد حفظ مقالاً أو كتاباً ، وإنما مرادهم الإشتغال ، بالله تعالى حتى يذوق أحوال الطريق كما ذاقها القوم ، ويصير يستشهد ذوقهم ويمقالاتهم طلباً للاستيئناس بهم

لكراهة القوم ، للانفراد بالقالات فى الطريق ، وخوفاً من الاسراع إلى الانكار عليه ، حيث انفرد بخلاف ما إذا رأوا جمهور الصوفيه معه فإنه يضعف إنكار المنكر ضرورة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : التسليم لمقالات أشياخ الطريق

فإنهم كالمجتهدين فكما يسلم الفقيه للإمام مذهبه كذلك يسلم الفقير لأئمة مذهبه فى علم الطريق .

وقد كان الشيخ محى الدين بن عربى رحمه الله تعالى لم يزل يخرج على أهل الطريق فى بداية أمره «ويطالبهم بالأدلة على أقوالهم ، حتى اجتمع بالخضر تجاه الحجر الأسود فأخذ عليه التسليم لمقالات الشيوخ ، فمن ذلك اليوم ما أنكر على أحد منهم إلا بطريق شرعى .

وأقل ما فى الإنكار أن المنكر يحرم من بلوغ ذلك الأمر الذى أنكره سواء كان ذلك حالاً أو مقاماً عقوبة له على أنكاره ، ومن نظر كلام العارفين بعين الإنصاف لم يجد شيئاً ينكره عليهم لأن طريقهم محرره على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر .

وقد حث الأشياخ كلهم على إتباع الكتاب والسنة فكيف يخالفونها هم .

وقد ذكر الشيخ فى الفتوحات أن جميع المحققين أجمعوا على أن الكامل منزه عن الوقوع فى الشطح إذ الشطح رعونه لا تصدر من محقق .

قال : ومن أراد أن لا يضل عن طريق الحق فلا يرم ميزان الشريعة من يديه عند قول وفعل واعتقاد هذا لفظه بحروفه .

وقد أخبرنى الثقات عن الشيخ بدر الدين بن جماعة أنه كان يقول : جميع ماوجد فى كلام الشيخ محى الدين مخالف لظواهر الشريعة مدسوس عليه لأن الكامل يجب

عليه بعد كلامه أن يحق المحق ، ويبطل الباطل والشيخ محى الدين كامل والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إخلافهم الوعيد لا الوعد

عملاً بحديث :

فمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه.

قال الشيح محى الدين ابن عربى :

وهنا دقيقة ينبغى التفطن لها وهى : أن من أساء علينا فقد أعطانا حسناته فى الآخرة فى محل الحاجة ، فكيف نبغى لنا مقابلته بالإساءة عملا بما توعدناه به ، ولو كشف للعبد لم يجد أحداً أحسن إليه مثل من آسى إليه ، ومن كان هذا مشهده فمن الواجب عليه عند أهل الطريق أن يجازيه بكل إحسان فى الدنيا ، ثم لا يرى أن كافأة على إحسانه .

ولما أراد أبو بكر الصديق أن ينفذ غضبه فى مسطح شفع الله تعالى عنده بقوله ﴿وليعفو وليصفحوا﴾[1] الآية فقبل رضى الله عنه شفاعة الحق جل وعلا ، وعفى عنه وصفح رجاء المغفرة من الله تعالى ، وترك أبو بكر ما كان توعد به مسطحاً .

ثم إن هذا الخلق لايصلح العمل به إلا لمن خرق ببصره الإيمانى إلى مشاهدة أحوال الدار الآخرة ، حتى صارت عنده كأنها شهادة ، وأما من لم يخرق ببصره إلى ماذكرناه فمن لازمه مقابلة المسيء بإساءته ، لحجابه عن شهود الآخرة .

فاسلك يا أخى على يد شيخ صادق ، حتى تلطف كثائفك ، وترقق حجابك وإلا فلا تشم من التخلق ، لهذا الخلق رائحة انتهى .

---

(١) سورة النور آية: ٤٠ .

فعلم أن كل فقير آذا من آذاه ، فقد خرج عن طريق الإستقامة الحقيقية فإن الله تعالى ما أباح المجازاه إلا مداواة للضعفاء ، وأما الأقويا فعوض لهم بترك المجازاة بقوله تعالى : (فمن عفى وأصلح فأجره على الله) .

على أن سيئة المجازاة يشترط فيها أن تكون مثل السيئة الأولى ، وتحرير المثلية عسرجداً ، لأنه يشترط أن يكون تأثير البادى ، ونكايته بسيئة المجازاة مثل تأثير المجازى على حد سوا .

وأيضاً فإن الحق تعالى خلع على سيئة المجازاة اسم الشبهة ، وأكدها بمثلها ففهم أهل الله تعالى أنهم إذا جازوا كانوا مثل أهل البداة فى الذنب ، فلم يرضوا ذلك لأنفسهم هذا ما درج عليه الكمل من الصالحين والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : مدح أشياخهم في كل موضع يعتقدهم الناس فيه

والسكوت عن مدحهم إذا كان هناك من ينكر عليهم خوفاً أن يقع فى سبهم .

كما لاينبغى مدح الإمام أبى بكر وعمر عند الروافض إلا إن رجى رجوعهم عن بغض الشيخين إلى محبتهما .

وهذا أمر قد أغفله غالب مريدى هذا الزمان ، فيمدحون شيخهم ويصفونه بالقطبية الكبرى بحضرة من ينكر ذلك عليهم ، فيسخر به الحاضرون ، فاعلم ذلك ، وإياك أن تسامح أصحابك فى المبالغة فى مدحك إذا كثرت أتباعك فنفوك خوفا على المملكة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم الإهتمام بأمور الدنيا بقدر الضرورة

فلا يذهبون إلى السوق مثلاً لأجل شراء جوخة ، أو صوف ، ولايرسلون رسلهم لأجل ذلك يردونه مرات عديدة ، فإن ذلك مشعر برؤيتهم الحظ الأوفر لأنفسهم دون من يشترون منه ، وماهكذا تكون الفقراء إنما شأنهم أن تكون لهم المنة على من يشترون منه فيبيعون برخصه ، ويشترون بغال ، وكذلك لايبالغون فى حسن الهندام فى التفصيل ، والخياطة والسجاف ، ولايبالغون فى نظافة الثوب ، وحسن بياض الجبة، أوسوادها أو حمرتها بل يلبسون بحكم الإتفاق ، ويغسلون بحكم العادة ، وذلك لأن شرف الفقير ليس هو بالثياب ، والهيئة ، وإنما هو بحسن الأخلاق ، والسماح .

ويقبح على فقير جعله الله تعالى قدوة للناس أن ينزل بنفسه إلى دناءة الأخلاق ، وطلبه الحظ الأوفر لنفسه دون أخيه المسلم ، وكذلك لاينبغى لفقير أن يشترى شيئاً من معارفه خوفاً أن يحاسبوه بسيف الحياء لا بنية صالحة .

وقد كان الشعبى رضى الله تعالى عنه إذا قالوا له : ألا تغسل ثوبك ؟

يقول : ليت قلبى فى القلوب مثل ثوبى فى الثياب .

فعلم أن كل فقير ذهب إلى السوق لأجل شراء شيء لنفسه ، فقد أعتنى بالدنيا ، وكذلك إذا أرسل رسوله فى الصوم إلى السوق البعيد : ثم صار يرده مرات ، وكل من قال هذا لايقدح فى الفقير ، فهو من باب حسن الظن بالفقراء « فجزاه الله خيراً ؛ وإنما الشأن مشى الفقير على مشى سلفه فى عدم المبالاة بأمور الدنيا ، فإنهم أجمعوا على أن طعام الفقير ما وجد ولباسه ماستر ، وكل من طلب فوق ذلك فقد خرج عن الطريق .

وكان سيدى يوسف العجمى يقول :

من رأيتموه فى زيه لبق ، فاعلموا أنه عن الإستقامة زلق والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: حمل كلفتهم عن الناس منه ما أمكن

فإن ثقل كلفة الفقير ينفر الناس منه بقولهم ، وإن عظموه بظاهرهم حقروه بباطنهم، فإذا دعاهم أحد إلى بستانه أيام المشمش أو العنب مثلاً لايذهبون إلا بعزة وجماعة قليلة، وهذا خلق قد أغفله غالب الفقراء اليوم فربما سألوا فضل صاحب البستان فى التفرج بحضرة من يستحيل منه فلايسعه إلا أن يقول : أنا فى خدمتكم أى وقت طلبتم، فيذهبون إليه بماهب ودب فيقطعون رمانهم الأخضر ، وحصرمهم ، ويفسدون، ويصير صاحب البستان فى غاية الحصر والندم ، وربما قالوا له : وايش تطعمنا هناك ، فيكلفونه الطبيخ لهم بسيف الحياء كرها عليه فى الباطن ، ثم لايفارقونه ، حتى يقولون له قد حصل لك الخير بمجيئ سيدى الشيخ ، وكل هذا خروج عن طريق الشرع كما أوضحنا الكلام عليه فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: ملازمة المراقبة لله تعالي إذا خرجوا من بيوتهم لسفر أو غيره حتي يرجعوا

وذلك ليحطيهم الله تعالى من الأفات، ولاشك أن مراقبة الله تعالى شديدة لما فيها من شدة الهيبة، والتعظيم، ولذلك كره رسول الله ﷺ، للرجل أن يسافر وحده، واستحب له السفر مع الجماعة.

وقال: واحد شيطان وإثنان شيطانان وثلاثة ركب انتهى.

فطلب لأمته ما فيه الرحمة لهم، فإن الإنسان إذا وقف وحده بين يدى ملك عظيم أرعد من هيبته ضرورة، حتى تكاد مفاصلة تنقطع، وإذا وقف مع غيره بين يديه خفت الهيبة عليه لأنسه بأشكاله.

ومن فوائد السفر مع الجماعة أنه إذا حصل له مرض كان واحد يخدمه، ودابته وآخر يبلغ خبره إلى أهله فصلى الله وسلم على معلم الخير ﷺ.

وقد ورد فى بعض طرق حديث الاسرا ما يؤيد ما قلناه من الهيبة أن رسول الله ﷺ لما أفرده جبريل بزجه فى النور أخذته هيبة عظيمة، فسمع صوتاً يشبه صوت أبى بكر يقول له: قف إن ربك يصلى، فزالت هيبته ووحشته إذا الهيبه من لازم المقربين، وكل من أدعى القرب مع الإدلال فلا ذوق له فى مقام المقربين، ولذلك قال ﷺ (أنا أعرفكم بالله تعالى، وأخوفكم منه)، فعلم أنه لا ينبغى لأحد المبادرة إلى الانكار على من رآه لبس الطيلسان من الفقراء، فربما أرخاه على عينيه حياء من الله عز وجل.

وقد قال الإمام مالك: أول من ضرب الخبا فى طريق الحج من الخلفاء عثمان بن عفان رضى الله عنه.

فقال لأصحابه: أحجبونى عن الناس، فإنى أستحى من نظرى إليهم.

وكذلك لا ينبغى له الإنكار على من يراه يسافر وحده لأنه ربما يكون قد أمن نفسه عن الخوف من الخلق لايخاف إلا الله تعالى بل يتربص، فإن رآه ألقى بنفسه إلى الهلكة مع الصحو أنكر عليه، لأن الله تعالى قد أمنه على نفسه، فلا يتعاطى ما يضره فى الدنيا والآخرة.

وكان سيدى على الخواص لا يسافر بليل، ويقول:

أخاف أن يقع أحد من اللصوص فى الإثم بسببى بضربى على غفلة لأجل أخذه ثيابى، وعمامتى، فلم يمتنع من السفر وحده خوفاً من الخلق أن يأخذوا ثيابه لطيبة نفسه بها، ولو أنهم سألوه فيها لأعطاها لهم من غير أن يرتكبوا إثما وإنما امتنع من اللصوص ذلك خوفا على اللصوص أن يقعوا فى معصية بسبب ضربه، فالناس على أقسام فى المشى فى الليل.

فمنهم من يكره ذلك حياءاً من الله تعالى ومنهم من يكره ذلك: خوفا على أخذ اللصوص ثيابه، وضربه مثلا ومنهم يكره ذلك: خوفا من وقوعه فى عدم حفظ ما أمنه الله تعالى عليه من جسمه من حيث كونه عبد الله تعالى لا لحظ نفسه كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن ينصحوا إخوانهم المترددين عليهم المحترفة أن لا يأتوا إليهم إلا بعد تحصيلهم ما يقوم بعيالهم

ومتى أقروا أحدا على ترك حرفته لأجل حضور وردهم مثلا فقد غشوه وخانوه والله لا يحب الخائنين.

وقد سئل الحسن البصرى عن رجل يكتسب ما يقوم بعياله، ويصلى منفرداً، ولو حضر صلاة الجماعة لم يف كسبه بعياله.

فقال: يكتسب ما يكفى عياله، ويصلى منفرداً.

وهذا الخلق قد أغفله غالب المتمشيخين بغير حق فيقر أحدهم التاجر أو المحترف على ترك الحرفة التى تستره ذلك اليوم، لأجل حضور نظام قراءة ورده مثلا، وإذا تأخر عن حضور مجلسه، لأجل كسبه ما يقوم بعياله ينكدر منه، ويصير ينظر نظر الغضب، وكان الأولى لسيدى الشيخ أن يفرق مسموحه أو جو اليه مثلا على جماعته الذين يطب منهم الحضور فى قراءة ورده، ويأكل كأحدهم فإن ذلك هو العدل، وأما كونه يأكل الدجاج، واللحم الضانى، والأرز المفلفل، والحلوى من جواليه، أو مسموحه أو رزقته مثلا، وماعليه من إخوانه، فهذا خروج عن الطريق.

وقد رأيت من يحجر على إخوانه أن لا يغيبوا عن الوقت الفلانى لأجل حضور الدفتردار أو قاضى العسكر مثلا ليوهم ذلك الزائد أن عنده جماعة كثيرة وأنه فى حمله ثقيلة من جهة كلفتهم إما ليشكروه، أو ليحسنوا إليه زيادة على ما عنده من الرزق، أو غير ذلك، وما للفقير وللأمير، حتى يدعوه إلى حضوره لزاويته مثلا، وإذا صدق الفقير مع الله تعالى، صارت الأمرا، وغيرهم يترددون إليه من غير سؤال، ولو أنه منعهم من زياراته تشوشوا.

وقد رأيت من دفن فى زاويته شيخا، وصار يذكر له كرامات وخوارق، ويدعوا الأمرا إلى زيارته، لينصب عليه.

فقلت له: مالك، ولدعاء الأمراء إلى زيارة هذا الشيخ، ولم لا تدعوهم إلى شيخ آخر.

فقال: إنما دعوتهم ليحضورا درسى فى الطريق فى حجة زيارة هذا الشيخ.

فقلت له: إن الأمراء ليس لهم وعاء يحملون فيه علمك ومارأينا قط أحداً من الأمراء جالسا يسلك الناس فى الطريق أبدا، فما لقى فى دعائه إلى حضور الدرس، أوالختم مثلا إلا العلة النفسية فى الغالب.

وقد كان السلف الصالح يفرون من الشهرة، وإظهار مقامهم عند أحد من الأمراء الا لغرض شرعى، حتى كان الفضيل بن عياض رضى الله عنه يقول:

لو أن أحد قال لى: إن أمير المؤمنين واقف على بابك يريد الدخول فسويت لحيتى بيدى لخفت أن أكتب فى جريدة المنافقين إنتهى.

فليحذر الفقير مما ذكرناه من إظهار النظام، وتعاطى أسباب الشهرة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة ذكرهم لله تعالي في زواياهم

وعدم الخروج إلى عمل مجلس الذكر فى الجوامع المشغولة بالعبادات، وكثرة دخول الخلق لها كجامع الأزهر، ونحوه كما درج عليه السلف الصالح رضى الله عنهم.

وقد خالف بعض أهل عصرنا فى ذلك، فصار يترك زاويته، ويذكرالمجلس يوم الجمعة فى جامع الأزهر، فحصل بذلك شرور وترافع إلى الحكام فكتب الباشاه مرسوماً لذلك الشيخ، بأنه يذكر فى الجامع على رغم أنف أهله، فضربوا جماعته ضرباً شديدا، وهدموا عمامته، وبهدلوا الخرقة، وما كان ينبغى له ذلك هذا مع وقوع الناس فى غيبته بنحو قولهم فلان يحب المشيخة والشهرة فجلس زمانا فى زاويته، فما وجد أحداً يعظمه ولا يعرف مقامه فجاء إلى الجامع لتعرفه الناس وكأنه بذلك يقول اعرفوا أنى شيخ من

الذاكرين لاسيما إن كان ورده فى الليل وليس فى زاويته أحد غيره، وغير جماعته فإن ذلك ربما كانت النفس تكرهه لعدم من يشكرها على تلك العبادة.

وسمعت الشيخ شمس الدين اللقانى المالكى يقول للشيخ نور الدين الشونى:

إنى خائف عليك من تصدرك فى مجلس الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ فى جامع الأزهر مع كثرة من يراك من الأمراء، والأكابر، فربما أعجبت النفس بذلك، فيصير تعبك هباء منثوراً.

فقال له الشيخ نور الدين: ماجلست فى جامع الأزهر إلا بإشارة سيدى رسول الله ﷺ.

فسكت الشيخ شمس الدين، ثم قال: لا يلزم من كونه أشار عليك بجعل المجلس فى الجامع أن يكون عملك فيه خالصاً، فامتحن يا أخى نفسك بمالو نقلت مجلس الجامع إلى محل مهجور ليس فيه أحد غير جماعتك، ولا يعلم به أحد، فإن خف عليها السهر فيه، وانشرحت لذلك فى مخلصة وإن إنشرحت للمجلس فى جامع الأزهر أكثر فاعلم أن ذلك رياء، فلا يلزم من كون المجلس بإشارة رسول الله ﷺ أن يكون صاحبه مخلصاً فإن سائر الطاعات قد أمر بها رسول الله ﷺ، ومع ذلك، فقد دخل الرياء، كما هو معلوم من أحاديث الشريعة.

فليحذر الفقير من مثل ذلك.

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول:

ربما استحلى العبد ما هو فيه من الطاعات، ومكث طول عمره فيها، فتقول له: إن ذلك من علامة إخلاصك، ولو أنك مخلص مادام عليك هذا الخير، فيصغى لذلك، فيهلك، وهو لايشعر إذ لو فتش نفسه، لربما وجدها مراءيه خالصة فى الريا وقد أجمع العارفون على أن من علامة الرياء استحلاء العبادات لأن النفس لا تستلذ بعبادة إلا إن وافقت هواها، ولو خلصت من الهوى لثقلت عليها، فإن النفس من أصلها رئيسة، فلا

تكاد تخضع لربها إلابكلفه، فمن وجد من الصالحين فى نفسه كلفه للطاعات، فذلك من علامة إخلاصة، ومن هنا قام ﷺ، حتى تورمت قدماه لثقل التكاليف عليه، ولشده معرفته بعظمة الله عز وجل وكان يخفف فى الصلاة رحمة بأمته لأن الوقوف بين يدى الله تعالى يقدر على تطويله.

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول:

استحلاء العبادة سم قاتل محبط للعمل، ولولا شهودالضعفاء تعظيم مقامهم عند الناس بسهر الليالى مثلا ما استطاعو سهر ليلة كاملة فضلا عن مقام الصبر.

فليمتحن العبد نفسه فى المجالس التى يحدثها، فربما كانت طريقة يكتسب فيها معاشه فى الدنيا وليس له فى الآخره من نصيب سوى العقوبة عليها كما ورد فى الصحيح، وربما كتب إسم الشيخ الذى أنشأ مجلس الذكر فى ديوان المنافقين فى السماء، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، ولم يكن عقد مجالس الذكر فى الزمن الماضى إلا لكمل الاشياخ الذين تطهروا من رعونات النفس دون آحاد الناس من المريدين فأعلم ذلك، وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم التخصيص علي الفقراء بشي من وقف زاويتهم.

ولا يفرشون فى بيوتهم شيئاً من حصر الزاوية، ولا يقدون فيها مصباحاً من الزيت الموقوف عليها، ولا يتخصصون سراً، ولاجهراً بهدية، ولا زكاة، كما يفعله بعض النصابين، فينصبون على إسم الفقراء، ولا يعطونهم منه إلا البعض، ولولاهم لما أعطاه الناس مثل خمس قناطير عسلا، فليكن النصاب منصفاً وإلا افتضح بين الناس والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: منع عيالهم من حضور الولائم التي يجتمع فيها من لا ينضبط علي قواعد الشريعة من الرجال والنساء.

بل يضربون العود، ويتكلمون بالكلام الذى تستحى أهل المروءات، من النطق به فى حق النساء، والرجال، كذكر الفروج، وصورةالوقاع، والغناء، والرقص؛ وغير ذلك مما يفعله المخبطون، ونحوهم.

وقد ترك العمل بهذا الخلق كثيراً من فقراء الزمان، وحصل لعيالهم التغيير بسبب سرقة طباعهم مما يسمعون فى الأعراس.

كما لا ينبغى للفقير أن يمشى فى زفة الختان، فكذلك لا ينبغى له حضورهن فى الأعراس المشتملة على مفاسده والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: تعظيم الأشراف وزيارة قبورهم

لا سيما الأقربين إلى سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ كالأئمة الإثنى عشر، وفى مصر منهم جماعة نحو السيدة نفيسة إبنة الحسن ابن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب، ورقية إبنة الإمام على وسكينة أخت السيد الحسن، وزينب إبنة السيد الحسين، ورأس الإمام زين العابدين، ورأس الإمام زيد، ورأس الإمام الحسين، ووالد السيدة نفيسه وعائشة بنت الإمام جعفر الصادق وجماعة كثيرة بالقرافة والمطلوب لكل مؤمن أن يزور هؤلاء كل قليل، لأن فيه صلة لقربته منه ﷺ، والاعتناء بزيارة هؤلاء، كما يعتنى بزيارة الإمام الشافعى رضى الله عنه وقد من الله تعالى على بزيارة هؤلاء كل ثلاثة شهور، وجاؤنى فى المنام مرات، وشكروا من فضلى.

ورأى بعض صالحى الشام الأئمة الاثنى عشر، وهم خارجون من الشام ووجوههم كالأقمار فقال لخادمهم: إلى أين؟ فقالوا: إلى مصر نزور عبد الوهاب، فإنه من المحبين لأهل البيت إنتهى فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: كراهة إقامتهم في هذه الدار خوفاً من عدم القيام بأداب أهل البلا كلما تقارب الزمان

لكثرة ماينزل فيه من البلا أو من الوقوع فى الآثام، فإنها دار إبتلاء فى البدن، والمال، وكلها مملؤة بحقوق الله تعالى، وحقوق عباده، ولذلك لا يطيق غالب الناس الوفاء به.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول:

حكم هذه الدار حكم قوم جالسون فى خرابة فى الحر والبرد، وفى تلك الخرابة سائر المؤذيات من سباع، وتماسيح، وعقرب، وحيات،وكلاب عقورة، وغير ذلك من سائر الأعداء من الأنس والجن، وهى مسلطة على كل عبد أقام فى تلك الخرابة، وقد أمرهم الله تعالى بقتال جميع هذه المؤذيات ليلا ونهاراً لا يتهنون بأكل ولا بشرب، ولا نوم، فأرسل لهم الحق تعالى رسولا يدعوهم إلى جنته فى ظل ظليل، وفرش مرفوعه وفاكهة كثيرة لا مقطوعة، ولا ممنوعة، ويستريحوا من مقاتلة هذه المؤذيات، فأبوا، وقالوا: لا نخرج من هذه الخرابة، فهم مخطؤن باجماع العقلاء، وكل من وزن اليوم أحواله بالكتاب، والسنة وجدها خارجة، وما يفعله من الأعمال الصالحة إنما هو صالح بالإسم فقط، فهو فى أوزار يكسبها ليلا ونهارا، فيجب على العبد أن يسلم لله تعالى من حيث تقديره عليه، وله، ويستغفره من حيث كسبه، كما درج عليه السلف الصالح، ولكن يحتاج الإنسان إلى عينين عين ترضى بإقامة الله تعالى له فى هذه الدار ولا يطلب الانتقال منها وعين تطلب الهروب منها كل ساعة خوفاً على نفسه من إرتكاب الأوزار والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن يقروا من يريد الصحبة لهم علي حرفته التي أقامه الله تعالي فيها بطريقه الشرعي ثم يسلكونهم وهم في حرفهم.

كما أقر النبى ﷺ الصحابة على ماهم عليه من حين دخلوا فى الإسلام، ومن هنا كان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول:

الكامل من يسلك الناس، وهم فى حرفهم لا من يأمرهم بترك حرفتهم، حتى يسلكهم، فإنه ما من أمر مشروع إلا، ويمكن العارف أن يوصل صاحبه إلى حضرة الله تعالى منه بخلاف الأمور التى لم تشرع.

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد الله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أنهم لا يبدؤن أحداً من طلبة العلم إلا إن كان يكفونه في القراءة عليهم في كل علم طلبه من آلات الشريعة

وإنما يرغبونه فيه ويأمرونه بالإخلاص فيه فإنه لابد من قائم بالشريعة وحفظها عن الأندراس، كما أنه لابد من قائم بالطريقة، وحفظها كذلك عن الأندراس، فالجامع بين الطريقين على وجه القيام بهما معاً عزيز فى كل عصر، فذلك كان من الأدب تسليم الفقيه للصوفى طريقه، وتسليم الصوفى كذلك للفقيه طريقه، حتى يغلب على الفقيه من نفسه طلب الطريق، ومادام متعشقاً لزيادة العلم، فلا يجيب إلى طريق القوم لأن مبناها على مخالفه النفس فى سائر الحظوظ، وما كل أحد يقدر على ذلك.

ومن هنا كان من كرامة سيدى أبى العباس المرسى، التى انفرد بها عن غالب الأولياء تسليكه لجماعة من القضاه، فقد بلغنا أنه: سلك ثلاثين قاضيا ولم يبلغنا وقوع ذلك، لغيره.

وقد كان يقول لسيدى ياقوت العرشى: ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفا من العوام، وإنما الشأن أن تسلك فقيها واحدا فى مائة عام انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم رؤيتهم الكمال في شيء من مقامات إسلامهم أو إيمانهم أو إحسانهم لا سيما في هذا الزمان الذي نقصت الأمور

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول:

كان لأهل القرن الأول كمال الإيمان.

وكان لأهل القرن الثانى كمال العلم.

وكان لأهل القرن الثالث كمال العمل، ثم أخذت الأمور كلها فى النقص بالنسبة لمن بعدهم، كما أشار إليه حديث «ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» أنتهى.

وسمعت سيدى محمد الشناوى يقول:

من إدعى كمال مقام الإسلام فى هذا الزمان، فهو مغرور.

ورأى فقيه مرة مناما فقصه على سيدى على الخواص رحمه الله تعالى وقال له: قد خفت أن أكون قليل الدين فقال له: ياولدى إن هذا يشاركك فيه ألوف من الناس.

قال: وقد كان من سنة السلف الصالح أن من شرط كمال الإسلام: أن يسلم المسلمون من لسانه: ويده.

ومن شرط المؤمن: أن يكون الغيب عنده، كالشهادة، كأنه يعاين أهوال يوم القيامة.

ومن شرط المحسن: أن يعبد الله كأنه يراه على الدوام، فأى شخص يدعى أنه كامل فى هذه المقامات الثلاثة انتهى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: شدة حرصهم علي فعل الآداب المحمدية التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته وأذن لهم في استنباطها من الكتاب والسنة

لاسيما إن كان هناك من يقتدى بهم فيها.

كما أنهم يحرصون على ترك كل ماخالف السنة، أو آداب السلف الصالح، وذلك كأن يكبر اللقمة، ويتبع اللحم، أو القلقاس من حوالى القصعه أو ينقى الرطب، أو العنب، أو التين، ويدفع لغيره الردىء ونحو ذلك سواء أكان ذلك فى طعامه، أو طعام غيره، وسواء أكان يأكل وحده، أو حيث يراه الناس، فيداوم على ذلك، حتى يصير ذلك عادة له سرا، وجهراً، ويتأكد على الشيخ أن يتبع السلف فى ذلك، ويصغر اللقمة، ويطول المضغه، ويؤثر رفيقه بكل ما يراه حسنا من الفواكه، وغيرها، وذلك، ليفعل معه رفيقه الآخر مثل فعله، فيؤثره بأطايب الطعام، والفواكه، وربما يقتدى به جليسه، ومن يراه فى شراهة النفس كذلك، وإن لم يكن من عادته الشره قبل ذلك، فيرجع تبعه سوء الآدب فى ذلك على من سبق به فإن سرقة الطباع غالبة، فإذا سرق الإنسان ما قدام جاره من اللحم سرق الآخر ما قدامه، وإن آثره بذلك آثره الآخر.

فليحذر الفقير من مثل ذلك كل الحذر، ويوصى كذلك جماعته. ويحذرهم من كثرة الأكل، وشره النفس لئلا يلوث الناس بالخرقة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: الصدق في إدعاء المقامات وعدم إدعاء مقاما لم يبلغوه ولا مقاما بلغوه ولم يؤذن لهم في إظهاره

فإن ذلك المدعى ربما يعاقب بحرمان ما ادعاه، فلا يناله بعد ذلك أبدا، كما جرب.

وهذا الخلق قد صار عزيزاً فى هذا الزمان، حتى أن أربعة من أهل العصر إدعوا القطبانية الكبرى فقلت لهم:

إن القطب لا يكون إلا واحد والثلاثة منكم كاذبون، وأنتم على خلاف، وهذا كله استهزاء بالطريق، لعدم وجود من ينكر عليهم، فإن الصادقين استتروا وغير الصادقين يرفع بعضهم، لبعض، لعلم أحدهم بأنه إذا أنكر على أحد أنكر الآخر أحواله وأخرجه عن الدائرة.

فحكم الظاهرين بالدعاوى الكاذبة الآن حكم خلبوص المغانى إذا أخرج ثيابه فى صورة قاض، أو أمير، وغير ذلك، فيضحك الصغار عليه.

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أنهم لا يأمرون تلامذتهم أولا إلا بما صرحت به الشريعة

فإذا عملوا بذلك أمروهم بما استنبط منها، وهيهات أن يعمل مريد فى هذا الزمان بالمنطوق به فضلا عن المفهوم، ثم إن الأمور التى تفرعت بالفهم من الشريعة، قد لا يعان العبد على الوفا بها بخلاف ما أمره الشرع به، فإنه ما أمره بشيء إلا وهو وتعالى يريد إعانته عليه إلا إن سبق له الشقا.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول لنا:

اتبعوا، ولا تبتدعوا، فإن الوقوف على حدود ما ورد أولى من الابتداع، ولوا ستحسنه العلماء، لأن ما استحسنوه، قد خلع عليه إسم البدعه على كل حال انتهى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: محبة العزلة في بدايتهم وكراهتهم للعزلة في نهايتهم

وذلك لأن المبتدى لضعفه أدنى شيء يشغله عن الله تعالى، ولا هكذا المنتهى، لأنه من حين عرف الله تعالى المعرفة المطلوبة بين القوم، صار لا يشغله عن الله تعالى شاغل.

ولا يخلوا الخلق من حالين إما أن يكون أحدهم: أعوج، فيجب عليه القرب منه، حتى يقوم عوجه.

وإما مستقيما، فيستفيد منه العلم، والأدب.

وإنما لم نقل لا يخلو الخلق من ثلاثة أحوال، ونعد منها المساوى له من الأقران، لعلمنا بأنه ليس فى الوجود شيئان متساويان من كل الوجوه وما بقى إلا الزايد أو الناقص، فتاره يشهد الإنسان نقصا فى أخيه، فينصحه، وتارة يشهد فيه كمالا.

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه يقول:

المخالط للناس الصابر على أذاهم أولى وأفضل من الهارب منهم، فربما اعتزل الناس، وظن بنفسه السلامة من الآفات والحال بخلاف ذلك بخلاف الذى لا يخلوا من عدو وحاسد يظهر فيه العجر والبجر فياسعادة من كان له جيرانا ينكرون عليه. انتهى.

فعلم مما قررناه أنه لا يقال العزلة أفضل مطلقاً، ولا الخلطة أفضل مطلقاً وقدمنا أن العارف أواخر عمره يحن إلى العزلة، كالبداية، حين انتهت تربيته لأصحابه، فلا يصير له وقت يسع الناس، كما وقع له ﷺ أواخر عمره حين نزلت عليه سورة « إذا جاء نصر الله والفتح» خوفاً أن يكون ذلك استدراج، فلا يزال أحدهم خائفاً، حتى يجاوز الصراط، ثم بتقدير أنه لم يكن استدراجا، فهم لا يعلمون هل فعل ذلك خير لهم، أو تركه، ولا هل أعطاهم الحق تعالى ذلك بطريق الاستحقاق كماسبق به العلم، أو بطريق الوعد، ولأجل يدوم ذلك معهم، حتى يموت أو يذهب، والعاقل يفرح بشيء لا يدرى هل يدوم عليه أم لا بل لايركن إلى الاعتماد على فضل ربه تعالى، فهو دائما مفتقر إلى الله تعالى فى كل نفس، وذلك غاية الكمال والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهودهم ببادي الرأي أن الحق تعالي حكيم عليهم وأنه أشفق عليهم من أنفسهم

ولذلك تركوا التدبير معه، ولولا ذلك المشهد، لدبروا لنفوسهم ضرورة،

وهذا خلق قد صار غريباً فى بعض فقرا هذا الزمان لقلة اشتغالهم برياضة نفوسهم قبل التصدر للمشيخة، فصار أحدهم بمجرد ما يلوح له بارقه من أحوال الطريق يتميز بها عن العوام يجلس يعمل شيخا، وربما راج أمره عند الناس أكثر من الصادقين، كما عرفت ذلك من نفسى، فإنى أعرف جماعة يعتقدونى، ويرجحونى على بعض العارفين الذين لا أصلح أن أكون مريدا لهم ، ويرمون على حملاتهم، وإذا قلت لهم: إذهبوا إلى فلان خذوا خاطره لا يسمعون لقولى.

فعلم أن كل من دبر مع الله تعالى، فهو محجوب عنه بسبعين ألف حجاب كما أوضحنا فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: الصبر علي الجوع والعري

ولا يأكلون، ولا يلبسون شيئاً بالدين كما يقع فيه أولاد المشايخ الذين لم يدخلوا تحت تربية الأشياخ فيظهر أحدهم نفسه بالكرم ولا يقوم برد نفسهم عن شهواتها، فيصير يأكل ويشرب، ويلبس، ويضيف الناس وينزلق إلى الأخذ. بالدين، حتى ترتكبه، أرباب الديون يطالبونه، فيستخفى، وإن قدر أن أحد اشتكاه من بيت حاكم، ليعطيه حقه قام عليه زبانية ذلك الشيخ، وقالوا لصاحب الحق: استح مثلك يشكى سيدى الشيخ أما تكرمه لوالده، ونحو ذلك، وهذا كله خروج عن الطريق.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول: إياكم أن تجيبوا نفوسكم إلى كل ما اشتهت مع ضيق مكاسبكم، فإن عاقبتكم إلى حبس الدنيا، أو حبس الآخرة انتهى.

ويؤيد ذلك قول سفيان الثورى ومالك بن دينار:

وينبغى للمؤمن أن يصبر نفسه عند الضيق ولا يجيبها إلى كل ما تشتهى، فإن أحدنا لو أجاب نفسه إلى ذلك، لخيف عليه أن يعمل شرطيا أو مكاسا والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إقامة المعاذير للناس بطريقه الشرعي تخلقا بأخلاق الله تعالي

فقد ورد فى الصحيح «لا أحد أكثر معاذير من الله تعالى» انتهى.

ومن عقل العاقل أن يعذر إخوانه بما يعذر به نفسه، فإنه ليلا ونهارا يود، لنفسه الخير، ويقع فى ضد ذلك، مع أن نفسه أحزب الأقربين إليه.

فليوطن الفقير الصادق نفسه على سماع كل ما يكره فى حق جماعته، أو حقه من غير أن يقابل الناس بشيء من ذلك.

وقد كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يقول:

كثره الإنبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبه للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط انتهى.

قلت: وذلك لئلا يعرض عن الناس تكبرا، وإنما يتبسم لأحدهم عند اللقاء، ويخاطبه بيا حبيبى، فمن فعل ذلك أحبه الناس، ولو لم يخاطبهم.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول:

إذا ابتليتم بصحبه من لا غنا لكم عن صحبته، فنا صحوه تارة، وسالموه تارة، وادعوا له بالصلاح تارة واسلوا الله الخلاص من صحبته على سلامة تاره، فلابد لكل انسان من محب، ومن مبغض، ولو كان فى فضل الإمام على رضى الله عنه انتهى.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول:

من طلب من الناس يكونون فى حقه كمايريد غيبة وحضورا، فقد طلب المحال، لأن ذلك لا يصح، لأحد من الملوك فضلا عن آحاد الناس.

وكان من قول نبى الله داود عليه الصلاة والسلام «اللهم إنى أعوذ من خليل عينه ترعانى، وقلبه يشنانى، إن رأى خيراً أخفاه، وإن رأى شراً أفشاه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: مشاركة المسلمين في البلا النازل عليهم في ساير أقطار الأرض إذا بلغهم ذلك

عملا بحديث الطبرانى مرفوعا: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، وعملا بحديث: «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

فلا يمسى أحدهم، ويصبح إلا، وبدنه ذائب، كأنه شرب رطلا من السم، وكيف حال من يشارك سائر المعاقبين فى بيوت الحكام فى سائر أقطار الأرض فى ضرب المقارع، والكسارات والسلخ، والخوزقة، والشنكلة، وتقطيع الأيدى، وإلباس الخودة المحماة على رأسه، وغير ذلك من أنواع العقوبات وهذا أمر لايعرفه الا من ذاقه.

وقد وقع لى أننى شاركت مرة شخصا عوقب فى بيت الوالى بوضع الخوذة المحماة على رأسه، فصرت أحس بدهن رأسى سائحا لها الجمر بين الجلد، واللحم، حتى إنى صرت أمسح الدهن عن خدى أحسب أنه خرج إلى ظاهر الجسد. فما كنت الا هلكت، وشاركت مرة امرأة فى الولادة لما تعسرت عليها، فصرت أطلق، وكأن فى مقعدتى قنطار حديد يريد أن يخرج فما كنت الا أشرفت على الهلاك، ولى فى هذا الأمر وقائع

كثيرة، وهذا الأمر ما رأيت له فاعلا بعد سيدى على الخواص رحمه الله تعالى الا قليلا، وهو علامة على كمال الإيمان والحمد لله الذى حصل لنا منه نصيب.

وقد وقع للشيخ على مرة أنه مكث من بكرة النهار إلى المغرب لم يأته خبر بأن أحدا فى ذلك النهار فقال: الحمد لله، فدخل عليه شخص بعد الغروب فقال: إن حمارتى ولدت ولدا بلا ذنب، ولا آذان، فصار يدور فى البيت إلى الصباح، ويقول. إذا وحل هذا الجحش يسحبونه من الوحل بأى شىء رضى الله تعالى عنه.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول: كل فقير أكل أو شرب أو جامع أو ضحك ونزل البلا بأحد من المسلمين من غير ضرورة شرعية، فهو ناقص الايمان ولا يقدم ماهو مفروض فى حق الله تعالى، فإن من شرط الشيخ أن يصل إلى مقام الاحسان، ويترقى فيه إلى مقام الاتقان، وقد ذكرنا فى كتاب المفاخر والمآثر شروط من تحمل البلا عن الناس، فراجعه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: مساعدة الناس في بلادهم وغيرها في حفظ أماكنهم من براري وقفار وبحار ومداين وجبال

فيطوف أحدهم بقلبه سائر أقطار الأرض فى نحو ثلاث درج.

ويقع لى بحمد الله تعالى أننى أطوف مداين الأرض، وقراها بقلبى فى مقدار درجة رمل، ولا ينبغى لأحد استبعاد ذلك لأنه أولا بإقدار الله تعالى للعبد لا مستقلا، وثانيا إنه بالروح، والأرواح لها سرعة السير، فربما صعدت للعرش فى مقدار لمحة، ونزلت للأرض السابعة كذلك فى مقدار لمحة.

ووقع لى مرة مثل ذلك مع الشيخ أحمد السطيح، فبينما هو يكلمنى إذ سقطت للبهوت، فرأيت قدمى على قحف الحوت فقال لى. فورا: أبعدت عنى قوى، وكان من

أهل الكشف،ومرة أخرى كلمنى فى حاجة. فرأيت نفسى على باب الكعبة فقال: إنزل الملتزم. وادع لى.

فعلم أن مثل ذلك يكون للفقراء بحكم الإرث لرسول الله ﷺ فى المقيلة لما أسرى به إلى السماء، وإن تفاوت المقام، فإنه صعد إلى العرش، ونزل فى لحظة، والله على كل شىء قدير، ويحتاج صاحب هذا المقام إلى صفاء عظيم، ولا يكون فى قلبه تكدير بحال من الأحوال، وربما أعطى الله تعالى هذا المقام لبعض الفقراء من غير طواف بل يرتسم الوجود كله فى قلبه فيراه من قلبه.

وايضاح ذلك أن القلب إذا انجلى صار كالمرآة الكرة، فإذا قابلها بالعالم العلوى، والسفلى ارتسم كله فيها، وإن كان جرمها صغيرا، فالمدار على صحة البصر، وقوته، أو ضعفه كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن الكبرى فى الباب الثانى فيها.

وقد ورد على شخص من أرض الحبشة. فأخبرته بالزقاق الذى فيه داره، وبالشجرة النبق التى فى دار جاره. وبالكنيسة التى فى أطراف الزقاق، فصدقنى على ذلك، فعرفت صدق طوافى فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: استيئذانهم لأصحاب النوبة كلما خرجو من دارهم لسفر أو غيره وكلما دخلوا دارهم من سفر أو غيره

لأنهم حفاظ. الأرض بإذن الله تعالى. وحكامها ويحبون من يراعى معهم الأدب فلا يبلغ أحد منهم القلعة مثلا فى شفاعة، حتى يستأذن أصحاب النوبه وهو على عتبة الباب الأول من القلعة أو بيت الأمير مثلا فمن راعى ذلك الأدب معهم قضيت حاجته إن شاء الله تعالى، ورجع سالما من الآفات .

وإيضاح ذلك أنه لا يسلم بيت حاكم من سلطان أو أمير من واحد أو جماعة تكون

فيه، ويكون حكم ذلك السلطان أو ذلك الأمير تبعا لحكم أصحاب النوبة، وهذا الأمر لا يعرفه كل فقير، وإنما هو الأفراد من أهل الطريق بل بعضهم أنكر وجود أصحاب النوبة أصلا، ومن شأنهم الإطلاع على أسرار العباد وما يفعلونه فى قعور بيوتهم بإذن الله تعالى، ويحبون من كل من مشى فى دركهم أن يكونوا على طهارة، وأن لا يكون قلبه غافلا عن الله تعالى.

وقد أخرجت مرة ريحا وأنا ماشى فى مصر العتيقة، فنادانى شخص منهم كان يحيك السدود وما كان لنا حاجة فى مشيك فى دركنا إلا أن تفسوا فيه فمن ذلك اليوم ما مشيت فى شوارع مصر الا متوضئا، وإذا اضطرنى الأمر إلى إخراج ريح استأذنت صاحب الخط فيه.

ووقع لى أيضا تجاة البيمارستان بمصر أننى أحسست تمساحا طلب يبلعنى، وأنا ماشى، فقامت كل شعرة فى جسدى من الرعب؛ فالتفت ورائى، فإذا بشخص من أرباب الإدراك محلوق اللحية أحمر العينين، فقال لى مشافهة: لا تعد تمشى فى دركى غافلا عن ذكر الله تعالى أبدا، فقلت: سمعا وطاعة، ومن ذلك اليوم وأنا كلما مررت من ذلك المكان آخذ حذرى من الغفلة فيه فأعلم ذلك ، واعمل به والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة توجيه كلام الأئمة والفقهاء والصوفية وغيرهم وجل كلامهم علي أحسن الأحوال ولا يبادرون لتخطيئة أحد بغير دليل صريح.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول:

ليس الفقير من يرد كلام الناس، وإنما الفقير من يبحث على منازع أقوالهم، وينظر من أين أخذوا ذلك الكلام، ويبين هل يؤثر ذلك فى سعادتهم، أولا يؤثر هذا حظهم رضى الله تعالى عنهم والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: أن يعبدوا الله تعالي إمتثالا لأمر الله تعالي في مجالسته في تلك العبادة

لا رغبة فى الثواب ولا خوفا من العقاب، السوء أو أجره السوء، فإن لم يتيسر له ذلك فليستغفر الله من حيث قصده هو، ويسأله الصفح عنه.

وقد قال الله تعالى فى بعض كتبه: ومن أظلم ممن عبدنى لجنتى، أو نارى لو لم أخلق جنه ولا نارا ألم أكن أهلا لأن أطاع انتهى

وهو مقام يصله المريد فى بداية الطريق والله أعلم.

وليس ذلك من مقام الخواص كما يتوهمه من لم يسلك الطريق لكن لا يخفى أن فى ذلك إظهار الغنى عن فضل الله تعالى فى الصورة وكذلك كان من مقام خواص الخواص. أن يطلبوا من الله الأجر والثواب من باب المنة، والفضل لا بحكم الاستحقاق، ليخرجوا بذلك عن صورة الفنا من فضل الله، تعالى، ويدخل فى مقام الفقر والذل، والحاجة بين يديه عز وجل فصورته صورة المبتدئين، والقصد مختلف والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم طلب أحدهم مقاما عند الخلق

وإنما طلبون المقام عند ربهم تعالى فقط سواء أكان مشهد أحدهم معيه الحق تعالى، مع الخلق أم لا إتهاما لنفسه أن يغلب عليهم مراعاة الخلق.

فإن من طلب المقام عند الخلق فمن لازمه محبة الريا له، والنفرة من كل ما يهضم مقامه عندهم لكن يستثنى من طلب التعظيم عند الخلق ، لغرض شرعى كمن يقول لمن سأله فى قضاء حاجة عند أمير إذهب ، فكبرنى، وعظمنى عند الأمير قبل أن أحضر إذا كان ذلك الامير لا يعرف مرتبة الشافع، فإن ذلك غرض صحيح وفعله سيدى أحمد وغيره والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: الشفقة علي السلطان وولاة الأمور

فيودون أن لوكان مع أحدهم جبل من ذهب، وساعد به السلطان على نفقة المجاهدين، والمسافرين فى التجاريد ولو عرضوا على أحدهم أن يعملوا له مرتبا من بيت مال المسلمين أو مسموحا أو جوالى لا يقبل ذلك ويقول: مال بيت المسلمين إنما هو معد لانفاقه على مافيه نفع للمسلمين كمن يسافر فى التجاريد ، ويحمى بيضة الإسلام أو من يسلك طريق القوم، وليس له ما يكفيه،

وأنا بحمد الله مكفى وليس فى جعبتى أى مال إلا وجعلته فى نفع المسلمين فقد اخترت أن يكون أجرى على الله تعالى.

ولم أطلب من أحد الأمراء بمصر أن يجعل لى مسموحا أو أو جوالى أو مرتبا وقد رأيت بعض المشايخ يرفض أن يأخذ مرتبا إلى أن مات، وهكذا كان السلف الصالح، وأما من يطلب من الحكام أن يجعلوا له مسموحا أو جوالى مع وجدان الحرقة والكسرة، فهو دنياوى لم يشم من طريق القوم رائحة.

وقد سمعت بعض الولاة يقول: نحن لا نعتقد إلا من يتعفف عن ما بأيدينا وأما من يسألنا الدنيا، فلا نعتقده، وسيأتى فى الباب الحادى عشر أن الولاة ما أعطوا فقيرا شيئا الا بعد زهدهم فيه، فكيف يليق بالفقير أن يقبل ما زهد الولاه فيه، ويكون أقل ورعاً منه، فلا نقبل يده فإنه نصاب والحمد الله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم قبول هدايا الكشاف ومشايخ العرب وكل من لا يتورع في مكسبه وعدم الأكل من ذلك

هذا إذا جاءهم بغير سؤال فكيف ممن يسأل الولاة فى ذلك بنفسه، أو قاصده تعريضا، أو تصريحا، وفى ردهم ذلك فوائد منها عدم الركون إلى الظلمة، فإن من قبل

هداياهم، وأكل من طعامهم ركن إليهم ضرورة، فوقع فى النهى. وعرض نفسه بأن تمسه النار كما قال الله تعالى «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون» وهذه الآية، وإن كانت وردت فى الكفار، فإنها تشمل من ظلم أحدا من المسلمين، ومنها عدم انتفاع الولاة بالفقرا لأنه إذا اقبل هديتهم، صار معدودا من عائلتهم ولستها نوابه، ولم يقبلوا له شفاعة، لعدم استحقاقه لذلك.

وأيضا فإن باطنه قد تلطخ بطعامهم المختلط بالحرام والشبهات،وذلك يحجب العبد عن ربه، فلا يصير يقدر على أن يحمل شيئا من البلايا النازلة بهم إذا سألوه فى ذلك.

ومنها فتح باب غيبة الناس فيه بقولهم كيف يكون هذا صالحا، وهو يأكل طعام الظلمة، فيقل الناس إعتقادهم فى أقرانه، ولو كانوا محفوظين من مثل ذلك.

وقد قال معروف الكرخى يوما لأصحابه: اشتهى أن أموت ببلد غير بغداد، فقالوا له. كيف؟ فقال: خوفا أن لا يقبلنى قبرى فأفتضح ويسىء الناس ظنهم بأقرانى من الفقرا.

فعلم أن كل فقير أكل من طعام ظالم وقبل منه مرتبا أو معلوما، فأنه شيطان، ولو كان له شعرة، وعمامة، وعذبة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: جعلهم الحظ الأوفر لكل من عاجلهم ببيع أو شرا أو استيئجار رزقة أومعصرة أو مركب وذلك هروبا من تحمل منة الخلق عليهم.

فإن باعوا شيئا أسقطوا عن المشترى شيئا من الثمن لاسيما إن كان الآخر يتجر فيه، وإن اشتروا شيئا يزيدونه عن الثمن الواقع، ويسامحونه به، وإن أجروا رزقتهم يؤجرونها بأنقص الأجر «وكذلك القول فى إجارة المعصرة، والمركب عن الأنتفاع بها لعدم الحب الذى يعصر «أو لعدم من يسافر فى المركب لا يأخذون لذلك أجرة».

وقد فعلت أنا مثل ذلك فى رزقتى، ومعصرتى، ومركبى، ولم أجد لذلك فاعلا من أقرانى غيرى إلا قليلا ولذلك لا أقبل شيئا من الأجرة التى يدفعها المستأجر قبل الإنتفاع بتلك المركب؛ أو المعصرة، أو الرزقة مثلا لأنه ربما مات قبل انتفاعه أو مت أنا قبل ذلك، فتقع الخصومه بين ورثته وورثتى، وكذلك لا أضع فى عينى لبن امرأة اجنبية إذا رمدت إلا إن وزنت لها ثمن ذلك اللبن لما فيه من رايحة استلاب حق الولد لاسيما إن كانت ترضع بأجرة، أو كان لبنها قليلا.

فعلم أن كل فقير طلب الحظ الأوفر لنفسه فهو يتجر فى الدنيا دون الآخرة، والفقرا إنما دخلوا هذه الدار ليتجروا فى أعمال الاخرة فى كل شيء يتقلبون فيه فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن اخلاقهم: عدم قبول هدية علي سؤالهم ربهم في قضاء حاجة فقضيت

وقد أرسل بعض قضاه العساكر مالا له صورة لأدعوا لولده أيام القصل فرددته وقلت، لقاصده الا يخلوا إما أن يكون قد سبق فى علم الله موت ولده، فعلى أى شيء آخذ ماله، وإما أن لا يكون سبق فى علم الله موت ولده، فما فعلت شيئا أستحق به مالا، والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن اخلاقهم: التخلق بالشفقة والرحمة علي المحترفة ووزنهم ثمن السلعة التي يشترونها منهم من قماش أو سمن أو جبن ونحو ذلك

لاسيما إن كانت السلعة سالمة من الغش؛ فكل ما انتفعنا بالبضاعة الجيدة كذلك ننفعه بالثمن الوفى، ونزيده على ثمن سلعة الغشاش، ولو طلب هو منا مثل ثمن سلعة الغشاش لانجيبه بل نزيده عملا بالعدل، والانصاف.

وهذا مادرج عليه أشياخنا رضى الله عنهم فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: زيادة التورع في شهر رمضان علي غيره من الأوقاف

فلا يفطرون فيه عند مكاس، ولا ظالم، ولاعند من فى ماله شبهة.

وقد عملوا على حيلة فى إفطارى عند مباشر من مباشرى الديوان، فأكلت عنده ثلاث لقم بورقة فجل فقط، فنمت تلك الليلة، فرأيت القيامة، قد قامت، وملك من الملائكة يقول لى: استعد لمن يجاذبك على الصراط لأجل الثلاث لقم التى أكلتها فى رمضان عند فلان، فاستيقظت مرعوبا فعالجت نفسى أن اخرجها بالقيء من بطنى، فلم أقدر فأنا مستغفر منها إلى وقتى هذا.

فعلم أن كل من ادعى الولاية، وأكل عند الظلمة فى رمضان، أو غيره. وقال: أنا بحر لا تكدره الدلاء، فهو كذاب نصاب.

وقد أجمع القوم على أن اللقمة التى للشرع عيها إعتراض تؤثر فى القطب ، فكيف بغيره والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن يفرقوا مادخل في يدهم علي مستحقه من نقود وثياب وطعام وغير ذلك

وهو خلق غريب لا يصح إلا لمن أحكم مقام الزهد فى الدنيا بحيث صار ينقبض للدنيا إذا دخلت عليه وينشرح لها إذا تحولت عنه.

وقد اعطانى الله تعالى ذلك من حين كنت أمرد فلا أبقى من ثيابى، ولا طعامى؛ ولا مالى إلا لغرض شرعى تخلقا بأخلاق الله تعالى؛ فإن من أسمائه تعالى المانع؛ فيمنع من يشاء. من عباده بحكمة لا لبخل تعالى الله عن ذلك.

وقد دخل يدى مرة مائة دينار ذهبا؛ وأنا صغير ففرقتها على الحاضرين؛ ولم أبق لنفسى منها درهما واحدا مع أنه لم يكن عندى ذلك الوقت رغيف لاثمنه فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم قبول وصية أوصى لهم بها أحد ولو كان مكسبه حلالا

وذلك لأن جميع ورثة ذلك الميت ناظرون إلى ذلك المال غالبا لاسيما إن كانت الوصية لاحدهم بمال عظيم نحو الثلث، فإن الورثه يتكدرون من مثل ذلك أشد التكدر لأنهم يريدون أن يأخذونه كاملا؛ ولا يشاركهم فيه أحد.

فلأجل تلك المزاحمة الباطنه تركوا قبول الوصايا لا لعلة أخرى.

وقد أوصى لى قاضى اسكندرية شمس الدين بن محاسن بثلث ماله، وكان أربعة الاف دينار، ووصلت إلى، فرددتها من أجل نظر ورثته إليها، ولأجل كون ذلك مال قاض لا لعلة أخرى.

وهذا خلق لم أجد له فاعلا من أهل عصرى فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا رأوا في حارتهم منكر وعجزوا عن رد أصحابه عنه فإنهم يتوجهون إلي الله بالدعاء لهم بالتوبة

وتحويطهم بالآيات والأذكار خوفا أن ينزل عليهم بلاء، وهم غافلون فى لهوهم؛ ولعبهم؛ فيعم فاعل المنكر؛ ومن سكت عليه من أهل الحارة.

وقد سكن بجوارنا نساء من بنات الخطا مرة، فكنت أحوطهم بالقرآن ليئلا ينزل علينا وعليهم البلاء إلى الفجر، حتى رحلن وقد عمل المحبطون بجانب دارنا ليلة فى الخليج؛ فسهرت أحوطهم إلى الصباح لم يأخذنى نوم وذلك لما جبل الله تعالى الفقراء عليه من الشفقه، والرحمة على جميع خلق الله تعالى.

وربما كان المحبطون، والسامعون لايعدون ذلك ذنبا.

وأخبرني سيدى على الخواص رحمه الله تعالى: إن لله تعالى رجالا لا يفارقون مغانى العرب، ومواضع للظلم، والمكوس والمعاصى يبتهلون إلى الله تعالى فى عدم نزول البلاء عليهم؛ ويقولون. يارب إنهم من جملة عبيدك قال ولولا ذلك لربما خسف الله تعالى بهم الأرض.

فإياك يا اخى والمبادرة إلى الإنكار على من تراه من الفقرا يسمع المحبطين أو حاضرا عندهم ربما كان من هؤلاء الرجال الذين يشفعون عند الله تعالى فى أهل المعاصى فى دار الدنيا والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إقامة العذر لزوجتهم في شدة الغيرة إذا تزوجوا عليها

ولا يطالبونهم بالصبر كما تقدم بيانه مرارا فإن فى الحديث إن المرأة المغيره لا تبصر السماء من الأرض انتهى.

وقد أبصرت عائشة يوما سودة، ومعها إناء فيه طعام جاءت به، لرسول الله ﷺ، فقامت، وكسرته بحجر، فطار ما فيه فى الأرض، فصار رسول الله ﷺ يجمعه من الأرض فى الإناء، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: غلبة الحياء من الله تعالي ومن خلقه

حتى يستحى أحدهم أن يظهر وجهه ولذلك يرخون على عمايمهم فى جل الأوقات لأجل ذلك ولكف بصرهم فضول النظر، ويرخون الطيلسان حياء من الله تعالى.

وتقدم أن أول من ضرب الخبا فى الطريق الأمام عثمان بن عفان، وقال لخدامه: استرونى، فإنى استحى من رؤيتهم لى.

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول:

الفقير كالمرأة المخدرة لا تكاد تكشف من بدنها ما يكشفه غيرها من النساء.

وكان يقول:

ينبغى للفقير أن لايغتسل إلا فى ثوب خلق كما يفعل بالميت قال: ومن هنا عمل أهل الأدب لهم طوقا يستر عنقهم، وأدمنوا لبس الخف، حتى لا تظهر أقدامهم، وضيقوا الأكمام، حتى لا يظهر من ذراعهم شىء.

فإياك أن تعترض على من رأيته يرخى الطيلسان وتقول. إنه يتمشيخ، فربما كان سبب ذلك الحياء كما ذكرنا والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم الأكل من ضيافه الوقف الذي تحت نظرهم ولو جعل لهم ذلك.

إلا إن علموا طيبة نفس الفلاح بها وإن شكوا فى ذلك تركوا إلا كل منها، وذلك لضيق حال الفلاحين فى هذا الزمان، وكثره المغارم التى عليهم من الكشاف ومشايخ العرب، والعصاه، وغيرهم، وما جعل الناس الضيافة من قديم الزمان إلا لما كانو يجدونه من الراحة من جهة أستاذهم من مسامحتهم لبعض الخراج، وكسوتهم، وكسوه نسائهم، وضيافتهم وبطبيخ الحلو، والأرز المفلفل، ويعدون تلك الأيام أيام عيد، وهذا أمر قد تودع منه مابقيت الدنيا.

ومن جملة نعم الله تعالى أن ضيافه الفلاحين لاتقيم فى باطنى أبدا لو عملوها بغير علمى لاسيما الأوز، فإنه إنما تربيه نساء الفلاحين، فيصير مذموما من وجهين كونه من كسب النسا، وكونه بغير مقابل من الاستاذ.

وهذا خلق لم أجد له فاعلا من أهل عصرى إلا القليل بل رأيت بعضهم أتاه الفلاح بالضيافة فراى فيها أوزة صغيرة. فردها على الفلاح، فقال: إنها وزة يتيم، فقال: اقل

لولى اليتيم يبدلها لنا. وردها إلى بلاد الريف، فالضيافة وإن كانت حلا لالنا من جهة شرط الواقف قلنا: ترك أخذها وترك الأكل من طعامها أولى فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا كان تحت نظرهم وقف من الأوقاف فأسكنوا بيوته أو زرعوا رزقة من رزقه أن يعط كل ذي حق حقه.

ومن مال الوقف.

فإن زرع فى أرض الوقف وبارك الله تعالى تلك السنة فى قمحها مثلا، حتى صار الخراج قليلا عادة، فمن الورع أن يزيد فى الخراج ليشاكل عادة الزرع.

وإن كان لهم رزقة، وأجروها، وهاف قمحها، وأكلته الدودة مثلا، فمن الورع إسقاط الخراج كله، أو بقدر ماهاف، أو أكلت الدودة.

وقد عملت بهذا الخلق فى رزقتى مرات فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا دفع لهم أحد خراج رزقتهم

مثل ضريبة خراج السلطان زيادة على خراج الرزق عادة فمن الأدب السلطان ردما زاده الفلاح. ولو أن الفلاح قال لهم خاطرى بذلك طيب اعتقادا فيهم يقولون له: نحن خاطرنا بذلك ماهو طيب.

وقد فعلت أنا فى رزقتى ذلك مرات أدبا مع السلطان، وإن كان السلطان لا يعلم منى ذلك.

فليحذر الفقير فى هذا الزمان من أن يزرع فى طين الوقف الذين هو تحت نظره بأنقص من اجرة المثل ويخاصم المستحقين، فإنه يخرج بذلك عن طريق القوم، وعن العرف.

وكذلك الحذر من تسخيرالفلاحين فى حرث زرعه أو حصاده مثلا تشبها بالولاة، والملتزمين، فإن ذلك خروج عن أدب الدين وربما قالوا لسيدى الشيخ: خاطرنا بذلك طيب، والقراين تعطى أنهم مافعلوا ذلك إلا خوفا من مباشرى الشيخ أو الجابى أن يغمزهم الشيخ على عمل حسابه بالمقلوب، فيغرموه مالا يطيق فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا أكلوا رطبا أو يسرا أو تينا أو عنبا

أن يبدأ كل واحد منهم بأكل الحامض، أو العفن مثلا إيثار البعضهم بعضا فيفضل أطايب الفاكهة آخر أكلهم ومتى اكلوا، وفضل خبث الفاكهة فهو دليل على أن أحدا منهم لم يشم لطريق الفقراء رايحة، فامتحن بذلك من يدعى الفقر فإنه ربما يأكل الطيب ويعزم على غيره بفضل الخبيث ويكلحون.

وقد أكل سيدى محمد بن عنان والشيخ محمد المنير والشيخ محمد ابن داود رطبا فى الليل، فعدوا نواهم فلم يزد واحد نظرا لكراهتهم لقبول الصدقه أو الهدية، أو أكلهم منها إذا علموا أن هناك من جيران وأهل المهدى وحارته من هو أحوج إلى ذلك منهم وخوفا من مخالفة السنة، ونقص الأجر، لأن الشارع ﷺ أمره أن يبدأ بالأقرب والأحوج، فالأحوج فكما قصد المتصدق نفعا بصدقته أو هديته، فكذلك ينبغى لنا نفعه بإرشاده لفعل السنة، وإلى مافيه كمال الأجر.

ثم إذا قبلنا شيئا بشرطه لا نقبله إلا على نية نفع ذلك الشخص أولا، ونجعل نفعنا بحكم التبع لا بالقصد الأول.

وقد رددت بحمد الله تعالى كثيرا من الذهب والفضة خوفا من تعد المهدى جيرانه، أو المحاجير فى جارته، ودفعها إلى ولم أجد لذلك فاعلا من أقرانى إلى وقتى هذا إلا القليل فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كراهتم لإقامة شيء من محبوبات الدنيا وشهواتها في قلوبهم:

سواء أكان ذلك المحبوب ولدا أو زوجة، أو مالا أو طعام أوثيابا، ونحو ذلك.

ومتى أقام ذلك فى قلوبهم لحظه بادروا إلى التوبة والاستغفار، فلا يدعون شيئاً يقيم عندهم إلا بقدر تحققهم بقبول ذلك من فضل الله تعالى، ثم يخرجونه من قلوبهم أسرع من لمح البصر.

ثم إذا بلغ أحدهم مبلغ الرجال خرج من قلبه حب كل شهوه فى الدنيا، ورأى نفسه عبداً يأكل من مال سيده، ويلبس منه، ويسكن داره وليس معه ملك فى الدارين.

فالحمد لله الذى حققنا بذلك، ولذلك كنت أرد الذهب والفضة إذا عطاهما لى أحد بسهولة، ولو أن مولانا السلطان رسم لى بألف دينار مثلا، فصدها عنى شخص من الحسدة، وحال بينى وبينها فرحت لذلك، لأنى أغار على الحق تعالى أن أملك معه شيئا، ولو بقدر وقت القبول فقط، وأرى فراغ اليد من ذلك أفضل، وكلما جرونى عن الدنيا، وملابسها، ومطاعمها كلما إزددت فرحا، وسروراً.

وهذا خلق لم أجد له فاعلا من أقرانى إلا القليل، وعليه درج كمل الأنبياء، وأتباعهم، وقد نقل الشيخ محى الدين الإجماع من أهل كل ملة ونحلة على أن فراغ اليد من الدنيا، وإخراج ما كان بيده منها أفضل عند الله تعالى فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إضافة أفعال العباد المذمومة إلي إبليس ببادي الرأي لا إلي الفاعلين لتلك المعصيه مثلا

خوفا أن يقع لهم إزدراء لأحد من الخلق، وإيضاح ذلك أنه لا يقع أحد فى معصية الابوسوسة أبليس فإضافة الفعل إليه أولى لأنه منديل الدار تمسح فيه أوساخ الناس، وإن كان ليس له من الأمر شيء.

وهذا خلق غريب فى غالب الناس لا يكاد يوجد وأكثرهم يضيف الفعل المذموم إلى الخلق ببادى الرأى، فيحتقرون العصاه، ويزدرونهم، ولايكادون يقيمون لهم عذرا فى الباطن والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم مبادرتهم إلي سوء الظن بأحد من المسلمين

وكثرة سترهم لعوراتهم التى شهدوا منهم وتحققوا فعل ذلك منهم جازاهم الله تعالى بنظير فعلهم، فمن أساء الظن بأحد أساء الله به الظن، ومن أكثر من ستر عوراتهم ستر الله عورته والعكس بالعكس.

واعلم يا أخى أن أحداً لا يصل إلى مقام حسن الظن بالناس إلا إن كان باطنه مطهرا من سائر الرذائيل إما بالفطره، وإما بالعلاج والرياضة، ومادام فيه شىء من الرذائل فمن لازمه غالبا سوء الظن قياساً على نفسه.

وتأمل يا أخى من خلقه الله تعالى عنينا لاقوة له فى الجماع لو رأى رجلا يكلم امرأة فى طريق مثلا لا يسىء به الظن أبدا قياسا على حاله هو بخلاف من كانت الشهوة غالبه عليه. ولا يترك الزنا إلا عجزا فإنه يظن بذلك الرجل السوء قياساً على نفسه.

فعلم أن من أدعى الصلاح، وأساء الظن بمسلم، فهو لإخلال فى كمال الصلاح، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى العهود والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم مطالبتهم بالوفاء بعهودهم التي يأخذونها على الناس بسلوك الأدب معهم مثلا لقضاء حوائجهم

وعدم بدأتهم بالسؤال، ونحو ذلك وإنما يطلبون منهم القيام بعهود رسله قياماً بواجب حق الربوبية.

فإن وفاء الحق بعهود عباده إنما هى تبع لوفائيهم بحقوق ربهم، فمن آثر القوم مثلا على عبادة ربه، فما وفى بعهده، فلا يعينه الحق على الوفاء بماوعد به الناس جزاء وفاقا انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن، ولاأخلاق فعلم أن من أعظم أخلاق القوم مسامحتهم بحقوقهم. وعدم مسامحتهم فى حقوق الله تعالى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: محبتهم لكل شيء ينكس رؤوسهم في الدنيا ويزيل عنهم العجب والكبر

أما فى الطاعات فظاهر وأما فى غيرها فيرضون بتقدير الله تعالى عليهم، ويسخطون على نفوسهم من حيث كسبها تلك المعصية.

وكان بعضهم يقول فى دعائه: اللهم أغفر لى ماجنيته من حيث كسبى، وأما من حيث تقديرك على ، فأسألك التدبير فيه، واللطف وفى كلام ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعه أورثت عزاء واستكبارا يعنى من حيث الأثر لا من حيث الأصل فافهم والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة شكرهم لله تعالي إذا لم يجدوا لذة في قيام الليل أو غيره من العبادات

خوفا أن يكون الباعث لهم على تلك الطاعة ما يجدونه فيها من اللذة دون أن يكون الباعث لهم إمتثال أمر الله تعالى ومجالسته، لأن العبادات من حيث هى تكليف لا لذة فيها إذ لا مجانسة بين العبد، وبين الله تعالى بوجه من الوجوه.

وقد كان فى بنى اسرائيل عابد يقال له أبرخا كان لاينام الليل، فأوحى الله تعالى إلى سيدنا داود عليه الصلاة والسلام نعم العبد أبرخا لو كان يقوم بين يدى ربه خالصا، وإنما يقوم لما يجده فى نفسه من الأنس لامحبة فى انتهى.

وأما ماورد فى الآخرة من وقوع اللذة برؤية الله تعالى، فهى لذة غير مكيفه لا نتعقلها الان والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: الخشوع في الصلاة وقراءة القرآن لأنهم في حضرة الله تعالي

فلا يكاد أحد من أهل الحضرة ينطق لغلبة الهيبة عليه.

فعلم أن الجهر القوى مع الحضور مع الله تعالى للأقوياء من الأولياء بطريقه الشرعى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: شهود الرياء في جميع أعمالهم، ولا يرون أنهم أخلصوا لله تعالي في عمل من الأعمال

وفى رسالة الشيخ رسلان الدمشقى كلك شرك خفى.

وفى كلام الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه:

إذا كان من يعمل على الوفاق لا يسلم من النفاق، فكيف بمن يعمل على الخلاف.

وفى كلام الفضيل ابن عياض:

متى شهدوا فى أعمالهم الإخلاص إحتاج إخلاصهم إلى إخلاص.

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أيضا لا يبادروا بالرقة والرحمة علي من رأوه عريانا أو جيعانا بل ينظرون أولا إلي حكمة فعل الله معه ذلك

فإنه حكيم عليم، ثم بعد ذلك يرقون له، ويسعون فى إزالة عريه، أو جوعه ، فإن الله تعالى أرحم بعبده من والدته والام لاتشك الدبا. بالابرة مثلا الا لمصلحة أعظم من غرز الابرة فيه.

وقد مر الشيخ وياقوت العرشى على جماعة من المساكين يسألون للناس، فبادر إلى الرقة عليهم، فسمع قائل يقول:

لا الله أرحم بهم منك، ولو شاء لأشبعهم، فتب من ذلك. وتأدب مع الله تعالى انتهى.

وأعلم يا أخى أنه لا بد لأهل الله تعالى من المحن، والشدائد. ليتبين لهم صدقهم مع الله تعالى، أو كذبهم، فان ثبتهم الله تعالى خرجوا ذهبا خالصا وإلا خرجوا نحاسا.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول:

للرحمة حد فاذا أمره الله بذبح ضحيته؛ فليقدم أمر الله تعالى على رحمتها وعدم ذبحها والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: شدة قربهم الباطن من سيدنا رسول الله ﷺ في غالب أوقاتهم

فتطوى لهم المسافات بينهم وبينه نحو ذراع، ويخاطبونه ويسألونه فى الفقه والغامض من الاحاديث كما مر بيانه فى أوائل هذا الكتاب.

وكان بعضهم يقول:

لو احتجب على رسول الله ﷺ طرفه عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين انتهى.

كل ذلك لهم من طريق الكشف لكن يجب عرض ذلك العلم الذى حصلوه من طريق كشفهم على الكتاب، والسنة، ولا يجوز العمل به إلا بعد عرضه عليهما، لأنه ربما حصل للمكاشف تلبيس فى كشفه من إبليس، والا فالكشف الصحيح لا يأتى قط إلا موافقا للكتاب والسنة، لأنه إخبار بالأمور على ماهى عليه فى نفسه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: تعويلهم في جميع مهماتهم في الدنيا والآخرة علي الله تعالي ثم علي رسوله ﷺ دون بقية الخلق

وذلك لأن الله تعالى بيده ملكوت كل شيء، وما ثم واسطة من الخلق أعظم من محمد ﷺ، فمن الأدب أن لا نسأله أن يشفع لنا عند الله تعالى فى جميع ما نطلبه من خيرى الدنيا والآخرة، لكنه ﷺ أعلم الخلق بالاداب المتعلقه بالله تعالى، ومثلنا جاهل بالأدب مع بعض العبيد، فكيف بالأدب مع رب الأرباب.

وكان سيدى عليا الخواص إذا كان له إلى رسول الله ﷺ حاجة يسأل فيها أبو بكر الصديق يسأل له رسول الله ﷺ فيها، فإن لم يجبه سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فإن لم يجبه سأل الحسن والحسين قلت: وإنما خص أبو بكر وعمر لانهما ضجيعاه وأما الحسن والحسين فلكونهما بضعة منه والله أعلم.

وكان رضى الله عنه يتوجه بقلبه إلى أحدهم: ويعتقد أنه يسمعه، فان أحد هؤلاء الصحابة أعظم من سائر أشياخ الطريق وإذا كان الشيخ يجيب مريده وبينه وبينه سفر سنه، فأكثر. فالإمام أبو بكر أو الحسن مثلا أولى بذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا كان أحدهم يقرر في علوم القوم ودخل عليه فقيه لا يقول له قرروا أنتم للفقرا إلا إن علم منه أن له إلماما بطريق القوم

لئلا يقرر للمريدين حرمة طريق القوم، فيردون عليه، فيفتضح، أو يجادلهم بغير علم ويمزق كتبهم وعلومهم ومن اخلاقهم أن لا يقولوا لفقيه مصلح القوم إلا إن علموا بالقراين أن ذلك لا يورث عنده عجب وذلك يكون منهم خوفا عليه ورحمة به.

وقد دخل شخص على سيدى أبو العباس المرسى رحمة الله فصار يزاحم الشيخ فى درسه ويحاول أن يجادله ويرد على الشيخ.

فقال له الشيخ: أخرج ياممقوت، فخرج مسلوبا من جميع ما كان معه من القرآن، والعلم، وصار دايرا فى ازقة البلد كل من رآه يقول له: يا ممقوت إبعد عنا، فدله الناس على سيدى ياقوت العرشى، فشفع له عند سيدى أبى العباس.

فقال: قد رددنا عليه الفاتحة والمعوذتين ليصلى بهن، وكان قد حفظ القرآن، وثمانيه عشر كتابا فى العلم، ولم يزل مسلوباً إلى أن مات كما مر تقريره مراراً فإياك يا أخى من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إجلال بنات أشياخهم عن أن يتزوجوهن إلا أن علم أحدهم من نفسه القدرة علي القيام بحقها والعمل علي مرضاتها كما مر تقريره في تزويج الأشراف

وكما تزوج سيدى ياقوت العرش ابنة شيخه أبو العباس المرسى بإذن الشيخ له فى ذلك وسؤاله له فيها مكثت عنده ثمانيه عشر سنة لايقربها حياءا من والدها ومنها، وفارقها بالموت، وهى بكر، وكان إذا دخل عليه أحد من الأكابر وهو يكلمها لا يقطع حديثه معها لأجله، ويقول: إنها ابنة شيخى فلان، فلاتؤاخذنى يا أخى، فيعذر، ذلك الجليس، فعلم أن من تزوج ابنة شيخه بعد موته أو بغير سؤال من شيخه حال حياته، فهو متهور ليس عنده رائحة من الأدب مع شيخه، فكيف يكون خليفته من بعده، وقد تقدم فى هذا الكتاب مرار نهى الفقرا أن يتزوجوا زوجات أشياخهم من بعدهم سواء المطلقة أو المتوفى عنها أو من كتب الشيخ كتابه عليها، ولم يدخل بها وإن سبب النهى عن ذلك ماوقع للمريدين الذين تزوجوا زوجة شيخهم من الضرر والقتل فى المنام والنهى عن ذلك على التجربة لا على دليل من جهة الشارع، وإن البعض يطلب من مريديه أن يتزوجوا زوجته من بعده ويقول: هذه سنة رسول الله ﷺ، فلا أحب أن أشاركه فيها، فلكل شيخ وجهة والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: شهود أحدهم أن فضل الله تعالي عليه من المال وسعة الرزق إنما هو بواسطة شيخه.

فإن كان أحدهم بخيلا فى ماله وكان شيخه لم يطعم الطعام على عادة الفقرا، وهذا أمر يقع فيه كثير من الفقرأ فيرى أحدهم: الغمسة أكبر حالا من شيخه أو أكرم منه، وغاب عنه أنه محبوس فى دائرة شيخه لا يصح له استمداد من غيرها فى علم أو عمل أو رزق مادام شيخه يترقى، فلايتسع حال مريد إلا من اتساع حال شيخه، ونفس الأمر، وإن لم يظهر للمريد ذلك، ولا يلحق درجة، شيخه الا إذا حصل لشيخه سلب، أو وقفه، وخروج عن الطريق.

وكذلك الحكم فى الشيخ الآخر مع شيخه هو محبوس فى دائرته إلى أن ينتهى الامر إلى دائرة رسول الله ﷺ إبدا لامن تقدمه، ولا من تأخر عنه، ولا يتعدى كشف ولى دائرة كتاب فقيه، ووجيه أبدا.

فاعلموا ذلك أيها الإخوان والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إطعام الطعام وافشاء السلام وسقي الماء وإغاثة الملهوف

ولا يمتنعون من تقديم الكسرة اليابسة للضيف وإن لم يجدوا إلا الماء أسقوه له فكل فقير ادعى أنه من أهل الطريق، وأخل بهذه الآداب، فهو ناقص عند الناس، وأما عند الله، فقد يكون الحق تعالى جعله من أهل حضرة الإسم المانع شفقة عليه أن يخطر فى باله أن له فضلا على أحد عن عباد الله فى الدنيا والآخرة.

وقد يكون ذلك الفقير من أهل الكشف، فلم ير لذلك الضيف عنده رزقا قسمه الله له.

فإياك، والمبادرة إلى الانكار على فقير لم يطعم الضيف، ويقول:

ماجبل ولى الله تعالى إلا على السخاء، وحسن الخلق، فإنه مامن عام إلا يصح أن يخص، فإن السخاء راجع إلى القلب، وكل من حق له قدم الولاية لا يمنع أحدا من

طعامه عن بخل، ويود أن لو قسم الله للخلق على يديه شيئاً فيطعمه لهم، فهذا سخى، وإن لم يطعم أحدا شيئاً فأفهم والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن لا يطلب أحدهم منزلة هي أعلا من منزلته

وهذا هو أحد الأوجه فى معنى قوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله» الآيات.

أى لا تحدثوا نفوسكم بطلب منزله فوق منزلة رسول الله ﷺ وهذا من محاسن الآداب إلتى أدب الله تعالى بها الصحابة مع رسول الله ﷺ فى أمور خصوصياته.

وكذلك يجب على المريد مع شيخه كذلك فلا يطلب منزلة فوق منزلة الشيخ ويتأدب معه فى كل أمر من الأمور ويراعيه فى جميع خصوصياته وعمومياته لا يرفض له طلبا ولا يتعاظم عنده فى مسألة فيسىء معه المقام، فيسىء الأدب.

كما لا يجب أحد من المقربين أن يشارك الحق فى مسمى مقام من المقامات العاليه، وبذلك يظهر للمريد الجواهر التى فى قلب شيخه على لسانه الموضع أدبه.

وحكم العكس بالعكس، فلو أراد الشيخ أن ينطق لمن أساء معه الادب بشىء من المعارف بل ينعقد عليه لسانه، لعدم استحقاق المريد لذلك.

وكان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول: من أعذب أدب المريد أن يتمنى أحدهم لشيخه المقامات العالية لينالها منه بحكم الإفاضه، وهناك يعطى الله المريد فوق ماتمنى، لشيخه مع قيامه بأدب الإرادة.

وقد كان الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه يقول: قال لى مالك رحمه الله:

يا محمد اجعل عملك ملحا، وعملك دقيقا، وفى رواية علمك ملحا انتهى.

وقد أجمع أشياخ الطريق على أن أحداً لا ينال الرتب الرفيعة إلا بقيامه بالأدب مع الوسايط، فمن أساء الأدب معهم فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول.

وقد بلغنا أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم لما نزل قوله تعالى:

«لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم، وأنتم لاتشعرون»:

كانوا يتكلمون بحضرة سيدنا رسول الله ﷺ همساً، وكان عمر إذا كلم رسول الله ﷺ يخفض صوته؛ فلا يسمع أحدا كلامه، حتى يستفهم، وحلف أبو بكر أن لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخى السرار.

فعلم أن كل من رفع صوته على شيخه، فقد ألقا جلباب الحيا، والوقار، والحرمة، وكان الصوفيه فيما مضى كان إذا مرض أحدهم، وطلبوا له العرق يطلبون من شيخه أن يحضر لزيارته، فبمجرد مايحضر الشيخ يعرق المريد من هيبته وما ذلك إلا من شدة إحترام المريد لشيخه وقد حدث ذلك للسهروردى مع عمه وشيخه.

وكان سهل بن عبد الله رحمه الله يقول فى معنى قوله تعالى:

«لا تقدموا بين يدى الله ورسوله» الآيات .

أى لاتخاطبوه ﷺ الامستفهمين، ولا تبدؤه بالخطاب ولا تجيبوه إلا على حلول الحرمة،ولا يغلظوا له فى الخطاب ولا ينادوه باسمه يا أحمد يا محمد كما ينادى بعضكم بعضا، ولكن فخموه؛ واحترموه، وقولوا.

يا نبى الله يارسول الله.

وكذلك ينبغى للمريد أن يفعل مع شيخه كذلك «فيقول: ياولى الله أو يامولانا ونحوذلك» لأنه نائب عن رسول الله ﷺ فى إرشاد الأمة إلى طريق الهدى، وإذا سكن الوقار قلب المريد علم اللسان كيفية الخطاب انتهى.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول:

ينبغى للمريد أن يتأدب مع شيخه، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتأدبون مع رسول الله ﷺ لأن الشيخ باب رسول الله ﷺ، ولا ينصح المريد إلا بما ينصح به رسول الله ﷺ وأصحابه، فمن اعتمد على نصح شيخه، فكأنه كان فى زمن رسول الله ﷺ، وقبل منه نصحه، ومن قام بواجب أدب شيخه دخل فى ثناء الله عز وجل على الصحابة بقوله تعالى «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» أى اختبر قلوبهم. واستخلصها كما امتحن الذهب بالنار، فيخرج خالصه.

وكان الجنيد رحمه الله تعالى يقول:

مما أدب الله به الصحابة اذا كان لهم عند رسول الله ﷺ حاجة أنه لا ينادوه من وراء الحجرات، ولا يدقون عليه الباب بل يصبروا، حتى يخرج إليهم، وكذلك المريد مع الشيخ لا ينبغى له أن يناديه من خلف باب داره أو خلوته، ليخرج إليه بل يصبر، حتى يخرج إليه الشيخ ومع بطى بحسب صدق المريد.

وبلغنا عن الشيخ عبد الحليم بن مصلح رضى الله عنه أنه كان إذا جاءه فقير زائر أو علم به قام إليه، ويفتح له جانب الباب، ويصافح الفقير ويسلم عليه ولايجلس معه بل يرجع إلى بيته أو خلوته، وإذا جاءه أحد من أبناء الدنيا يخرج إليه، ويجلس معه، فقيل له فى ذلك فقال: أنا لا أجلس مع الفقير لأن رابطتنا مع الفقراء قلبيه فهى سبيل الحديث بيننا. ونقنع هذا بملاقات هذا القدر من الظاهر. وأما أبناء الدنيا، فهم واقفون مع العادات، والظاهر وليس بيننا وبينهم رابطة قلبيه. ومتى لم نوف لأحدهم حقه مع الظاهر استوحش، فلو كان هذا المريد الذى اعترض على الشيخ بقلبه صادقا، لألهمه الله تعالى هذا الجواب الذى أجاب به الشيخ عن نفسه ولم يحوج الشيخ إلى جواب.

وسمعت سيدى عليا المرصفى رضى الله عنه يقول:

ينبغى لكل مريد إذا أشكل عليه من حال شيخه أن يتذكر قصة سيدنا موسى الخضر عليهما الصلاة والسلام، ويتأمل كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها عليه موسى، ثم

إذا أخبره الخضر بسرها يرجع موسى عن إنكاره: ومن هنا تعلم أن كل ما ينكره المريد على الشيخ إنما هو لجهله بحقيقة ما الشيخ فيه، فإن للشيخ فى كل شيء عذرا بلسان العلم والحكمة.

وقد كان الجنيد رحمه الله إذا ألقى على أصحابه علما، وأشكل على بعضهم يقول:

فإن لم تؤمنوا لى، فاعتزلون.

وكان الشيخ عمر السهروردى رحمه الله يقول:

من أدب المريد أن لايجلس على سجادة بحضرة الشيخ الا للسجود عليها فى الصلاة، لأن من شأن المريد التبتل للخدمة، وفى الجلوس على السجادة إيماء، إلى الاستراحة، والتعزز، وكذلك من أدبه أن لا يتحرك للسماع بحضرة الشيخ إلا إن خرج عن حد التميز، ومن كان يهاب شيخه منعته هيبته عن الاسترسال فى السماع، وكذلك من أدبه مع شيخه أن لا يكتمه شيئا من أحواله، ولو مما يستحى منه عادة، فإن شاء تصريحا وان شاء تلميحا، فإنه متى كتم المريد عن الشيخ صار على باطنه عقدة لا تنفك، ولا يحل تلك العقد، إلا ذكر ذلك الشيء وحكمه فيه أن يخبر شيخه بذلك الشيء فيقرر له الحكم، والعقوبات.

ويحتاج المريد إلى تحصيل مقام المحبة الصادقة للشيخ حتى يستطيع أن يمر بمرحلة، كما يخبر الطبيب، ومالم يحصل له مقام المحبة فإن حاله يكون الكتمان غالبا.

وكان سيدى عبد الحليم بن مصلح رحمه الله تعالى يقول لمن أحب المزيد:

أن لا يقدم على مشاورة شيخه على أمر دينى أو دنيوى إن تبين له من حال الشيخ أنه مستمد له، والسماع كلامه، فكما أن لسؤال الله تعالى الذى هو الدعاء شروط، وأوقات ، فكذلك لسؤال. الشيخ، فإن الأدب مع الوسائل يرجع إلى الأدب مع المقاصد.

وكان سيدى عبد القادر الجيلى رحمه الله يقول:

ما سألت شيخى قط عن مسئلة، حتى سألت الله تعالى أن يلهمنى الأدب مع شيخى، والألفاظ التى تناسب خطابه، وكثيرا ماكنت أتصدق قبل أن أناجيه رضى الله تعالى عنه ونفعنا به عملا بقوله تعالى «إذا ناجيتم الرسول، فقدموا بين يدى نجواكم صدقه» فان الشيخ واسطة بين المريد وبين الله تعالى بحكم النيابة عن سيدنا رسول الله ﷺ انتهى.

فاعملوا ذلك أيها الإخوان واعملوا به والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: العمل علي تحصيل مقام التواضع الخالص بحيث يصل أحدهم إلي موضع حد يصير يخطر في باله أن له حقا علي أحد من خلق الله تعالي، ولا أنه أهل لأن يقصد لتفريج كرب أحد من الخلق بل يري نفسه أكثر ضرراً من الثعبان أو الكلب العقور.

وكان الدقى رحمه الله يقول:

من وظيفة الشيخ وحسن أدبه مع أهل الإرادة والطلب أن ينزل من حقه، فيما يجب له من التبجيل، والتعظيم الذى يكون للأشياخ عادة، ويكثر من التواضع للمريدين ليقبلوا على الاستماع لهم فيما يرشدهم إليه من الخير قال: وقد كنا فى مسجد بمصر جلوسا، فدخل أبو بكر الرقاق، فقام عند اصطوانه يتركع، فقلنا نصبر عن السلام عليه، حتى يفرغ من صلاته، فلما فرغ جاء هو إلينا فسلم علينا، فقلنا كنا نحن أولى من الشيخ، فقال: ما عذب الله تعالى قلبى بمثل هذا قط ولكى أخاف أن يظن بأنى أحترم وأقصد انتهى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إذا رأي أحدهم من بعض المريدين سوء أدب أو علم بحاله أعوجاجًا بدعوي أو مداخلة عجب ونحو ذلك

أن لا يصرح له ذلك بل يتكلم على الأصحاب، ويشير إلى المكروه الذى علمه من ذلك المريد، ويكشف عن وجه المذمة لذلك الشخص على وجه الاجمال، فيحصل لكل واحد الفايدة والمفصح من غير تصغير وجه أحد، وذلك أقرب إلى المداراة، وأكثر أثرا فى تأليف القلوب.

وقد بلغنا أن عمر بن الخطاب شم من أهل مجلسه ريحا، فقال: عزمت على من أخرج هذا الريح إلا قام، فتوضأ فقال له جرير بن عبد الله البجلى: أو نتوضأ كلنا يا أمير المؤمنين، فقال: توضئوا كلكم، وأعجبه ذلك من جرير لما فيه من الستر لمن أخرج الريح.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول:

ينبغى للشيخ إذا رأى من المريدين تقصيرا فى الخدمة أن يحتمله، ويعفوا عنه، ويحرضه على الخدمة لإخوانه مطلقا من غير عنف، ولو تكرر ذلك التقصير من المريد فى اليوم الواحد مرت.

وقد ورد أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله كم أعفوا عن الخادم؟

قال: كل يوم سبعين مرة

وأخلاق الفقرا تابعة لأخلاق رسول الله ﷺ، وهم أحق من عمل بسنته لعدم شواغلهم الدنيوية غالبا.

وسمعت سيد عليا الخواص رحمه الله يقول:

ينبغى للشيخ أن يكتم سر المريد كما يكتم المريد كذلك سر شيخه، فلا يعلم بذلك إلا ربه، وشيخه أو ربه ومريده.

وقد قالوا: أصل إذاعة الإسرار ضيق الصدر، وأصل ضيق الصدر ضعف العقل انتهى وأيضاح ذلك أن ابن آدم فيه قوتان وكلاهما مشوق إلى الفعل المختص به ولولا أن الله تعالى وضع فى النفس حب إظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار، فالكامل فى العقل هو من حرص على الكتمان ولذلك كان من شأن الأشياخ عدم إذاعة الإسرار رضى الله عنهم فاعلم ذلك يا أخى وأعمل به والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: صحبة الأخيار دون الأشرار ما داموا قاصرين من بلوغ مقام الكمال فإذا بلغوا ذلك أمروا بصحبة الأخيار والأشرار

وأما الأخيار فظاهر وأما الأشرار فلكى يستقيم عوجهم إذا صحبوهم.

وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى السيد داود عليه الصلاة والسلام، لمانفر من مجالسة عصاة بنى إسرائيل يا داود المستقيم لا يحتاج إليك، والأعوج نفرت من مجالسته، فلمن إذا ارسلت انتهى.

ولكن يحتاج من يصحب الناس فى هذا الزمان إلى علم وافر وعقل عظيم وسياسة تامة، وإلا حصل له غاية الأذى، وربما ظن كل من المتصاحبين أنهما اصطحبا لله تعالى، والحال أن ذلك لغير الله تعالى، ولذلك قالوا: لا يفرق بين الصحبة لعلة الجنسيه إلا العلماء الغواصون على دقائق النفوس، فقد ينفسد الإنسان بصحبه أهل الدعوى للصلاح أكثر مما ينفسد بصحبة أهل الفساد، ووجه ذلك أن الإنسان يعرف فساد أهل الفساد، فيأخذ حذره منهم، وأهل الصلاح غره صلاحهم، فمال إليهم لجنسية الصلاحية، ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم، وبين حقيقة الصحبه لله تعالى، واكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب، والتخلف عن بلوغ الأرب فليتنبه الصادق، لهذه الدقيقه، ولهذا رجح طائفة من السلف الصالح العزلة، والخلوة على الصحبة، وقالوا: إن العزلة أكثر فائدة منهم سيدى إبراهيم بن أدهم، وداود

الطاءى، والفضيل بن عياض، وسليمان الخواص.

ولما قدم إبراهيم بن أدهم بلد إبراهيم الخواص قالوا له:

ألا تلقى إبراهيم بن أدهم؟

فقال: لأن ألقى سبعا ضاريا أحب إلى من ألقى إبراهيم.

قالوا: ولم!

قال: لأنى إذا لقيته أحسن له كلامى، وأحوالى، وفى ذلك ملا يخفى من الفتنة انتهى.

وهو كلام من عرف نفسه ، وأخلاقها ويؤيده حديث «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» وفى القرآن العظيم حكاية عن السيد ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام «واعتزلكم وماتدعون من دون الله» فاستطهر بالعزلة على قومه وكان أبو بكر الوراق يقول: من عهد السيد آدم ﷺ إلى وقتنا هذا من اعتزل من جانب الناس كان إلى السلامة أقرب.

وسمعت سيدى عليا الخواص يقول:

قد تكون للخلطة فائدة أكثر من العزلة والخلوة، لأن الخلطة تفتح مسام الباطن، ويكتسب الإنسان بها التمرن على حسن الخلق، ويطلع على علم الحوادث، والعوارض، ومن منافعها أيضاً التعاضد «والتعاون على الخير وتقوية قصور القلب، واسترواح الأرواح بالتسام».

وفى الحديث «المؤمن كثير بأخيه» وتأمل الأصوات اذا اجتمعت كيف تخرق الاجران وإذا انفردت كيف يقصر مداها.

وكان سعيد بن المسيب وعبد الله بن المبارك لا يرون العزلة. ويقولان إن الله امتن على المؤمنين بالتآلف فقال تعالى: «والف بين قلوبهم» وقال النبى ﷺ «المؤمن ألف مالوف وإن أحبكم إلى الله تعالى الذين يألفون ويؤلفون» انتهى.

وقد سألت سيدى عليا الخواص عن: الفرق بين العزلة والخلوه؟

فقال: الخلوة تكون عن الأغيار الذين يشتغلون عن الله تعالى، والعزلة تكون عن النفس، وما تدعوا إليه.

فقلت له: فإذا الخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود؟

فقال: نعم لأن التباعد عن النفس عسر جداً ويفرق أيضاً بأن العزلة ليس من لازمها الاشتغال بالله بخلاف الخلوة انتهى.

وكان سيدى محمد المنير رحمه الله تعالى يقول: إذا بعد الفقير عن الناس خرج عن وصف كون المؤمن ألف مألوف والحال أنه أولى بمقام الألفه، لأنه إذا اعتزل عن الناس صفه نفسه، واشتاق الناس إلى رؤيته، فألفوه أكثر من المخالط، وأصل الائتلاف إنما هو بالأرواح لحديث «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف» انتهى.

فعرف مما قررناه أنه لا يقال العزلة أفضل مطلق والخلطة أفضل مطلقا فربما تكون الخلطة بهواء نفس، والعزلة تكبرا عن الخلق.

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول:

إذا أردت صحبة إنسان أو نفرت نفسك من صحبته، فأنظر فى أفعاله، وأقواله، فإن رأيتها محبوبة لله تعالى فاصحبه، وإن رأيتها مكروهة لله تعالى، فأجتنب صحبته إلا بنية صالحة، لكى تحبه بهواك. وتبغض بهواك، فكم ممن يزعم أنه يكره لله تعالى؛ وإنما ذلك لحظ نفسه، وكذلك القول فيمن يحب.

وكان يقول: صحبة الأشرار لبعضهم بعضاً أشر ما يكون لأنهم يزدادون بها شراً واعوجاجا بسرقة طبع كل واحد منهما الآخر فأعلموا ذلك أيها الأخوان وأعملوا عليه والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: إذا وجد أحد منهم في نفسه وحشة من الخلق حين نفروا عنه

أن يتفكر فى نفسه ، فلعل ذلك بمعصية وقع فيها كما قاله بعضهم .

وكان بشر بن الحارث رضى الله عنه يقول :

إذا قصرالعبد فى طاعة الله تعالى سلبه من يؤنسه فتنفر منه الأشياخ إن كان مريداً ، وتنفر منه المريدون إن كان شيخاً .

وكان على بن سهل رحمه الله تعالى يقول :

من أطاع الله تعالى رزقه الأنس به .

قال : ومن الأنس بالله تعالى الأنس بأوليائه رضى الله تعالى عنهم .

وقد قال الفضيل بن عياض رضى الله تعالى عنه :

إنى لأقصر فى الصلاة فأرى ذلك فى خلق حمارى ، وخادمى ، وهو يؤيد ماذكرناه .

وعلامة التنفير المحمود أن ينفر الناس عنه من غير ازدراء ولا احتقار له بخلافهم إذا نفروا عنه على وجه الأزدراء والاحتقار ، فإنه يدل على وقوعه فى مذموم يسخط الله عليه ، فتبعه على ذلك قلوب المؤمنين غيره للحق ، وموافقه له .

فاعلموا ذلك أيها الأخوان وأعملوا عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: أن يري أحدهم الفضل لأخيه علي نفسه إذا أحبه وأعتقد فيه

وقد كان أبو معاوية الأسود رضى الله تعالى عنه يقول :

كل إخوانى خير منى .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن كلا منهم يرى الفضل عليه ومن فضلنى على نفسه . فهو خير منى انتهى أى لأنه ما فضله على نفسه إلا لكونه أكثر تواضعاً منه ، ورفعة المقام عند الله تعالى بكثرة التواضع فأفهم .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله تعالى يقول :

قد أخل غالب الناس بأداب الصحبة وهى كثيرة ، ولكن نذكر للاخوان منها طرفاً طالحاً .

فمنها : أن أحدهم كان إذا وجد ثقلاً من أحد من المسلمين يتهم نفسه بالنفاق ، والكبر ، يسعى فى إزالة ذلك من باطنه .

وقد كان أبو بكر الكنائى يقول : صحبنى شخص ، وكان على قلبى ثقيلاً ، فوهبت له شيئاً بنيه أن يزول ثقله من قلبى ، فلم يزل ، فخلوت به يوما وقلت له :

ضع رجلك على خدى فإنى مغرور ، فأبى .

فقلت له : لابد من ذلك ففعل ، فزال ما كنت أجده فى باطنى انتهى .

ولما سمع الزقى بهذه الحكاية سافر من الشام إلى الحجاز ، حتى سأل الكنائى عن هذه الحكاية وسمعها منه .

ومنها : من تقديم كل من يعرفون فضله والتوسعة له فى المجلس ، وإيثاره بالموضع يكون ذلك لطف وسياسة لاسيما إن كان المعرض يحب الدنيا ويهتم بأمرها كذلك ، وليس له من المشيخة إلا الدعوة فقط ، وإن كان الواجب على من ارتكب أمراً أن ينصح غيره إذا ارتكبه فأفهم .

ومنها : ترك ظهور النفس بالصوله ، لأن صولة الفقير على من هو فوقه قبيحة ، وعلى من هو مثله سوء أدب ، وعلى من هو دونه عجز.

ومنها : أن لايصحب أحدهم أحداً ، ويعزم على مفارقته لادنيا ولا أخرى .

وكان بعضهم يقول : من صحب شخصاً فليس له صحبة أحد بعهد ، ولو كان أعلا من الأول قياماً بواجب حق صحبة الأول ، فمن أخل بحق الأول لم يفلح على يد الثانى.

وكان سيدى إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول :

من قال لأخيه أعطنى من مالك ؛ فقال : كم تريد ؟ فما قام بحق الأخوة ؛ ومن دعاه أخوه إلى حاجة فقال : إلى أين ؟ فما قام بحق الصحبة .

ومنها : ترك التكليف للضيف فإن من تكلف لضيف كره إقامته عنده ؛ وإذا كره إقامته عنده أطعمه بغير طيبة نفس فاساء فى حقه ، وتسبب فى ظلمة باطنه ، ومن أطعمه ما حضر تساوى عنده إقامته وذهابه ولما ورد أبو حفص على الجنيد عمل له الجنيد ألوان الأطعمة ، فأنكر ذلك عليه أبو حفص ؛ وقال :

صيرت أصحابى كالمخانيق تقدم إليهم ألوان الطعام .

فقال له : الجنيد : إنما فعلت ذلك من باب الإكرام للضيف .

فقال : شرط الإكرام أن لايتولد منه ضرر انتهى

ومنا : ترك مداهنه إخوانهم دون مداراتهم ، ومن الفرق بين المداهنة ، والمداراة أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك ، فتداريه رجاء صلاحه ، واحتملت منه ماتكره . والمداهنه ماقصدت به شيئاً من الهوى من طلب حظ ، وإقامة جاه ونحو ذلك .

ومنها : أن يعزم أحدهم على أنه إن أدخلها أن لايدخلها إلا إن دخل أخوه المسلم ، وإن طال الزمان فى الحساب ولو وصل الأمر إلى أن يقوم بمقاسمته فى حسناته يوم القيامة .

ومنها : أن يتدارك الأمر بالوعظ والعناية إذا وقع أخوه فى معصية أو فتنه ، حتى يتوب.

وقد قيل : ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته ، وتكلفت له إذا ورد عليك خوفاً من تغير خاطره إذا لم يتكلف له .

وكان سيدى محمد المنير رحمه الله تعالى يقول :

ليس بأخيك من آثر مراده على مرادك ، وليس بأخيك من أحوجك إلى الاعتذار له .

وكان الإمام جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه يقول :

أثقل إخوانى على من يتكلف وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبى من أكون معه كما أكون وحدى انتهى .

فاعلم ذلك يا أخى واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة الاعتنا بالأدب في العبادة أكثر من اعتنائهم بها بلا أدب

نظير ما قال العلماء فى شروط الصلاة فإن الأدب فيها شرى بصحتها عند العارفين، ويؤيد ما قلناه حديث ابن حبان وغيره « إن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ ، فقال يارسول الله : ما حق الزوج على زوجته .

فقال : من حقه أن لو كان به قرحة تنبجس دما وقيحاً ، فاستقبلته تلحسها ماأدت حقه .

فقالت : والذى بعثك بالحق لا أتزوج ما بقيت الدنيا انتهى .

فأنظر يا أخى كيف أقرها ﷺ على ترك التزوج مع أنه من سنته ﷺ فإياك والتساهل فى الأدب إن كنت من عبيد الأجر فإن الأدب فى العبادة أرجح من نفس العبادة بلا أدب كما يعرف ذلك أهل الذوق .

وقد وقع لى أنه سبقنى ريح فى مجلس الذكر ، فاحسست بأن عورتى كشفت وذهبت لذة خطابى لله عز وجل ، فلما قمت ، وتوضأت ورجعت إلى لذة الخطاب ، ونظرت فيما فاتنى من الذكر مدة الوضوء فوجدت الوضوء أرجح منه .

فاعلم ذلك واعمل عليه تجد بركته والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم للمريد المستقيم إذا حصل أنه نظر إلى جارية أو حدث .

ولا يمسكون عليه الميزان الذى كان يمسكه السلف على المريد ، فإن ذلك أمر مضى حكمه ، وانتسخ .

ومن حسن السياسة أن يبينوا للمريد أنه كان يخشى ويشقى أن يعرف واحد من المخلوقين ، فكذلك يجب عليه الحيا من نظر الله إليه ويحذرون الجارية أو الحدث من أن يجيبوه إلى ما يطلب ، ويبينون له أن ذلك الحب الذى يدعيه حبا شيطانى يورث كلا منهما المقت .

وقد سمعت سيدى عبد الحليم ابن مصلح رضى الله تعالى عنه يقول :

من أراد أن يعرف أن محبته للحدث مثلا لله تعالى ، أو لغيره فلينظر فى نفسه فإن رآها تود أن تقبله أو تعافه لو وجد خلوة به ، أو يخطرذلك على باله ، فليعلم أن محبته لذلك الحدث مثلاً لغير الله عز وجل ، فإن من علامة المحبة لله تعالى دون حظ النفس أن لا يشتهى التمتع فى جسم ذلك المحبوب ، ولو بالنظر ، ومتى اشتهى تعشقا أو تقبيلاً له أو أن يمس جلده بيديه ، فهو من قوم لوط ، ولا يخفى سخط الحق تعالى عليهم وخسف ديارهم ومسخهم .

وسمعته أيضاً يقول :

لم يزل القوم سلفاً وخلفاً يحذرون العذاب من سكان الزوايا والربط من صحبه الأحداث ، ويقولون : أن صحبة العذاب للحدث من أشر ما يفتن الشيطان به المريدين ، فإن مخالطة النساء فى الزوايا لا يمكن ولو أمكن لأمرنا المريدين بالتزويج فكان كلما تحركت شهوة النظر إلى المستحسنات نظر أحدهم إلى امرأته ، وقضى وطره لكن لما تعذر ذلك وسوس لهم إبليس فى صحبة الأحداث ، وأن يظهر أحدهم أنه يحب الحدث لله تعالى وربما يعلم الله تعالى منه خلاف ذلك فأهلكه من حيث لايشعر .

وسمعته مراراً يقول : إذا رأيتم المريد يحب القرب من مواطن التهم كحب النساء والشباب فاتهموه فى دينه ، وإذا رأيتم الشاب الصالح يحب الرجل فظنوا به خيراً فإن الشباب يكره بالطبع من يتوهم منه الفاحشة فاعلموا ذلك أيها الإخوان وأعملوا ولا تأخذوا من حظ نفوسكم الخبيثة وإن ادعت نفوسكم أنها تحب حدثاً أوجارية لله تعالى بل عليكم بنفوسكم فامتحنوها بشيخ قد طعن فى السن فإن رأيتم نفوسكم لا تميل إليه فهى كاذبة أما إن رأيتم نفوسكم تميل إلى تقبيل يده والجلوس معه فهى صادقة وإلا فهى كاذبة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : أن يصفوا مقام قلوبهم

ويصير أحدهم إذا عصا أمر قلبه عصا الله تعالى كما كان عليه الأكابر من أهل الطريق .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

من بلغ مقام الكمال رأى خواطره المحمودة كلها رسل من الله تعالى إليه ، ومن عصا رسل الحق تعالى فقد عصاه بيقين .

وكان سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله تعالى عنه يقول :

بلغت إلى مقام إن عصيت قلبى غضب الله تعالى انتهى .

لكن هذا لا يسلم لكل من أدعاه إنما يقبل عن من استقام قلبه من أكل الحلال ، حتى صار يسف التراب إن لم يجد حلالا ، أو يطوى الشهر وأكثر .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رضى الله تعالى عنه يقول :

لا يبلغ العبد إلى مقام استقامة القلب ويصير يعصى بمخالفة خواطره إلى أن اطمأنت نفسه ، وتمكنت فى ذلك إذ الشيطان لا ييأس من قبول النفس وسوسته إلا إن

علم أنها اطمأنت ، ووافقت القلب ، وإلا من لازمـها قبول وسوسته ، وتكديرها للقلب كلما تحركت ومعلوم أن القلب إذا تكدر طمع الشيطان فى المريد ، لعدم النور الذى كان فى قلبه يحرقه إذا قرب منه ، وما صفا قلب مريد قط إلا ، وكان قلبه محفوف بالذكر .

وكما يتقى أحدنا النار خوفاً أن تحرقه كذلك الشيطان يتقى من نور الذكر خوفاً أن يحرقه انتهى .

وسمعت الشيخ أبو السعود الجارحى يقول : فى قوله تعالى (إن الذين آمنوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) .

اعلموا أيها الإخوان أنكم لاتنالوا صفاء الذكر والإخلاص إلا بالبعد عن المعاصى ، وبها ينفتح بابه ، فلايزال العبد يتقى حتى يحمى جوارحه من كل فعل بجانب الشريعة ويتقى ما يعنيه ومالا يعنيه حتى تصير أفعاله وأقواله كلها متوافقة لا تختلف فى شىء فلا يبقى إلا باطنه فيطهر باطنه من جميع المكاره ثم من جميع مايخالف أقواله وأفعاله أ هـ.

وهذا الاتقاء بالذكر مثله مثل الكواكب فى كبد السماء ، وصار القلب بها محفوظاً بزينة كواكب الذكر ، وهناك يبعد عنه الشيطان كل البعد وتبعد كل العبد الخواطر الشيطانية ، ولا يصير معه إلا خواطر نفسه ، وحينئذ يسعى فى قطعها واتقائهابميزان العلم إذ منها خواطر لا تضر العبد كمطالبات النفوس بحاجاتها ، ومعلوم أن حاجاتها تنقسم إلى حقوق ، وحظوظ ، وحينئذ يتعين التمييز بين الحق والحظ ، واتهام النفس بمطالبات الحظوظ .

وقد كان الشيخ أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه يقول :

من لم يتهم خواطره ، ويناقش نفسه فى كل نفس لم يثبت فى ديوان الرجال انتهى.

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

الخواطر رسل فإن كانت من الله وجب عليك العمل بما جاءت به ، وإن كانت من النفس أو القلب أو الروح وجب عليك التفتيش قبل الإقدام على العمل بها ويؤيد ذلك من طريق الإشارة قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) أى فتثبتوا .

وكان سهل من عبد الله يقول :

المراد بالفاسق فى الآية : الكذاب كما هو معروف فى كتب التفسير .

ومعلوم أن الكذب من صفات النفس لأنها على أشياء على غير حقائها ، فيتعين التثبت عند خاطرها ، وإلقائها؛ فيجعل المريد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت، ولا يستفزه الطبع، ولا يستعجله الهوى ، فقلت لأخى أفضل الدين رحمه الله تعالى :

فهل السر الذى يشير إليه القلب مرتب بعد القلب أو بين الروح والقلب .

فقال : من القوم من جعله بعد القلب وقبل الروح ، فقال نفس ، ثم قلب ثم سر ، ثم روح . ومنهم من جعله بعد الروح ، فقال : نفس ، ثم قلب ثم روح ثم سر وقالوا : هو أعلا من الروح والقلب لأنه محل المشاهدة والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إذا تصدر أحدهم لتربية المريدين

أن لايغفل عن أمرهم بمحاسبة نفوسهم على جميع مايقع منهم من أقوال ، وأفعال ، وخواطر ، فما كان من ذلك محموداً يأمرهم فيه بالشكر ، وما كان منه مذموماً يأمرهم فيه بالاستغفار ، ويكون ذلك على التدريج من سدس درجةإلى درجة ثم من درجة إلى عشر ، ثم من عشر إلى عشرين ، وهكذا ، وبهذه المحاسبة تحفظ الأنفاس ، وتضبط الحواس ؛ وتراعا الأوقات .

واعلموا أيها الإخوان أن الله تعالى ما فرق أولاً :

العبادات فى الليل والنهار إلا لعلمه تعالى باستيلاء الغفلة على غالب العبيد كيلا يطول زمن الغفلة ، ويستعبدهم الهوى ، وتسرقهم الدنيا ، فالصلوات الخمس كسلسلة

تنجذب بها النفوس إلى مواطن العبودية ليؤدى حق الربوبية ؛ فالمريد الحاذق هو الذى يحاسب نفسه بين كل صلاتين ؛ ويسد مداخل الشيطان من الصلاة إلى الصلاة بحسن المراقبة ؛ والرعاية ؛ ولايدخل قط فى صلاة إلابعد حل كل عقد فى القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة ؛ وحركة تكون على خلاف الشرع تنكت فى القلب نكتة سوداء ؛ ويعقد عليه عقدة .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله تعالى يقول :

لا يكمل الفقير فى مقام المحاسبة لنفسه ، حتى يصير يهىء الباطن لكل صلاة صلاها لضبط جوارحه الظاهرة ؛ والباطنة عن الحركة التى لم يشرعها الحق جل وعلا؛ ومن فعل ذلك أشرق فى كل صلاة صلاها نور على سائر أجزاء الوقت إلى الصلاة الأخرى ؛ فتصعد صلاته تامة منورة بنور وقته كما أن وقته يصير منوراً بنور صلاته.

وإذا وصل المريد إلى مقام المراقبة ، فلا يزال يراقب ربه عز وجل ، حتى يصير ملاحظاً للحق بقلبه فى كل لحظة ، ولفظه .

فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعملوا عليه تفلحوا ، ويصير أحدكم يكلم الله تعالى فى جميع ما يكلم به الناس من حيث لايشعرون ان شاء الله تعالى ، كما كان عليه الإمام سهل بن عبد الله التسترى ؛ واضرابه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : زجرهم وتوبيخهم لكل مريد استحسن شيئاً من أعماله

ولا يجوز لأحد السكوت على ذلك إلا لعذر شرعى ؛ وقد أجمعوا على أن كل مريد استحسن شيئاً من أعماله وجب عليه أن يرجع إلى ابتدائه ؛ فيروض نفسه ثانياً .

وقالوا : من لم يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه فهو مبعد عن مقامات الرجال غير قابل لها .

وأصل ذلك عدم الصدق فى التوبة فى الأول فإنها هى الأساس الذى يبنى المريد عليه كل مقام ، فكما أن من لا أرض له فلا بناء له كذلك من لا توبة له لا حال له ولا مقام .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله تعالى يقول :

لا ينبغى لشيخ إرشاد المريد الى طريق شهود عيوب الأعمال الا بعد الصدق فى التوبة ؛ فنزه يا أخى مريدك عن القاذورات الظاهرة ؛ والباطنة ؛ ثم بين له عيوب الأعمال تكن حكيم الزمان ، وهكذا القول فى كل مقام لا ينبغى لك أن تنقل مريدك عنه ، حتى يحكم أمره فيه ؛ فإن بناء الجدار يتبع بعضه بعضاً ومتى بنا بناء محكم ثم بنا فوقه بناء محكماً تزلزل الأعلا من المهلهل انتهى .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله تعالى يقول :

من أحكم مقام توبته حفظه الله تعالى من سائر الشوائب التى فى الأعمال فهى نظير مقام الزهد يحفظ صاحبه من سائر ما يحجب عن الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

• • •

الخاتمة الموعد بذكرها في الخطبة وهي تشتمل علي نبذة صالحة مما يقاسيه أهل الله تعالي من احتمال الأذا من جميع الخلق أقول وبالله تعالي التوفيق :

من أخلاقهم : عملهم دائما على ازالة الموانع التى تمنعهم من دخول الحضرة الآلهية فلا يصرون على مانع لحظة فى ليلة أو نهار ، وسائر الذنوب موانع لكن أعظم الموانع التكبر على أحد من المسلمين ورؤية الغنا عن الله تعالى والاشتغال عنه بما أعطاه له ، وشهود العز فى النفس فمن كان فيه خصلة من هذه الثلاث ، فهو ممنوع من دخول الحضرة بإجماع أولياء الله تعالى .

وفى كلام سيدى محى الدين فى الفتوحات :

خصلتان إذا كانتا فى عبد حرم من دخول حضرة الله تعالى مادام متخلقاً بهما وهما عز النفس وشهود الغنا .

وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلى فى كتاب القانون :

حكم الملك القدوس أن لا يدخل حضرته أحد من أهل النفوس ، ويجمع ذلك كله شهود العبد فى نفسه أنه دون كل جليس من المسلمين فى مقام الذل ، والفقر ، وذلك هو المشار إليه بقوله ﷺ من تواضع لله رفعه الله عز وجل ، ولا يكفيه فى ذلك أن يشهد ذلك فى نفسه ظناً ، وإنما يكون ذلك يقينا ، وكشفا ، فإن التواضع المشهود فى العامة هو أن يرى لنفسه مقاما عالياً ثم يتنازل منه إلى الناس . وذلك من جملة الكبر عند أهل الله تعالى فإن المراد أن يرى مقامه دون مقام الخلق أجمعين ببادى الرأى على الدوام .

فإذا ارتفع مقامه شهد حقارة نفسه فى حضرة الله تعالى .

فعلم أن من رأى نفسه فوق أحد عن عوام المسلمين على غير وجه حق . فقد شرع فى البعد عن الصواب ؛ ومن رأى نفسه دون أحد من المسلمين ؛ فقد شرع فى ديون الصالحين ثم انعقد إجماع العارفين على أن من كان عنده شىء من الكبر لا يصح له دخول حضرة الله أبداً ؛ ولو عبد الله تعالى فى الظاهر عباده الثقلين وإيضاح ذلك أن أهل الحضرة على ثلاثة أصناف أنبياء وملائكة وأولياء ؛ وليس عن أحدهم شىء من الكبر بإجماع المسلمين .

وهذا الخلق قل من يتخلق به من الفقرا ؛ ولذلك منعوا من دخول حضرة الله تعالى ؛ حتى فى صلاتهم ؛ وكل من لم يدخل حضرة الله تعالى ؛ فصلاته جسم بلا روح ؛ كالخشب اليابس .

وكان حمدون القصاررضى الله عنه يقول :

من رأى نفسه خيراً من فرعون فقد أظهر الكبر أى لأن خاتمته مغيبة ؛ فقد يختم له والعياذ بالله تعالى بالكفر فيكون مثل فرعون ؛ فليس مراده الحالة الراهنة ؛ وإنما المراد النظر إلى مايؤل إليه أمر العبد ؛ بحكم اليقين فى الآخرة وذلك أمر مغيب ؛ فليفهم .

وكان الإمام الجنيد رضى الله عنه يقول :

لا يبلغ أحد مقام التواضع الحقيقى ؛ حتى يرى نفسه أنها ليست بأهل أن تنالها رحمة الله تعالى ؛ وإنما رحمة الله تعالى لها من باب الفضل والمنة .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى أول كتاب العهود ؛ وأول الخاتمة من كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة تحملهم للبلايا الواقعة في أبدانهم وأموالهم وأعراضهم ويرون أنهم يستحقون أعظم من ذلك

كمن استحق النار فعولج بالرماد ثم إن إنزال الحق تعالى البلايا بأصفيائه لايخلوا إما أن يكون لرفع مقامهم ؛ أو اختبارا لهم ؛ ليريهم صدق نفوسهم ؛ فيشكروا أو كذبها ؛ فيستغفروا أو ابتلاهم ؛ وصبرهم ليقتدى الناس بهم ؛ أو تكفيرا لذنوبهم بالنظر لمقامهم ؛ فإنهم يعلمون أن الله تعالى عليم حكيم ؛ وإن فعلوا فعله تعالى عين الحكمة لا بالحكمة لأن لا يكون فعله تعالى معلولا فأفهم .

وأعلم يا أخى ذلك واستعد للبلا إن طلبت أن تكون من أهل الله تعالى فإنه لابد لأهل الله تعالى من البلا شاؤا أم أبوا فكان الكامل منهم يدور عليه البلا كما تدور الرحى على قطبها فلا ينفك يعيش هذا البلاء وليس له بلاء آخر عاش والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : إحتمال الأذي من الخلق وعدم التغير من حصول البلاء لهم

إكتفاء بعلم الله عز وجل

فإن أنكر عليهم منكر وذلك يكون فى حالتين فإما إن كان محقاً فالغيظ منه لا سبيل له لأنهم مخطئون وقد كتب فى دواوين السماء قبل الأرض أن يتلفظ هذا به .

وإن كان باطلا ، فالغيظ كذلك منه حق لأنه لم يكتب فى ديوان السماء ، فلاعقوبة عليه ، فالعاقل لا يتغير من كل كلام قيل فيه بكل حال .

وقد تحققت بذلك ولله الحمد ، فلم يزل يقوم لى فى مصر كل قليل جماعة بعد جماعة يفترون على كلاما ويشيعون أن ذلك راؤه فى مؤلفاتى ، ثم يستفتون على العلماء فيفتون بالحط الشنيع على . وأنا بحمد الله تعالى برىء من ذلك كله لكن قد حصل لى بذلك إدمان كثير ، فجزى الله تعالى كل من افترى على كذباً خيراً ، فإنى لو سجدت لله تعالى على الجمر شكراً له تعالى ما أديت شكره على ما حصل ممن أذانى من الإدمان فالحمد لله رب العالمين .

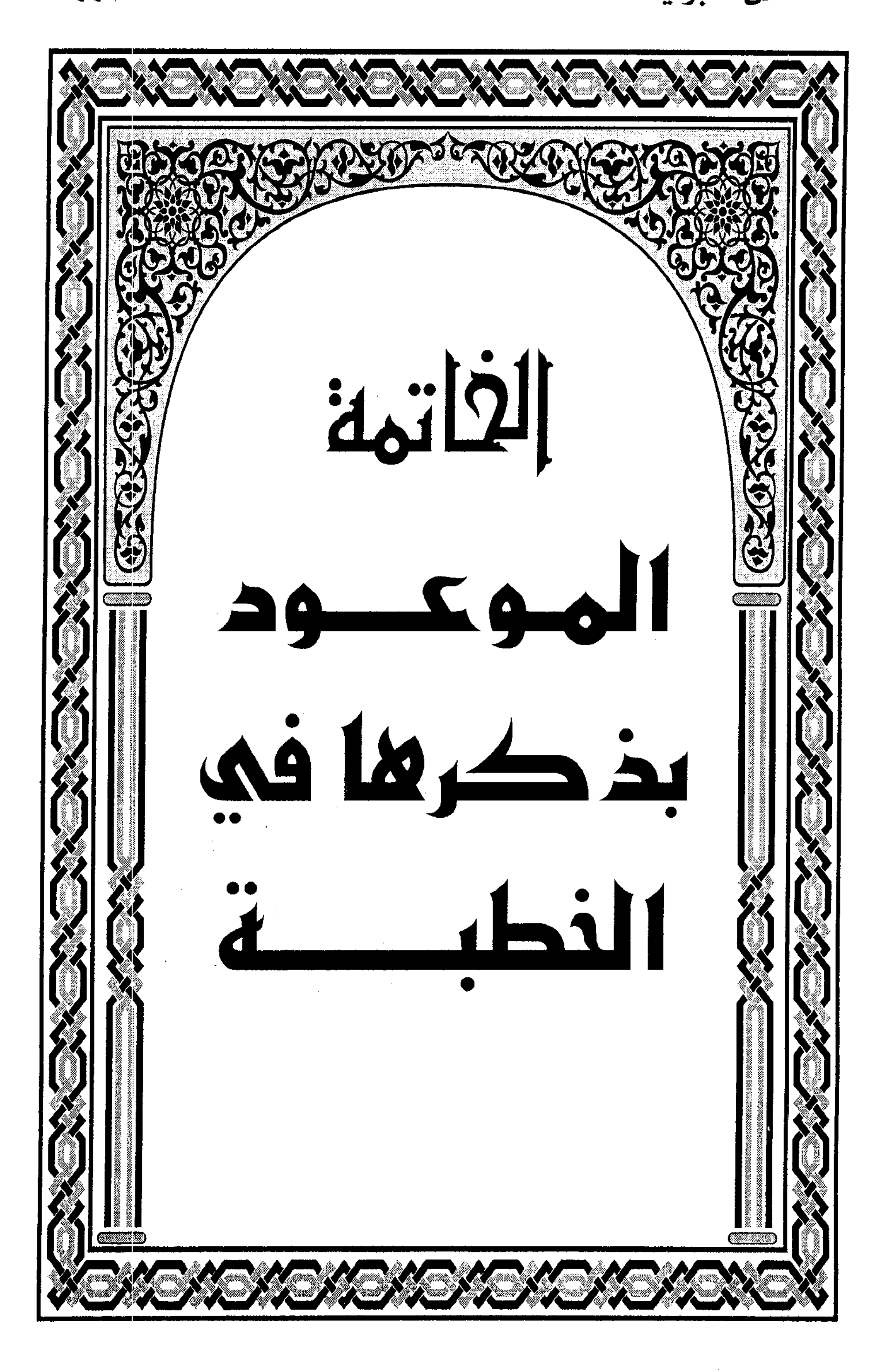
• • •

ومن أخلاقهم : قلة ضجرهم وقلة تقلقهم من كثرة ما يقال فيهم من الأذي

وذلك لعلمهم كشفاً أو إيماناً أنهم فى حضرة الله تعالى ، والإنسان إذا كان فى حضرة حاكم عادل لا يخفى عليه ظلم الظالم فمن لازمه قلة التكدر ممن أذاه لأنه يعلم أنه يأخذ له حقه كاملاً إن كان مشهده أن له حقا على أحد منهم إكراماً من عبيد الله تعالى وإن كان لايرى له حقاً على أحد منهم إكراماً لمن هم عبيده أو إكراماً لمن هم من أمته ، فكذلك ، فما بقى التكدر يصح إلا مع من كان محجوباً عن هذه المشاهدة ، وذلك حكم العوام لا حكم أهل الله تعالى .

ومن المساعد لهم على قلة التكدر ممن ينقصهم كون أحدهم لا يطلب عند الخلق مقاماً . فلو طلب أحدهم عند الخلق مقاماً لتكدر ضرورة من كل من نقصه عندهم .

فليمتحن الإنسان نفسه ولينظر إذا حدث أن جميع أهل بلده واقليمه ، رموه بالعظائم حتى نفر منه الناس هل تكون نفسه راضية بعلم الله تعالى فليعلم أنه صادق ، وإن رآها تغيرت ، فليعلم أنه كاذب فى دعواه الصدق مع ذلك ، فمن الأدب أن لايرى لنفسه مقاماً عظيما لأن ذلك مقام ابليس فإن أهل المكان العلوى والسفلى يلعنه ، ومع ذلك فلا يتغير من لعنتهم له والحمد لله رب العالمين .



الخاتمة الموعود بذكرها في الخطبة

ومن أخلاقهم : بعد إدمانهم علي تحمل البلايا والمحن

الشكر كلما أذاهم انسان فيشكرون الله تعالى الذى صبرهم على تحمل أذاه ، وجعلهم لايشتغلون بمقابلته ثم يقيمون لمن أذاهم العذر فى نفوسهم ويقولون :

ما أذانا إلا . وهو فى غفلة عن كوننا نحن ، وإياه فى حضرة الله تعالى

أو عن كوننا عبيد الله تعالى ،

أو عن كون الحق تعالى نهاه عن ذلك ،

أو عن كوننا من أمة سيدنا محمد ﷺ،

أو فعل ذلك اختباراً لنا لينظر هل نصبر على ذلك أو نتقلق منه ، فيفرح بنا فى الأول ، ويصير يربينا فى الثانى لإخلالنا بواجب حقه .

أو مخالفتنا لأغراضه ، ونحو ذلك من المحامل الحسنة .

وسيأتى عن سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه : أنه كان يحزن على موت عدوه الذى كان يؤذيه ، ويقول : مات الذى كان يحصل لنا الأجر والخير بسببه .

وهذا خلق لم أر له فاعلاً من أقرانى إلا قليلاً ، وغالبهم لا يقيم لمن آذاه عذراً ابداً .

فعلم أنه ينبغى لكل من قام عليه قايم أن يتطلب من الله تعالى وجه الحكمة فى ذلك، فإن أطلعه الله تعالى عليه فذاك ، وإلاسلم لمولاه فإن الله تعالى أعلم بمصالحه منه .

ولما شفعت عند الوزير على الباشاه بمصر فقبل شافعتى ، وكان قد شفع قبلى جماعه ، فردهم تحزب الحسدة على من كل جانب ، وكتبوا فى قصصا بالتجريح ليغيروا قلب على باشاه على ، حتى لا يقبل شفاعتى بعد ذلك ، فأول ما بلغنى ذلك بادرت إلى شكر الله تعالى ، ورأيت أن عدم قبول شفاعتى أريح لسرى ، وسره ، فإن من شأنه التضييق على عمال السلطان فى أخذ الأموال التى عليهم ، فلا يسعه من جماعة السلطان أن يقبل شفاعة من شفع فيهم أن يصبر عليهم ، ولايضيق عليهم ولايسع الفقير إلا أن يشفع فيصير الفقير الباشاه فى تعب فتار يغضب الفقير على الأمير وتاره يغضب الأمير على الفقير فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : صبرهم على رميهم بالزور عند الملوك والأمراء

وعلى عمل الأعداء الحيل على نفيهم ، وإخراجهم من أوطانهم ، وهذا من أعظم أخلاقهم لما سيأتى بيانه قريباً إن شاء الله تعالى .

وقد بلغنا أن أهل المغرب قاموا على سيدى الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، ورموه بالعظائم فلما بدأ فى الرحيل من بلادهم إلى مصر كتبوا فيه مكاتبات لسلطان مصر بأنه سيقدم عليكم رجل زنديق يأخذ بقلوب الناس من حلاوة لسانه ، وقد أتلف عندنا عقائد كثير من الناس فأخرجناه من بلادنا . فإياكم أن تمكنوا أحدا يجتمع عليه . وإن منعتموه من سكن بلادكم حصل لكم خير كثير ، فما وصل الشيخ أبو الحسن إلى اسكندريه حتى وجد البلد ممتلئة بذكر نقايصه ، فأرسل له سلطان مصر جماعة يجادلونه فى الدين ، فوجدوه على الكتاب ، والسنة وأعلموا السلطان بأن تلك المكاتبات إنماهى من كلام الأعداء ، والحاسدين فاعتقده السلطان غاية الإعتقاد، ثم نزل إلى زيارته من مصر ، فتلقاه الشيخ من باب اسكندرية ، فبلغ ذلك أهل المغرب ، فكاتبوه فى حقه بكلام أقبح من الأول ، وأعانهم جماعة من المغاربة باسكندرية ، أنهوا للسلطان أنه يعمل الكيميا ، فتغير اعتقاده فيه ، فوقع أن خازندار السلطان فعل أمرا يوجب القتل فخاف من السلطان وهرب إلى الشيخ باسكندرية فحمل ذلك إلى السلطان فأرسل له السلطان يغلظ عليه ويقول له : تتلف على أصحابى وعمالى ، فقال نحن ممن يصلح ما نحن ممن يفسد ، ثم أخرج المملوك من مخبأه وقال له : خذ هذا ؛ فبال عليه فانقلب الحجر ذهباً خالصاً فقال الشيخ : خذوا ذلك للسطان يضعه فى بيت المال فاعتذر السلطان عن ما كان منه إلى الاعتقاد ثم نزل لزيارة الشيخ وطلب منه أن يعطيه المملوك ليبول له على ماشاء من الحجارة فقال الشيخ للسلطان فاعتذر لأنه فى ذلك من الله تعالى ، ولم يزل السلطان على اعتقاد الشيخ وعرض الوظايف ، والرزق فأبى ، وقال : الذى يبول خادمه على الحجر ، فيصير ذهباً بإذن الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من الخلق ، ثم أن الشيخ أبو الحسن سافر إلى الحجاز من ناحية القصير ، فمات

فى الطريق فى صحراء حميثرة « وقبره هناك ظاهر يزار» وكذلك وقع لتلميذه الشيخ أبى العباس المرسى أن سلطان المغرب كان يعتقده كل الاعتقاد » فوشا الفقهاء بينهما» حتى صار ينكر عليه غاية الإنكار» ووضع له دجاجة ميته بين دجاج مذبوح ، وقدمها إلى الشيخ ، وقال : إن كان هذا من أولياء الله تعالى ؛ فهو يطلعه على الدجاجة الميتة ، فلما وضعوا السماط أشار الشيخ إلى الفقراء بأن لا أحد يأكل من ذلك الطعام ، وقال : إن مرقه نجس من الدجاجة الميتة ، وأخرجها بعود من بين المذبوحات فاعتقده السلطان، ثم مازال أهل المغرب يؤذونه ، حتى جاء إلى اسكندرية ، فعقدوا له مجلس المناظرة ، فقطع علماء مصر بالحجج ، وسلك على يديه ثلاثون قاضياً وعدوا ذلك من جملة كراماته .

قلت : وقد وقع لى من الأذى نحو ذلك من جماعة معروفين فى مصر ؛ فأخذوا من بعض المغفلين من أصحابى كتاب العهود الذى كنت ألفته ، وكتب عليه أئمة الإسلام من الأئمة أهل المذاهب الأربعة ، وكتبوا منه بعض كراريس ، ودسوا فيها كلاما فخالف ظاهر الشريعة وسبكوه فى أثناء كلامى حتى كأنهم المؤلف للكتاب ، ثم أخذوا تلك الكراريس ، ودخلوا بها الجامع الأزهر الذى هو قلعة الإسلام ، وقالوا للعلماء : أنظروا هذا الكتاب الذى ألفه فلان فوقعت فتنة عظيمة ، وبادر المنكرون إلى الإنكار ثم داروا بتلك الكراريس على أكابر مصر من الولاة ، والمباشرين ، وأنا لا أشعر ، فلما شعرت بذلك أرسلت لهم النسخة التى عليها خطوط العلماء كالشيخ ناصر الدين اللقانى، والشيخ شهاب الدين وشيخ الإسلام الفتوحى وغيرهم من كبار العلماء والمشايخ المتثبتين ففتشوها فلم يجدوا فيها شيئاً من التهم والأباطيل وانتصر لى غالب العلماء بحمد الله تعالى .

وقد حدث لى أيضاً أن أشاعوا عنى أننى أدعيت الإجتهاد المطلق وانتشر ذلك حتى صاروا نحو ثلاثين ألفاً ، ثم كتبوا بذلك للسلطان سليمان بن عثمان ، فلما وصلت المكاتبات حصل رج فى اصطنبول ، وكان هناك سيدى أبو اللطف ولد شيخنا فدار على

الوزراء والقضاه وبرأ ساحتى عندهم ثم لم يزالوا يؤذونى إلى وقتى هذا ، وما بلغنى أنهم كتبوا على خد باب السلطان بقلم غليظ الشيخ عبد الوهاب سلطان البر والبحر بقصد أن السلطان يقرأ ذلك ، فيتغير ، ويسأل عنى فيؤذينى فحمانى الله تعالى ممن مس ذلك من أصحابى ثم إن السلطان أرسل لى السلام ، ومع ذلك بساطا أصلى عليه ، وأدعوا له وهو عندى الآن وحصل بذلك لأعدائى غاية الهم ، والغم ، فالله تعالى يغفر لهم آمين آمين آمين والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة تحملهم للأذي في دار إقامتهم وعدم محبتهم الرحيل منها فراراً من الأذي

حتى كان أبو يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه لا يقيم إلا فى موضع الإنكار عليه ، وقد وقع لسيدى إسماعيل بمنبوبة تجاه ساحل بيلاق بمصر المحروسة أن أهل منبوبه أشتد إنكارهم عليه فطلب الرحيل عنهم فأناخ جمله وصار يضع عليه من أمتعة البيت ، ثم قال يكفينا بحملة فقال صبى صغير هناك ياعم الجمل يحمل أكثر من ذلك ، فأخذ سيدى إسماعيل من ذلك معنى وقال الجمل يحمل ، ورد أمتعته التى كان أخذها للدار ، فبينما هو واقف إذ سمع قائلاً يقول : يا إسماعيل قد عرفت تأبى العيا ولو مست من القتب واستمر فى تحمله ، فأيده الله تعالى به وبكلام الصغير .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إذا مات عدوه الذى كان يؤذيه :

ياليته بقى معنا كان يحصل لنا على يديه الخير

وكذلك سيدى محمد الشناوى . أخرجوه من بلده الحصة إلى محلة روح فكان بها إلى أن مات .

وكذلك سيدى إبراهيم المتبولى أخرجوه من متبول فدعى على بعضهم بسواد الوجه؛ وبعضهم بالهيئكة فلم يزل البعض الأول يلدوا أولاد أخدودهم سود والبعض الآخر الثانى يلدوا أولادا تلوط الناس فى ذكورهم ، ويزنون بإناثهم .

ولم يزل الأولياء على ذلك سلفاً وخلفاً تبعاً للأنبياء . فى ذلك ، فما من نبى إلا وأخرج من بلده إلى غيرها ، ومات بها لكن جميع ما نقل من ضجر الأولياء من البلايا إنما هو فى بداية أمرهم ، ثم إذا ارسخوا ثبتوا للآذى ، ورأوا الفضل لمن أذاهم عليهم . ثم سألوا الله تعالى أن لايؤاخذ من أذاهم لا فى الدينا ، ولا فى الآخرة ، وبعضهم يصير يبتسم كلما أذوه ، ويدعوا لهم بالمغفرة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

جميع ما بلغكم من السلف من التقلق ، والرحيل من كثرة الأذى إنما ذلك كان فى مبتدأ أمرهم ، وأما حال نهايتهم ، فحكم من يؤذيهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد تزيله بنفخها انتهى .

وسمعته مرة أخرى يقول: إنما كان خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة تشريعاً لأمته ﷺ، وإلا فهو ﷺ ، كان يحمل أكثر مما حصل له من الأذى بل يقدر على أن يحمل أذى الثقلين لأن بداية النبوة أكمل من نهاية الولاية فافهم .

قال : وكذلك أمره ﷺ حساناً أن يناضل عنه المشركين بالهجاء إنما كان ذلك تشريعاً لأمته لا عدم قدرته على تحمل أذاهم انتهى .

وسمعته مرة أخرى يقول : على الولى إذا وصل إلى مرتبة القطب أن يتحمل من البلايا مالا يطيقه الجبال فإن بلاء أهل الأرض كله ينزل على القطب أولا ثم ينتقل إلى الذى يليه فى القطبانيه ، ثم إلى الأوتاد الأربعة ثم إلى الإبدال فلا يزال ينتقل من مرتبة إلى أخرى من أصحاب الدواير والمقامات ، ثم إذا فاض شيء بعد ذلك تحمله عباد الله من خلص المؤمنين ، فربما وجد أحد ضيقاً فى صدره وقد يشعر أحد الناس بالقبض يلزمه ، ولا يعرف سبب ذلك فهذا سببه انتهى وقد بينا ذلك فى خاتمة كتاب المنن الكبرى فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم تمكينهم أحداً من الناس يجيب عنهم من رماهم بزور أو بهتان وهو من أعظم أخلاق الرجال

وكان أخى الشيخ أفضل الدين يحلف أصحابه أن لايجيبوا عنه أحداً رماه ببهتان من باب الانتصار له ، ويقول :

إن كنت ولابد مجيباً فأجب من حيث أن الشارع أمرك بأن ترد عن عرض أخيك المسلم .

قال : وذلك لأنى أزعم أنى من جملة المحبين لله تعالى ، ولابد لكل محب من الإمتحان بالبلايا ، حتى يعرف صدق نفسه من كذبها ، فمن راعى محبة ربه فنى فى جنبها كل شيء يقاسيه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

لابد لمن يطلب أن يكون من أهل الله تعالى من وجود حاسد أو عدو يؤذيه ، فإن صبر نال مقام الإمامة ، وإلا خرج نحاسا ، وتأخر قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » وقال تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا» .

قال : والنكته فى ذلك هو أن الحق تعالى لا يصطفى قط عبداً من عباده إلى حضرته ، وهو يطلب له مقاماً عند الخلق ، فلذلك يسلط الله على العبد الأذى ، حتى يصير لايركن إلى أحد من الخلق ، فإذا تحقق بذلك اصطفاه الله تعالى ، ومادام يركن إليهم ويحب اعتقاده فيهم ، فهو بعيد عن مقام الاصطفا .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول :

جرت سنة الله تعالى فى أنبيائه وأصفيائه على كثرة الأذى فى مبتدأ أمرهم ثم تكون الدولة لهم آخراً إن صبروا .

وقد بسطنا الكلام على من أوذى من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم فى كتاب المنن ، وذكرنا من قتل من الخلفاء والملوك ، والأمراء ، فراجعه ، والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة شكرهم لله تعالي كلما نقصهم عدو أو حاسد ورماهم بالبهتان

لعلمهم بأنه مانقصهم إلا بعد أن شهد علو مقامهم عليه ، ولولا ذلك ما أشغل نفسه بتنقيصهم لأنهم ناقصون حينئذ فى ذهنه .

ثم غالب ما ينقص به الحاسد من فاقه فى العلم ، والعمل والجاه مثلاً أمور باطنيه ، ككبر ، وعجب ، وحسد ، وحقد ، ومكر ، ومحبة رياسة ، ونحو ذلك ، لأن المعاصى الظاهرة لاتكاد تقع من العلماء ، والمشايخ إلا نادراً ، فلو أن الحاسد رماهم بترك الصلاة أو بشرب الخمر لكذبه الناس ، وردوا عنهم أشد الرد ، فلما عجز عن إيصال الأذى لهم برميهم بالمعاصى الظاهرة عدل إلى رميهم بالمعاصى الباطنة لعلها تقبل فى حقهم .

ثم لا يخفى أن تسليط الناس على الأوليا بالأذى إنما هو تكفير لذنوبهم أو اختبار لهم أو رفع لدرجاتهم لا رابع لهذه الأمور وأما تسليط الخلق على الأنبياء ، فإنما هو رفع درجات لهم ، وليقتدى بهم الناس فى الصبر إذ ليس لهم ذنوب تكفر كما لنا ، ولا يحتاجون إلى الاختبار لعصمتهم فافهم .

وكان الأمام زين العابدين رضى الله تعالى عنه إذا انقصه أحد يقول :

اللهم إن كان صادقاً فأغفر لى ، وإن كان كاذباً ، فأغفر له .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول : اللهم : أكثر حسادى واعدائى .

فقلت له : لماذا ؟

فقال : لأنهم إذا كثروا لم يكن لذلك معنى إلا كنت فى خير ولو أننى كنت فى نقمه ماحسدونى .

ولكن ليس معنى ذلك عدم الإنكار على الحاسد بل لابد من الإنكار عليه وبيان حكم الشرع فيه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : رجوعهم إلي الله تعالي بالإستغفار كلما أذاهم أحد والوقوف بين يديه سبحانه وتعالي

إذ لايصح تسليط الخلق على العبد مادام يشهد أنه بين يدى ربه أبداً بل هو فى حماية الله تعالى من الجن والإنس وغيرهم، وإنما يقع التسليط إذا غاب عن هذا المشهد.

وقد جربنا فما وجدنا شيئاً أسرع لتسكين العدو من الاستطال بالله تعالى ، وكثرة الاستغفار .

وقد غاب عن هذا المشهد كثير من الناس فدام الأذى عليهم فلا يزال أحدهم يرى نفسه مظلوماً ، ولا يتذكر له ذنبا .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول :

إذا اشتغل الناس بك ، فاشتغل أنت بربك فإن بيده زمام جميع الأمور ولا تشتغل بمقابلتهم تتعب ، ثم لايزداد الأمر شده .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

إذا بالغ أحد فى إيذائك فاسكت فإنه يرجع عنك ، ولو على طول ويخجل منك بخلاف ماإذا قابلته ، فإن الدخيرة تعظيم بذلك .

وقد أوحى الله تعالى إلى السيد داود عليه الصلاة والسلام : ياداود إن طلبت نصرتى لك ، فلاتبغ على من بغى عليك ، فإنى لا أنتصر إلا لمن رضى بعلمى فيه ، ولا

تستبط إجابة دعائك فى حق من أذاك فإنى إنما أفعل ذلك لأعاملك به إذا ظلمت شخصا، ودعى عليك فإن طلبت سرعة إجابة دعائك على خصمك ، فاستعد لسرعة إجابة دعاء خصمك عليك انتهى. وفى البخارى إن شخصاً من بنى إسرائيل سرق دجاجة فلما ذبحها ونتف ريشها نبت الريش فى جسده وحاول إزالته بكل حيلة ، فلما دعت عليه صاحبة الدجاجة سقط الريش .

والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم : إذا أذاهم إنسان ولم يستطيعوا دفع أذاه .

أن يطلبوا النصرة لأنفسهم .

وسمعت سيد علياً الخواص رحمه الله تعالى يقول :

لايقدح فى مقام الكمل انتصارهم بأحد من الخلق لأنهم يشهدون إنتصارهم بالخلق من جملة نصرة الله لهم من حيث أن له الفعل بالآله وبلا آله قال تعالى « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » وقال تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم» الآية انتهى .

ويؤيده انتصار الأنبياء بأصحابهم كما قال تعالى « وإذ قال عيسى ابن مريم للحوارين من أنصارى إلى الله » أى مع الله فاستعمل الواسطة من غير وقوف معها ، حتى لا يعطل استعمالها وهو معتمد على الله تعالى لا على الخلق ، فعلم أنه لايقدح فى كمال الولى الاستناده إلى الخلق مع غفلته عن كون نصرتهم له من الحق وسيأتى انتصار سيدنا رسول الله ﷺ بالانصار ، وبحسان ابن ثابت قريباً إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة رحمتهم ومداواتهم لمن يرونه مقراضاً في الناس

فيطعمونه أحسن ماعندهم ، ويجلسونه على أوطى الفرش ، ويحلفون عليه أن يأكل أو يجلس كل ذلك حتى لا يقع فى حقهم ، فيأثم ، وخوفاً على أنفسهم أن العناية تتخلف عن أحدهم ، فيصير الآخر يقع فى عرض من يقع فى عرضه .

وهذا الخلق قل من يتنبه له من الناس ، وإن وقع أنهم أكرموا المقراض فإنما ذلك خوفاً أن يقع فى عرضهم بين الناس ، فينقص مقام أحدهم لا خوفاً على المقراض من وقوعه فى الإثم .

وقد وقع لى مع شخص من أهل الجدال أنه دخل على ، وأنا مريض ، فلم أقل له أجلس على الطراحة ، فمزق عرضى وصار يقول : عزم على عبدالوهاب عزومة محلولة مع أنى كنت فى مرض شديد ذلك اليوم ، وكنت لا أقدر على فعل شيء لدرجة الفطر فى رمضان فكن يا أخى على حذر فإن عندهم لساناً يروجوا به الباطل ويطلبون من الإكرام ماليس عند الأمرا والأكابر وقد جاءنى قاضى العسكر ذات يوم وكان فى أدب جم فطلبت منه الجلوس على الفرش فأبى وجلس على الحصير فانظر الفرق بين هؤلاء ، وأهل الدعوى من التواضع والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة محبتهم وشفقتهم علي كل من أساء إليهم أكثر محبتهم وشفقتهم علي من أحسن إليهم.

فإن المحب لمن أحسن إليه إنما ينظر إليه بكثرة نفعه له .فلاشك ولاريب أن من آذاك فقد تكرم عليك فى الآخرة بدينه ، وبصالح أعماله ، وذلك أعظم من حطام الدنيا جميعه ، لكونه مكنك بأخذ حسناته يوم القيامة أو من وضع سيئاتك فوق ظهره إن فنيت حسناته كما ورد .

وهذا خلق غريب قل من يتخلق به من الأقران ، وقد تخلقت بذلك ولله الحمد فأنا أجد فى نفسى الآن كثرة المحبة ، والحنو على كل من آذانى أكثر ممن يحبنى ويحسن إلى ، وصاحب هذا المشهد لا يرى أحداً من الخلق مسيئاً إليه أبداً « إنمايراهم كلهم محسنين إليه ، فمن لم يحسن إليه بالإحسان العادى ، وبالغ فى ايذائه ، فهو محسن إليه بدينه » ولا يخلو أحد من هذه الثلاثة أمور .

وقد كان سيدى على الخواص إذا رأى أحداً يقرض فى عرض الناس يقول له :

ياولدى أكثر من الأعمال الصالحة لتعطى منها أصحاب الحقوق يوم القيامة .

وسمعته يقول لمقراض :

لو علمت ياولدى تحكم المظلومين فى أعمال الظالمين ما نمت الليل « وكنت تصوم النهار» وهيهات أن يتحصل من أعمالك شىء يكفى الناس الذين وقعت فى أعراضهم.

وسمعته مرة أخرى يقول :

لايمكن أن يفرح بكثرة إيذاء الخلق له إلا من لم يطلب له مقاماً فى الدنيا ، لزهده فيها ، وفى أهلها ، وإلا فمن لازمه غالباً التكدر فإنه يكون بعيداً عن أن يفرح به انتهى والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: النظر بالرحمة على من يؤذيهم

وقد أبلغنا أن من أخلاق العارفين أنهم ينظرون بعين الرحمة والإحسان لمن أذاهم قبل من أحسن إليهم ، وذلك ليزيلوا من نفسه كل حقد وحسد، حين يرى مقامهم عند الله .

وهذا من أعظم فتوه تكون لهم فى الآخرة ، فإن المحسن يشفع فيه إحسانه ، والمسىء ربما عاقبه الله تعالى بإساءته .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين يقابل من أذاه باللسان فقط دون القلب بقصد تخفيف العقوبة عن عدوه فى الآخرة ، لعلمه بأنه إذا لم يقابله كان خصمه الله ، ولايخفى شدة عذاب من خاصمهم به ، «وكل هذا من جملة تخلق القوم بأخلاق الله تعالى صورة» ، فإنه تعالى ماذكر أنه استوى على العرش إلا بإسم الرحمن فعمت رحمته جميع من حواه العرش إما رحمة إيجاد ، وإما رحمة إمداد وإما رحمة إمهال ، فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : عدم إتعاب سرهم في تدبير حيلة يقابلون بها من أذاهم بقول أو فعل فإن كل كلام معني مضمون .

وربما أنساه الله تعالى له وقت الحاجة عقوبه له لتدبيره مع ربه تعالى : وهذا خلق غريب وغالب الناس إذا قام عليه عدو أو حاسد يصير يسهر يهد ، ويبنى فى الحيل طول ليله ، وقد حذرنا الله تعالى تحذيراً مطلقاً من المكر بأحد من المسلمين ، أو من فتنتنا لأحد منهم سوءاً بقوله تعالى « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض» الآية .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

من أقبح ما يقع فيه العالم أو شيخ الزاوية مقابلته بالأذى لمن يؤئيه فإنه مثله فى الأذى ، كما أشار إليه قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها» فسمى سيئة المجازاة سيئة كذلك وأكدها بمثلها ليتنبه العارف على ترك المقابلة ولا يفعل فعل أهل السوء انتهى وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فى الخاتمة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم : إذا قام عليهم قايم يؤذيهم أن ينظروا في السبب الذي حرك عليهم ذلك العدو لأن يؤذيهم

فإن لم يعرفوا السبب فى ذلك استغفروا الله تعالى من كل ذنب يعلمه سبحانه ، وسألوا . ربهم أن يدبرهم بأحسن التدبير وأن يسامح من قام عليهم ولو بغير حق .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

ما قام على أحد قط قائم إلا بذنب أحدثه ، ولو غفلة ؛ وإن كشف الله عن أحدهم الحجاب وجد الخلق الذى يؤذونه فى الدنيا إنما أذوه جزاء على أعماله ، كالحكم فى زبانية جهنم ، فإنهم على صورتهم ، فكما لا يسمى أحد من الزبانية ظلمة يوم القيامة، كذلك أهل الله تعالى لا يسمون أحدا ممن يؤذيهم فى دار الدنيا ظالماً أبداً يرونه كالمجبور على ما يفعله بهم لكن لا يخفى أنه لابد مع هذا المشهد من نسبة الظلم إلى من أذاه فى دار الدنيا بغير حق لأجل نسبة الفعل إليه بخلاف الزبانية لأنهم ليسوا فى دار تكليف هناك فافهم والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : كثرة محبتهم وتعظيمهم للعالم حتي لو أنكر عليهم أموراً في الطريق

لأن العالم ما أنكر إلا لأنه رأى أبناء هذا الطريق مخالفون لظاهر الكتاب والسنة .

فالفقير الذى يحذر أن يكون فى أمور طريقه فعل ما يخالف ظاهر الشرع والكتاب والسنة .

أما نظر فى طريقة ولم يظهر منه شيء يخالف الكتاب والسنة وظاهر الشرع فليحذر أن يخدش حياء هذا العالم .

ومن تأمل بعين العناية لوجد جنود الله تعالى أرسلهم إليه يحذرونه لعله يكون سببا فى مخالفة الكتاب والسنة .

فقد كان الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه يقول :

ما أمرنى فقيه بعمل إلا وضعته فى عينى وشكرت فضله ، ولو لم أكن وقعت فى شىء ، فالفقيه مجتهد فى الفهم ، فلا ينكر إلا مالم يقبله فهمه ، فما أنكر إلا على قدر ما أدى إليه اجتهاده من أن ذلك الأمر الذى أنكره خارج عن الشرع .

فياسعادة من كان مقيما فى مثل جامع الأزهر ، وجامع الغمرى ، فإن الفقهاء من المجاورين فيهما لا يكادون يغادرون صغيرة ولا كبيرة عملها إلا أحصوها عليه ، وناقشوه فيها فلا يتكدر من مثل ذلك إلا المرأى الأحمق .

ثم إن هذا الخلق لا يقدر على التخلق به إلا من تخلص من الرعونات النفسية ورزقه الله تعالى الإخلاص الكامل ، حتى صار لا يطلب له مقاماً عند أحد من الخلق .

وفى كلام سيد أحدم الرفاعى رضى الله عنه يقول :

ما وقف أحد مع الخلق ، وراعاهم على أعماله إلا سقط من عين رعاية الله تعالى .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من علامة المخلص لله تعالى أن ينشرح لمن ينكر عليه ، لأنه نبهه بذلك الأمر على أن يأخذ حذره عن الوقوع فيه ، ومن شأن العاقل أن يهرب من فعل كل شىء أنكروه عليه ، فالواجب على من نبهه أخوه على نقص أن يشكر فضله على ذلك ومتى تكدر من نصحه فهو من عدم الإخلاص فإن المخلص لم يزل يخاف من أن يكتب مع الأئمة المسلمين لعدم عصمته فربما تمادى على فعل يخالف ظاهر الشريعة فتبعه على ذلك جماعة فإذا وعظمهم فى ذلك عالم أنكروا عليه واعتقدوا ذلك .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

على كل من تصدر للمشيخة بين المريدين ووضع بين يديه أمر الطريق أن يحذر من خالفة الشريعة ، وإن وقع فى مخالفتها فيجب عليه إذا نصحه عالم أن يعلم الناس بذلك ولا يصر على المخالفة فإن ذلك يؤدى إلى الخسران المبين وضياع الطريق فيرتع فيه الشيطان .

وقد حكى القشيرى رحمه الله تعالى يقول :

أن أباعثمان المغربى كان يعتقد شيئا من الجهة فلما تاب نادى فى أصحابه قد أسلمت إسلاماً جديداً فرجع أصحابه كلهم عن ذلك انتهى .

فاجب يا أخى علماء الشريعة ، وجاورهم وخالطهم تفز بمعرفة الطريق المستقيم ، وأما قول سفيان الثورى وذى النون المصرى والفضيل بن عياض إياكم ومخالطة الفقهاء فإنهم إن أحبوكم مدحوكم فغشوكم ، وإن بغضوكم جرحوكم بما ليس فيكم وقبل ذلك منهم فمحمول على من لم يكن مشهده ما ذكرناه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: مبادرتهم للشكر إذا نقصهم منقص عند الأكابر من الملوك والأمراء كما يشكرون الله تعالي إذا كبروهم عند الأكابر ومدحوهم

بل أعظم لأن السلامة مقدمة على الغنيمة، واللامة هى نفرة الأمراء من الفقير فإن كثرة محبته لهم تورثه الركون إليهم، ولا يسلم أحدهم من الظلم غالباً فيصير يركن بقلبه إلى الذين ظلموا ويخالف قول ربه فى قوله تعالى «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار» الآية.

وقد تخلقت بهذا الخلق ولله الحمد فإنى لما طلعت إلى الباشاه على الوزير فى شفاعة قام لى وأجلسنى على كرسيه، وكنت قد خلعت نعلى خارج فرشه. فأمر بإحضاره وأخذه فى يده، فألبسه لى فى رجلى بيده وسمع بذلك الحسدة فتقطعت قلوبهم من

الغيظ، ثم شرعوا فى حيلة تنفره منى فكتبوا فيه: أنى شيطان نصاب ومعى أسماء أقرؤها على الولاه فيخضعون لى دون إرادة، وكان الباشاه يقرأ القصة تلك وهو ساكت فلما انتهى من قراءته أخذوا يذمون فى ويقدمون له أكاذيب أخرى حتى ندم على ماكان فعله معى من التعظيم والإكرام ولم يعرف حالى «فبلغنى ذلك، فخررت لله ساجدا على تلك النعمة حيث لم يجعلنى أركن إلى الأكابر أنى انشرح صدرى فعلمت أنى تخلقت بهذا الخلق يقينا ولو أنى لم ينشرح صدرى لعرفت أنى غير متخلق بهذا الخلق ولتكدرت ضرورة، ثم إن الباشاه أرسل إلى السلام والقصه وقال: إنى أعلم أن كل صاحب نعمة محسود، وإن العالم له عدو والشيخ له عدو، والباشاه مثلى له عدو، وقول العدو لا يسمع فى عدوه انتهى.

فالعاقل من يجد المنقص له عند الأمر أريح لسره عندهم ممن يكبره عندهم، فالواجب عدم التكدر منه لما حصل لنا على يده من الراحة، وإن لم يقصد هو ذلك وقد مر بسط ذلك مرارا فى هذا الكتاب فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة صبرهم علي أذي جارهم

لاسيما تخاصم النساء مع بعضهن فإن الأذى يطول لكثرة منهن بالباطل من غير تحقق، ولا تحرير وربما سمع كل زوج من زوجته، فصدقها، وكذب خصمه، فتنتقل العداوة بين الرجال، ويصل الأمر إلى الشكوى إلى الحكام.

فأعلم يأخى ذلك واصبر على أذى الجار وكل من أذاك بشىء، وقل الحمد لله الذى لم يكن ذلك أشد من هذا الأذى، واياك أن تشتكى الزوجة إلى زوجها، أو الأخت إلى اختها أو أخيها، أو الابنة إلى أبيها، وبالعكس إلا إن كنت تعلم خروج من اشتكيت اليه عن حكم الطبع وإلا فمن لازمه المجاملة عن أخيه، أو زوجته. أو من يلوذ به لميل كل واحد منهما إلى صاحبه بالطبع لا بحكم محبة الايمان، والطبع الروحانى لاسيما نساء

المجاورين فى الزوايا اذا كان الأزواج فى جمع واحد، فليس شىء أنفع لهم من الصبر والمغالطة لبعضهم بعضا بجميع صور المحبة، والضبط على كل ما يسمع وتبليغه لكل اذان فليس كل ما يسمع يقال فأعلم ذلك أيها الفقير واعمل به والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: صحبة أبناء الدنيا لغير غرض دنيوي

فليزهد الفقير فى الدنيا. ليصير أهلها لغير غرض دنيوى والا فمن لازمة محبة من يجلب ابناء الدنيا إليه، وكراهة من ينفرهم عنه لاسيما فى النصف الثانى من القرن العاشر الذى تكالبت النفوس فيه على الدنيا، وصار كل من بيده شىء من الدنيا عدوا لكل من ليس معه شىء منها إن لم يقسمه بينه، وبينه فلا من معه المال يقسم مامعه. ولا السائل يرجع عنه بالأذى.

وقد كان السلف الصالح إذا طلب منهم انسان الصحبة يقولون له: هل تطيب نفسك بمقسمتنا لك فى مالك! فإن قال: نعم صاحبوه. وان قال: لا قالوا له: اذهب بسلام.

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فراجعه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: محبة كل من طلبوه لصحبتهم فأبي لأنه أعتقهم من تعب الصحبة وحقوقها

فان من حقها أن لا يميز نفسه على صاحبه فى أكل ولا شرب ولا لبس. ولا محبة، وهذا يكاد يكون مفقودا لاسيما فى هذا الزمان.

ومن شروط الصحبة: أن يتفقد أحدهما عيال أخيه إذا سافر بالأكل والشرب، والنفقة، ولا يحوجهم إلى القرض من أحد.

ومن شروطها: أن يقاسمه فى حسناته كما سيأتى فعلم أن كل من تكدر ممن لم يصحبه فى هذا الزمان، فهو من الجاهلين والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة تحملهم هموم اخوانهم

فتجد الفقير امتنع من ابتدأ أحد بهديه خوفا عليه من تهمة أنه ينظر إلى الهدية بعين الإعتبار، ويمتنعون من قبول هدية أحد من اخوانهم خوفا من تهمة أنهم ينظرون إلى ما فى أيدى الناس فهم يتحملون هموم المسلمين من غير أن يكون عندهم رغبة لأن يكون المتحملين عنه ذو أيادى عليهم.

ووالله انى لأدخل فى هم أحد العباد فلا أتركه حتى يزول وأشعر بأن جسمى غلبه.

وكثيرا ما يجتمع على هموم كثيرة فأقول: فلا تبال يا أخى ما أقاسية، فإنى اشارك الكمل فى همومهم.

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن مقام تحمل هموم الناس هو لكل أحد، وإنما هو خاص بأفراد منهم كما مرت الاشارة إليه، وصاحب هذا المقام لا آخذ لقمة منه قلبا ولا جسمه، لا يكاد يأكل، ولا يشرب، ولا ينام. ولا يجامع ولا يضحك ولا يدخل حماما. ولا يلبس ثوبا نظيفا. ولا مبخرا حتى يزول. هم أصحابه. فحكمة حكم من مات له ولد عزيز. أو صديق حميم. فإنه لا يكاد يتفرغ لشىء مما ذكرناه وربما زال هم، فاستقبله هموم أخر، وهكذا كما بسطنا الكلام على ذلك فى خاتمة كتاب المنن والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: سرورهم بكثرة من يعاتبهم من حيث تحكيم الله لهم في حسناته يوم القيامة لا من حيث وقوعه في تلك الغيبة

فإنه يجب على العارف أن يغتم لذلك من حيث أنه شيء يكرهه الله عز وجل.

وكان سيدى أفضل الدين رحمه الله يقول:

كلما كثرت فلاحوا الامير كلما ازداد سعة فى الرزق، وكذلك من يستغيب الفقير هو فلاحه، فكما يزن الفلاح المشهور الخراج من المال كذلك يزن المستغيب للفقير خراجه من دينه، وأعماله الصالحة يوم القيامة. فاللائق بمن كثرت غيبة الناس فيه الفرح لا الغم إن كان يدعى مقام الإيمان، والتصديق بأحوال يوم القيامة. حتى كأنه رأى عين فإن من لازم من كان حاله عدم التصديق الغم لا الفرح فأعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم تصديقهم في الناس ما أشاعه عنهم البعض الآخر

وعدم سماعهم شيئا من الإشاعة من غير ثبوت، فان غالب الناس اليوم يكذبون على بعضهم البعض ويرمون بعضهم بأبشع التهم فهذا يجب عدم قبوله فى حق الناس وعدم السكوت عليه بل يجب النصح.

وقد كذب بعضهم فى حق بعض العلماء، حتى أخرجه من الجامع الأزهر وأثار عليه ثائرة الناس والعلماء. فسألت الذين أشاعوا عنه هذه الإشاعة إن كان عندهم دليل أو بينة على ثبوتها. فما حاروا جوابا، وسألت الناس أكل شيء أشيع يكون صحيحا فقالوا: لا فقلت: وكذلك ينبغى الحكم فى حق غيرك فليس كل شيء أشاعه الناس عن هذا الرجل يكون صحيحا فسكتوا ولم يجدوا جوابا، وظفرنى الله على من أشاع بالحجة، فرجع.

فان علمت يا أخى ممن يقع فى أعراض الناس الرجوع إليك باقامة الحجة، فأقم عليه الحجه، وإلا ففى المسئلة تفصيل لا يخفى على من نور الله تعالى بصيرته.

وقد وقع لى أنا هذه الاشاعة مرارا، وأنا أعلم أنى برىء مما أضافوه إلى يقينا، ولولا ما عندى من الرحمة لمن وقع فى عرضى بغير حق ما كنت أبرأت ذمته، ولا رضيت بجميع أعماله الصالحة فى غيبة واحدة.

فاحفظ يا أخى لسانك من الوقوع فى أعراض الناس مطلقا إلا بطريقه الشرعى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم تبريهم، مما يضيفه الحسدة والاعداء إليهم من ساير النقايص الا أن يكون فيما أضافوه إليهم حد من حدود الله تعالى

فلهم التبرى منه دون الاعتراف به لئلا يظلم أحدهم نفسه باقامة الحد عليها من غير موجب فافهم.

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى لا يتكدر ممن نقصه عند أحد من الأكابر ويقول:

لا يخلوا مانقصنى به من أن أكون وقعت فيه أم لا فإن كنت وقعت فيه، فالغيظ منه حمق، وإن لم أكن وقعت فيه فقد قبحه فى عينى، وحذرنى منه، فإن من شأن البشر أن يظن كل واحد أن النقصان عنه حاجبا وبعد عن الوقوع فيه.

والفقراء لا يغضبون مطلقا فإن الله تعالى مدح الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، وهم أحق من يتخلق بذلك، وقد رأيت فى واقعة لوحا مكتوبا فيه جميع ما احتوت عليه طينة البشرية، ورأيت جميع الصفات الحسنة، والقبيحة تغرب وتشرق فى كل إنسان من الأمة؛ وما خرج عن حكم ذلك إلا أهل العصمة.

وقد ذكرت فى خاتمة المنن الكبرى جميع الكلام الذى كان مكتوبا فى ذلك اللوح فراجعه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم شكواهم مانزل بهم لأحد من الخلق

وأما قوله ﷺ: «من يعذرنى فى رجل يبلغنى أذاه فى أهلى». فهو تشريع لضعفاء الأمة. فأياك أن تعتمد على نصرة أحد من الخلق لك لاسيما فى هذا الزمان الذى اشتغل فيه كل إنسان بنفسه، وبتهيئة أمر معاشه، فلا يكاد يتفرغ لتحمل هموم غيره فيه، وغاية أمر غالب الناس أن يقول لمن شكى إليه هماً من دين ، أو موت ولد أو عزل من وظيفة مثلا أن يقول له: لا حول ولا قوة إلا بالله الله الله الله، فيتوجع له باللسان فقط، أو بالقلب ساعة، ثم ينساه، وما هكذا كان الفقراء الذين أدركناهم إنما كان أحدهم يمكث الأيام والليالى متوجها فى إزاله ذلك الكرب الذى نزل بأخيهم لا يأكل ولا يشرب ولا ينام. ولا يضحك إلا ضرورة حتى تقتضى حاجة أخيه.

والفقراء اليوم قلوبهم فارغة من هموم بعضهم نسأل الله اللطف والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: العفو والصفح عن جميع من جني عليهم من هذه الأمة المحمدية في مال أو بدن أو عرض

ولا يطالبون أحدا منهم بحق فى الدارين أكراما لمن هم عبيده سبحانه وتعالى، ثم لمن هم من أمته ﷺ لا لعلة أخرى من طلب ثواب أو غيره لأن همتهم قد إرتفعت عن مثل ذلك. وأهل هذا الخلق قد صاروا قليلا فى هذا الزمان، ولم أر له فاعلا بعد أخى الشيخ أفضل الدين غيرى.

ولما دس الحسدة فى كتبى العقائد الزائفة وأشاعوها عنى فلا يعلم عدد من استغابنى فى مصر وقراها الا الله تعالى، فسامحت الكل، وقلت: اللهم أغفر لهم ما جنوه وإن لم أكن أعلمهم فأنت يارب تعلمهم، فقال بعض الإخوان: كنت صبرت عن مسامحتهم حتى تنظر حالك فى الآخرة، فربما تكون محتاجاً إلى حسنات من أغتابك، فقلت: لو أتيت القيامة خاليا من سائر الحسنات ماعدا الشهادتين لا أرجع عما سامحت الخلق به. فانى معتمد على فضل الله تعالى لا على الأعمال، وأستحى من الله تعالى أن أشاحح عبداً من عبيده؛ واستحى من سيدنا رسول الله ﷺ أن أشاحح أحداً من أمته فيصير يشفع يوم القيامة، ويحل المربوط، وأنا أربطه فالحمد لله رب العالمين وقد بسطنا الكلام على ذلك فى خاتمة كتاب المنن فراجعه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم تنقيص أحد من الناس في غيبتهم بعد موتهم كما يقع من بعض الحسده

فيتهمون المتوفى بأنه استراحت البلاد والعباد منه ويذكرون فيه من النقايص ما يمنع مدح الناس عليه من العفو والصفح والحلم.

ومما فعله أحد الشخصين اللذين دسا فى كتبى ما دسا من العقايد الزائفة والحط على الأئمة الأربعة ضد ما كنت فعلته فى كتبى، فأشاع موتى فى جامع الأزهر، وكتب بذلك إلإسكندرية، والمحلة، ودمياط. فأرسلت من طريق بعيده أنظر ماسبب ذلك، فسمع شخصا من طلبته يقول: إنما فعل شيخنا لك، لينظر ماذا يقول الناس فى فلان بعد موته من ذكره بالنقائص انتهى.

فالحمد لله تعالى ما ذكر الناس عنى إلا خيرا، فلا تسل يا أخى ما حصل لذلك الحاسد من الغم، وقد فعلوا مثل ذلك مع الشيخ برهان الدين البقاعى فأنشد وهو لسان حالى أيضاً:

ألا رب شخص قد غدا إلى حاسدا *** يرجى مماتى وهو مـــثلى فـــأنى
ويااليت شــعـــرى إن امت مـــا يناله *** ومـــاذا عليـــه لو أطيل زمـــانى
نعم إننى عـــمـــا قـــريب لميت *** ومن ذا الذى يبـــقى على الحـــدثان
كـــأنك بى انعى لديك وعندمـــا *** مـــرى فـــيـــه ضـمت لهـــا الأذنان
فــلا ( ) يبــقى لديك ولا قلى *** فـــتنطق فى مـــدحى بأى مـــعـــان

أى لأن حجاب المعاصره وقيام الجاه للمحسود مانع للحاسد من أن يذكر عدوه بخير فإذا مات زال ذلك الأمر بل بعضهم تكثر الحسدة فيه الغيبه بعد مماته أيضا وذلك من جمله عناية الله تعالى به لأنه إما يرفع درجاته بذلك، وأما يفكر عنه سيآته وأما ليقضى على ذنوبه السالفة، فيخرج من قبره وليس عليه ذنب ولا يخرج بذنوب أمثال الجبال.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يحث أصحابه على كثرة الأعمال الصالحة، ويقول لهم:

إعملوا صالحا وأكثرو وليصير أحدكم يعطى منه أصحاب الحقوق التى يطالب بها يوم القيامة، ولعل بعض الناس لا يرضيه جميع أعمالكم فى غيبه واحدة وقعتم فى حقه بها انتهى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: بعد مسامحتهم الخلق الذين أذوهم في دار الدنيا أن يتوجهوا بقلوبهم إلي الله تعالي ويشفعون فيهم عنده تعالي.

لاحتمال أن لا يكون الله تعالى قبل مسامحتهم لمن اغتابهم مثلا نصره لأوليائه الذين أكرموا عباده لأجله، فلا يزال أحدهم يشفع فيمن أذاه، حتى يلقى الله تعالى فى قلبه أنه قبل شفاعته فى ذلك الشخص.

ولما سامحت أهل جامع الأزهر الذين وقعوا فى غيبتى لمادس الحسدة فى كتبى مادسوا رأى الشيخ محمد التلاوى المالكى أننى راكب على فرس عال بسرج مذهب، ولجام مكلل بالجواهر، وأهل جامع الأزهر كلهم يمشون خلفى، ورأى العالم الذى كان دس فى الكتب مادس ماسك اللجام يقودنى فقال الشيخ محمد، من هذا؟ فقالوا له: هذا فلان راكب يشفع عند الله تعالى فيمن وقع فى عرضه انتهى فالحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: صحة مسامحتهم لمن اغتابهم

وصدق الذى اغتاب فيهم من المتهورين والمستهزئين فإن بعض الناس يسمعون الغيبه ويضحكون ويصدقون من افترى على الفقير ويضحكهم عليه فى مجلسهم كما هو شاهد ثم بعد التصديق يمضون يحكون لكل من رأوه حاضرا معهم فى المجالس ذلك الأمر، ويقول بعضهم إنه لا يستطيع أن يدارى ذنوبه، ويقول بعضهم والله ماكنا نظن أن فلانا يقع فى هذه المعصية ويمضى يحكى ذلك الزور كأنه ثبت عند حاكم شرعى ثم يجلس أحدهم يحكى أنه متبرأ منه وأنه كان يشك فيه.

وإنما سامح القوم من اغتابهم ومن سمع غيبة الناس فيه من، حيث كونهم تعدوا حدود الله تعالى، واستحقوا العقوبة بسببهم، فلا يتمنى الفقراء أن أحدا يؤاخذ فى الدنيا والآخرة بسببهم لعلو هممهم، وكثرة فتوتهم.

وهذا الخلق قد صار غريبا فى هذا الزمان بل بعضهم لا يقدر ينظر من استغابه، ولا فى وجه من صدقه، ويود له دخول النار، وذلك خلاف ما جبل عليه الصالحون والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم جوابهم عن أنفسهم حياء من الله تعالى

فإنهم بين يديه على الدوام شعروا أو لم يشعروا فإن لم يكن ذلك كشفا كان إيمانا وفى الحديث «أن شخصاً نال من عرض أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه بحضرة رسول الله ﷺ «وأبو بكر ساكت، فلما أطال ذلك الشخص الكلام فى عرض أبى بكر أجاب أبو بكر عن نفسه فنهض النبى ﷺ قائما، وقال لأبى بكر: كان ملك يجيب عنك وأنت ساكت، فلما أجبت عن نفسك ذهب الملك، وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس فى مكان فيه الشيطان فعلم أن من شتمه إنسان بين يدى حاكم عادل، فلا ينبغى له الجواب عن نفسه فى نقصه، فهم يكرهون الجواب عن أنفسهم بين يديه تعالى إلا إن ترتب على ذلك مصلحة شرعية، ولا يقدر على التخلق بهذا الخلق إلا من دامت مراقبته لله تعالى ولم يطلب مقاما عند غيره من الخلق، وإلا، فمن لازمه غالبا الجواب عن نفسه إذا أنقصه أحد خوفاً أن يسقط مقامه عندهم، أو غير ذلك.

وعلم أن من شأنهم أيضاً أن لا يمكنوا أحدا يجيب عنهم لما فى ذلك من تحمل منته عليهم وقد يخطىء فى الجواب عنه، وربما أجبا أحدهم عنهم فقام عليه الحسدة فأقنعوه بضد إجابته ونقلوا العداوة إليه أيضاً، فيصير من أعداء الفقير وينضم إليهم فى عداوتهم ولذلك فإن عدم الجواب أولى كما بسطنا الكلام على ذلك فى خاتمة كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: شهودهم أن كل ما يؤذيهم به الناس في أعراضهم من جملة المصالح لهم في الدنيا والآخره

وربما كان عند أحدهم عجب بعلمه أو كبر على أحد من أخوانه، فيذكره ذلك التنقيص بزلاته السابقة، وذلك أنفع له ممن يوجه له أحواله ويذكره بالكمالات، فإنه يزيده عجبا وكبر فيهلك بذلك من حيث لا يشعر.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول:

عدو يطلعك على عيبك بتنقيصه لك خير لك من صديق يمدحك، ويستر عنك عيوبك.

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول:

إياك والميل والمحبة إلا لمن لقولك يسمع، ولعلمك ينشر، ويعمل، فإنه ربما كان عدو لك فى صورة صديق.

وفى كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه تعالى:

إحذر ممن يمدحك أكثر ممن يؤذيك لاسيما إن كان يبالغ فى مدحك، ويذكرك بماليس، فيك، فإنه إذا غضب كذلك يذمك بما ليس فيك فإن من لا يتورع عن الكذب فى المدح كذلك لا يتورع عن الكذب فى الذم انتهى.

وسيأتى إن شاء الله تعالى أن كثرة المصائب والمحن فى هذه الدار مما يهون على العبد تحمل أهوال يوم القيامه، لأن كل شيء وقع من ذلك العبد فى هذه الدار كالإدمان لتلك المصائب فانها لا تعادل الإنسان عندما يذوب قلبه وجسمه إذا شهد أهوال يوم القيامة وعندما يتقدم له إدمان فى دار الدنيا فانه يتحقق له يوم القيامه الإقدام والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: شدة كراهتهم وشدة زجرهم لمن ينقل إليهم أخبار الناس الناقصة التي يستحيون أن يواجهوهم بها

وإنما زجروه لأن لا يعود إليهم مرة ثانية ثم إن أحدهم يرجع بعد ذلك على نفسه باللوم الذى تمادى، حتى وجد الناقل له عندهم محلا لنقل اخبار الناس، ويقول: لولا غفلتى عن الله تعالى، وعدم إقبالى عليه؛ لكنت محفوظا من مثل ذلك فاللوم على حقيقة لا على الناقل، ونظير ذلك ما قالوه فى الزهد فى الدنيا من قولهم اللهم زهد الدنيا فينا، ولاتجعلنا ممن يزهد فيها أى لأن زهدها فيهم، إنما هو لعلمها شدة نفوسهم منها، فتصير الدنيا تنفر منهم بالطبع، ولوطلبوها ما جاءتهم بخلاف ما إذا كانوا ممن يزهد فى الدنيا؛ فإنهم مازهدوا فيها؛ حتى جاءتهم، ومكثت عندهم، ورأت لها محلا فى قلوبهم.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول:

من عقل العاقل تكذيب النمام ظاهرا، ولو علم أنه صادق فى نميمته سدا للباب فإننا جربنا إن كل من صغى إلى النمام كثرت عليه النمامون؛ وجمعوا له أخبار الناس؛ وأتوه بها؛ وربما أشاع تلك الأخبار عن الناس؛ حتى صدق النمام «فبلغ الناس فاشتغلوا به؛ وأذوه» وكثرت اعداؤه؛ ثم يتولد من ذلك الحقد فيعجز عن إزالته؛ كما أوضحنا فى خاتمة كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: أن لا يتساهلوا في سماع النميمة من بعضهم بعضا في الزاوية فتخرب ولو علي طول

بل يسدون الباب أولا فأولا؛ بإرسالهم وراء الناقل، والمنقول عنه؛ وقولهم للمنقول عنه هذا نقل عنك كيت وكيت؛ وهناك يضطر للصدق فإما أن يقول أنا قلت فيكون هو الخصم وإما أن ينكر؛ فيكون معه على ذلك الناقل بالتوبيخ والزجر.

وقد كان سيدى الشيخ أبو الفتح إذا جاءه شخص وقال له: إن فلانا يقول عنك كذا وكذا يقول : إذا سألته هل يعترف بما نقلته عنه أم لا فيخاف الناقل؛ فلا يعود ينقل إليه ثانيا كلاما أبدا.

وكان يقول: هذا من باب ارتكاب أخف المفسدتين.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول:

من طلب أن الناس لا يقولون من ورائه إلا ما يوجهونهم به فقد رام المحال؛ فإن السلطان لايصح له ذلك انتهى.

ثم إن المنقول عنه إذا جاء واعترف بما قاله التمام عنه، وطلب الإقاله.

فمن المعروف قبول معذرته، كما قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه فى معنى حديث «ومن أتاه أخاه متنصلاً من ذنب فليقبل ذلك منه محقا كان أو مبطلا فإن لم يفعل لم يرد على الحوض» ثم ينشده:

إقبل معاذير من يأتيك معتذرا *** إن بر عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره *** وقد أجلك من يعصيك مستترا

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول:

لابد للانسان من محب، ومبغض، ولو كان فى فضل الإمام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، فالمحب لا يذكر إلا الخير، والمبغض يذكر العجر والبجر.

قال: ولما اختفى الإمام مالك رضى الله عنه زمن الفتنة.

قال لابن القاسم: ماذا تسمع الناس يقولون؟

فقال: المحب لا يذكرك إلا بخير وأما المبغض فحالة معلوم.

فقال الإمام مالك: الحمد الله مازال الناس كذلك لهم محب ومبغض، ولكن نعوذ بالله

من تتابع الألسنة كلها بالذم انتهى.

وانشدنى شيخ الإسلام زكريا الانصارى رحمه الله تعالى.

أعمل لنفسك صالحا لا تحتفل.

بظهور قيل فى الأنام وقال *** فالخلق لا يرجى اجتماع قلوبهم

لابد من عليك وقال *** والحمد لله رب العالمين

• • •

ومن أخلاقهم: محبتهم لأن يفدي أحدهم جميع العلماء والعاملين بنفسه

ويحب أن أعداءهم يضيفون إليه سائر العيوب، والنقايص، ويذكرونه بسائر ما كانوا يريدون أن يستغيبوا به العلماء العاملين لكونهم أهل المسامحة بخلاف غيرهم، فقد لا يسامح أحدهم من استغابه لا فى الدنيا، ولا فى الآخرة.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول:

إن أود أن أتحمل عن حملة القرآن، والعلم جميع النقايص التى يرميهم بها الأعداء إكراما لسيدى رسول الله ﷺ، لكونهم حملة شرعه، وإذا جرحهم أحد صار تجريحهم مشخصا فى قلوب العوام، فيقل انتفاعهم بالعلماء، ويتجرؤا على ارتكاب تلك النقائص، التى أضيفت إلى العلماء رماهم بها الإعداء، ويقول أحدهم فى نفسه: إذا وقع فى معصية إن فلانا أكبر منك قدرا، وقد وقع فى مثل ذلك، فيستهين بالذنب.

وهذا الخلق قد صار عزيزاً فى هذا الزمان فى خواص تلاميذ الأشياخ فضلا عن غيرهم، وقد وقع لبعض أهل عصرنا هذا أنه نسب إلى عمل الزغل، فمسكه الوالى فتبرأ منه جميع تلامذته، وصار أحدهم يقول: إنما كنا أصحابه من بعيد انتهى.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول:

كل من لم يوطن نفسه على مشاركة صاحبه فى بلاء نزل عليه، وإلا، فلا ينبغى له أن يصحبه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: عدم تكديرهم ممن رفع مقام أحد من أقرانهم عليهم

بل يفرحون لذلك، ويقول أحدهم: الحمد لله الذى جعل الناس يفاضلون بينى وين العلماء، والصالحين، مع أنى لست بعالم، ولاصالح، ولولا أنهم رأونى بعين التعظيم ما فاضلوا بينى، وبين هؤلاء، وقد تحققت بذلك بحمد الله تعالى، فكلما فاضلوا بينى، وبين أحد من العلماء بادرت إلى الشكر، وأقول فى نفسى إنهم لولا رأونى قريباً من مقامهم ما فاضلوا بينى وبينهم، ولو أنهم رأونى بعيداً عن مقامهم لم يفاضلوا بينى وبينهم، كما لا يفاضلون بين العلماء، وآحاد العوام، فعلم أن كل من تكدر ممن فاضل بينه، وبين عالم أو صالح، ثم رجح العالم أو الصالح عليه، فهو لم يشم من رائحة الصدق، والإخلاص ريحة ، ولسان حاله يشهد بأن عبادته، وزهده، وورعه طول عمره كان لغير الله تعالى؛ وإنه لم يكن الباعث له على تلك الأعمال طلب رضى الله تعالى عنه؛ وامتثال أمره؛ وإنما ذلك ليعظمه الناس ويرجحوه على أقرانه وهذه أدق من دبيب النمل فليتنبه شيخ النصف الثانى من القرن العاشر لمثل ذلك حتى لا يكون فى الأموات والحق تعالى ساخط عليه.

نسأل الله تعالى العافية.

وقوله فى حالة مدحة أنه أقل من تراب نعال الناس رياء ونفاق أو كان من أصحاب ذلك الممدوح زال منه ذلك التواضع بقرينة تكدره ممن رجح أحد من أقرانه عليه.

وإياك أن تقول فلان أعلم من فلان إلا بطريق شرعى كإرشاده إلى الأعم ليقرب الطريق على الطالب؛ ويفيده المسائل المحررة؛ ونحو ذلك وإلا؛ فهى غيبة محرمة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: إجلالهم للعلماء والصالحين والأمراء والأكابر عن أن يدعوهم إلى حضور مولد عملوه

فربما كان العالم مشغولا بالعلم، والصالح به سلس بول، والأمير ورائه أمور مهمة تتعلق بالمملكة، أو بمصالح الناس، وربما حضر أحدهم، وصار متقلقا فى غاية الكرب، وإذا توضأ يقاسى مشقة عظيمة من الزحمة، وغير ذلك مما ذكرناه فى خاتمة كتاب المنن الكبرى.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى لا يجيب احدا إلى مولد ولوكان معدودا من مشايخ العصر لاسيما إن كان الطعام مجموعا من حرام وشبهات، كالذى يستعين فى عمل وليمته بما يأخذه من الظلمة، والمكاسين، ومشايخ العرب، والكشاف وأعوانهم، فإن ذلك من أقبح مايكون.

وسمعته يقول:

لا ينغبى لفقير أن يدعوا أحدا إلى طعامه إلا إن عمله من وجه حلال، ولم ير نفسه بحضور العلماء، والأكابر على أقرانه الذين دعوهم، فلم يحضروا عنده، وهذا الأمر قد حدث فى فقراء هذا الزمان، فصاروا يتفاخرون بكثرة إجتماع الناس عندهم.

وقد أدركنا عدة مشايخ فما كان أحدهم يدعوا أحدا من الأكابر إلى مولده قط إنما كان يخص يطعامه الفقراء، والمساكين، والأرامل، والأيتام كسيدى محمد بن عنان، وسيدى أبى الحسن الغمرى.

وأرسل شخص من أعوان الظلمة عسلا إلى مولد سيدى بن عنان فأرجع، وضاق الوقت على شراء العسل، وقالوا للشيخ: لا بد من طبخ الحلو للفقراء فقال للنقيب: إذهب بهذه الجرار إلى الخليج وسم الله تعالى، واملأهما عسلا وطبخوا الحلو به تلك الليله هكذا أخبرنى بهذه الحكاية الشيخ محمد الزهار رحمه الله تعالى.

فمثل هؤلاء هو الذى يصلح لهم أن يعمل له ويجمع الناس على طعامه، وأما من يجرد الناس، ويسلقهم بألسنة حداد إن لم يعطوه، فلا يجوز له عمل مولد والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: رحمتهم لعدوهم الذي يؤذيهم طول عمرهم وشفقتهم عليه إذ أنزل به بلا:

لأنه لا يخلوا من أمرين إما أن تكون عداوته لهم بحق أم لا.

فإن كانت بحق، فهم يرون الشماته به حمق، ورعونة نفس.

وإن كانت بغير حق، فهو مسكين مبتلى فى دينه. فالواجب عليهم رحمته، ومسامحته، والدعاء له لا الغضب، والدعاية عليه زيادة على ما هو فيه من المقت.

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول:

لا يكمل الفقير، حتى تكون جميع حركاته، وسكناته مأجورا عليها، ومن شمت فى عدوه، فليس له فى ذلك أجر.

وكان يقول أيضا: لا يكمل الفقير، حتى يصير يشهد كل فعل وقع فى الوجود من الحق تعالى ببادى الرأى، ومن الخلق بحكم التبع انتهى.

وقد دخل على مرة الكاشف اسكندر، فشكى من قاضى الخانقاه، فمات القاضى بعد ثلاثة أيام فجاء، وقال:

ادع للقاضى بالرحمة.

فقلت له: إنك كنت أمس تشكوا منه.

فقال: شخص أراد أن يؤذينى فما أقدره الحق تعالى على ذلك، فكيف اتكدر منه، وأشمت به وهو لا فعل له الا بإرادة الله تعالى، فأعجبنى اعتقاده رحمه الله تعالى.

وتقدم فى هذه الأخلاق أن حكم الناس الذين يؤذون العبد فى هذه الدار حكم زبانية جهنم فى الآخرة من حيث أنهم مسلطون بحسب ذنوب الناس لكن الزبانية هناك ليسوا فى دار تكليف بخلاف الناس الذين يؤذون العبد فى هذه الدار، فإنهم مكلفون ويلحقهم الذم بإيذائهم الناس فمن أراد أن لا يسلط الله تعالى عليه أحد بالأذى فليستقم فيما بينه

وبين الله تعالى، ولا يكون له سريرة قط يفتضح بها فى الدنيا، ولا فى الآخرة، وإلا فالبلاء والأذى متوجه إليه من سائر الأعداء والحاسدين، ثم إن البلاء، والأذى يعظم بعظمة الذنب، فمن جهل المعصية التى أتى بها ، فلينظر لعقوبتها، فإن كانت عظيمة، فالذنب عظيم، وعكسه، ويعفوا عن كثير قال: وما رأينا شيئاً يرد الأذى عن العبد أقوى من كثرة الاستغفار فإنه يطفئ بإذن الله تعالى غضب الحق جل وعلا[1].

وإذ أطفىء غضب الحق تعالى، ورضى عن العبد قل الأذى من الناس له إلا أن يكون ممن جعله الله تعالى قدوة للناس فى الصبر كما بسطنا الكلام على ذلك فى خاتمة كتاب المنن والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: مبادرتهم إلي إقامة الحجة علي أنفسهم إذا ظلمهم ظالم

ولا يقولون فى حكم الله تحمل العبد وهو فى أمر التقدير والله تعالى فعال لما يريد ونحو ذلك مما يشم فيه رائحة إقامة الحجة على الله تعالى.

وذلك عندهم مروق من حضره الأدب.

ثم إن هذا الخلق لا يثبت فيه إلا من تحقق بمقام العبودية ذوقا لا علما فقط، لأن العلم قد ينحجب عن صاحبه إذا نزلت به نازلة بخلاف الذوق.

وقد أدركنا من أصحاب الفروق لهذا المقام جماعة كسيدى الشيخ عبد الحليم المنزلاوى، والشيخ على البحيرى، والشيخ شهاب الدين السبكى، والشيخ محمد الوصيف كان اذا نزل على أحدهم بلاء بادر إلى الشكر وقال:

اللهم لك الحمد الذى لم يكن هذا البلاء أعظم من ذلك.

---

(١) كان الإمام أبو العباس المرسى يقول: إذا ضاق الولى هلك من يؤذيه فى الوقت وإذا اتسعت معرفته احتمل أذى الثقلين، ولم يحصل لأحد منهم ضرر بسببه وكان يقول لحوم الأولياء مسمومة ولو لم يؤاخذوك، فاياك ثم إياك.

ووقع لسليمان بن مهران أنه لبس الثياب المبخرة للجمعة، وخرج للجامع، فصبت عليه جارية من سطوح ماء تنظيف السمك، فعمه من رأسه إلى ذيله فقال على الفور:

الحمد لله الذى صالحنا بالماء عن النار.

وفى روايه أن الجارية صبت عليه رمادا باردا فعمته فقال:

الحمد لله من استحق النار صولح بالرماد يجب عليه الشكر انتهى.

فعلم أن إشتغال العبد بسبب من أتاه البلاء على يديه جهل منه، لأنه ما ظلمنا إلا بذنوبنا، وإن كان عليه الوزر فى ذلك شرعا. وهذا الأمر مما يطول به حبس المجرم، فيقول: حبسونى ظلما، ولا لى شاكى، ولا يكاد له ذنبا يستغفر الله منه، فيطول حبسه، وقد علمت كثيرا من المحبوسين كثرة استغفارهم ربهم، وكثره التفكر لذنوبهم التى عملوها طول عمرهم، فيفرج الله عنهم بسرعة، فإن الحبس خزى من الله تعالى للعبد، ولا يكون الخزى إلا من ذنب، وكثيرا ما يذنب العبد ذنبا فلا يعاجله الله تعالى بالعقوبة عليه فيظن أن الله تعالى غفره من سنين والحال أنه لم يغفره بل أخره رحمة به وحلما عليه، وماخرج عن هذه القاعدة الا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد يحبس الله تعالى أحدهم تعظيما لأجره ورفعا لدرجاته كما وقع للسيد يوسف عليه الصلاة والسلام. وليقتدى الناس بصبره والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: تحمل عناء المملكة على كواهلهم وحمل الناس بقلوبهم

فإياك يا أخى أن تقول هنيئا لأهل تعالى، فإن أحدهم يموت فى الساعة الواحدة كذا كذا مرة، فهم مستريحون فى الظاهر من أمور الدنيا متعوبون فى الباطن، فتعبهم لا يقاومه تعب. وإن كان، ولابد لك يا أخى من أن تغبطهم، فاغبطهم على كثرة الطاعات وأما المؤاخذات، فاستعذ بالله تعالى من ذلك، فإن أحدهم ربما عوقب بفعل مالا تعده أنت ذنبا.

وقد قال بعضهم:

وقع لى أننى نمت مره على جنابه فى ليلة عرفة، فما كنت إلا هلكت من الغم الذى نزل على قلبى، وصرت أتمنى الموت، فلا أجاب، ثم نمت، فرأيت فى المنام أننى دخلت زقاقا لا ينفذ فتهت فيه، ولم أهتد الخروج منه، حتى كدت أهلك ثم أتيت بإناء فيه خمر، فشربته وندمت فى النوم، حتى ذاب قلبى؛ وصرت أقول فى نفسى كيف تشرب الخمر فى ليلة عرفة؛ فما استيقظت، ورأيت أن ذلك فى المنام، وفى عينى قطرة قال: لكنى بحمد الله تعالى فرحت بتلك المؤاخذه من حيث اعتنا الحق تعالى بتأدبى، فإن الفقراء فى حجر تربيه الحق تعالى كالأب الشفيق؛ ولله المثل الأعلى، وربما ضرب الوالد ولده رحمة به وشفقة عليه، ليرقه إلى ماهو أرقى مما هو فيه، وربما فرك أذن ولده فركا عنيفا إذا رآه واقفا عند بحر؛ وخاف عليه من الغرق؛ وربما شكت الأم ولدها بالإبرة، حتى يخرج الدم منه محبة فيه لا بغضا له لتربيه بذلك فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: زيادة المحبه لكل من أنكر عليهم وقام عليهم لاسيما العلماء

فإنهم ما قاموا عليهم إلا نصرة لظاهر الشريعة المطهره لا لحظ النفس، وبغضا لهم، ومن طبق الشريعة وجبت محبته؛ ووجب على من خرج عن ظاهرها اللوم على نفسه، والتوبيخ لها فإن السلطان فى هذه الدار للشريعة؛ وما كمل أحد فى الطريق إلا، وصار يغار على ظاهر الشريعه أكثر من الطريقة ومن تكر من القوم ممن أنكر عليه من الشريعة العلماء، فهو جاهل بمراده ﷺ، فإن العلماء امناؤه على شرعه فقف يا أخى على ظاهر الشريعة ولا تتعدى عليها فإنه السيف القاطع بحده كل ضلال وبدعة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: حمايتهم من ظهور الحسد لأقرانهم لأن الحسد فرع من محبة الدنيا وهم قد تركوها في بداية أمرهم فلذلك امتنع في حقهم الحسد

وهذا الخلق قل من يتخلق به الآن، وغالب الناس يحسد أقرانه إذا أقبلت عليهم الدنيا وأهلها لاسيما الأكابر، والأمراء وذلك دليل واضح على أن أحدا منهم لم يدخل طريق القوم ولم يشم لها رائحة.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول:

من أراد إقامة الجاه والعز فى الدنيا والآخره، فليسلك الطريق الحميدة من زهد، وورع، وقيام ليل، وكف جوارح ، وغير ذلك من أخلاق الصالحين فإن المحسود ما حصل له الجاه عند الملوك والأمراء إلا بعد أن تخلق بأخلاق القوم، فاسلك يا أخى مسلكهم يحصل لك من الجاه والدنيا ما حصل لهم، وأما حسدك لهم مع عدم سلوك طريق القوم، فلا تزداد إلا تأخيرا، فكلما حسدت تأخرت، وتقدم المحسود انتهى.

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول:

إن كنت، ولابد حاسد الفقراء، فأحسدهم على مجالسة الله تعالى صباحا ومساء، فى قراءة أورادهم، فإن ذلك هو الحقيق بالحسد، وأما مجالسة جندى من الأمراء لهم، واعتقادهم فيهم، فهو أقل من أن يذكر.

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى خاتمة كتاب المنن، وذكرنا فيها أن من دخل حضرة الله زال منه الحسد جملة لأن أهلها مطهرون من ذلك، وأن بعضهم كان يذهب إلى أن الحسد لا يزول إلا من معصوم، وأما غيره، فتعطل منه صفة الحسد دون أن تزول منه. وكذلك ذكرنا أن من علامة الحاسد أنه يكرهك، وينقصك، ولا يقدر على أن يصور عليك دعوى لا فى الدنيا، ولا بين يدى الله تعالى فى الآخره، وغاية تصويره الدعوى عند الحاكم أن يقول: ادعى على هذا إنه أكثر مالا منى: ويحبه الناس

كان الإمام أبو العباس المرسى لا يثنى على مريد بين إخوانه خشية الحسد.

ويعظمونه أكثر منى، وهذه دعوى لاجواب لها فقال؛ من رأيته كذلك فأرح نفسك من مداواته فأنه لا يرضيه إلا زوال النعمة والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم تكدرهم ممن نادي أحدهم بيافاسق أو بيامنافق أو بيامراي ء ونحو ذلك

بل يرون أن من ناداهم صادق فى ذلك.

وقد كان مالك بن دينار إذا قيل له: يامنافق أو يامرأى يقول: يا أخى لقد عرفت لقبى الذى نسيه أهل البصرة انتهى.

فعلم أن من تكدر ممن قال له يافاسق، فهو مغرور، لأن الفسق لغة هو الخروج يقال: فسقت النواة إذا خرجت، ومن خرج عن السنة المحمدية قيد شبر فى مأكله أو ملبسه أو فى شيء من أحواله، وعباداته، فقد صدق عليه إسم الفسق لغة، فأى فقير يدعى سلامته من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم تكدرهم ممن ناداهم باسمهم المجرد من الكنية واللقب والسيادة ونحو ذلك.

لأنه هو الصدق المحض كما كان عليه السلف من الصحابه، والتابعين رضى الله عنهم أجمعين بخلاف نحو قطب الدين، شمس الدين، ونور الدين؛ وسراج الدين؛ فإنه لا يصح إلا بتأويل بعيد كأنه يريد أنه شمس دين نفسه أو سراج دين نفسه؛ ونحو ذلك.

واعلم يا أخى أنه يستثنى من اولوية نداء الناس بأسمائهم المجردة نداء الوالد والشيخ وإن الادب أن لا ينادى أحدهما باسمه المجرد؛ كماجرى عليه السلف والخلف.

قال الجلال السيوطى رحمه الله تعالى:

وأول لقب وقع فى الاسلام تلقيب رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق يعتيق لعتاقة وجهه أى حسنه.

وقال الحافظ بن حجر:

إن رسول الله ﷺ كان يلقب أصحابه فلقب أبا بكر بالصديق، وعمر بالفاروق، وعثمان بذى النورين، وخالد بن الوليد بسيف الله، وحمزة بأسد الله، وجعفر بذى الجناحين، ولقب الأوس والخزرج بالأنصار، فغلب عليهم هذا اللقب، ولقب الحسن البصرى رضى الله عنه محمد بن واسع بزين القراء. ولقب سفيان الثورى المعافى بن عمران بياقوتة العلماء. ومحمد بن يوسف بعروس الزهاد. ولقبوا الإمام الشافعى بناصر الحديث. ولقبوا ابن سريح بالباز الأشهب انتهى.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول:

وممن لقب من الأنبياء عليه الصلاة والسلام السيد ابراهيم لقب بالخليل، والسيد عيسى لقب بالمسيح. والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم نفرة أحدهم من عشرة المخنثين لأنهم أصحاب أمراض كالصداع والضارب والجذام والبرص

وربما ذمهم أحد فابتلى بمثل مرضهم ويسمى ذلك المرض بالابنة ودواه أن يغلى له جلود السمك القديد، حتى تخرج خاصيته، ثم يحقن به ثلاث مرات فإنه مجرب للشفاء من الابنة وهو غليان فى الدبر لا يسكن الا بادخال شيء فى الدبر، والمراد بالمخنثين هم الذين يتكسرون تكسر النساء، فعدم التكدر منهم يعنى بزجرهم ونصحهم بالبعد عن ذلك، حتى يزجروهم من مثل ذلك الفعل ويتوبون منه.

ثم إن هذا المقام لا يقدر على التخلق به إلا من رضى بعلم الله تعالى فيه، ولم يطلب له مقاما عند الخلق فعلم أنه لا ينبغى ذم من به إبنة فإن غيبته محرمة إلا إذا عمل عمل قوم لوط، وثبت ذلك عنه فإنه ملعون بنص الحديث فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم إصغاء أحدهم إلي قول عدو أو حاسد في عرض خصمهم

بل يلوم أحدهم نفسه التى لم تكن دفعت ذلك الحاسد عنها. حتى لا يقدر على الوصول إليها باختيارها عن نقايص أحد، ويقول لنفسه عليك اللوم الذى وجد المنقص للناس عندك له محلا ينقص الناس فيه وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى أول ما يتكلم عنده حاسد يقول له:

قم عنى إلى حاجتك لا تحملنى الآثام بذكر الناس بالنقائص.

وإذا عرف من الإنسان عدم الانقياد لقوله بدأه بالكلام الحلو وقال: كنت فى خاطرى البارحة. فإنى أحبك لكونك صافى الباطن لا تذكر الناس عندى الا بخير فيلتجم ذلك الشخص ويخاف أن يغير اعتقاده فيه بما وصفه، فيخرس فى ذلك المجلس عن عيوب الناس.

وهذا الخلق قل من يتفطن له من الناس بل رأيت بعضهم يبدأ من دخل عليه بالكلام، ويقول له: إيش معك من أخبار الناس فيذكر له العجر والبجر التى جمعها له مدة غيبته عنه، وإن عرف أنه عازم على السكوت يقول له: هل بقى معك شىء من أخبار الناس؟ فإن قال: لا قال له: ما أنت إلا حكيت لى، ثم بعد ذلك يصير يحكى لكل من دخل عليه ماسمعه من ذلك الفاسق، كأنه ثبت عنده بطريق شرعى، ولم يتب منه صاحبه.

ومعلوم أن ذكر تواريخ الناس التى مضت وتابوا منها لا يجوز ذكرها بعد ذلك لأحد، ومن الواجب على كل مسلم إعتقاده فى أهل المعاصى إن أحدهم يتوب عقب كل ذنب، ولا يجوز حمله على أنه مصر على ذنبه.

ثم من أقل مفاسد الناقل عن الناس تواريخهم أن المنقول عنه، ولو تاب يصير الناس يشخصون معاصيه وعيوبه فى ذهنهم، كلما ذكروه فيريد السامع أن يجعله، كالذى لم يذكره أحد بسوء، فلا يقدر بل يصير يحتقره، ويزدريه بباطنه لا سيما إن سمع ذلك أحد من الأمراء، والأكابر الذين يشفع ذلك الشخص المجرح عندهم، فإنه يتولد منه مفاسد كثيرة، ورد شفاعاته، فيشتد بذلك التحريم، فليتنبه الفقير الساذج لمثل ذلك والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة إقامة العذر لمن عاداهم وأكثر من حسدهم

ويقولون إنما وقع فى ذلك لضيق نفسه، وشراهتها، وعدم قناعتها باليسير، ولو أن الله تعالى كان وسع صدره لما وقع فى حسد أحد.

ثم إنهم بعد ذلك يستغفرون الله تعالى من حيث أنه لولا وجودهم، ووجود إظهار النعمة التى عليهم ماوقع أحد فى حسدهم، لأن من كان فى نقمة لا يحسده أحد، وكذلك يشكرون الله تعالى على نعمته التى أسبغها عليهم، حتى وقع الحاسد فى حسدهم، وكذلك يستغفرون الله تعالى للحاسد، فإن وجودهم سبب لوقوع الحاسد فى الإثم كما سيأتى بسطه إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: كثرة اهتمامهم بهم عدوهم أكثر من اهتمامهم بهم صديقهم

كما يتحفظون من الغيبة فى عدوهم أكثر مما يتحفظون من الغيبة فى صديقهم، وكما يكرهون كل شيء يؤذى عدوهم رحمة به إلا أن يكون تطهيراً، له أو كفارة لذنوبه، فإنهم يحبون له ذلك لا على وجه التشفى والشماتة.

وكان سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول:

كل يوم إحتاج إلى فيه عدوى، فهو عندى يوم عيد، وأقول: الحمد لله الذى أحوجه إلى، ولم يحوجنى إليه؛ وأذله لى بالسؤال؛ ولم يذلنى له؛ وهذا الخلق لا يتخلق به إلا من ذهبت رعونات نفسه. وتخلق بالرحمة على جميع العالم.

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى: يحذر إخوانه أن يذكروه عند أحد من أعدائه بخير ويقول:

إن ذلك يدخل عليهم الغم؛ وأنا لا أرضى بذلك.

وإنما كانوا يتحفظون من غيبة عدوهم أكثر من صديقهم لأن صديقهم قد يسمح لهم بحقه بخلاف العدو فربما إذا بلغه عنهم شيئاً يدخل خصمه النار لأجله إذا لم يسامحه يتوقف ولا يسامحه فيه بخلاف الصديق، فإنه بالضد من ذلك.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول:

لا ينبغى لفقير أن يلبس الثياب النظيفة المبخرة، ويمر على عدوه، وكذلك لا يطبخ طعاما فى مواضع التنزهات، ويدعوا الناس إلى ذلك؛ وكذلك لا يغرس بستانا؛ ولا يبنى دارا لأن ذلك كله يكدر نفس عدوه والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم توجه أحدهم إلي الله تعالي في هلاك أحد من أعدائه وأن يأخذ له حقه منه

بل يكرمون عباد الله تعالى لأجل الله تعالى، ثم إن شاء الله تعالى انتصر لهم؛ وإن شاء لم ينتصر لهم، وهم راضون عنه فى كل شيء يفعله معهم، وهو تعالى يحب من عباده كل من كان كثير الإحتمال للأذى؛ ولم يزل الأعداء؛ والحساد فى كل عصر يعملون للفقراء!! المكايد، ويحفرون لهم المهالك؛ ويرد الله تعالى كيدهم فى نحرهم، لأنه تعالى عليم حكيم.

وهذا الخلق قد صار عزيزا فى أهل الزمان، وغالبهم يقابل العدو بالإساءة وإن عجز عن ذلك توجه إلى الله تعالى فيه، وذلك نقص فى الفقير، وما افتخرت الفقراء على أقرانهم الا بتحملهم الأذى، وعدم مقابلة أحدهم بنظير فعله.

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول:

من تأمل نفسه فى هذا الزمان بين أقرانه وجد نفسه كالماشى على حبل البهلوان بقبقاب، والخلق كلهم تحته ينظرون كيف يقع، حتى يشمتوا فيه انتهى.

فالحمد لله الذى جعلنا ممن لا يشمت فى مسلم أبدا بل نذكر محاسنهم، ونسكت عن مساويهم إذا أطلعنا عليها، كما سيأتى بيانه قريبا إن شاء الله تعالى، ويشهد لذلك ذكرنا فى كتاب الطبقات مناقب من آذانا والحمد لله رب العالمين.

• • •

ومن أخلاقهم: عدم تجسسهم علي عيوب إخوانهم المسلمين

فإذا سمعوا شخصا يذكر كلاما اجماليا عن أحد فيه نقص له لا يصغون إلى ذلك، ولا يقولون له ايش الحكاية إلا إن كان أحدهم يقصد رد الأعداء عن عرض أخيه، وأما قصد الإعلام بحكايته فقط، فلا يجوز ذلك، كما صرح به القرآن العظيم، وهذا الخلق

قل من يتنبه له الآن من الفقراء بل ربما تجسس بعضهم على أخيه، وصار كل من دخل عليه يحكى له، ويقول: مادريتم ايش جرى لفلان جرا له كذا وكذا، وإن خاف من لوث احد به قال له: لا تقل ذلك، لأحد عنى، فلولا أنك عزيز عندى ما أطلعتك على ذلك، وكلاهما قد خالف أمر الله عز وجل.

وكان سيدى على الخواص رحمهالله تعالى يزجر كل من رآه من أصحابه يتجسس على أحد ويقول:

لايحب الاطلاع على عورات الناس الا الشياطين انتهى.

وقد أدركنا جماعة كثيرة من مشايخ العصر كانوا يغارون على أهل الطريق ويزجرون كل من تعرض منهم لأحد من أهلها بنقص ولو محققا، ويقولون إن فى الحديث «أقيلوا ذوى الهيات عثراتهم» قال العلماء: المراد بذوى الهيات الذين لم يشتهر عنهم مخالفة انتهى.

وفى الحديث أيضا « تجافوا عن ذنب السخى «فإن الله تعالى أخذ بيده، كلما عثر، ولاشك أن الفقراء كلهم اسخياء كرام.

ولما وقع الشيخ عبد الوهاب السبكى فى المحنة. ورموه بالكفر، وأرسلوه من الشام إلى مصر مقيدا مغلولا خرج الشيخ جمال الدين الأسنوى بعد أن تولى القضاء «وكانوا قبل ذلك يسئلونه، فيأبى، وتلقاه من نواحى الصالحية، وسمع الدعوى عليه وحقن دمه، وقال: والله انى لأكرهك. وأكره لدك من قبلك، وإنما فعلت ذلك صيانة لخرقة العلم انتهى.

فاحم يا أخى خرقتك عن النقايص جهدك. ولا تظن أنك تعلوا أقرانك بذكرهم بالنقايص عند الناس بل أول ما يحقرونك، ويتليثونك على من نقصته، وايضاح ذلك أن من تعدى حدود الله تعالى أهانة الله تعالى ومن يهن الله تعالى، فماله من مكرم، فلا يزداد المهان عند الله تعالى بتنقيصه الناس إلا هوانا فى العيون والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم: سماحة نفوسهم بمقاسمة أعدائهم في أموالهم في الدنيا وحسناتهم في الآخرة فضلا عن من كان يحبهم من أصحابهم

وهذا خلق غريب فى هذا الزمان ، وقد تحققنا به ولله الحمد ، وهو من أعظم أخلاق الرجال .

فأنا بحمد الله تعالى أحب مقاسمة أعدائى لى فى جميع أموالى وحسناتى على تقدير وجودها من غير توقف ، ولا رؤية منة لى عليهم ، وقد قيض الله تعالى لى جماعة معروفين فى مصر لم يزالوا يذكرونى بالنقايص ، ويؤذونى ، وأصبر عليهم ، ومع ذلك ، فأحبهم ، وأذكرهم بالكمالات ، وتسمح نفسى بمقاسمتهم فى الحسنات لاسيما الذين دسوا فى كتبى العقائد الزائفة ، وأشاعوها عنى ، حتى نفر غالب المعارف منى فضلاً عن غيرهم . ولا أعلم الآن لهذا الخلق فاعلا فى مصر غيرى إلا قليلا ؛ فأسأل الله تعالى دوامه على وإيضاح شهودى من الأعداء على بكثرة إيذائهم لى أنهم حكمونى فى حسناتهم يوم القيامة آخذ منها ما شئت ، حتى كأنها من أعمالى ، وذلك أعز من الإحسان إلى بالدراهم ، والدنانير فى دار الدنيا ، ثم إنهم كلما أكثروا من ايذائى كلما سمحت نفسى لهم بالمقاسمة فى حسناتى لأنهم بكثرة ايذائهم لى بالغوا فى إثبات حقى عليهم ، وتحكيمى فى حسناتهم ، فكما أهدوا لى حسناتهم فى الآخرة كذلك من باب المعروف إهدائى لهم ؛ حسناتى ، وإن كان إهدائهم لحسناتهم كرها عليهم لأنه حيث ما حصل نفع الأثر ؛ فلا على من القصد . فكان مقاسمتى لهم فى حسناتى من باب المكافأة لهم على إحسانهم .

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

لو عرض أعدائى كلهم على يوم القيامة حسناتهم بطيب نفس لم آخذ منها شيئا بل أوفرها عليهم زيادة على ما قاسمونى فيه من أعمالى الصالحة لكثرة إفلاسهم . وكثرة الحقوق عليهم . فلا أزيدهم كربا على كربهم ، وذلك لأن الرجل هو من يكون له على

الناس اليد لا من يكون يد الناس عليه . وإن كان لأعدائى الفضل على من وجوه عديدة من حيث إنهم قد فتحوا لى بذكرهم لى بالنقايص فى المجالس باب شهود نقصى . وزوال عجبى بعملى . وحكمونى فى حسناتهم ومن إساءتى أنا عليهم أنى ربما كنت سببا لمقتهم . وهتك سريرتهم جزاء لما فعلوه معى غيرة من الله تعالى . لعبادة . وإن لم يطلبوا منه ذلك . كما وقع لى ذلك مع شخص معروف فى مصر كان قد أكثر من ذكرى بالنقايص . وأنا صابر عليه . فابتلاه الله تعالى . وكبسوه حال فعلها وهتكه الله تعالى عند جميع معارفه فى مصر فمثل هذا لو أنى أعطيته جميع حسناتى ما جبرت خلله الذى حصل له بسبب ، ووالله إنى لاستغفر الله تعالى فى حقه إلى وقتى هذا .

وكان على هذا القدم جمهور السلف رضى الله تعالى عنهم كما ذكره القشيرى فى رسالته ، فكان أحدهم يلوم نفسه إذا آذاه أحد ، ويقول لها : أنت الظالمة ولو أنك وافقتيه على مايريده منك ما آذاك .

وقد بلغنا عن ابن الحطاب شيخ سيدى محى الدين بن عربى رضى الله عنهما أنه قال :

رأيت ربى فى المنام فقلت له :

يارب علمنى شيئاً آخذه عنك بلا واسطة

فقال : يا ابن الحطاب من أحسن إلى من أسى إليه ، فقد أخلص لله شكراً ، ومن أسى إلى من أحسن اليه فقد بدل نعمة الله كفراً .

قال : فقلت ياربى حسبى انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى أواخر الخاتمة من كتاب المنن الكبرى ، وذكرنا عن الإمام الشافعى رحمه الله تعالى ، أنه تمنى أخا فى الله تعالى صادقاً يقاسمه فى حاله وحسناته ، فلم يجده ، فراجعه ، فإن فيه نفايس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : صبرهم علي بعض الحسدة لهم علي الدوام مدة حياتهم

ليعظم لهم بذلك الأجر من حيث الصبر عليهم ، ومن حيث أنهم يذكرونهم بنقائصهم ، التى ربما حجبوا عنها فى نفوسهم ، فلا وجود بدلهم من وجود منكر مبغض على الدوام فضلاً من الله تعالى عليهم ، وبغضهم سلط الله تعالى عليه بحكم المشيئة الإلهية من ينقصه ، وينكر عليه بعد موته أيضا سنين عديدة ، كأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما مع الروافض ، وكالشيخ محى الدين بن العربى ، وسيدى عمر ابن الفارض رضى الله تعالى عنهما مع بعض الفقها كما مر فى هذه الخاتمة ، فيأخذ أحد هؤلاء حسنات من يحط عليه بغير حق يوم القيامة ، فما دام لهم من يحط عليهم بعد موتهم ، فكأنهم لم يموتوا من حيث نقل أعمال من يحط عليهم إلى صحايفهم ، ولو كان أحدهم يحط على الفقراء بحق ما نقلت حسناته فى صحايفهم ، ولكنهم غالبا يحطون على الفقراء حسدا وعدوانا ، لأن الفقرا قد خرجوا عن الاعراض النفسانية ، ولا يرى أحدا منهم يزاحم على وظيفة ولا تدريس علم ولا مجلس وعظ ، ولايذكر أحدا بسوء ، ولايشح على فقير بما هو محتاج إليه ، ولا يتزوج لأحد مطلقه ، ولا هو يتظاهر بالمعاصى الظاهرة من ترك صلاة ، وشرب خمر ، ونحو ذلك » فما بقى بغضهم إلا حسدا ، وعدوانا كبغض الروافض ، لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فإن بغضهما قد توارثه خلف من الروافض عن سلف ، وكذلك الشيخ محى الدين بن العربى ، وسيدى عمر بن الفارض قد توارث الناس بغضهما من بعض فترى بعض الفقهاء يسب الشيخ محى الدين وأضرابه ، ولا أحد منهم أدرك زمنه ، ولا عرفه ، وخالطه ، ولا وصل إليه ما ينسب إليه ببينة .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إن كان ولابد للمتهورين من الإنكار، فلينكروا ذلك الذى يوهم خلاف ظاهر الشريعة بقطع النظر عن من نسب إليه فيقول كل من ثبت عنه هذا الكلام ، فهو مخطئ، أو مبتدع أو كافر ، ونحو ذلك فلا يجب الإنكار على إنسان معين إذا ثبت عنه الكلام

بسند صحيح ، وهذا قل أن يوجد فى هذا الزمان وحينئذ ينكر عليه شفقة عليه ، ومحبة فيه وخوفا أن يكون من الأئمة المضلين بحكم التشفى للنفس أو التعصب كما هو الغالب من أصحاب الرعونات النفسانية .

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله تعالى يقول :

ليس لمن يبغض مثل الشيخ محى الدين بن العربى ، أو سيد عمر بن الفارض رضى الله عنهما دليل صحيح يستندون إليه . وإنما هى نزغات شيطانية وسوس بها إليه ، ليحصل لهم المقت ؛ وموت القلب وخراب السر انتهى .

وقد ثبت عندنا من طرق صحيحة عن الشيخ عز الدين بن جماعة أنه كان يقول :

جميع ما فى كتب الشيخ محى الدين بن العربى مما يخالف ظاهر الشريعة مدسوس عليه دسه الحسدة ، لينفروا الناس عن مطالعه كتبه ، وقد أوضح ذلك الشيخ مجد الدين الفيروز ابادى صاحب القاموس فى اللغة . وأجاب عن الشيخ محى الدين بأحسن جواب ، وقد رأيت أنا كتابا صنفه بعض الملاحدة : وأضافه للإمام الغزالى ترويجا ليدعتهم . ورأيت على ظاهره بخط الشيخ بدر الدين كذب ، والله وإفترى من أضاف هذا إلى حجة الإسلام . فإنه كله مخالف لأهل السنة والجماعة انتهى .

وقد قدمنا لك يا أخى فى خطبة هذا الكتاب . وغيره ما وقع فى كتبى من الدس . ولولا أنه كان عندى النسخة الأصلية التى عليها خطوط العلماء السالمة من الدس لما برأنى أحد من ذلك . لعدم تثبت غالب الناس الآن فيما ينقلونه .

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين بن أبى شريف رحمه الله تعالى يقول كثيراً :

ربما يكون سبب هذا الإنكار على بعض العلماء والصالحين دقة مداركهم ، فينبغى للمتدين التسليم لهم حيث لم يخالف نصا صريحاً ، ولا إجماعاً لأن الأفهام تختلف سلفا، وخلفا فاعلم ذلك ، واحفظ لسانك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: شدة بغضهم باطنا لأهل المعاصي ولو أحبوهم وأحسنوا إليهم

إيثاراً لجناب الله تعالى على جناب أنفسهم ، ومع ذلك ، فيستغفرون الله تعالى لهم، ويدعون لهم بالتوبة النصوح لاسيما أهل المعاصى المستصحبة كالمكاسين ، والذين يظلمون الناس فى أموالهم أو أعراضهم .

وهذا خلق لايقدر على العمل به إلا من إعطاه الله تعالى فرقانا يفرق به بين الحق والباطل ، وغالب الناس يحب كل من أحسن إليه ، أو اعتقد فيه ، ولو كان عاصيا لله تعالى ، كما أشار إليه خبر « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » ومن هنا كره العلماء بالله تعالى قبول هدايا العصاة ، والتداوى بإشارة كافر ، لأن صاحب الطبع يصيريحب ذلك المهدى أو ذلك الطبيب ، إذا وافق دواؤه إنتهاء المرض ، ويريد أن يعاديه كما أمر الله تعالى ، فلا يقدر ، بل يصير يحن إليه بالود ، ويقول له كلما لقيه : فضلك علينا يا معلم .

وقد من الله تعالى على بالتخلص من محبة من يعتقدونى من اليهود ، والنصارى مع إعتقادهم فى ، ولم يصدنى ذلك عن عدواتهم ، وهى وراثة إبراهيمية ، فإن سائر الطوائف تحب سيدنا ومولانا الخليل عليه الصلاة والسلام ، وكثيرا ما يطلبون منى كتابة الحروز لأولادهم ، والرقيه لهم ، فأتعجب من ذلك غاية العجب ، لكونى مخالفاً لدينهم ، ثم أقول : لعل إظهارهم الإعتقاد فى إنما هو نفاق .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إياكم أن تميلوا بالمحبة إلى كافر حين ترونه يعمل سقاية أو يحفر بيرا ، أو يطبخ لمحابيس المسلمين طعاماً ، ويرسله إليهم ، أو يطب المسلمين ، ولايأخذ على طبه أجره ، أو يوفى ديون المسلمين ، ونحو ذلك بل دوموا على عدواتهم تقليداً لله عز وجل فى إخباره لنا بذمهم مطلقاً ، وأحكموا عليهم بما حكم الله تعالى به عليهم ، ولو لم تروا منهم أفعالاً توجب الذم عليهم فإنه تعالى علم ببواطنهم وظواهرهم وقد أطلق الذم عليهم أبد الآبدين ، ولو لم يكن إلا التظاهر بزى الكفار والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : صحبتهم لبعض إخوانهم المسلمين من غير إجتماع

ويصير كل واحد منهما يراعى الأدب مع صاحبه كما يراعيه فى حضوره ، وهى صحبة برزخية كان السلف يقدمونها على الإجتماع خوفاً من آفة الإجتماع ويقولون كل أخ يجتمع بأخيه الآن إلا وأخذ فى حسناته عند ربه تعالى ، ويزكى نفسه بذكر محاسنها وعباداتها السرية وذلك كما فعل أويس القرنى وبكر المزنى وبعبد الله بن غالب وأضرابهم رضى الله عنهم .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله كثيراً ما يرسل إلى بعض إخوانه الهدية . ويقول له :

ما معك إن الإجماع بى أبد ، ويقول ربما زكى أحدنا حاله لأخيه ، فيقع فى ذنب إبليس الذى أخرج به من الجنة إنتهى .

وقد صحبت أنا جماعة من العلماء والصالحين مدة طويلة من غير إجتماع ، وكان يحصل لى من المدد ما لم يحصل بالإجتماع ، كالشيخ شمس الدين البرهمتوشى الحنفى ، والشيخ شمس الدين الغزى والشيخ سليمان الحانوتى ، والشيح أبى النجا السوهاجى ، وجماعة ، وكان من أشدهم مراعاة لحقوق الصحبة المذكورة الشيخ شمس الدين البرهمتوشى ، فكان يرعانى فى الغيب أكثر من الحضور ، ويشاورنى عن أموره بالواسطة ، كما يشاور الولد والده ، فلا صحبته صحبة الإجتماع إزداد محبة إلى محبته الأولى ، وكذلك إزددت أنا الآخر فيه محبة ، ولم يحصل بينى وبينه بحمد الله تعالى تزكية نفس لا منى ولا منه إلى وقتنا هذا نفعناالله تعالى ببركاته والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : حملهم لمن يكرههم علي أنه إنما يكرههم بحق وصدق

خوفاً من تزكية نفوسهم وتبرئتها من العيب إذا حملوهم على أنهم كرهوهم بغير حق.

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى إذا بلغه عن أحد أنه يكرهه وينكر عليه يقول :

والله إن قلب هذا نير الذين أدرك نقصى الباطنى وما أنا مطوى عليه من الفواحش ، التى أخدع بها ربى انتهى .

وكذلك من أخلاقهم : مناقشة نفوسهم إذا كرهت أحداً من المسلمين ، ويقولون يانفس إن كراهتك لأخيك بغير حق ولم لا حملته على المحامل الحسنة ، فيكون على أحدهم على نفسه فيما إذا كرهها أحد ، وكرهت هى أحدا .

وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم ، فكانوا يناقشون نفوسهم ، ويتهمونها فى كل شيء ادعت الصدق فيه من مقام أو حال ، ويقولون لها هب أنى أكذب عليك فى نسبتك الريا . والنفاق مثلاً ، فما تقولين فى هذا الغريب الذى وصفك بذلك فإنه لايجوز لك نسبته إلى الكذب إلا بطريق شرعى وليس معك طريق .

وقد كان مالك بن دينار يقول :

مكثت سنة ونفسى تنازعنى فى دعوى الإخلاص ، وأنا أقول لها تكذبى ، حتى مررت بإمرأة فى أزقة البصرة ، فسمعتها تقول لأخرى : إن أردنى أن تنظرى إلى مرآتى . فهذا مالك بن دينار ، فانظرى إليه ، فقلته لنفسى : إسمعى لقبك القبيح من هذه المرأة الصالحة .

وكان يقول بعد ذلك : من أراد أن ينظر إلى مراء ، فلينظر إلى .

وكان الفضيل من عياض رضى الله تعالى عنه يقول :

لأن أحلف أنى مـرآئى أحب إلى من أن أحلف أنى لست بمرائى ، وكـان يعـاتب نفسه ، ويقول : كنت فى شيبتك فاسقاً عاصيا ، وصرت فى كهولتك مراءيا منافقا والله للعاصى والفاسق أخف إثما عند الله تعالى من المرائى المنافق ، لأن العاصى ينتظر من الله تعالى المغفرة ، وكذلك المرائى ، والمنافق لأنه ذنب قل أن يشعر به صاحبه ، حتى يتوب الله تعالى عليه انتهى . فالحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : ذكرهم لمناقب أقرانهم الذين يكرهونهم ويحسدونهم ولا يصدهم حسدهم لهم وعداوتهم عن ذكرهم بخير .

وقد كان بين الإمام عمرو بن العاص والإمام خالد بن الوليد بعض شيء ، فذكروا عمروا عند خالد يوما ، فأثنى عليه خالد فقالوا : إنه يكرهك ، فقال : إن الذى كان بيننا لم يبلغ إلى ديننا انتهى .

وقد تحققت بذلك بحمد الله تعالى ، وذكرت مناقب أعدائى وحسادى من الفقراء ، والعلما بالنظر إلى جانبهم لا إلى جانبى ، فإنى لا أعادى أحدا من المسلمين لحظ نفس، وإنما هم الذين يعادونى ، لعدم تظاهرى لهم بما يوجب العداوة من ترك صلاة ، أو شرب خمر ، أو تعاون فى الناس ، أو ذكرهم بالنقايص من ورائهم ، أو مزاحمتهم فى أمور الدنيا . ونحو ذلك هذا مع شدة عدائهم لى ، وجعلت ذلك كالبرهان على عناية الحق تعالى لى ، فإن غالب الناس لا ينشرح الآن بذكر اسم عدوه على لسانه فضلا عن أن ينشر محاسنه .

وقد ذكرنا فى كتاب المنن جملة من إيذائهم لى ، فبعضهم سعى فى إخراجى من مصر ، وبعضهم دس فى كتبى عقايد مخالفة لأهل السنة والجماعة . وأشاعها عنى فى مصر وكثيراً مما أشرنا إليه فى خطبه هذا الكتاب وبعضهم افترى على عند السلطان والوزير نائب مصر أموراً لا ينبغى لمؤمن أن يتلفظ بها . وهذا الذى وقع لى

طول عمرى من ثلاثة أنفس فى مصر ممن يدعون العلم والصلاح وقد درج الثلاثة إلى رحمة الله تعالى وأبرأت ذمتهم فى الدنيا والآخرة ، وإنما ذكرت ذلك ليتأسى به الإخوان فى تحمل الأذى من أهل عصرهم مع أن هؤلاء الثلاثة أنفس كانوا يكرهون بعضهم بعضه ، ولكن اجتمعوا كلهم على مزاحمتى لهم بالدعوى فى اسم الصلاح ، والعلم لا غير ، فصنفوا إلى الأذى على صنوف ، وسائر أهل مصر برد وسلام على .

قد بالغت فى ذكر مناقب هؤلاء الثلاثة فى كتاب طبقات العلماء ، والصوفية وذكرتهم بأحسن الذكر ضد ما فعلوه معى إظهارا لما منّ الله تعالى به على من الحلم والصفح ، والمسامحة ، وليقتدى بى الإخوان ، ولم أعلم أحدا سبقنى إلى مثل ذلك من أقرانى بل المنقول عن بعضهم مقابلة الأعداء بنظير ما فعلوا ، فالحمد لله الذى خلقنا بهذا الخلق المحمدى ، وجعلنا ممن لا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفوا ويصفح والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم : طرح نفوسهم بين يدي الله عز وجل إذا أطلعهم من طريق كشفهم علي وقوعهم في شيء من المعاصي في المستقبل

وتبرئهم من حولهم وقوتهم ، ويصيرون يقولون فى دعائهم فى سجودهم وغيره اللهم إن كان ما أطلعت عليه قد حق به التقدير الإلهى ، فاسترنا فيه بين الناس ، ولا تؤاخذنا فى الدنيا ، ولا فى الآخر صدقة من صدقاتك علينا ، إن لم يكن ذلك قد حق به التقدير الإلهى ، فنسألك من فضلك أن تزيله من شهودنا فإنه قد كدر علينا وقتنا فإن الله تعالى ربما أجاب دعاء العبد ، وستره ، وغفر له : أو محاه من ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة وستين لوحاً وإيضاح ذلك أن المخالفات بحكم التقديرالإلهى من غير ميل لشهوة أخف عقوبة ممن أتاها بالميل والشهوة .

وقد كان بعضهم يقول فى سجوده : اللهم إنك تعلم عجزى عن رد شىء من أقدارك النافذة فى فاغفر لى ما جنيته صدقة من صدقاتك على يا أرحم الراحمين إنه لا يغفر الذنوب إلا أن ، فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

• • •

ومن أخلاقهم: عدم إتعاب أحد سره في تنميق الألفاظ في تأليفه وكثرة تحرير ألفاظه إلا بنية صالحة.

لا ليمدحه الناس على ذلك ، ويقولوا والله ما قصر فلان فى هذا التأليف ، وأعمل ياأخى أن البشر ، ولو بالغ فى تحرير كتابه ، حتى حرره أشد تحرير ، فلا بد له غالبا من نسيان شرط للمسئلة فى بعض الأوقات . أو إطلاق فى محل التقييد قال تعالى : «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» .

كان الشيخ محى الدين بن العربى رضى الله عنه يقول :

وماصنفت كتابا قط عن تدبير ، ولا اختيارإنما كنت أكتب فى مؤلفى ما يلهمنى الله تعالى به .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

سبب كون كلام البشرلا يسلم من الخطأ أو التحريف أو التناقض عدم اليقظة الدائمة، فلذلك كان يقع فى الغفلة والسهو .

وكان سيدى أحمد الزاهد رضى الله عنه يقول :

من الأدب أن لا يطلب العبد عدم الاعتراض مطلقاً بل يهرب من مضاهات كلام الله تعالى ما أمكن ، وحتى يجد غيره فى كلامه مطعنا ، وتوريكا وايضاحا بشرح أوبحاشية ، ومن ترك زيادة التنميق ، والتحرير فى الألفاظ كان أبعد من الزهد والعجب والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: شهودهم في نفوسهم بعد مبالغتهم في الاجتهاد في العبادة ليلا ونهاراً أنهم قد استحقوا الخسف بهم لولا عفو الله تعالى وحلمه عليهم

وأنه تعالى لو خسف بهم الأرض بذنوبهم التى عملوها لكان ذلك فى محله فإنهم يعلمون أن ذنوبهم قد خرجت عن الحصر ، فلا تظن يا أخى أن أحداً من القوم يرى نفسه خيراً من أحد من المسلمين لماهم عليه من العبادة والزهد والورع ، وغير ذلك لأنهم يشهدون ما عليهم، ولايشهدون الذى لهم إلا على وجه الشكر لله تعالى فقط .

وإنما ختمنا الكتاب بهذا الخلق العظيم لأنه محط رحا ل الأولين والآخرين ، فما منهم أحد رفع حجابه إلا ورأى أنه قد استحق الخسف به والمسخ لصورته لسوء ما يتعاطاه من المعاصى والرذائل ، حتى كان السرى السقطى رضى الله عنه أول ما يقوم من النوم يمسح بيده على وجهه وتارة ينظر وجهه فى المرأة فقيل له فى ذلك فقال :

أخاف أن يكون الله تعالى قد مسخ صورتى .

وكان بشرالحافى رضى الله عنه يقول : ما من ولى لله تعالى إلا ؛ وهو يسأل العفو ، والصفح عنه ؛ وفى الحديث « لا يدخل أحد الجنة بعمله

قالوا : ولا أنت يارسول الله؟

قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » وأجمع العارفون كلهم على استحباب ختام جميع الأعمال بالاستغفار ، لقوله تعالى : « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » ثم إنهم مع استغفارهم ليلا ونهاراً لا يأمنون عذاب الله تعالى . فليس عند أحدهم طمأنينة بقبول الحق تعالى استغفارهم ، فقد يكون حال الواحد منهم مثل ما قال القائل :

إذا كان المحب قليل حظ فماحسناته إلا ذنوب

واعلم يا أخى أن كل من نظر منا إلى كثرة إحسان الله تعالى إليه ليلاً ونهاراً أو عدم معاجلته بالعقوبة كلما عصاه خاف من الله تعالى ضرورة ، وعد ذلك من الإستدراك . ووالله ثم والله لا اعتقد الآن أن أحداً من خلق الله تعالى أقل حياء منى ولا

أكثر ذنوبا وإن ذنوب الناس كلها أقرب إلى المغفرة من ذنوبى ، ومن ذاق هذا المشهد فى نفسه ذاب جسمه وقلبه من شدة خجله من الله تعالى ولو لم يكن إلا ما يقع من العبد من استحيائه من الناس حال معصيته دون أن يستحى من الله ، فلا تكاد ترى أحدا يعصى ربه بحضرة أحد من الخلق أبداً ، ثم إنه يجاهر ربه بالمعاصى ، وهو فى حضرته فى خلوته ، فعدم استحيائه من الله تعالى أشد من ذلك الذنب ، ولو أن إنسانا قال لنا : إنى أخاف من الناس أكثر من خوفى من الله تعالى أو استحى منهم أكثر مما استحى من الله تعالى ، لربما كفره العلماء بذلك من حيث الإستهانه الصوريه ، وكثيراً ما أشهد ذنوبى قد رجحت على ذنوب الأولين والآخرين ، فأقول فى سجودى :

اللهم إن كنت تعلم إنى صادق فى اعترافى أن ذنوبى أرجح من ذنوب الخلق أجمعين فاغفر لى .

وكثيراً ما أقف ساكتاً خجلانا من شدة الحياء ، من الله عز وجل وأمثل نفسى أننى واقف خلف كل عاص على وجه الأرض وأنه لعل الحق تعالى يغفر لأحد من العصاه فينالنى منه نصيب وكثيراً ما أجتنب الدعاء مع الناس خوفاً أن يرد دعاؤهم من أجلى.

وكان على هذا القدم مالك بن دينار رضى الله تعالى عنه كان لايخرج مع الناس للاستسقاء ، ويقول :

أخاف أن يمنعوا القطر لأجلى .

وكثيراً ما أنظر ، الجبال الراسيات وأرى جميع ذنوب الناس كالذر الطاير فى الهوى، وكثيراً ما أرى أن جميع البلايا التى تنزل على مصر وقراها إنما ذلك بسبب ذنوبى لا أتعقل غير ذلك ، فأهيم على الأرض كالطير المذبوح ، وأحس ببدنى ، كأنه ذائب من شدة النار ، والغم .

وقد درج الأكابر على هضم نفوسهم بين يدى الله عز وجل مع مبالغتهم فى الطاعات ، التى لا يستطيع غيرهم العمل بهالاسيما عند خوف انتقالهم من هذه الدار

أواخر أعمارهم ، ولكل وقت مقال يليق بـه وتأمل قول الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه :

إن الإشتغال بالعمل أفضل من صلاة النافلة ، واعتقد ذلك مقلدوه .

ثم إن لو سألت أحدهم عن مسئلة فى العلم ، وهو محتضر لثقل ذلك عليه بخلاف قول : لاإله إلا الله ، أو قول : استغفر الله مثلاً ، ولو أن إنسانا ترك القنوت أو التشهد الوارد فى السنة، وجعل بدله قراءة قل هو الله أحد لكان ذلك خلاف السنة مع أن قراءة قل هو الله أحد فى نفسها أفضل من ذلك الذكر ، وقد قالوا : الإشتغال بالمفضول مع حضور القلب أفضل من الاشتغال بالأفضل مع الملل ، وعدم الحضور قالوا : وهذا سبب تنوع الأعمال والأوراد ، ولولا ذلك لكان الإنسان إذاتلبس بالأفضل ، فليس له النزول إلى المفضول لما كان يحصل للعبد الملل من الأفضل ، ولم يجتمع له قلب فيه كان الإشتغال بالمفضول مع حضورالقلب أفضل ، وعلم مما قررناه أن خوف القوم من الله تعالى أن يخسف بهم الأرض أو مسخ صورتهم ليس هو من باب الملق بين يدى الله تعالى ، وإنما ذلك من باب العلم ، واليقين دون التواضع ، وهضم النفس ، فإن الله تعالى قد خسف الأرض بقوم كانت ذنوبهم أقل عدداً من ذنوبنا ، وأصغر جرماً منها .

وقد روى الإمام أحمد والبزار مرفوعاً « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما أمر لله تعالى الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وفى البخارى عن ابن عباس مرفوعاً « بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه إذ خسف الله تعالى به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، قال ابن عباس : وذاك بزقاق أبى لهب بمكة قال وممن رآه حين خسف به العباس رضى الله تعالى عنه.

وروى البخارى تعليقاً ، وأبو داود ، ليكونن من أمتى أقواماً يستحلون الخز والحرير يمسخ منهم قردة وخنازير إلى يوم القيامة» .

فانظر يا أخي إلى هذه الأمور التي خسف الله تعالى بأهلها الأرض تجد ذنوبك أعظم منها بيقين أو مثلها فكم نظر أحدنا إلى عطفيه لما لبس ثوباً جديداً أو مضربة جددة أو كم نظر إلى عمامته بعد أن عمها ، وكم أصلح طياتها لا لغرض شرعي ، وكم تبختر أحدنا في مشيه ، وكم رفع نفسه على أقرانه ، وكم بات أحدنا على محبة الدنيا التي هي رأس كل خطيئة وعلى الضحك واللعب ، واللهو وكم وكم وكم وما يتأمل ، ويعتبر منه .

وقد نقل ابن الجوزي أنه وقع في أيام الخليفة المطيع لله تعالى بمصر زلازل عظيمة، حتى خربت عدة بلاد وسكن الناس الضجر ، ووردت أيضا محاضر شرعية أن الله تعالى خسف بأرض الرق بمائة وخمسين قرية ، وصارت كلها ناراً وتقطعت الأرض ، وخرج منها دخان ، وقذفت الأرض جميع ما فيها حتى عظام الموتى انتهى.

ووقع ببلاد تبريز بالعجم زلزلة مات فيها تحت الهدم نحو مائة ألف إنسان ، ولبس الناس المسوح ، وصاروا يجئرون إلى الله تعالى .

ووقع ببلاد خرسان من السماء قطعة حديد نحو مائة قنطار ، ولها دوى أسقطت الحوامل .

وكذلك خسف الله تعالى ببعض جزاير من البحر بأهلها بنواحي عكا في أيام الملك الظاهر أبي الفتوحات بعد أن أمطرت السماء دما سبعة أيام ، ولم يزل يبلغنا الخسف ، والزلازل ، ببلاد ، وجبال في الروم ، والعراق إلى عصرنا هذا .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول :

لايستبعد وقوع الخسف به في هذا الزمان إلا كل جاهل بمؤخذات الله تعالى وبحكم الله تعالى .

قال : ومن إستبعد وقوع الخسف بمثله ، فليعرض على نفسه الكبائر والصغاير ، التي

جمعها العلماء ، وينظر : فإن رأى نفسه سالماً منها ، فذاك يصح له الأمان ، وإن كان وقع فى بعضها ، فقد إستحق الخسف به ، وهى كثيرة ولكن نذكر لك منها طرفاً صالحاً ، فنقول وبالله تعالى التوفيق .

من الأمور التى نهى الشارع عنها نهياً مغلظاً ، أو مخففاً نصا ، أو إستنباطاً : ترك فعل الصلاة فى وقتها ، وترك الزكاة بالكلية ، أو ناقصه ، والزنا، واللواط ، والفرار من الزحف بشرطه ، أكل الربا ومساير الحرام ، والغش فى المعاملات ، وترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر مع القدرة عليه . وشرب الخمر . ومن لم يسكر ، وشرب سائر المسكرات ، وشهادة الزور ، وقذف المحصنات ، والغلول من الأموال المشتركة بين المسلمين كبيت المال ، والزكاة . وقتل المعاهد ، وأكل أموال الناس بالباطل ، واليمين الغموس ، والحلف بمكة غير الإسلام كاذباً ، واعتياد الكذب ، وتحريه ، والقضا بغير علم وأكل الرشوة ، والحكم بغير ما أنزل الله ، والدياثه وهو المستحسن على أهله ، والقيادة ، وهو المستحسن على الأجنبى والتخنث فى الرجل ، والتذكير فى المرأة وهى أن يتشبه الرجل بالمرأة ، وعكسه ، وتحليل المرأة لزوجها لحديث « لعن الله المحلل والمحلل له » واللعب بالنرد والأوتار ، وسماعها « وعدم التنزه عن البول ، وترك غسل الجنابة ، حتى يخرج وقت الصلاة ، وكذلك ترك الوضوء أو التيمم ، وخلف الوعد والفجور عند المخاصمة والكذب فى غالب الأحوال لغير غرض شرعى وكتم العلم عن مستحقه ولو عدوا ، وتعليمه للدنيا أو الرياسه ، والمال ، وتعظيم دون العمل به ، وتعاطى مقدمات القتل إلا بطريق شرعى كان يصول لص على مالك، والغيبه إلا بطريق شرعى ، وأكل الغير بغير إذنه إلا فى مخمصة والقذف ، واليمين الفاجر وتقديم الصلاة عن وقتها ، وتأخير الصلاة عن وقتها كذلك ، وقطيعة الرحم بأن لا يصلها ، وعقوق الوالدين ، وهو مخالفتهما فيما طلباه من حقوقهما وعدم إكرامهما ، وكذلك عقوق الخالة والعم عند بعضهم ، وأكل مال اليتيم والتطفيف فى الكيل ، والوزن، والزرع والمرا بالباطل والجدال بغير علم وكتمان الشهادة .

والسعاية عند السلطان ، وسايرالولاه بما يضر المسلمين وإن كان صادقاً ، ومحاربة العلماء ، والصالحين وإحراق الحيوان بالنار ، ولو برغوثا ، وقملة ، ونظر الرجل إلى

عورة المرأة الأجنبية لغير حاجة شرعية ، وكلها عورة عليه إلا ماستثنى كنظره إلى الوجه والكفين إذا أراد خطبتها ، ونظر وجهها للشهادة ، وموضع الفصد ، والحجامة ، ونظر البالغ إلى ما بين السرة ، والركبة من المحارم ، ومن الأمة والرجل ، ونظره إلى الأمرد بشهوة ، وإلزام المسلم ، أو الذمى بمالا يلزمه من العقود ، والفسوخ ، والأقوال ، والأفعال ، وغير ذلك أو إيذاؤه بغير حق سواء أكان بقول أو فعل ، أو سكوت ، أو ترك قليله ، وكثيره ، أو بأسبابه ، ومقدماته ، أو المساعدة على ذلك ، أو الرضى به وترك الختان بعد البلوغ ، لرجل أو امرأة ، وترك رد السلام ، والمن ممايفعله من الخير ، ولو فى نفسه ، والتكذيب للناس بغير حق ، وسماع الغيبة من غير ردها ، والتجسس على الناس ، فى حديثهم الذى يسرونه عنه ، ولعن من لايستحق اللعن ، والجلوس وسط الحلقة ، وتصديق الكاهن ، والمنجم ، ونشوز المرأة ، وأن تفضى المرأة إلى الرجل ويفضى إليها ، ثم ينشر سرها وعكسه ، وسؤال المرأة زوجها الطلاق من غير ماباش وتغيير منار الأرض أى علامات الطريق . واستطالة المرء فى عرض أخيه المسلم ، والنياحة على الميت ، ولطم الخدود ؛ وشق الجيوب ، والدعاء بالويل والثبور عند المصيبة والطعن فى أنساب الناس ، وتبرى الإنسان من نسبه ، أو من والده وأن يتولى غير مواليه ، وهجر المسلم فوق ثلاثة أيام بغير طريق شرعى وتعذيب الحيوان بغير موجب وخصى عبد مطلقاً وتعذيبه وتكليفه بالخدمة الشاقة وغيرها بغير حق ظلما وبغيا وإن يشير الشخص إلى أخيه بحديدة أو سلام والغدر بالأمير والقيام عليه بالسيف، وتكفير المسلم بغيرحق .

وعدم الإنكار على المرأة إذا وصلت شعرها أو وشمت يدها . أو حددت معالم جسمها أو نشرت وجهها أى جردته ، حتى يحمر والحقوا به أقضى القضاة إلا بتأويل ، وتتبع عورات الناس ؛ وإيذائهم بغير ما اكتسبوا وترك الإنكار على الأمرا الذين يلبسون الحرير، ويستعملون أوانى الذهب والفضة فى أكل أو شرب أو إدهان ، أو إكتحال ، وغير ذلك ؛ ومحبة الإنسان أن يتمثل له الناس قياماً ، وهو جالس ، وسوء الجوار، حتى

يشكوا جاره منه ، وتسبب الإنسان فى سب والديه ، وإن لم يقع سب ، ومسابقة الإمام فى الركوع ، أو السجود ، والمرور بين يدى المصلى إلا إذا كان بينه وبينه سترة ، وعدم الإنكار على العبد إذا أبق من سيده فضلا عن إيواه عنده ، والسكوت على من يستحل مكة أوالمدينة النبوية ، أو يحدث فيما حدثا ، والشفاعة فى تعطيل حد من حدود الله تعالى ، والإحداث فى الدين ما ليس منه ، وسوء العشرة للملوك ، وعدم الإحسان إلى البهائم ، والتطفيف فى الكيل ، أو الوزن ، وإفساد المرأة على زوجها ، أو العبد على سيده ، وسوء الظن بعباد الله تعالى ، ووطء المرأة فى دبرها ، وعدم إنكارالمساحقة للنساء ، والمغاخذة للرجال ، واتخاذ القبور مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، والطواف بها كالكعبة ، واستلامها ، والصلاة إليها ، والكلمة التى تعظم مفسدتها ، وينتشر ضررها ، ولا يلقى صاحبها لها بالا ، والمخاصمة بالباطل مع علمه بأنه على باطل ، وبيع العبد بعد عتقه ، واستعمال العامل ، وعدم إعطاءه الأجرة بعد استيفاء العمل ، وبغض الأنصار ، والحيلة على إسقاط ما أوجب الله تعالى وإباحة ماحرم الله تعالى ، والتكذيب وتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ، والكلام بغير عذر شرعى ، والإمام يخطب والتغوط مستقبل القبلة ، أومستدبرها فى الصحراء ، والقبلة للصائم إن حركت شهوته ، والوصال فى الصوم على الأرجح والاستمنا بيده ، أو يد أجنبيه مثلا ، ومباشرة الأجنبية من غير جماع ، ووطء الرجعية قبل الرجعة ، والخلوة بالأجنبية . وعدم الإنكار على المرأة إذا سافرت بغير زواج ، ولا محرم ، ولا نسوة ثقاة ، والخطبة على خطبة أخيه إلا أن يأذن له ، وعدم الإنكار على من يتلقى الركبان ، أو على الحاضر إذا باع لبادى ، والاحتكاروالزيادة فى السلعة لا لرغبة فى شرائها بل يخدع غيره ، وبيع المعيب قبل بيانه ، وعدم الإنكار على من باع عبداً مسلماً لكفار . أو باعه مصحفا ، أو كتب علم شرعى ، وكشف العورة فى الخلوة لغير حاجة ، واتخاذ الكلب الذى لايحل اقتناؤه .

قال العلماء : وتصير الصغيرة كبيرة بالإصرار عليها ، واحتقارها فى عينه ، والتهاون بستر الله تعالى على صاحبها ؛ وحمله عليه ، ويكون فاعلها عالماً يقتدى به ؛ وتكفر الصغاير باجتناب الكبائر ؛ وبفعل الأعمال الصالحة .

قال بعضهم : ويتحقق الإصرار بأن يدخل على صاحب الذنب وقت صلاة أخرى ؛ ولم يتب ، فهذه جلة من المعاصى ؛ التى نهى الشارع عنها كل مكلف ذكرناه لك غير مبينين الصغاير من الكباير ؛ وإن كان الشارع ﷺ قد بين فالتزم كل ذلك أدب مع الشارع ﷺ ، وخوفاً عليك يأخى أن تفعل الذنب إذا قيل إنه غير كبير ومقصودنا سد الباب وعدم التعرض لهذه الذنوب فإن كل واحد منه يوجب أن الله تعالى يؤاخذ عليه بما شاء من العقوبات من خسف ومسخ أو مرض شديد .

ولاتنس يا أخى كباير الباطن فإن من كان فى قلبه مرض منها لم يلق الله تعالى بقلب سليم ؛ وذلك النفاق ؛ بأن يتظاهر بالتوبة ؛ وهو مصر على الذنب مثلا والكبر ؛ والفخر ؛ والخيلاء ؛ وسوء الظن ؛ والحسد والغل والحقد والبغى والرياء والبخل وحب السمعة والأعراض عن الأخلاق المحمدية وازدراء المسلمين والخوض فيما لاينبغى الخوض فيه مثل الخوض فى ذات الله تعالى ؛ والطمع فيما فى أيدى الناس والنظر إلى الأغنياء بعين التعظيم زيادة على الفقراء والاستهزاء بالفقراء أوبالمعرة إذا كانوا أهله ، والحرص على المال والتنافس فى الدنيا والمباهاة بها والتزين بما نهى الشرع عنه أو المداهنة ، وحب المدح بما لايفعله ، أولا يقصده من الطاعات ، والاشتغال بعيوب الخلق فى المجالس ، ونسيان الإنسان عيبه هو ، ونسيان نعمة الله تعالى عليه ، حتى لايكاد يشكره إلا قليلاً ، وترك الغيره لدين الله تعالى ، وعجب الإنسان بحسن عباداته ، وعقله ، وقلة شكر الله تعالى ؛ والاشمئزاز من تقدير الله تعالى ، من حيث القضا لا المقضى ؛ وظنه فى الله تعالى أنه لايغفره واتباع الأهواء المضلة عن طريق الله تعالى ، والإعراض عما يرضى الله تعالى والكنود عنه ، والخداع لله تعالى مطلقاً ، أو لخلقه بغيرطريق شرعى وحب الحياة الدنيا وزينتها لغير غرض شرعى صحيح وعدم قبول الحق من الناصح ، ولو عدوا له ، وفرح العبدبالمعاصى والطمأنينة إلى الإقامة فى الدنيا ، ونسيان ذكر اﷺ تعالى والدار الآخرة . وغضب الإنسان لحظ نفسه وانتصاره لها بالباطل ، وهو أن حقوق الله تعالى على قلبه وسخريته من عباد الله تعالى،

واحتقاره لهم بغير طريق شرعى ، ونحو ذلك فقد أجمع القوم على أن الحق تعالى يذم صاحب هذه المعاصى أكثر ممايذم صاحب المعاصى الظاهرة ، كالغصب والسرقة ، وشرب الخمر ، والزنا ، وذلك لعظم مفسدتها ومع ذلك فقد أصبحت هينة على الناس فى النصف الثانى من القرن العاشر حتى لايكاد أحدهم يستغفر منها فاعرض يا أخى هذه المعاصى على نفسك وإخوانك .

وإن الله تعالى لو خسف بأهل الأرض كلهم بسبب ذنب واحد لما كان ذلك غريباً .

وكان أخى الشيخ فضل الدين رحمه الله تعالى يقول :

والله لو أن ذنوبى قسمت على أهل الأرض كلهم لوسعتهم ، واستحقوا بها الخسف والهلاك ، فكيف حال من هو حاملها وحده ، ولكن سبحان من رحمته سبقت غضبه انتهى .

ويؤيد ذلك أن رسول الله ﷺ صلى على امرأة بعد مارجمها فى الزنا .

فقالوا: أتصلى عليها يارسول الله وقد زنت .

فقال ﷺ : لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم .

وقال أيضاً فى ماعز : لقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم أى فكما أن توبة شخص واحد لو قسمت تسع أهل الأرض ، فكذلك تكون معصيته لو قسمت على أهل الأرض قياسا على توبته .

وقد قال بعض العارفين من رحمة الله بعباده أنه إذا عصى أحد منهم أن لايخصه وحده بالبلاء بل يوزعه على الخلايق رحمة به ، ولولا ذلك لمحق الله تعالى أثره بذنب واحد .

قال : ومن هنا قالوا :

الرحمة خاصة والبلا عام ، فإنه إذا توزع على الناس أصاب كل واحد نصيب ضعيف لايكاد يحس به ، وذلك من باب ارتباط المؤمن بالمؤمن ، وتحمله همومه كما

فى الحديث مرفوعاً « من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم وفى لفظ آخر ، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» انتهى .

وفى الحديث أيضاً « إذا كثر الخبث عم العذاب الصالح والصالح» انتهى

ثم اعلم يا أخى أن شهود العبد أن كل بلا نزل على بلده أواقليمه فإنما هو بسبب ذنوبه هو فقط ليس هو لكل فقير إنماهو الأفراد من الفقرا ، وقد أدركت من هؤلاء الأفراد جماعة كشيخنا شيخ الإسلام زكريا وسيد على الضرير النبتيتى وتلميذه سيد على البحيرى وسيد على الخواص وسيدى أفضل الدين رضى الله تعالى عنهم كما مر فى هذا الكتاب مرارا فكان كل واحد من هؤلاء إذا نزل بالمسلمين بلا يصير يبكى ويفحص فى الأرض كالطير المذبوح ، ويقول : يارب لا تؤاخذ هؤلاء الخلايق بذنوبى، وصاحب هذا المشهد لا تصير له رأس يرفعها بين الناس لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة من شدة تواضعه ، ورؤيته نقايصه .

وقد من الله تعالى على برايحه من هذا المقام ، ولله الحمد ، حتى صرت لا أقدر على أحد يقوم لى ولا يقبل يدى ولا على حضور وليمة يجتمع فيها الناس ، وإن جرى القدرالإلهى بحضورى أصير بين يدى الناس أحس بنفسى كالذى كبسوه بفاحشة أوجرسوه فى أزقة بلده ، حتى إنى تركت حضور ولايم الناس ، وموالد الأشياخ ، ولايكاد يعذرنى فى تخلفى عن ذلك إلا من ذاق مذاقى ، وشهد مشهدى ، فلا أتعقل الآن بلاء ينزل على أهل مصر ، وقرآها إلا بواسطة ذنوبى وحدها ، وإن ذنوب الناس كلها مغفورة إتهاما لنفسى ، وحسن ظنى بغيرى ، وكثيرا مايغلى رأسى ودماغى من شدة النار ، فأصير أحس بدهن رأسى سائلا على خدى ، وأموت موتات ، ولايشعر بى جليسى ، ومن يشهده هذا المشهد لا يستبعد وقوع الخسف به ، والمسخ .

وقد قدمنا فى هذا الكتاب أن سيدى عبد العزيز عبدالعزيز الديرينى رحمه الله تعالى كان يقول لمن طلب منه كرامة وهل تطلب يا ولدى كرامة لعبد العزيز أعظم من أن الله تعالى يمسك به الأرض، ولا يخسفها به، وقد استحق الخسف به من سنين.

وتقدم أيضا فى هذا المبحث أن مالك بن دينار كان لا يخرج مع الناس للاستسقاء، ويقول: أخاف أن يمنعوا القطر بسبب خروجى معهم.

وكذلك تقدم هنالك عن سفيان الثورى رضى الله تعالى عنه أنه كان إذا مرت به سحابة وهو يملى الحديث يسكت ويقول اصبروا حتى تمر هذه السحابة.

فإنى أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها.

وليكن ذلك آخر كتاب الاخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية جعله الله تعالى خالصا لوجهه الكريم، وأسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يديم علينا التخلق بما فيه.

حتى نلقاه، وأن يستر فضايحنا فى الدارين، ولا يؤاخذنا بما انطوت عليه سرايرنا وأن ينبت لنا الزرع، ويدر لنا الضرع وينزل علينا من بركات السماء، ويلطف بنا فى سائر حركاتنا وسكناتنا إنه ولى ذلك، والقادر عليه آمين اللهم آمين، ورحم الله تعالى من نظر فى هذه الأخلاق، ودعى لمؤلفها، وكاتبها بالعفو عنه، فإنها كلها أخلاق محمدية لاتكاد ترى منها خلقا واحدا فى رسالة أحد من أهل هذا الزمان، لما أشرنا إليه فى خطبة الكتاب، ومن تخلق بها صار من صدور أهل السنة والجماعة فى عصره، ووجب الإنقياد له، والاقتدا به.

فاياك يا أخى أن يقوم بك الحسد، وتنحجب بحجاب المعاصرة فلا تنتفع بشىء من هذا الكتاب فيفوتك خير الدارين كما يقع فيه كثير من أصحاب الأنفس الردية، فإن نفع الانسان كله انما يكون من أهل عصره، وأما الأموات فقد صار ظهرهم فى البرزخ إلى الدنيا ووجوهم للآخرة، وخرجوا عن التكليف بهداية الناس، كما هو مشاهد وقد سمعت من أحد أهل الدعاوى انه قال: ما بقى على وجه الأرض الآن أحد من أهل السنة، والجماعة فقالوا له: ولا فلان قال: ولا فلان، فاطلعه بعض الإخوان على كراس من هذا الكتاب فرجع عن قوله بحمد الله.

وقال: إن لم يكن صاحب هذه الاخلاق سنيا فما بقى على وجه الأرض سنى انتهى والحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﷺ على الفاتح الخاتم سيدنا ومولانا محمد وعلى ساير الانبيا والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين عدد ذكر الذاكرين وسهو الغافلين وكان الفراغ منه فى يوم الاثنين المبارك أول شهر محرم أول سنة عشرين وألف احسن الله عاقبتها آمين آمين آمين.

فهرس محتويات الكتاب

الباب الثامن فى جملة أخرى من الأخلاق

الباب التاسع فى جملة أخرى من الأخلاق

رقم الإيداع : ١٠٥٤٥ / ٢٠٠٣ م
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-5260-31-0

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة. ت: ٤٨٢٧٨٥١